

بسم الله وبعد: تم الرفع بحمد الله من طرف

بن عيسى قرمزلي متخرج من جامعة المدية

التخصص الأول: إعلام آلي

التخصص الثاني: حفظ الممتلكات الثقافية

بنفس الجامعة.

1983/08/28 **بالمدية – الجزائر-**

الجنسية: الجزائرية

للتواصل وطلب المذكرات مجانا وبدون مقابل

هاتف : +213(0)771.08.79.69

بريدي إلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

صفحتي على الفيسبوك: https://www.facebook.com/theses.dz

جروبي: /https://www.facebook.com/groups/Theses.dz

سكايب:benaissa20082

أطلب نسخة كاملة من مكتبتي الإلكترونية لكل التخصصات

1000 جيقا بـ **30.000** دج

دعوة صالحة بظهر الغيب فربما يصلك ملفي وأنا في التراب ....

أن يعفو عنا وأن يدخلنا جنته وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل..

ملاحظة: أي طالب أو باحث يضع نسخ لصق لكامل المذكرة ثم يزعم أن المذكرة له فحسبنا الله وسوف يسأل يوم القيامة وما هدفنا إلا النفع حيث كان لا أن نتبنى أعمال الغير والله الموفق وهو نعم المولى ونعم الوكيل....

صل على النبي – سبحان الله وبحمدك سبحان الله العظيم-

بن عيسى قرمزلي 2014

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الثاني

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون

دار نشر المعرفة
الرباط

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الثاني

ترجمة عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون

دار نشر المعرفة
للنشر والتوزيع

طبع هذا الكتاب بمطابع المعارف الجديدة

1408 ـ 1409 هـ

1988 ـ 1989 م

رقم الايداع القانوني 117 ـ 1984

الكتاب الثالث

يتضمن الأقاليم، والمدن، والقرى لمملكة مراكش، مع السكان الذين في الجبال، وكذا أهم الانتصارات الحربية التي وقعت فيها وأشياء أخرى جديرة بالذكر.

* * *

الفصل الأول

امتداد مملكة مراكش

تشتمل مملكة مراكش على الجزء الغربي الواقع في أقصى بلاد البربر ويحدها من جهة الغروب المحيط الغربي، ووادي سوس جنوباً، وجبل الأطلس شرقاً، ونهر أم الربيع شمالاً. وتدخل في هذه الدائرة سبعة أقاليم، هي : حاحا، وسوس، وجزولة، ومراكش، ودكالة، وهسكورة، وتادلا. وتمتد على طول الساحل، من منازل ماسة ومصب نهر سوس، الذي كان القدامى يسمونه سوريكَة، إلى مدينة أزمور، حيث يصب نهر أم الربيع(1) في البحر، مكوناً المصب الذي يسميه العصريون مصب نهر أزمور. وينحدر هذا النهر من جبل الاطلس الكبير، الذي يسمى دادس، ويفصل هذه المملكة عن مملكة فاس.

الفصل الثاني

إقليم حاحا

إقليم حاحا هو الجزء الواقع في أقصى غرب مملكة مراكش، ولذلك فهو أول ما سنصفه، حيث إن ترتيبها يمتد من الغرب إلى الشرق. هذا الإقليم يحتل جميع رأس الأطلس الكبير، الذي يسميه الأفارقة تبقال(2) ويحده من الغرب والشمال المحيط، ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير المتاخمة لإقليم سوس، ومن الشرق نهر أسيف المال(3) الذي يفصله عن إقليم مراكش. ينبع هذا النهر من جبل هنتاتة، ثم يسيل في السهل إلى أن يلتقي بنهر تانسيفت، الذي يفصل هذا الإقليم عن إقليم دكالة. وتوجد في هذه المساحة كلها جبال عظيمة وعرة شاهقة جداً، وصخور مغطاة بالأشجار، تنبع فيها جداول تسقى بها أودية صغيرة. وفي جميع هذه الأماكن قطعان كثيرة من الماعز، والحمير لخدمة السكان، لكن غيرها قليل بسبب وعورة الجبال. ينمو فيها الشعير بكثرة، لكن القمح لا ينبت فيها أصلاً. وتجارة النحل بها رائجة، كتجارة الماعز، بسبب الكمية الهائلة من الشمع التي

---

(1) كان يسمى قديماً كوفة.

(2) كتب في الترجمة الفرنسية إيتواكال.

(3) ترجماه حرفياً، ولو أن أسيف بالبربرية يعني النهر، فيكون فيه تكرار.

تستخرج منها وتباع مع الجلود بآسفي، حيث ياتون من أوربا لشرائها. وسكان هذا الإقليم يحبون الحرب، لكنهم شرسون يعيشون بدون رادع ولا شرطة، ولا يزرعون كروماً ولا بساتين، وإن كان بالإمكان أن توجد منها أصناف جيدة في الشعاب، بسبب العيون والجداول التي تسيل فيها. كما أنهم لا يغرسون شجر الزيتون، ويستخرج الزيت(4) الذي يستهلكونه من نواة بعض الأثمار التي تحملها أشجار شائكة تسمى أركَان. وهذا الثمر بحجم البرقوق الغليظ، وأحياناً أكبر، وليس له سوى نواة مغطاة بقشرة، تلمع في الليل كالنجم، عندما تكون ناضجة، تاكل الماعز هذا الثمر ثم يجمع الأفارقة النواة من زريباتها لأنها صلبة لا تستطيع الماعز أن تكسرها فتفرزها كاملة تماماً، ويصنعون من لوزها الزيت الذي ذكرت والذي له رائحة كريهة وطعم رديء.

لا يعتز هؤلاء القوم بالتعلم، ولا يعرف أحد منهم القراءة باستثناء بعض الفقهاء، ولا يوجد عندهم أطباء، ولا جراحون، ولا صيدليون، ولا بقالون، ويتداوون من الأمراض بالحمية، أو بكي العضو المصاب، فليس هناك إذن سوى بعض الحلاقين لختن الأطفال وحلق الشعر. ورغم كونهم جميعاً مسلمين، فإنهم لا يعرفون مَن هو محمد (عليه السلام) وما هي شريعته، لكنهم يعملون ويقولون دائماً ما يسمعون من أقوال الفقهاء وما يشاهدون من أعمالهم. ولباسهم العادي نوع من ثياب الصوف الغير الملبد يلتوون بها، وهي لا تقل خشونة عن غطاء الفراش إلا بقليل، لكنهم يضعون على جلدهم إزاراً من نفس الثوب يغطيهم من الحزام إلى نصف الساق، ولا يضعون على رؤوسهم قبعات ولا طاقيات وإنما يلفون عليها عمامات من صوف عرضها نحو نصف قدم، يلفونها خمس مرات أو ست حول رؤوسهم، كعمائم، وأجملها ما كان من قماش القطن المُعْلَم بالحمرة، مع جديلات تتدلى من الجانبين على شكل هدب أو قزعة. ويتميز الفقهاء بقلنسوات حمر تُحمل إليهم من طليطلة وقرطبة، أو بعمائم صغيرة من القماش الغليظ. لا يرتدون القميص أبدا، لانعدام الكتان عندهم، وإن استطاع أحدهم أن يكسبه فإنهم يستحسنونه كثيراً، إذ لا يملكه إلا النبلاء الذين سبق لهم أن عاشوا في بلاط الملك، أو النساء الظريفات اللائي يستوردنه من مراكش أو آسفي. كما أنهم يرتدون شبه قميص من نسيج مصنوع من صوف خشن(5). ويحلق الشبان رؤوسهم

(4) هو زيت أركَان.
(5) هكيفة (؟).

ولحاهم إلى أن يتزوجوا، وعندئذ يُعفون شعر اللحية ويتركون ذؤابة في أعلى رأسهم، سيعرف بها المسلمون يوم القيامة[6] حسب قول العرب. وأما سكان المدن، فلباسهم أكثر تحضراً إذ يرتدون صدريات من نسيج الملف الملون ذات أذيال عريضة، ونصف أكمام ذات أزرار كبيرة من قُدام، يلبسون فوقها شبه قميص أكثر رشاقة شيئاً ما.

وللنساء سترات أو عباءات، يسمينها (حُيَّاك) وهي شبيهة بالسترات التي يرتديها الأتراك أو المغاربة فوق ثيابهم، ولو أنها أقل لطافة، وشبه قمصان من القماش طويلة وعريضة جدا. وتتدثر النساء النبيلات داخل المنازل بقماش مخطط بالحرير مربوط في صدورهن بمشبك من الفضة أو الصفر، على غرار الإبزيمات التي تجعل على صدر الحصان، لكنهن يحملن في أذرعهن أساور كبيرة من فضة، وخلاخل ضخمة فوق كعاب أرجلهن. واللواتي لا يستطعن أن يقتنين هذه الحُلِي من فضة، يتحلين بها من حديد أو صفر، كما أنهن يعلقن بآذانهن ثلاثة أقراط أو أربعة من ذهب أو فضة أو حديد، كل واحدة حسب وضعيتها، تنظم فيها حبات من زجاج ملون، مبثوثة فيها لآلىء صغيرة.

والفُرُش العادية للنبلاء هي تلك البُسط ذات الشعر الطويل التي ترى هنا وتاتي من افريقيا، يضعونها تحتهم بعد أن يطووها عدة طيات، تاركين قسماً كبيراً منها متدلياً يستعملونه كغطاء، ويتخذون (الحياك) عوض أغطية السرير. وفي رأس السرير وسادات طويلة ضيقة مصنوعة من صوف أو من قماش غليظ. وليس للعامة سرير سوى حصير من أسل، أو جلود الضأن أو الماعز، ويتغطون بقمصان أو سترات.

النساء جميلات، بشراتهن ناعمة بيضاء، والرجال أقوياء شديدو الغيرة، يلجؤون إلى العنف والبطش إذا رأو منهن خيانة، لأنهن ميالات إلى الغرام بطبعهن. وطعامهم المعتاد في الغالب دقيق الشعير الذي يعالجونه بكيفيتين : يصنع منه بعضهم رغيفاً يخبز في الفرن، كما في أوربا، ويصنع منه آخرون فطائر خفيفة جدا تطهى بالنار على آنية من خزف أو على بقايا جرار مكسورة، فتؤكل هكذا ساخنة بالسمن أو العسل، أو بذلك الزيت الذي ذكرنا، وأحياناً بلحوم الماعز المطبوخة المقطعة، إذ ليس عندهم بقر، والغنم نادر جداً يصعب رعيه في هذه الجبال. ولهم

---

(6) أو فقط يجب أن يعرفوا بها.

أطعمة أخرى عادية أكثر، كالعصيدة التي تصنع بقطعة من العجين المطبوخ بالماء والملح، يصب هذا الماء وهذا العجين المطبوخ في إناء من خزف ثم يجعل ثقب في الوسط ويملأ سمناً أو زيتاً، ذلك هو المرق الذي تغمس فيه الأطراف، ثم يشرب عندما يكون الجميع قد أكل. وهناك أيضاً الحلوى[7] المصنوعة من دقيق الشعير المطبوخ في اللبن أو الزبد الطري، يأكلونها بنفس الكيفية. لكن الطعام الذي يتناوله الأفارقة والعرب بكثرة هو الكسكسو. ياكلون لحم الماعز أو النعجة أكثر مما ياكلون لحم الضأن أو البقر، لأنهم يقولون إنه مريء أكثر، لكنني أظن أن سبب ذلك هو أنه أرخص ثمناً. ولهم كمية كبيرة من البيض، فالدجاجة لا تساوي إلا ثمانية أو عشرة مرابطي[8]، ومجموعة اثنتي عشر بيضة تساوي حوالي نصف ذلك الثمن. وإذا أرادوا الأكل، جلسوا على الأرض، نساء ورجالاً. وإذا وضعت القصعة وسطهم، أخذ كل واحد منها بيده مما يليه أعني اليد اليمنى، معتقدين أن الأكل باليسرى خطيئة قاتلة لأنهم يستعملونها عندما يستنجون، ولا يسمح لهم دينهم أن ياكلوا بالملاعق[9] وإذا ما انتهوا من الأكل لحسوا أصابعهم، وفركوا أيديهم الواحدة بالأخرى، أو حول السواعد، وهكذا ينشفون أيديهم، لأنهم لا يستعملون سماطات ولا فوطاً ولا حتى مناديل. وعندما يغسلون أيديهم لا يمسحونها، وإنما يتركونها في الهواء حتى تجف. وهم غلاظ لدرجة أنهم، رغم الجداول الكثيرة التي تسيل من الجبال إلى الشعاب ويمكنهم أن يجعلوا عليها طاحونات، يكلفون نساءهم بطحن ما يحتاجون إليه يومياً من الدقيق بسواعدهن في أرحاء صغيرة من حجر تُدار بيد واحدة. وليس عندهم صابون، ولا يعرفون ما هو، لكنهم يغسلون ثيابهم بنوع من النبات يسمونه غاسول[10].

هذا الإقليم كله كثير السكان، يحتوي على قرى كبيرة ومدن ضخمة، يعمُرها قوم مشاغبون، كانوا يتحاربون دائماً قبل قيام إمبراطورية الشرفاء، لأنهم يعيشون حسب أهوائهم، لا يراعون فيما بينهم شريعة ولا عدالة، غير قابلين تحمُّل أية سلطة تقمعهم. سلاحهم سلاح قوم متوحشين، يحملون في أيديهم ثلاثة سهام

---

(7) نوع من العجين المبرم، لا أعلم هل يكون ما يسمى في شامبانيا «بتورتولي» وهو عجين خفيف جدا مطبوخ في الماء أو اللبن.

(8) يساوي المرابطي نحو (اللويلي) الواحد.

(9) من المعلوم أن الاسلام لا يحرم هذا (مترجم).

(10) الغاسول طين معروف يعالج ويعطر فتغسل به النساء شعورهن. والنبات الذي تغسل به الثياب والصوف يدعى «تيغشت» (مترجم).

أو أربعة، رؤوسها فولاذية حادة قاطعة، وخناجر مقوسة على شكل المنجل، تقطع من الداخل، وأسنّتها في غاية الدقة والحدة. ويتخذون مقلاعين أو ثلاثة يتوشحون بها، ولا يعرفون البندقيات والقذافات الا منذ بضع سنوات، عندما كانوا مضطرين إلى مساعدة الشريف في حروبه. وقد تدرب بعضهم عليها، وامتلكوا شيئاً منها، لكن بترتيب سيِّىء. كما أن لهم قليلا من الخيل، مع أنها قصيرة، فهي خفيفة لدرجة أنها تتسلق الجبال كالماعز ولو كانت غير مصفحة. يحمل فرسانهم رماحا مع درق صغيرة من جلد، وسكاكين على شكل خناجر، ولهم سروج ذات ركابات قصيرة[11] لعدم وجود غيرها في إفريقيا كلها، يحاربون وهو متفرقون، يهجم كل واحد حيثما شاء، ويلتحقون دائماً بأعلى الجبال وأصعب المسالك، فيقذفون منها بالحجر والحصى التي تزعج الصاعدين وتضايقهم، يهاجمون بصرخات هائلة، بحيث يُظن أنهم كثيرو العدد، ويفزع أحياناً مَن لا يعرفونهم. وحيث إن البلاد وعرة صعبة، وليس لهم بغال ولا بقر، فإنهم يحرثون أراضيهم بالحمير التي هي قوية وإن كانت قصيرة. وتوجد في جميع الاقليم كمية وافرة من وحش الأيل، واليحمور والخنزير البري، وأكبر الأرانب في بلاد البربر كلها. ذلك كل ما يمكن أن يقال باختصار عن أخلاق أهل حاحا وطرق معيشتهم، وسائر شعوب بلاد البربر الذين يعيشون في الجبال بصفة عامة، لأن الفرق بينهم قليل، وإن كان منهم من هم أكثر توحشاً، كما سنرى ذلك في الوصف الذي سنخصصه لهم.

الفصل الثالث

تَدْنِسْتْ

أهم مدينة بإقليم حاحا، أسسها الأفارقة القدامى من قبيلة مصمودة، وهي مسيدة في مد حل سهل جميل ينيف عدد مساكنها على ثلاثة آلاف[12]، أسوارها من خشب وآجر ملصق بالجص يجعلها حواجز قوية جداً، والدور مبنية بنفس الطريقة، ويكتنفها نهر لا يبعد منبعه كثيراً من هناك، ضفافه مليئة بالأشجار المثمرة وبكل أنواع الخضر. معظم السكان رعاة وحارثون، يذهبون إلى العمل في الحقول ويسوقون إليها قطعان مواشيهم. وهناك أيضاً بعض الحرفيين كالإسكافيين،

(11) وهي سروج تطرز

(12) ذكر الحسن الوزان (98:1) أن في تدنست خمسمائة كانون فأكثر (مترجم).

والخياطين، والحدادين، والنجارين وعدد من الصاغة اليهود، والتجار الذين لا يبيعون سوى أقمشة خشنة مصنوعة في البلاد، أو يتجرون في أقمشة مستوردة من آسفي، حيث ياتي بها النصارى فيستبدلون بها الشمع والجلود. إن تحضّر هذه المدينة أقل مما هو عليه في سائر مدن بلاد البربر، إذ لا توجد بها حمامات، ولا فنادق، ولا مستشفيات، ولا مدارس. فإذا جاء غريب إليها ولم يكن له صديق يستضيفه اتصل بالحاكم والأعيان فسلموا له بالقرعة بطاقة لإيوائه وإطعامه مجاناً عند أحد أعيان البلد، فيمتثل هذا الأخير عن طيب خاطر، لأنهم كرماء جداً وخاصة تجاه الأجانب، ويعتبرون من الإهانة أن يُقدَّم لهم مالٌ في مقابل ذلك. وهناك ملجأ للفقراء من أبناء السبيل يطعمون فيه يومياً من صدقات الخواص. وفي وسط المدينة مسجد كبير بناه يعقوب بن يوسف، ملك المغرب، من المرابطين[13] لكن هناك أيضاً مساجد أخرى أصغر لها كلّها مواردها الخاصة، سواء لصيانة البناء أو (لأجور) الفقهاء. وتوجد أكثر من مائتي دار لليهود في حي منعزل، يعيشون فيه وفق شريعتهم، ويؤدون للعامل مثقالا عن كل رأس، فضلا عن الجبايات الاستثنائية التي يؤدي بموجبها كل واحد أكثر مما يؤديه عشرة من أغنى سكان المدينة، ومع ذلك فلا يسمح لهم بأن يملكوا منازل ولا تراثاً ولا أي عقار آخر مهما كان. وقد دمرت هذه المدينة عدة مرات، وخاصة عندما استولى الموحدون على المملكة المغربية، وحاصرها عبد المومن لأنها لما امتنعت عن الاستسلام ودخلها عنوة أوقع بها حتى أصبحت لا تصلح بعد إلا كمأوى للوحوش. ولكن نظراً لكون البلاد خصبة ولطيفة، أُعيد فوراً بناؤها وتعميرها. وأضحت منذ أربعين سنة مشهورة جدا بفضل الشرفاء. لأنها إحدى المدن الأولى التي نصرتهم. وسنذكر في الوقت المناسب، كيف استولى عليها ملك البرتغال واحتفظ بها بعض الوقت، وكيف استرجعها الشرفاء[14].

وفي سنة 1514 عندما استولى الشريف محمد وابناه اللذان كانا ملكين بالمنطقة الطنجية على إقليم حاحا، اتخذ الأب مدينة تدنيست دار مقام له، وشيد بها قصراً فخماً محاطاً بعدة بساتين وخزانات الماء للسقي وكان هذا القصر بمثابة حصنه ضد نصارى آسفي وأزمور، الذين كانوا يجوبون كل هذه الأقاليم بقيادة

(13) يعقوب بن يوسف من ملوك الموحدين لا المرابطين ولم يعين الحسن الوزان باني الجامع وإنما قال إنه «عتيق شيد في الوقت الذي كانت البلاد خاضعة لسلطة ملوك مراكش». (مترجم).

(14) كما أن نونيو فرنانديس دي إطايدي، قائد جيش ملك البرتغال، أخذ مدينة تدنست من أيدي المغاربة.

رئيس افريقي[15] من أتباع ملك البرتغال، كان تحت سيطرته جلّ أعراب الغرب والأفارقة الأهلون، وربما كان معه خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. وكان عدوا لدودا للشرفاء وصديقاً حميماً لفارس برتغالي يحكم أسفي ويدعى نونيو فيرنانديس ديطايدي، من أشجع قادة بلاد البربر في وقته. وعندما علم هذان القائدان بوجود الشريف في مدينة تدنست مع ابنيه، ونخبة من جنوده، عزما على محاصرته أو قتاله إذا خرج منها حتى يقضيا على تأثيره وسمعته. فصحبا معهما أربعمائة فارس مسيحي، وثلاثة آلاف فارس مغربي، وثمانمائة راجل من أعراب دكالة، وزحفا على تدنست، لكن ذلك لم يقع بطريقة سرية حتى لا يعلم الشريف بها، فخرج فوراً للقائهما في أربعة آلاف فارس. ولما كان في سهل مكشوف، على بعد أربعة فراسخ من تدنست وثمانية عشر فرسخاً من آسفي، التقى بالطليعة التي كان يقودها الرئيس الافريقي الآنف الذكر، فحاربه ولو أن الوقت كان متأخراً، لكنه غُلب قبل أن يصل نونيو فيرناديس مع مؤخرة الجيش، وطورد حتى أظلم الليل وتحمل خسارة عظيمة. وتدخل المسيحيون فاستولوا على أكثر من مائتي أسير، وقتل في المعركة ثمانمائة رجل من الأعداء، ولم يفقد القائد الإفريقي سوى مائة واثني عشر رجلا، ولم يهلك من النصارى أحد. كانت الغنيمة ضخمة تشتمل على أزيد من ثلاثمائة ألف رأس من الماشية الكبيرة (البقر) والماشية الصغيرة (الغنم) مع كمية من الخيل والإبل والبغال بعد أن فرّ الشريف بسرعة مع ابنيه. وعلى إثر هذا الانتصار، تقدم المنتصرون إلى مدينة تدنست واستولوا عليها بدون مقاومة، لأن الشريف لم يكن مستعداً لتحمل الحصار، ولأن معظم السكان انسحبوا مثله إلى الجبال. فاقام بها نونيو فرينانديس بعض الوقت، وهو يتفاوض مع أهل الناحية الذين كانوا ياتون مستسلمين اليه. وفي هذه الاثناء، وصل دوم يوحنا دي مينيسيس حاكم أزمور في ستمائة فارس وألف راجل ليشارك في العملية، فنهبوا جميعا أراضي المغاربة الذين رفضوا التفاوض، وتراجعوا هم وحلفاؤهم، بعد أن أسروا وقتلوا عدداً كبيراً من المغاربة. وهكذا فإن تدنست وعدة أماكن من الناحية بقيت في يد ملك البرتغال حتى أعد الشريف جيشاً أغار به على المدينة فأصبحت منذ ذلك الوقت في ملكه أو في ملك ابنيه. كما هي عليه اليوم.

---

(15) هو يحيى بن تعفوفت.

الفصل الرابع

أكَوبيـل

هي مدينة صغيرة، لكنها محصنة، أسسها وعمّرها أفارقة من قبيلة مصمودة، تقع على جبل عال في موقع ملائم جدا، لكنها لا تحتوي إلا على ثلاثمائة دار مبنية بطريقة غير مناسبة. وفي السفح واد كبير توجد به الأراضي الصالحة للحرث، مع حدائق وبساتين تسقى من ماء نهر صغير، تكونه عيون تنحدر من الجبل. وقد ارتبطت هذه المدينة دائماً بمصير تدنست، فملكها الشريف العجوز الذي لم يتخذ قط سوى لقب أمير حاحا، وبعد أن استولى حاكم أسفي على مدينة تدنست كما ذكرناه آنفاً أرسل لمهاجمتها لوبي باريكًا مع مائة وعشرين من المسلحين المسيحيين، وثمانمائة من حلفائه المغاربة، فأخذها بعد أن تسورها أثناء الهجيرة، صعد هو الأول على السور على طول رمحه، ثم تناول درعه وشهر سيفه وفتح الطريق للآخرين، وهو يقتل أو يجرح طائفة من الذين تصدوا له. وأخيراً وبفضل شجاعته التي أثارت إعجاب أصحابه، والفزع الذي أثاره في الأعداء، هزم المغاربة واستولى المسيحيون على الحصن. وأسروا نحو مائة وعشرين رجلا، بينما لاذ الباقون بالفرار أثناء الهجوم، فأحرق الدور حتى اشتعلت المدينة كلها، وعاد منتصراً إلى أسفي حاملا معه غنيمة كبيرة. وبقيت المدينة خالية من السكان لمدّة طويلة خوفاً من المسيحيين إلى أن عمرها الشرفاء من جديد وأقاموا بها حامية.

الفصل الخامس

الكَيـل

هذه المدينة محتطا بالاسوار، ومشيدة مثل السابقة على جبل وعر المسالك، تجاوره جبال أخرى أكثر وعورة، ولذلك أسستها نفس القبائل. يسيل في السفح جدولان صغيران ينحدران من الجبال المجاورة، وتوجد بالأراضي المحيطة بالمدينة بساتين فيها أشجار التين والجوز والكرم. يسكنها فلاحون مع قوم آخرين من البدو يربّون عدداً لا يحصى من الماعز، ويكسبون منها أكبر ثرواتهم. ولما كان نونيو فرينانديس بأسفي، كانت مدينة الكَيل في ملك مغربي[16] من قبيلة مصمودة كان

(16) سيدي برجمعة.

حليفا لملك البرتغال عدواً للشرفاء. لكن هؤلاء أثّروا على السكان قائلين لهم إنه لا ينبغي لهم أن يعترفوا بالإمارة لأحد أتباع ملك البرتغال الذي يحمي المسيحيين ويساعدهم ضد المسلمين، إلى أن سلّموا إليهم المدينة، فاتخذوها مقراً لهم منذ مدة من الزمان، إذ كانوا غير آمنين في مدينة تدنست، مجنّدين رجالهم على الحدود لمقاومة المسيحيين الذين كانوا يغيرون على الأراضي المجاورة بصحبة حلفائهم، فكانوا يخربون أحياناً المدن والقرى التابعة لرعايا ملك البرتغال. ولما كان نونيو فيرنانديس يتلقى يومياً شكايات سواء من المسيحيين أو من حلفائهم، وعلم بوجود الشرفاء في الحصن، عزم على محاصرته(17) فخرج من أسفي مصحوباً بالأمراء والأعراب المذكورين(18) لكن خطته لم تفلح، لأنه بعد أن قطع أكثر من نصف الطريق، عاد إلى أسفي، إذ أخبر بأن الشريف أحمد الذي بلغه خبر قدومه خرج من المدينة مع جميع محاربيه تاركاً بها أخاه محمداً مع عشرين فارساً فقط. بعد أن أمرهم بأن ينسحبوا إلى سوس عند اقتراب المسيحيين منهم، إلا أنه عندما كان راجعاً آسفاً لكونه لم يستطع القيام بأي شيء، أرسل لوبي باريكًا للهجوم على مائة بير، وهي مدينة صغيرة بجانب الطريق، التجأ إليها عدد كبير من أهل البلاد والأعراب التابعين للشرفاء. هذه المدينة مشيدة في مكان ملائم وعر، فيه عدة منازل منحوتة في الصخر. وحيث ان المغاربة دافعوا جيداً عن أنفسهم فإن لوبي باريكًا لم يحرز على نفس الانتصار كذي قبل، واضطر الى الانسحاب متكبداً خسارة كبيرة، راجعاً إلى نونيو فرناندس في اضطراب، وعادا بمشقة عظيمة إلى أسفي، بسبب ما تكبداه من الخسائر. وبعد ثلاثة أيام علم نونيو فيرنانديس برجوع الشريف إلى الكَيل بجيوشه، فأمر لوبي باريكًا بأن يذهب لمحاصرته فيها، برفقة بعض حلفائه المقيمين بأسفي، ومائة وثلاثين من المسلحين المسيحيين، وأمره أيضاً بأن يستولي في طريقه على المدينة التي غلب فيها قبل حين. وأعطاه فضلاً عن هؤلاء القوم، مائة من الرماة الراجلين البرتغاليين، وثمانمائة فارس من الغربية، وأربعمائة جندي وبعض الأهالي من أتباع سيدي بوجمعة. ولما صارت هذه الجنود كلها على مقربة من مائة بير، عسكر بها معتزماً مداهمتها عند حلول المساء، لكن فيما هو يستشير رجاله حول وسائل الهجوم، سمع الحرس ضجيجاً أحدثه قوم يفرون من أعلى الجبل إلى أسفله، فأمر فوراً بالركوب على الخيل بواسطة البوق،

---

17) سنة 1516.

18) يحيى بن تعفوفت وسيدي بوجمعة.

وذهب مع المسلحين المسيحيين للاطلاع على جلية الأمر تاركاً باقي الجيش لسيدي بوجمعة، ولما وصل إلى سفح الجبل تبين له أنهم من رعايا الشريف قدموا ليتفاوضوا مع رهط يحيى، واضطروا الى الفرار لأن مائة من فرسان الشريف كانوا يطاردونهم لينهبوهم، فحمل لوبي باريكا حيناً على هؤلاء الفرسان وهزمهم بعد قتال طويل، وطاردهم مسافة تزيد على ثلاثة فراسخ الى الكَيل ممعناً في قتلهم وجرحهم. لكن أهل المدينة حين رأوهم قادمين هكذا في اضطراب، خرجوا بكثرة لنجدتهم، فداروا معهم، وطوقوا من كانوا قريبين منهم وقتلوا منهم خمسة عشر في الحين وأخذ لوبي باريكا أسيرا بعد أن جرح ومات فرسه تحته، ولولا وجود بعض المغاربة المتحالفين مع المسيحيين وإغاثتهم إياهم لَمُزِّقوا عن آخرهم. وقد قام لوبي ذلك اليوم بأمور خارقة للعادة، إذ رغم أنه جُرح وأسر، نزع الرمح من يد أحد المغاربة الذين كانوا يسوقونه فقتله وأجلى الآخرين، ثم امتطى فرس المغربي ولاذ بالفرار بمعونة بعض رجاله الذين أسرعوا إليه، فجمع شتاتهم وانضم إلى بوجمعة. وفي يوم الغد قصد الكَيل مع جميع رجاله، دون أن يخاطر بمهاجمة مائة بير، ونهب في طريقه بعض الضيعات الصغيرة، ثم أمر بنصب أخبئته على مقربة من المدينة. وانتظر هنالك ثلاثة أيام ليرى هل سيخرج الشرفاء حتى يتحقق من عدد محاربيهم. وأخيرا خرج منهم مائتا فارس فحاربهم إلى أن أرغموا على الانسحاب إلى المدينة وإغلاق الأبواب بعد أن فقدوا ثمانية من كبرائهم، وخمسة وعشرين فارساً، دون أن يقتل أي مسيحي. وفي اليوم التالي تقدم لوبي فعسكر

قرب الحصن لدرجة أنه لم يبق بينهما سوى جبل صغير وجدول ماء. وبما أنه كان عازماً على شن الهجوم، اكتشف الحرس لواء مع بعض الفرسان منحدرين من الجبل، الأمر الذي هرب من أجله حلفاء لوبي ظانّين أنه الشريف. لكن البرتغاليين، وهم بعيدون كل البعد عن أن يقلدوهم، امتطوا خيولهم جميعا، وقاتلوا هؤلاء الفرسان إلى أن حال الليل بينهم. ولما رأى المسيحيون أن حلفاءهم تركوهم، أخذوا الخيام التي خلفوها من شدة الفزع، وانسحبوا بكل ما استطاعوا إلى أسفي. وقد خجل حلفاؤهم كثيراً عندما علموا أن ذلك اللواء إنما هو جماعة من مائة فارس كانوا يصحبون مولاي إدريس الهنتاتي أمير أمماي، وليس الشريف كما توهموا ذلك. وهذه الروايات وإن كانت قليلة الأهمية، فإنه لا يفوتني أن أحكيها حتى أسلي القارىء، وأبين السلطة التي كانت للبرتغاليين إذ ذاك في بلاد البربر، وما كانوا قادرين على إنجازه لو تابعوا غزو إفريقيا.

الفصل السادس

تكوليت

أسس هذه المدينة كذلك رجال من مصمودة، وهي تضم أكثر من ألف وخمسمائة ساكن.[19] وتقع على منحدر جبل، لها ميناء صغير قريب جدا، وقصر عتيق يسمى أكوز[20] حيث يوجد مصب الديور[21] الذي يجعله بطليموس على سبع درجات وعشرين دقيقة طولا، وإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا. ليست المدينة محصنة، والأسوار إنما هي من تراب وقد أحدث فيها الزمان ثلمات عديدة. والدور مبنية بنفس الكيفية ودون أي تنسيق. وهناك بعض المباني القديمة المشيدة بالحجر والجير، ومسجد كبير في غاية الجمال من الخارج ومن الداخل، يجتمع فيه معظم الشعب. خرب هذه المدينة عبد المومن الموحدي وبقيت زمنا طويلا خالية. وفي عام الف وخمسمائة وأربعة عشر، نهبها نونيو فيرنانديس مع يحيى بن تعفوفت، وأرسل إلى البرتغال عدداً كبيراً من الرقيق ذكوراً وإناثاً. ثم عمرها الشرفاء من جديد بعد ذلك، وردوا إليها السكان الذين كانوا هربوا إلى الجبال، وقوماً آخرين من شتى الأماكن، ويمر بقربها نهر يحمل نفس الاسم، ويصب في البحر قرب قصر أكوز وضفتاه مكسوتان بالبساتين والحدائق حيث تكثر أشجار الجوز، والتين والخوخ، والكروم ذات العنب الغليظ الذي قشره في غاية الدقة وطعمه بالغ الجودة. وتوجد في المدينة آبار ماؤها معين بارد ممتاز جداً لدرجة أنهم يفضلونه على ماء النهر[22]. يعامل السكان الغرباءَ معاملة جد حسنة، وهم أغنى من سكان تدنست، لأن البلاد أفضل، وفيها سهول خصبة جدا أسفل المدينة. ويوجد عدد كثير من خلايا النحل على طول منحدر الجبل، يستخرجون منها كمية وافرة من الشمع يبيعونه لتجار أوربا. وفي أحد جوانب المدينة بيعة لليهود يحيط بها أزيد من مائتي دار للتجار والصناع. وهم أغنى من يهود تدنست ويعاملون أحسن منهم. وقلعة المدينة عبارة عن برج عتيق ملتصق بالسور في المكان الأعلى حيث يشرف على المدينة كلها. وهناك، كما هو الشأن في المسجد

(19) عند الحسن الوزان (100:1) فيها نحو ألف كانون (مترجم).
(20) هي الصويرة القديمة. انظر كتاب الحسن الوزان، (100:1)، الهامش 4. (مترجم).
(21) يقصد نهر تنسيفت (مترجم).
(22) يجدر القول بأنهم في هذه البلاد يهتمون بماء النهر أكثر مما يهتم به هنا.

أيضاً، كان السكان يلجأون عند حدوث الأخطار، وكأنهم يكونون في مأمن ضد القتال باليد.

الفصل السابع
أدِيكِيس (أو حديكيس)

هي مدينة صغيرة محاطة بأسوار شاهقة وأبراج مشيدة بالحير والدبش، يقال إنها أسست من طرف أهل البلاد. وتقع في سهل، على بعد ثلاثة فراسخ[23] من تكَوليت جنوباً، وتضم ما يزيد عن ألف دار[24] جيدة البناء، يمر في وسطها نهر صغير ينحدر من تلك الجبال وتحفه بعض الاشجار المثمرة والكروم. ويوجد بأحد أطراف المدينة حي لليهود يشتمل على أزيد من مائة وخمسين داراً، سواء منهم التجار والصناع، وهم أحرار في معتقدهم.

يقام بهذه المدينة كل عام سوق يدوم خمسة عشر يوماً ويقصده جميع الجبليين من الضواحي حاملين معهم الصوف، والسمن، والزيت[25] والشمع والأقمشة الخشنة وأشياء أخرى مماثلة.

ليس في الإقليم مكان فيه نساء أكثر جمالاً وبياضاً وأناقة، أو أكثر ظرفاً ودلالا مما في أدِيكيس. لكنهن يحببن الأجانب كثيراً، وأزواجهن غيورون جداً. ومع أنهم نظيفون حسب طريقتهم، وأن بعضهم يسيرون ممتطين الخيول، إلا أنهم قساة جداً، يتقاتلون لأتفه سبب. احتل نونيو فيرنانديس داطايدي مع يحيى هذه المدينة عنوة سنة **1514**، وأرسل أجمل نساء وجدن منذ عهد طويل إماءً إلى البرتغال، وعمَّرها الشرفاء من بعد ذلك. وسكانها الآن أغنياء شرفاء، لأنهم لم يعودوا مضايقين بغارات المسيحيين منذ أن غادر ملك البرتغال مدينة أسفي، يحرثون ويحصدون بكل اطمئنان. والدليل هو أنه لا وجود لقلعة ولا لأي مبنى حصين في المدينة بكاملها.

---

(23) ثمانية أميال عند الحسن الوزان.
(24) فيها نحو 700 كانون حسب الوزان (مترجم).
(25) زيت أركان.

الفصل الثامن

إدَاوْ إزْكْواغَن

مدينة حصينة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة أدِيكيس نحو الجنوب. أسسها أهل البلاد، وهي قديمة جداً، وموقعها ملائم حيث شيدت على جبل شاهق يمر في سفحه جدول يصلح كثيراً لفلاحة البساتين، لكن السكان لا يهتمون بذلك لشدة توحشهم. يقتاتون من دقيق الشعير، وزيت أركَان ولحم الماعز. يمشي الرجال والنساء بدون نعال، وبأرجلهم شقوق تصل حتى العظم، يتحاربون دائماً مع جيرانهم ويقتتلون لأتفه الأسباب، بدون قانون ولا عدالة، كمن لا يخشى الله ولا يحب أخاه وإن ادّعوا بأنهم مسلمون، لكن ليس هناك قضاة ولا فقهاء في هذا الجبل كله، حيث توجد بعض القرى المأهولة بنفس الرهط من الناس. تجارتهم عبارة عن العسل والشمع يبيعونها للتجار المسيحيين، وقد كانوا لا يعرفون قيمة الشمع قبل مجيء البرتغاليين فيرمونه. لا شرف لهم ولا معرفة بالإحسان، ولا يفكرون إلا في الانتقام من أعدائهم وقتلهم غدراً إن أمكنهم ذلك، وهي الطريقة المفضلة عندهم. وأخيراً فإنهم أكثر سكان بلاد البربر كلها قسوة وخشونة، ومن لم يقتل اثني عشر أو خمسة عشر رجلاً لا يعتبر شجاعاً. ونظراً لوعورة جبلهم الذي لا يسلك الإنسان فيه إلا راجلاً فإنهم كانوا لا يخشون غارات البرتغاليين. ولذلك ليس لهم خيل ولا بقر ولا ماشية أخرى غير الماعز، وعدد محاربيهم يفوق ثلاثة آلاف، ولو أن المدينة لا تضم أكثر من خمسمائة دار.(26)

الفصل التاسع

تِيُّـوت(27)

مدينة قديمة ذات أسوار من آجر، أسسها أهل البلاد. وقد شيدت في سهل تكتنفه جبال على بعد أربعة فراسخ(28) من إدَاوْإزْكْوَاغَن إلى جهة الغرب.

---

(26) لم يكن بها في عهد الوزان سوى 400 كانون. (مترجم).
(27) كتب في النص الفرنسي: تيشويت.
(28) عشرة أميال عند الوزان.

سكانها أغنياء، ولهم أراض كثيرة يزرعونها شعيراً ويربون فيها الماشية. وتحيط بالمدينة عدة بساتين تنتج كمية كبيرة من الخوخ، والجوز، والتين الذي يجفف. ويعامل السكانُ الأجانبَ معاملة في غاية اللياقة، وتعيش بين ظهرانهم ثلاثون عائلة من الصناع اليهود الذين يتمتعون بكامل الحرية. واستولى البرتغاليون على هذه المدينة سنة 1514 فبعد تدنست ومجيء دوم يوحنا مينيسيس حاكم أزمور، التحقوا بمشقة عظيمة بقمة جبل في غاية الوعورة، حتى لا يبصرهم السكان، ومن هناك انقضوا على المدينة، لكن مسيرتهم لم تكن من السرية بحيث لا يشعر بها السكان الذين خرجوا فارين بنسائهم وأولادهم، ومع ذلك أُسر منهم أكثر من خمسين أثناء فرارهم. وأوقد المسيحيون النار في المدينة بعد أن نهبوها، وعادوا إلى الدواوير التي يسكنها يحيى بن تعفوفت، ثم أعيد تعمير المدينة على الفور. ويعيش فيها الناس في هناء أكثر منذ أن غادر البرتغاليون أسفي.

الفصل العاشر

تَسَكْدَلْت

هذه المدينة قديمة جداً، شيَّدها أهل البلاد في رأس جبل شاهق على بعد أربعة فراسخ(29) من تِيُّوت. تكتنفها صخرة وعرة تجعلها منيعة، وتضم أكثر من ألف كانون، ويمر بسفحها نهر تيوت الذي تنمو على ضفافه أشجار عديدة، ومنبع النهر غير بعيد. السكان أغنياء يملكون خيولاً قصيرة لا تصفح أبداً، وتتسلق هذه الصخور كأنها أيول. وقد دافعوا عن أنفسهم بشجاعة الأعرابَ والمسيحيين، أثناء حروب البرتغاليين، بفضل موقعهم الحصين لكن تَعِلَّة الدين جعلتهم يخضعون للشريف الذي اهتم بهم كثيراً بسبب قوة الحصن وشجاعتهم. وهم متحضرون جداً، يقتبلون الأجانب اقتبالا حسناً، ويخدمونهم ويعاملونهم معاملة جيدة. في وسط المدينة مسجد جميل يعمره عدد كثير من الفقهاء الذين يقضون بين الناس في أمور الدنيا والدين. لكن هناك عامل من قبل الشريف يحرس هذا المكان كمفتاح للبلاد، وهو مكلف بجباية موارد الإقليم والسهر على القضاء الذي هو من اختصاصه. يحصل على كمية كبيرة من الشعير، والثمار، والزيت(30) وهنا عدد

---

(29) على بعد 12 ميلا عند الوزان.

(30) زيت المرجان أو أركان.

وفير من الماعز، لكن المواشي الاخرى قليلة لأنه يصعب عليهم رعيها في تلك الصخور الوعرة.

الفصل الحادي عشر
تاكْتَسَّة

هي كذلك مدينة قديمة من بناء الأفارقة من قبيلة مصمودة، تقع على قمة جبل وعر لِدَرَجة أنه لا يمكن الصعود إليه إلا بالدوران في مسلك ضيق وعال، حتى إن الصعود يكون في بعض الأماكن بواسطة درج منحوتة. يبعد هذا الحصن عن السابق بخمسة فراسخ(31) في اتجاه الجنوب، وليس فيه ماء سوى نهر يمر في سفح الجبل ويبدو كأنه قريب من المدينة، مع أنها تبعد عنه بأزيد من فرسخين. تنزل إليه النساء وكأنهن يستعملن سلماً ليغسلن ويستقين الماء، لأنها درج صغيرة حفرت بالمطرقة. وهؤلاء السكان أعظم أهل البلاد أَنَفَةً وأكثرُهم سرقةً، لا يعبأون بالمحالفة مع جيرانهم، إذ لا يمكن التسلق إليهم، ما دامت قطعانهم ومزارعهم في أعلى الجبل. وبالتالي فهم قوم محاربون أشداء يقيمون في حصن منيع، ليس لهم خيول لأنهم لا يحتاجون إليها. وكان الشريف يقول إنهم أذاقوه الأمرين أكثر من سائر سكان البلاد، لأنهم كانوا إذ ذاك أحراراً يفرضون الإتاوة على الأعراب المارين من هنالك، أو يسلبونهم.

الفصل الثاني عشر
أيت داود

هذه المدينة قديمة كالسالفتين، شيدها أهل البلاد، على بعد خمسة فراسخ(32) من تاكَتسة في اتجاه الجنوب. تقع في سهل جميل على رأس جبل وعر جدا، ويحيط بها نهران وصخرتان وعرتان. وهناك عدة عيون ماؤها في غاية البرودة،

(31) على بعد 14 ميلا عند الوران.
(32) على نعد 15 ميلا عند الوزان.

ينحدر من صخور مكسوة بغابة من شجر الجوز، وأشجار مثمرة أخرى. يقول بعض المؤلفين الأفارقة إن مؤسسها يهودي من قبيلة يهودا، عندما كان دين موسى منتشرا بإفريقيا، واستمر بها إلى مجيء العرب الذين أرغموها على اعتناق الإسلام. وهناك مدارس للصغار والكبار مليئة بفقهاء عارفين بأمور شريعتهم، يقصدها الناس من كل ناحية لفض نزاعاتهم والقيام بالاتصالات والمعاملات. إذ هناك قضاة ومحامون، ووكلاء، وعدول موثقون. أرضها هزيلة جداً، لا تنتج القمح أبداً، بحيث إنهم يعيشون بدقيق الشعير ولحم الماعز. وإذا قدم لهم الضأن ودقيق البر اعتبروا ذلك وليمة. النساء هناك جميلات بيض ناعمات البشرة، الأمر الذي جعل أزواجهن غيورين جدا. والرجال يقظون أقوياء، يتعاملون بصراحة وسخاء. يمتطي الفقهاء متون الخيل التي يأتون بها من مكان آخر لعدم وجودها في البلاد. وهناك تجار وصناع من اليهود يقطنون في حي منعزل، وبعض الصباغين للأقمشة المصنوعة في البلاد. يعامل الشرفاء هذه المدينة معاملة جيدة لأنها انحازت إليهم في بداية أمرهم، وساعدت على إقامة دولتهم.

الفصل الثالث عشر

قليعة المريدين

تقع على بعد ستة فراسخ[33] من المدينة التي تحدثنا عنها منذ قليل، في اتجاه الشمال، وهي عبارة عن حصن منيع على جبل شاهق تحيط به جبال أخرى، ويصعد إليه عبر مسلك ضيق وعر جداً، ينطلق وهو يدور، ولا منفذ آخر له من جهة الشمال. وإنما ينفذون إليه من الجنوب عبر جبل تَسكَدَلت الذي يمتد إلى مسافة نصف فرسخ. شيَّد هذه المدينة منذ مائة سنة مغربي من تسكَدلت يدعى عمرواً[34]. فاشتهر بتدينه إلى أن استولى بمساعدة شيعته على الإقليم تقريباً، وبنى هذه المدينة لتكون ملجأ لهم ينطلقون منها للقيام بدعوتهم الجديدة، لكن امرأته قتلته في السنة الثانية عشرة، لأنها وجدته يداعب بنتاً كانت لها من زوجها الأول. وعند انتشار هذا الخبر، أخذ الشعب السلاح، وقتل جميع مريديه باعتبارهم

---

(33) على بعد 18 ميلا عند الوزان. (مترجم)

(34) انظر الحسن الوزان، وصف افريقيا ــ الطبعة الثانية ــ (107:1) والهامش 11 (مترجم).

مخادعين. ولم يبق سوى أحد أحفاده الذي تحصن في هذه المدينة وحماها ضد كل سكان الإقليم الذين حاصروها طوال سنة، وبذلك بقي يحكمها. وخلفه في ذلك أحد أبنائه من بعده إلى أن فتح الشرفاء هذا الإقليم، فتفاوض معهم هذا الحفيد وسلمها إليهم، لأنه كان من المستحيل إرغامه، نظراً لمناعة المدينة ووعورة الصخور المحيطة بها. سكانها بربر من أهل البلاد يملكون كمية وافرة من الماعز، وقليلا من غيرها من المواشي، بحيث إن شغلهم الشاغل هو نهب المارة، الأمر الذي من أجله كان أمير المنطقة يستأجر بعض الرماة والفرسان. وكان سلوكهم هذا مثار غضب سائر الأفارقة والأعراب، إلى حدٍّ أنهم كانوا يقتلونهم ويحرقونهم حيث وجدوهم، ويجتاحون ضواحي مدينتهم حتى إنهم لم يكونوا يتجرأون على الزراعة ولا على رعي قطعانهم في السهل. يوجد ضريح هذا الماكر داخل المدينة حيث أسس حفيده موسماً ما زال العمل جارياً به حتى الآن، ولشدة جهالة هؤلاء القوم، يتعبدون في ضريح رجل قُتل من أجل رذائله ويقدسون رفاته.

الفصل الرابع عشر

إيفيلينْغيفيل

موقع هذه المدينة ملائم، على بعد فرسخين(35) من أيت داود في اتجاه الجنوب، شيدها أهل البلاد على قمة جبل وعر بحيث لا يسلك إليها على دابة إلا بمشقة عظمت. يوجد فيها كثير من الصناع، حتى إن جميع أفارقة هذه الجبال يأتون إليها لشراء الأحذية والأقفال وسائر ما يحتاجون إليه. هؤلاء القوم شجعان يعتزون ببطولتهم، ولذلك كانوا يعيشون أحراراً قبل أن يستولي الشرفاء على الإقليم، ويحاربون باستمرار الأعراب الذين كانوا تابعين لملك البرتغال فلا يستفيدون منه شيئاً، لا سيما عندما كانوا يشنون الغارات على جبلهم الشاهق الذي يستطيع رجل واحد أن يحارب فيه ألف رجل في بعض المسالك. وتُصنع بها عدة أوان من خشب في غاية الحسن تباع في شتى الأماكن، وتصلح سواء للشرب أو لسائر الأشغال المنزلية. ذلك لأنها تروق جدا النبلاء المسلمين الذين لا يشربون في أقداح من الذهب أو الفضة أو الزجاج لأنها محرمة عليهم. وفي الجبل كله كمية وافرة من خلايا النحل يستخرج منها كثير من العسل والشمع فيباع للتجار المسيحيين.

(35) تبعد نحو 6 أميال عند الوزان. (مترجم)

الفصل الخامس عشر

تَفَتْنَة

هذه مدينة صغيرة تقع على شاطىء المحيط، في طرف الرأس الذي يكوِّنه جبل الاطلس. وهي على بعد أربعة عشر فرسخاً(36) من المدينة السابقة إلى جهة الغرب، ولها ميناء جيد ترسو فيه المراكب الصغيرة وينزل إليه التجار الأوربيون. كان يدعى قديماً ميناء هرقل، ويضعه بطليموس في الدرجة السابعة وثلاثين دقيقة طولاً، والدرجة الثلاثين عرضاً. أسس هذه المدينة أهل البلاد، وأسوارها وبروجها من الآجر والحجر المنحوت. يجري قريباً منها نهر يصب في البحر، وهناك تحتمي المراكب أثناء هبوب العواصف في البحر. وهي مطوقة بجبال شاهقة، ترعى فيها قطعان الماشية، ويزرع الشعير. كانت في القديم جمهورية بها جمرك يأخذ عشرة في المائة عن كل البضائع الداخلة والخارجة منها، وتشحن منها كمية من الشمع، والجلود، والنيلة، لصباغة الصوف، فكان في ذلك وفاء بحاجيات الحامية. وهي الآن في قبضة الشريف الذي نصب بها عاملا مع بعض رماة البنادق. والسكان شديدو بياض البشرة يكنون صداقة كبيرة للأجانب ويكرمونهم أكثر من أهل البلاد، ويسكنونهم في منازل ويعاملونهم بسخاء، ولا تضم المدينة أكثر من سبعمائة كانون. وفيها كمية وافرة من الماعز ومحلات كثيرة لخلايا النحل.

الفصل السادس عشر

أماكور

تضم هذه المدينة ثمانمائة كانون، فقد شيدها أفارقة قدامى من قبيلة مصمودة، على جبل عال وعر جدا، تحيط به صخرتان عظيمتان ونهران كبيران. يوجد بها حصن طبيعي حوله عدة قرى، ويسكنها نفس القوم، لأن الجبل في غاية الامتداد. يحصد السكان كمية وفيرة من الشعير، ويملكون عددا كبيرا من الماعز وبعض الخيل، لكنهم قوم متوحشون سفهاء، وهم أول من استمالهم الشرفاء

---

(36) على بعد 40 ميلا عند الوزان.(مترجم)

بتأنيباتهم، بحيث إنهم أقاموا بها منازلهم مدة من الزمان لكنهم تعرضوا فيها لنهب المسيحيين، كما سنذكر ذلك. وفعلا فإن نونيو فرنانديس حاكم أسفي، عندما علم، عام ألف وخمسمائة، أن الشريف مولاي أحمد مقيم هنالك منذ مدة مع جنوده، أمر خليفته لوبي باريكا، الذي تعاهد منذ قليل هو وحاكم أزمور مع بعض الأعراب والبربر الذين أصبحوا من أتباع ملك البرتغال. أقول أمره بمهاجمة هذا الحصن وبأن يحاول التمكن من هذا المغربي الذي يقلق البلاد. ونظراً لقلة الجند الذين كانوا مع لوبي باريكا فإنه أوفد إليه ابن أخيه مينديس سيرفيرا مع بعض الفرسان والرجالة، فنهض بهذا الجند مع أعراب بادية موراديس، ليس معه في المجموع سوى مائتين من فرسان البرتغاليين، وخمسين من الرماة الراجلين، مع ألف فارس من الأعراب بقيادة شيخهم سيدي بوجمعة فخرج من الدواوير، أو مساكن أولاد الشياظمة، ووصل الى تازمور وما وراءها إلى قرية فسيفيز، على بعد فرسخ واحد من تفتنة، وثمانية فراسخ من قصر سانت ـــ كروا براس إكير. لكنه وجد هذه الأماكن خالية من السكان، فذهب للتخييم أمام اماكور حيث وصل قبل ساعتين من حلول الليل. فخرج منها بعض الفرسان الذين ناوشوا أعراب سيدي بوجمعة وحاربوا ببسالة حتى إن لوبي باريكا اضطر إلى نجدتهم، فأرغم المغاربة على الانسحاب. ولشدة تخوفهم من النصارى هموا بمغادرة المدينة والفرار إلى الجبال، لولا أن الشريف دافع عنها معرضاً حياته للخطر فكان ذلك سبباً في هلاكهم. إذ أنه ما إن خرج ليلا مع جنوده حتى تبعه جلهم، لأنهم رأوا أنفسهم بدون وسائل الدفاع. ولما علم لوبي باريكا بذلك أسرع اليهم، وهزم بعض الفرسان الذين صادفهم ومائتي راجل كان الشريف قد تركهم لمساعدته على الانسحاب، وطارد الهاربين. وفي هذه الأثناء، عندما شاهد السكان انتصار المسيحيين ارتموا إلى أسفل الاسوار ليلوذوا بالفرار، وانحدروا عبر بعض الهوات الواقعة جهة الجنوب، لكن بتسرع واضطراب حتى هلك منهم أزيد من ثمانمائة شخص. فتسلق المسيحيون السور على رماحهم، وبعد أن هزموا نحو مائتي مقاتل كانوا قد تصدوا لهم، نهبوا المدينة وحصلوا على غنيمة كبيرة، إذ كان بها كل أمتعة السكان، وعُثر يوم الغد في هذه الهوات التي التي فر منها القوم على عدة نساء وأطفال معلقين بالأشجار وبين الصخور، وعدد كبير من الخيول الميتة وهي مسرجة وملجمة، قذف بها العدو عمداً لئلا يستعملها المسيحيون. ونجا الشريف ذلك اليوم بفضل خفة فرس مغربي كان يمتطيه. وكان يقول، وهو ملك مراكش، إنه لم يجد نفسه قط في خطر أكبر من ذلك، وإن

المسيحيين لو اقتفوا أثره بدلا من أن يدخلوا المدينة لهلك، لأنه ضل بين صخور في واد مكث به أربع ساعات، واضطر في الأخير إلى الخروج من حيث دخل. وفي هذه الأثناء، مر بعض المغاربة المتحالفين مع البرتغاليين، فتبعوه على مسافة تفوق فرسخا كبيرا، لكن فرسه كان سريعا يستحيل اللحاق به، إلا بالتوغل بين الصخور.

وقد استولى المسيحيون على أربعمائة أسير من بينهم عم الشريف الذي كان خليفة له بالمدينة، وأخذوا له طبوله مع مائة وأربعة وثمانين فرساً مسرجة ملجمة، وعدد من الأثاث؛ فحمل المسيحيون كل ذلك معهم إلى أسفي، وكانت حصة حلفائهم المغاربة من الغنيمة عدداً من قطعان الماشية مع كمية وافرة من المواد الغذائية(37) ودام نهب المدينة ثلاثة أيام، عاد بعدها المغاربة إلى مساكنهم، والمسيحيون الى أسفي وأزمور، حيث اقتبلوا بحفاوة كبيرة. ونظرا لعدم وجود أية مدينة أخرى في هذا الإقليم غير التي ذكرناها، فسنتحدث الآن عن المساكن الموجودة في الجبال.

الفصل السابع عشر

إدَاوْعَاقَل

يعيش معظم بربر هذا الاقليم في الجبال، ويتخذون بها منازلهم. فالجبل الأول الواقع في أقصى الغرب هو الذي يسميه بطليموس الاطلس الكبير، والأفارقة إدَا وْعاقل(38) باسمَ القبائل التي تقطنه. ينعطف هذا الجبل الى المحيط، ويمتد شرقاً حتى جبل إيغيلينغيغيل، وتفصل جوانبه الجنوبية هذا الاقليم عن إقليم سوس، وتقع على رأس هذا الجبل مدينة تفتنة، وميناء هرقل الى جهة الشمال.

الجبل كله مأهول بسكان كثيرين، والدور مبنية بالخشب والطوب، ومسقفة بالأردواز أو بغصون الشجر. وهناك عدة قرى، بعضها كبيرة جدا ولو أن السكان يرحلون عنها في معظم السنة مع قطعانهم بحثاً عن الكلإ، آخذين معهم آنذاك مساكن من خشب وأسل كالتي عند الأفارقة الأقدمين. وإذا أرادوا أن يقيموا بعض الوقت في نفس المكان حشوها وغطوها بالتبن أو ورق الشجر.

---

(37) قمح، وشعير، وسمن، وعسل الخ.

(38) أو أيت عاقل.

ومورِدُهُم الرئيسي من قطعان الماعز التي يملكون منها كمية وافرة، ويستخرجون من أرضهم كثيراً من الشعير والعسل، والشمع الذي يبيعونه للمسيحيين التجار في أسفي وتفتنة ورأس أكَير، لا يرتدي هؤلاء القوم أي لباس مخيط، فليس من بينهم رجل ولا امرأة يحسن الخياطة، وليس عندهم قضاة ولا فقهاء ولا مساجد، ولا يهتمون كثيراً بالمسائل الروحية. إنهم متوحشون على العموم، وبخلاء وقساة، وأعداء ألداء للأجانب. عدد مقاتليهم عشرون ألفا بالضبط، يبلون البلاء الحسن في هذه الجبال التي يعرفون جميع مضايقها وسبلها، لكنهم فيما عدا ذلك أفقر جنود إفريقيا كلها. فإذا أراد الشريف أن يقوم بعملية حربية، صحب معه الكثير منهم يوزعهم في مجموعات لسحب المدافع وحمل المؤن والعتاد. الشيء الذي يحسنونه جيدا لتعودهم على القيام بأعمال شاقة. وتفضي مدينة أكَوبل التي نهبت كما أسلفنا من طرف البرتغاليين. إلى هذا الجبل الذي ليس له حصن حصين غيرها.

الفصل الثامن عشر

تائزيرا

هذا الجبل يتاخم السابق، ويمتد على مسافة اثنين وعشرين فرسخاً في اتجاه الشرق، الى جبل نفيفة الذي يشكل حدود مراكش، ويفصل جانبه الجنوبي هذا الإقليم عن إقليم سوس مثل الآخر الذي تحدثنا عنه آنفاً. وتمر الطريق الرئيسية من مراكش إلى تارودانت بين هذين الجبلين، ولها مضيق في مكان يدعى مسقرطان، منيع الموقع جدا ومشهور بالمعركة التي دارت فيه بين الشريفين، عندما أخذ مولاي مَحمد أخاه البكر وابن أخيه، كما شرحنا ذلك في الكتاب الثاني من هذا المؤلف.

يتخذ بربر هذا الجبل مساكن لهم في أماكن عالية وعرة ولكنها ــ على كبرها ــ مسورة، يربُّون بعض الخيول لأن البلاد يكثر فيها الشعير والدُّخن الذي هو بمثابة الفند. تنبع من هذه الجبال عدة عيون تسقي اراضي الشعاب، وتسيل بجهة الشمال، إلى نهر صفاي الذي يسمى شيشاوة، باسم المدينة التي يمر بها، عندما يصل إلى السهل حيث يصب في نهر تانسيفت.

هؤلاء البربر أغنى من برابر الجبال الأخرى لأن لهم، بالإضافة إلى الشعير والعسل والشمع وقطعان الماشية، مناجم جيدة للحديد لا يصنعون منه قضباناً كما يفعل مَن قبلهم، بل كوراً يسوقونها عبر المنطقة كلها. كما أنهم أحذق من غيرهم،

وأحسن معاملة فيما بينهم، وأجمل لباساً، لأنهم يتجرون أكثر مع الأجانب. ويوجد من بينهم عدد كبير من التجار والصناع اليهود الذين ولدوا في هذه البلاد، لا من الذين طردهم الملكان الكاثوليكيان من إسبانيا والتجأوا إلى أهم بلاد البربر. هذا الجبل كله مكسو بغابات عظيمة من شجر البقس والمصطكا الشاهقة جدا، مع نوع من الأرز ذي الرائحة الطيبة والنفع الكبير، وكذا شجر الجوز الباسق الذي يجنى منه الجوز بكثرة لدرجة أنهم يصنعون منه ومن نواة الهرجان زيتا، فضلا عما يأكلون منه ويُصدِّرون. وهناك ما يزيد على عشرين ألف مقاتل، سواء منهم الراجلون أو الفرسان، وهم أفضل من مقاتلي الجبل السابق. واكتشف فيه سنة الف وخمسمائة وتسع وثلاثين منجم للنحاس نقل قطعة قطعة إلى مراكش ليصنع منه سلاح المدفعية. وأول سلاح سُبك منه كان من عمل موريسكي ولد في مجريط[39] الذي صنع مدفعاً طوله ستة عشر قدماً تقريباً وعدداً من قطع أخرى صغيرة، بالإضافة إلى قذافات وسيوف ورؤوس رماح وأسلحة أخرى جيدة. وفي نفس الوقت اكتشف مغربي سوسي في إقليم جزولة السرَّ في سبك الحديد، فكان يصنع منه كور المدافع، الشيء الذي لم يكن معروفاً قبله في افريقيا.

الفصل التاسع عشر

جبل الحديد

يبتدىء هذا الجبل من المحيط جهة الشمال، ويمتد شطر الجنوب على طول تانسيفت، فاصلا هذا الإقليم عن إقليم دكالة، ثم عن إقليم مراكش. ومع أنه واقع في إقليم حاحا، فإنه ليس جزءاً من جبل الاطلس. ويسكنه قوم من جنس قديم من أفارقة قبيلة مصمودة يسمون ركراكة. وفي كل مكان منه غابات صغيرة كثيفة من الأشجار المثمرة، وعيون غزيرة. ويتجر أهله بالعسل والشمع مع زيت الهرجان وبعض الماعز. يُحصد فيه قليل من القمح، لكنه لا يُفتقد فيه لوجوده بكثرة في إقليم دكالة المجاورة. إنهم قوم فقراء ناسكون متدينون، منهم عدد من الزهاد المنقطعين في أبشع الصخور حيث يعيشون كالوحوش على الكلإ والفواكه البرية. والناس مهذبون يصدِّقون بسهولة ما يقال لهم شريطة أن يؤيد بالدليل. ولدى

(39) هو المعلم موسى

مقامي هناك، سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين، تبيَّن لي أنهم يُسَرُّون جدا بالاستماع الى الاحاديث الدينية، فحدثتهم عن رهباننا، وعندما تعرضت إلى حياة الطوباوي سان فرانسوا وزهده اندهشوا جدا، وصرح الفقهاء بأنه ولي كبير، وأنه لا يمكن اغتياب رجل بهذا القدر من التقى دون التعرض إلى الإثم. حقّاً لم أجد أناساً مثلهم أقل تعصباً لدينهم، ولا أكثر مرونة طوال إقامتي بإفريقيا. ويفوق عددهم اثني عشر الف مقاتل، الأمر الذي لم يمنعهم في نفس الوقت من أداء الإتاوة إلى ملكي فاس ومراكش، وأحياناً حتى إلى ملك البرتغال، لحماية أنفسهم من الأعراب الخاضعين للتاج البرتغالي. وهم الآن في راحة أكثر منذ أصبحت أسفي في أيدي المغاربة، تابعون للشريف، وليس بهذا الإقليم جبال اخرى يمكننا أن نتحدث عنها.

الفصل العشرون

إقليم سوس

وهو الثاني في مملكة مراكش، ابتداء من الغرب

يحد هذا الاقليم البحر المحيط غرباً، وجبال الاطلس شمالا، حيث يتصل بإقليم حاحا، ورمال نوميديا جنوباً[40] ونهر سوس الكبير شرقا الذي يفصله عن إقليم جزولة. يشتمل اقليم سوس على أكبر جزء من مملكة مراكش إذا أدرجنا فيه درعة والسوس الاقصى، وأهم قسم في هذا الاقليم بلاد عامرة، ترويها مياه هذا النهر في قنوات وسواق وتحيط بضفتيه أحسن مساكن البلاد. يكثر فيه القمح والمواشي وحتى مطاحن السكر منذ جاءت دولة الشرفاء، فصارت أفضل تجارة في مملكة مراكش كلها، بالإضافة إلى وجود حدائق وبساتين كبيرة وعدد كثير من النخيل وإن كان تمْرُه أقل جودة من تمْر نوميديا. السكان كلهم بربر[41] من قبيلة مصمودة، وهم أكثر شهرة من بربر حاحا، لأنهم أغنى منهم ويتعاملون بكيفية أحسن فيما بينهم، خاصة منهم سكان المدن الذين يستخدمون في معامل السكر وفي أعمال الحرث. وعندما غزا الشرفاء موريطانيا الطنجية، أعطى الأخ البكر ثانيَ إخوته هذا الاقليم بعد التقسيم، وتلقب هذا الاخير بملك سوس. لكنه كان يعترف

(40) أو جيتوليا

(41) يسمون ركَراكَة، وهسكورة، وهنتاتة.

بالولاء لأخيه. ودام ذلك مدة من الزمن أعاد فيها بناء تارودانت وأقام بها حاشيته، ثم استرجع رأس أكَير من ملك البرتغال، وحقق انتصارات عديدة اخرى استجلب بها قلوب هذه القبائل. وفي الأخير وجه سلاحه ضد أخيه، ففتح مملكة مراكش ثم مملكة فاس وصار ملكا لموريطانيا الطنجية كلها ولعدة أقاليم أخرى في نوميديا وليبيا، كما ذكرنا ذلك في الكتاب الثاني.

تُستخرج من سوس النيلة الجيدة التي يستعملها الصباغون، وأحسن معدن الصفر الذي يسمى صوفي، فضلا عن وجود رقيق جنيوة وتبر الذهب الذي يسميه الزنوج نَكناكي، والذي تذهب القوافل لجلبه من هناك كل سنة.

الفصل الواحد والعشرون

مدينة ماسة(42)

مدينة أزلية أسسها الأفارقة عند قدم جبل الأطلس على ساحل المحيط. كانت تسمى من قبل تاماست، وكانت إذ ذاك مشهورة جدا، لكن خربها العرب المسلمون عند فتحهم السوس. وهي مؤلفة من ثلاث مدن تشكل مثلثا، تبعد الواحدة عن الأخرى بربع فرسخ وتحيط بكل واحدة منها أسوار متينة. يمر نهر سوس(43) بين اثنتين منها، ويسيل ليصب في البحر قرب مساكن كَير — تيفن. يحرث السكان في آخر شتنبر، ويحصدون في آخر أبريل وفي ماي، لكن إذا حدث أن النهر لم يفض أثناء هذين الشهرين ليسقي أراضيهم، فلا يكون أي حصاد. تكتنف هذه المدينة غابات كبيرة من النخيل الذي هو في ملك السكان، وعندما يقل القمح يكثر التمر، لكنه ليس جيدا كتمر نوميديا، ويفسد إذا احتُفظ به طوال السنة. لا تربَّى فيها المواشي بكثرة، لأنها كلها رمال قليلة الكلأ. السكان محبون للحرب، ولوجودهم على الساحل فإنهم يتجرون كثيراً مع الأجانب، إذ لا ميناء هناك، ولأن الساحل كله عبارة عن شاطىء مكشوف. ويوجد فيه عدد كثير من حوت (البالين) الميت يجنح هناك أثناء العاصفة فيصطدم بصخور حادة تقع على بعد ميل أو نحوه من اليابسة. كما أنهم يصادفون في هذا الساحل كثيرا من العنبر

(42) أو مكان الدعاء.

(43) نهر ماسة لا نهر سوس، انظر **وصف افريقيا**، (1:113) والهامش 17. (مترجم).

يسلمه أهل البلاد بثمن بخس للأوربيين الذين يتجرون هناك. وفي هذا الساحل مسجد هيكله كله مصنوع من أضلاع سمك (البالين) الكبيرة، يقدسه الشعب الجاهل لاعتقاده أن (البالين) لَفِظ (النبي) يونس في هذا المكان، ومن ثم فإن هذا المسجد يتسبب في هلاك كل (البالين) الذي يمر من هناك. وانه سيخرج منه رجل (المهدي المنتظر) يدعو لدين محمد (عليه السلام) ولذلك يحجون إليه من جميع النواحي. يقول بعض الأفارقة إن (البالين) ليس هو الذي يفرز العنبر، ولكن حوت آخر يدعى عنبرقان، عظيم الحجم، لا يبصره الناس إلا إذا رمى به البحر على الشاطيء ميتاً، له رأس صلب كالحجارة، وطوله يزيد عن اثنتي عشرة قالة. ويدعي اخرون بأن العنبر إنما هو مني ذكر (البالين) وربما كان الأصح أنه برازه.

الفصل الثاني والعشرون

تِيـُّوت (أو تشييت)

أسس هذه المدينة الأفارقة القدامى في سهل جميل، وهي — كسابقتها — مقسمة إلى ثلاث مدن. يجري نهر سوس الكبير بقربها، ويخترق ضواحيها. فيها أزيد من أربعة آلاف كانون، وسكانها أغنياء لكثرة القمح والشعير والخضر التي تنتجها المنطقة. هناك مغارس عظيمة لقصب السكر وعدد عديد من مطاحنه، يقصدها التجار من جميع الأنحاء، من فاس ومراكش وبلاد السوس، لأن السكر بها في غاية الصفاء منذ أن أقام بها يهودي أسلم طواحين بمساعدة الأسرى الذين أخذهم الشريف في رأس أكَير. وينتج البلد أيضاً الكثير من التمر مثل تمر ماسة، لكن ليس هناك فواكه غير التين والعنب والخوخ، كما أنه ليس هناك شجر الزيتون ولا تلك الثمار التي يصنع الزيت من نواتها وإنما يستعملون الزيت المستورد من إقليم حاحا. وهناك تُحضَّر الجلود الجيدة التي تحمل إلى فاس ومراكش وأماكن أخرى. البلاد كبيرة جدا، وتوجد في اتجاه جبل الاطلس عدة قرى للبربر، كما توجد في أنحاء الجنوب سهول فسيحة يرتع فيها كثير من الأعراب ومن أفارقة قبيلة مصمودة، يكسبون كمية من الجمال والمواشي. وفي وسط المدينة جامع كبير حسن البناء يخترقه أحد سواقي النهر. وسكان المدينة أفارقة بربر، كانوا دائماً في صراع وتفرقة عندما كانوا يعيشون أحرارا لأنهم متكبرون جداً، لكن بعضهم اغتصبوا الحكم

منذ مائة سنة. ولما بدأ استقرار الشرفاء كان الحاكم آنذاك يدعى شوهان، ولم تكن عنده سوى ابنة جميلة زوجها من جنوي كان يتجر في البلاد واعتنق الاسلام[45]. وكان هذا التاجر محبوباً عند السكان لدرجة أنه خَلف أبا زوجته في الحكم لما مات. وبما أنه كان صديقا للشرفاء فقد منحهم المرور عبر منطقة نفوذه للالتحاق بإقليم حاحا. وخلفه ابنه ـ البكر[46] وكان أشجع المغاربة الذين خدموا الشرفاء، وأكثر ثقة عندهم، وحفيده الآن أمير شيشاوة. هؤلاء الأمراء هم الذين زينوا هذه المدينة التي أصبح سكانها الآن أغنياء، يعيشون في رخاء دون أن يقوموا بأي عمل. ولكن من بينهم ما يزيد عن مائتي تاجر أو صانع يهودي.

الفصل الثالث والعشرون

الكَارض

مدينة أسسها الشريف عبد الله الحاكم حالياً، تقع في سهل على بعد ميل من تاساوت، عند عين جدول يروي قصب السكر قرب الطواحين التي بناها الشريف لهذا الغرض. يدير هذا الجدول نفسه ست طواحين للقمح ثم يسيل ليصب في نهر سوس الذي يسمى تيوت في هذا المكان. شيدت المدينة لحماية هذه الطواحين، وتحيط بها عدة أراض صالحة للحرث تسقى بواسطة هذا الجدول. السكان فلاحون وأصحاب حقول، يعملون في طواحين السكر مع بعض الأرقاء المسيحيين، ويقيم عادة بالمدينة عامل مع ثلاثمائة فارس، يسكنون في القرى المجاورة.

الفصل الرابع والعشرون

ترودانت

إن ترودانت التي يسميها المغاربة تورانت، أسسها الأفارقة القدماء على بعد اثني عشر فرسخا من تيوت في اتجاه الشرق، وعلى بعد فرسخين من الاطلس الكبير، في اتجاه الجنوب. وهي وإن كانت أقل سكانا من غيرها، فإنها ليست أقل تجارة وبهاء. كانت حرة في القديم ثم حكمها بنو مرين عندما استولوا

(45) إشاية أو محمد العلج.
(46) مومن بن العلج.

على موريطانيا الطنجية، وجعلوها عاصمة الإقليم والمناطق المجاورة، وحسنوها كثيراً. ذلك لأن العامل أو خليفة الملك كان يتخذها قاعدة من أجل الاتجار برقيق الزنوج، فشيدوا بها قلعة تحتوي على منازل جميلة. ثم استعادت المدينة حريتها بانحطاط المرينيين، وتولى حكمها أربعة من أعيان السكان الذين كانوا يستبدلون كل ستة أشهر. وكانت هذه الحالة عندما استولى عليها الشرفاء بدعوى محاربة نصارى رأس أكَير. سكان ترودانت خيِّرون، يلبسون الجوخ والقماش مثل سكان مراكش، ويوجد من بينهم عدد كبير من التجار والصناع. إقليم المدينة كبير، وتوجد بجهة جبل الأطلس قرى كبيرة لبربر مصمودة، وبجهة الجنوب عدة دواوير أو مساكن الأعراب، مع جماعة من البربر يعيشون في الخيام. وهم أغنياء مقاتلون يفوق عددهم خمسة آلاف فارس(47) وأهم معسكر لهم يقع على بعد أربعة فراسخ من ترودانت في تخوم إفران التي بالسوس الأقصى. كان رؤساؤهم أول من ساعدوا الشرفاء وتبعوهم في جميع حروبهم، ولهذا قلدوهم أهم المناصب. كان من جملتهم علي بن بكار الذي ذبح مولاي أحمد وأحفاده بمراكش عندما علم بموت الشريف. إن جانب هذا الاقليم كله المواجه لليبيا في ملك هؤلاء القوم، وإذا أراد السكان أن يزرعوه. وجب عليهم أن يؤدوا اليهم إتاوة. وفي سنة 1511 عندما حصل الشرفاء من سكان ترودانت على أن يجهزوا لهم خمسمائة فارس لإيقاف غارات نصارى رأس أكَير وحلفائهم(48) بمساعدة هؤلاء الجنود وأولاد زرقان وغيرهم من جماعات حزبهم تمكنوا من المدينة بعد استمالة أهم عناصر السكان، ثم تمكنوا من جميع الأقاليم المجاورة. ومنذ أن بويع الشريف محمد ملكا على سوس، أصلح أسوار المدينة والقصر، وشيد فيها قلاعاً جديدة عمرها بعدد من التجار والصناع، إلى أن أصبحت اليوم إحدى المدن الرئيسية بإفريقيا، يملك فيها الشريف مخزناً للعتاد، وداراً لصناعة السلاح، وفيها معظم ذخائره، كأكثر مكان آمن في دولته. وقد استولى التركي(49) الذي اغتال الشريف محمدا، كما أسلفنا،(50) على هذه المدينة(51) التي ينسب بعضهم تأسيسها إلى الشرفاء، لكن قدم أسوارها وبناءاتها ورواية المؤرخين تشهد بعكس ذلك.

---

(47) أولاد زرقان.

(48) سيدي مالك، وسيدي بوعكاز ومروار درعة.

(49) حسان.

(50) الكتاب الثاني.

(51) سنة 1557.

الفصل الخامس والعشرون

فريشـة

مدينة صغيرة على بعد فرسخ ونصف من ترودانت، أعاد بناءها الشريف محمد قبل أن يبايع ملكا على مراكش، ولابنه عبد الله الملك الحالي عامل يقيم بها عادة مع ثلاثمائة فارس في الأماكن المجاورة، للسهر على الأمن في هذه البوادي التي يملك جزءاً منها ملكا خاصا. وتلوح قريباً منها آثار مدينة عتيقة[52] كانت آهلة بالسكان أثناء عهد ازدهار المصامدة، لكن الأعراب خربوها.

الفصل السادس والعشرون

رأس أكَير[53] (أكَدير)

هذه المدينة حديثة البناء، تقع في سفح رأس صغير لجبل الاطلس، بين مدينتي ماسة وتفتنة، وكان يسمى قديماً الرأس الصغير، ويجعل بطليموس موقعه في سبع درجات وثلاثين دقيقة طولا، وتسع وعشرين درجة وخمس عشرة دقيقة عرضاً، وهناك ميناء لا بأس به للمراكب المتعددة السطوح. ويرجع أصل هذا المكان إلى نبيل برتغالي[53م] شيد فيه على نفقته قصرا من خشب لتامين صيد المورة وغيرها من السمك الذي يصطاد بوفرة في هذا الشاطىء، وسماه قصر سانت كروا (الصليب المقدس) وسماه المغاربة الدار الرومية، اي دار المسيحي ولكن الملك دون مانويل اشتراه لما رأى من أهمية هذه المحطة للسير في هذه البحار، ولغزو افريقيا فوسعه وأحاط به أسوارا وحصونا من حجارة كمدينة قوية، ثم أقام به فارسا برتغاليا يحميه مع عدد من الجنود والمدفعيين. ومن هناك كان البرتغاليون يشنون الغارات على كل مكان، بصحبة بعض الأعراب والأفارقة الذين أصبحوا تابعين لهم. ولولا اكتشاف الهند التي كانت في رأيهم اكثر ربحا لاستولوا على البلاد. وقد أسهم هذا الأمر كثيرا في عظمة الشرفاء الذين كانوا يلاقون أكبر عناء في إقامة دولتهم لو تابع البرتغاليون غزواتهم.

---

(52) اتفتال. (كذا)

(53) كذا في الترجمة الفرنسية وهو تحريف لكلمة إغير الشلحية التي تعني المنكب بالعربية وتسمى المدينة أكَدير إغير. وقد تركناه كاب أكَير كما ورد عند مارمول.

أنظر م. السوسي، إيليغ، ص. 166ـــ167، والهامش 383

(53م) دييكَو لويس دي سكَويرا.

بعض الخلافات التي حدثت بين البرتغاليين المجاورين لرأس أكَير مع الشرفاء :

عندما كان النبيل البرتغالي دُم فرانسيسكو دي كاسترو عاملا على رأس أكَير، نشبت بين مسيحيي هذه المناطق وبين الشرفاء بعض الحروب بمساعدة قائدين مغربيين، هما سيدي بوعكاز وسيدي مالك، وكذا مزوار درعة الذي حسد الشرفاء على ازدهارهم. وقد أغار مولاي أحمد على أراضي أتباع ملك البرتغال وأحرق حصيدهم. لكن سيدي بوعكاز تصدى له بجنوده(54)، وقتل ثلاثين فارساً من جنده وأرغمه على الفرار، حتى إنه استغاث بأخيه الذي كان قد بقي في المؤخرة مع معظم الجيش، فطاردا العدو معا وحارباه وهزماه. ثم وصلا وهما يطاردان الى حصن منيع(55) كان لسيدي بوعكاز فهاجماه وأخذاه عنوة. كان هذا الحصن في القديم في غاية الغنى والعمران، إذ كان يوجد به منجم يصدر منه الكثير من النحاس والصفر الى أوربا، الامر الذي تسبب مرارا في خرابه.

ولنرجع الى حكايتنا فنقول إن دم فردنـاند كاسترو لم يكن إذ ذاك بإفريقيا، ولكن بالبرتغال، فاستحضر منه مائتي رجل مسلح مع بعض المدفعيين. ولما علم لدى عودته بما جرى لصديقه وحتى لا يترك الشرفاء يتمتعون طويلا بابتهاج انتصارهم، جمع كل الحلفاء سواء منهم الأعراب والأفارقة، وضم اليهم جنوده وهاجم مدينة للشرفاء كان بها حرس دائم يشنون غارات على رعايا البرتغال وخاصة على دواوير سيدي مالك. فهاجمها عند مطلع الفجر فجأة وأخذها برمتها ونهبها، بعد أن قتل أو أسر كل من فيها. وكان هناك عدد من التجار الجنويين وغيرهم بجواز مرور من الشرفاء قصد الاتجار في الشمع والجلود فأسروا مع المغاربة، وأراد الجنود أن يتخذوهم أرقاء اعتبارا لكونهم أخذوا من بين الأعداء يتجرون بأشياء ممنوعة. ولكن ملك البرتغال أطلق سراحهم في الأخير بعد أن حبسهم طويلا. وقد انتقم الحلفاء ذلك اليوم شر انتقام مما أصابهم به الشريف، فعادوا الى دواويرهم محملين بالغنائم. وكان لهؤلاء القوم معارك اخرى ضد الشرفاء بانتصارات مختلفة، الى أن استولى الشريف محمد على رأس أكَير، كما سنذكر ذلك.

---

(54) سنة 1517، في شهر ماي.

(55) وهوتل.

إستيلاء الشرفاء على رأس أكَير :

بعد أن انتصر الشرفاء على مولاي أحمد(56) في معركة بوعقبة، وأخذوا إقليمي درعة وتافيلالت من المزوارين الذين كانت بأيديهم، استولوا على عدة أقاليم أخرى، كما ذكرنا ذلك في الكتاب الثاني. وإن مولاي أحمد(57) الذي كان هو الاصغر، والأشجع، والذي اتخذ لقب ملك سوس، شق عليه أن يستولي المسيحيون على هذه القلعة على مرأى منه(58) ويقوموا من هناك كل يوم بغارات على المغاربة، فعزم على مهاجمتها لتأمين الحدود والزيادة في سمعته. ولما انتشر خبر هذه العملية الحربية، حشد جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل، بقيادة أخيه البكر(59) وذهب ليحاصر رأس أكَير من جانب البحر إلى الجانب الآخر (60) ولما علم بهذا الخبر دون كَوتييري دي مونروي الذي كان قائد الحصن آنذاك، عين لكل واحد موقعا قصد حمايته، ثم شرع في الاستعداد. لكنه لم يكن يخشى العدو حتى إنه كتب إلى ملك البرتغال يخبره بأن النبأ ينتشر بمجيء الشريف لحصاره، ولكن جنوده فضلا عن كونهم جدداً لا خبرة لهم بالحرب، كانت تنقصهم أشياء ضرورية للهجوم. وذهب به الاستخفاف إلى أنه بعث اليه بعدة برابر مصورين بالألوان على قماش وهم عارون تماماً، ممسكون بأيديهم بسهمين أو ثلاثة، ليظهر أنه لا شيء يخشى من قوم كهؤلاء، طالبا فقط الزاد والعدة، وضامنا الباقي. ولما وصل الشريف أمام الحصن، أمر العلوج بتصويب المدفعية نحوه، وبدأ يهاجم بحمية قوية حتى إنه أمر بعدة غارات قبل أن تكون ثلمة مهمة، مؤملا أخذه وتفادي إغاثة البرتغال، لكن المحاصرين دافعوا عن أنفسهم جيدا الى درجة أنهم قتلوا أكثر من سبعة آلاف مغربي. ولما رأى الشريف قومه ينفرون من القتال بحيث لا يمكن سوقهم بالعصا، وأنه من العبث مهاجمة المدينة ما لم تحتل ربوة صغيرة كانت تتحكم فيها ويشرف منها على داخل جميع الاسوار ومن كانوا يدافعون بها، معتبرا من جهة أخرى أنه لا يمكن الاستيلاء عليها الا بغتة. ولما كان لا بد قبل ذلك من تشييد برج في أعلى الربوة، لحماية الجنود الذين قد يكونون فيها، فإنه طلب من الحاكم هدنة لمدة شهرين، فقبل الحاكم هذه

---

(56) يقصد أحمد الوطاسي. (مترجم).

(57) كذا في النص الفرنسي. والصواب : مَحمد. (المترجم).

(58) كان بلاطه في ترودانت.

(59) محمد الحران.

(60) 21 غشت، وكان يوم سانت كلير.

الهدنة، لأنه كان محتاجاً إلى توقيف حتى يصلح الثلمات ويقوم ببعض التحصينات الجديدة التي يراها ضرورية لحماية الحصن، إلا أنه اشترط أن كل واحد يستطيع أن يعمل من جهته ويفعل ما يشاء. فسحب الشريف حينا جيشه وبدأ يشيد برجاً في أعلى الربوة، وأمر بإذابة قطعة من المدفع. ولما انتهى العمل وانقضى أمد الهدنة، جعل في البرج ثلاثمائة من رماة البنادق وبعض قطع المدفعية الصغيرة من البرونز، واستأنف الهجوم بحمية أكثر، لأنه كان يقوم أحيانا بثلاث أو أربع غارات في اليوم. وكان المسيحيون يدافعون عن أنفسهم دفاعاً مستميتا، لكن الضرر الذي يلحقهم من المدفعية ورماة البنادق كان كبيرا لدرجة أنهم لم يكونوا في وقاية الا تحت الاسوار، حيث كانوا يشتبكون ليل نهار مع العدو : لأن أسلحة الرماة كانت مسددة بكيفية مضبوطة، فلا يكاد يلوح رجل في الزقاق، أو النوافذ أو فوق السور، الا سقط على الارض. ودام الحصار سبعة أشهر تقريباً على هذا المنوال، بينما كان معسكر الشريف يجدد يومياً الجنود والمؤن والعدد التي كانت تاتي من ترودانت وغيرها. فأرغمت هذه الوضعية الحاكم، وقد بدأ ينقصه كل شيء، على الاستغاثة بملك البرتغال، فجند هذا الأخير على الفور سبع سفن من نوع الكرافيل وأرسلها بسرعة وهي محملة بالرجال والعدد. أنزلت النجدة في جهة البحر بحي لم يكن تضرر كثيرا من ضربات الأعداء، إلا أن صراخ البربر كان قوياً عندما كانوا يغيرون، إلى حد أنه كان بإمكانه أن يفزع أكثر المسيحيين إقداماً. وفي هذه الأثناء، أمر الشريف بالهجوم العام(61)، لكن بعد أن فقد أزيد من ستة آلاف رجل. أصبح الباقون مذعورين بحيث لا يمكن حملهم على التقدم إلى الأمام. فغضب إذ ذاك من جبنهم وصار على رأسهم ورمى بعمامته في الأرض ودحرجها إلى السور وجعل يتبعها وكان على وشك أن يقتل بطلقة بندقية لولا أن تعرض لها أحد ضباطه وتلقى الضربة. وحينئذ أراد أحد مدفعيي المدينة أن يتناول برميلا من البارود تحت الحصن، فأضرم النار في البارود بدون أن يشعر بذلك، بفتيل موقد كان بيده، بحيث إنه تسبب في انفجار الحصن وهلاك أزيد من ستين جندياً كانوا يحمونه. وبالتالي كان الانفجار قويا لدرجة أنه حطم قسما من جدار بين استحكامين، محدثاً ثلمة أكثر بكثير من التي أحدثتها مدفعية العدو وتسبب هذا الحادث في فقدان الحصن، لأنه أعاد الشجاعة إلى المغاربة الذين تكتلوا تحت إمرة

(61) 21 غشت، وكان يوم سانت كلير

ابن الشريف وحملوا قبل أن يتمكن البرتغاليون من سد الثلمة. لكن نظراً لكون هذا المكان هو الأهم، فإن كل من كان في الحصن من الجنود الشجعان، أسرعوا إليه بأعداد كثيرة حتى إن بعضهم تعرضوا لضربات أصحاب البرج، وذلك لأنهم لم يستطيعوا جميعاً أن يكونوا محميين. وعندما انسحبوا في الوقت ذاته الذي أعاد المغاربة الكرة، فإن القادمين الجدد، وقد رأوا قومهم يفرون، وسمعوا صراخ العدو ظنوا أن المدينة سقطت، فجعلوا يرتمون إلى أسفل السور ليلتحقوا بمراكب الكرافيل. بدأ بالفرار أكثرهم جزعاً وتبعهم الآخرون بعد ذلك، بحيث إن المدينة أصبحت مهجورة من تلك الجهة، بينما كان القتال على أشده في جهات أخرى. ولكنهم في الأخير، وقد جرح بعضهم وقتل البعض الآخر، أرغمهم التعب على الانسحاب الى بعض الأبراج وأماكن أخرى حصينة. فدخل إذ ذاك الأعداء إلى المدينة بحمية كبيرة حتى إنهم لم يرحموا لا سنا ولا جنسا، فاقتفوا أثر الوافدين الجدد الفارين نحو السفن وقتلوا منهم حتى داخل البحر، وتحصن الحاكم في البرج الرئيسي، ثم سلم نفسه بالتفاوض، هو وأولاده وبعض كبرائه. وقد أبلى دُم يان دي كارفال ذلك اليوم بلاء عظيماً، فقتل بسيف أمسكه بكلتا يديه ثلاثين مغربياً وهو يدافع عن أحد الأبراج، وأصيب أخيراً في ساقيه فقاتل على ركبتيه، إلى أن قتل من بعيد برمي نبال، لأن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب منه. وأول ضابط للشريف(62) دخل إلى الحصن، كان ابن ذلك التاجر الجنوي الآنف الذكر، فأخذ العامل وأولاده وخلص العديد من الموت بانتزاعهم من أيدي هؤلاء الجلادين الذين كانوا يقتلون حتى النساء ويتركون أجسادهن عارية في وسط الأزقة، ويلقون عليها كلاباً ميتة.

دخل الشريف بعد ذلك فأمر بجمع الأسرى، والمدفعية والأسلحة، وحمل الكل إلى ترودانت، التي توجه إليها بنفسه، واستقبل بحفاوة كبرى، بعد أن ترك في الحصن المفتوح عاملا وحرساً قوياً. وما زال ابنه مولاي عبد الله يتخذ به حرساً حتى الآن، نظراً لأهميته، بالإضافة إلى أنه مضر كثيرا بالبرتغاليين المتوجهين إلى غينيا والهند، لأنهم يتعرضون أثناء مرورهم به لهجوم عدد من السفن الفرنسية والانجليزية التي تكمن في هذا الميناء، وتزود هؤلاء المسلمين(63) بالاسلحة والمدفعية والعدد، الأمر الذي يسبب ضررا كبيرا للمسيحية.

(62) موس بن العلج.

(63) عبر عنهم المؤلف ــ كعادته ــ بالكفار.

ولنقل الآن شيئاً عن ابنة الحاكم(64) فإنها كانت متزوجة بدوم يان دي كارفال، ذلك البرتغالي الشجاع الآنف الذكر. ولما قُدمت إلى المنتصر مع أبيها وابنها، من طرف الذي أخذها، عشقها الشريف لأول نظرة لجمالها وحسن مظهرها، فأراد أن يرضي شهوته فوراً. ولما امتنعت هددها بإرغامها بواسطة زنجيين كريهين، إما لإرهابها أو لمعاقبتها. فأمر أن تحبس معهما في الحمام. وعندئذ استسلمت شريطة أن يتزوجها وتبقى مسيحية، فلبّى رغبتها. وقد عاينت كيف كان يتركها تاكل وتعيش مثل المسيحيين، الأمر الذي كان المغاربة يتذمرون منه، إذ كان يقال بأنها حولته شيئاً مّا إلى دينها. لذلك عندما وصل الى ترودانت وهو يسوق أخاه البكر أسيراً، بعد إيابه من هزيمته، طلب منها أن تتظاهر بأنها أسلمت. وبما أنها كانت حاملا فإنها لم ترد أن تعاكسه فوضعت بعد ذلك ولدا وسمتها نساء الشريف الأخريات ــ على ما يروى ــ مع ابنها، حسداً منهن، ولكنها استدعت قبل موتها بعض الاسرى المسيحيين وصرحت أمامهم بأنها تموت مسيحية، كما كانت دائماً، إلا أنها لم تستطع أن تعارض الشريف بالتظاهر بعكس ذلك لاعتبارات مفيدة للمسيحيين، وخاصة لأبيها الذي كان أسيراً، طالبة منهم أن يعلنوا ذلك في كل مكان. فأطلق الشريف سراح أبي زوجته حينئذ، عندما استولى على مراكش، حيث كان قد أوفده عند أخيه، بعد أخذ رأس كَير وبعث به إلى البرتغال مع بعض الاسرى المسيحيين، والخيل والمال والعدة، ولو أن ابنته كانت قد توفيت.

الفصل السابع والعشرون

تِيدْسِي

هي مدينة يزيد سكانها على خمسة آلاف نسمة، أسسها الأفارقة القدامى في سهل، تحيط بها أسوار قديمة ذات أبراج، وتبعد عن ترودانت بنحو إثني عشر فرسخا الى جهة الشرق، وبنحو عشرين فرسخا من البحر في الجهة الأخرى، وبسبعة فراسخ من الأطلس الكبير نحو الجنوب(65) أرضها واسعة، وفيها الكثير من القمح والمواشي، تنبت كمية من قصب السكر على ضفاف نهر سوس الذي يمر

(64) دنيا ماسيا.

(65) انظر عن هذه الأبعاد **وصف افريقيا** (119:1) والهامش 28. (مترجم).

على بعد فرسخ من المدينة، وفيها مطاحن لمعالحته، هذا هو سبب وجود عدة تجار من بلاد البربر وبلاد الزنوج عادة في المدينة. سكانها في غاية اللطف والصراحة، يعيشون على غرار سكان ترودانت. وهناك حي كبير للتجار والصناع اليهود الأثرياء، لأنه يقام بها سوق كل اثنين يقصده أعراب هذه المناطق وبربرها بالماشية، والصوف، والجلود والسمن، فيشترون بدل ذلك الجوخ، والقماش، والأحذية، والأدوات الحديدية ولوازم إسراج الخيل وكل ما يحتاجون إليه. وفي وسط المدينة جامع كبير يعمُره عادة عدد من الفقهاء، ومنهم رئيسهم الذي هو أعلمُهم، والذي يفصل في المسائل التي يعجز عنها الآخرون، ويُتخذ كحكم في الخلافات المتعلقة بدينهم.

كانت المدينة حرة قبل أن يستولي عليها بنو مرين، ثم استرجعت حريتها عند انحطاط مملكتهم، ولم تكن تؤدي العشر إلا لأعراب البادية عن الحبوب والخضر، وكان يدير شؤونها ستة من أكابر السكان، يبدلون كل ستة أشهر. وقد خضعت طوعاً لحكم الشرفاء(66) فاشتهر أمرها بهم اشتهارا غظيماً، وأقاموا بها محكمة مؤلفة من قضاة ومحامين وعدول ووكلاء للفصل في الخلافات القائمة في البلاد، كما اعتادوا أن يقيموا بها عاملاً معه أربعمائة فارس. وبالتالي فهي من أهم وأغنى المدن التي توجد في ذلك الجانب من جبل الاطلس صوب الجنوب.

الفصل الثامن والعشرون

تَكَاوُوسْت

هذه أعظم مدينة بإقليم سوس، ويقال إن السوسيين هم الذين أسسوها. تحيط بها أسوار قديمة مبنية بالجير والطوب، وتقع في سهل على بعد عشرين فرسخاً من جبل الاطلس الى الجنوب. وفيها اكثر من ثمانية آلاف منزل، منها ما يزيد على ثلاثمائة لليهود الصناع والتجار، الذين يعيشون في حي منعزل. يمر نهر سوس على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة(68) والبلاد كلها غنية بالقمح والماشية. كان لها نفس المزية التي لسابقتها، ونفس الطريقة في حكم نفسها عندما كانت

(66) عام 1511.

(67) المحيط.

(68) انظر كتاب الحسن الوزان (120:1) والهامش 30 (مترجم).

حرة. لكن سكانها كانوا متعجرفين إلى حد أنهم لم يخلدوا قط إلى الراحة، وكانوا يتحاربون دائماً منقسمين إلى ثلاث فرق تستنجد كل واحدة منها بالأعراب، بحيث إنهم كانوا مضطرين إلى أن يبقوا دائماً على أهبة القتال، إلى أن استولى الشرفاء على المدينة كما ذكرنا ذلك في تاريخهم. يقام سوقان بالمدينة كل أسبوع، يقصدهما أعراب المنطقة وبربرها، كما هو الشأن بتيدسي، ويأتي إليهما التجار من بلاد الزنوج ليشتروا ثياباً غليظة من صنع أهل البلاد، وهي ضيقة جدا. السكان سمر إلى سواد لأنهم غالبا ما يمتزجون بالزنوج لمجاورتهم لهم، يتعاملون فيما بينهم مثلما يتعامل سكان ترودانت. النساء بها لطيفات جدا، وإن كن نساء سمراوات لكن بكيفية تشتهيها الأنفس وتلذ لها الأعين، ويحببن الأجانب كثيراً. كانت البوادي من ناحية نوميديا آهلة في القديم بأعراب أقوياء أشدّاء(69) منضمين إلى الشرفاء، لكن محمدا (المهدي الشيخ) عندما بويع ملكاً على عرش مراكش رحّلهم بمواشيهم وأهليهم إلى تامسنا، إما ليكافئهم على خدمتهم، أو حتى لا يكونوا قريبين منه بهذا الحد، فأعطاهم بلاداً جيدة يسكنونها. ولكنهم عندما هزم أبو حسون ابن الشريف، مزقهم أهل فاس كل ممزق حتى لم يبق شيء من ذلك القبيل الباسل المقدام.

الفصل التاسع والعشرون

الجبال وسكانها

جبل هنكيسة

لا يوجد بهذا الإقليم إلا فرعان للاطلس الكبير، آهلان كلاهما بجماعات من برابر قبيلة مصمودة. وهو الأول من جهة الغرب، ويحتل عند قدم مدينة ماسة على الشاطىء، ومن جهة الشروق إلى الغروب، اثنى عشر فرسخاً. سكانها أفضل من سكان حاحا، لأنهم أوسع حرية وأكثر شجاعة، وفيهم بعض رماة البنادق، لكنهم متكبرون جدا ولو أنهم فقراء مملقون، ليس لهم قمح وإنما لهم شيء يسير من الشعير. حقاً إنهم يملكون كمية من العسل والشمع وقطعان الماعز. ينزل الثلج في معظم السنة على هذا الجبل، وقد تعود أهله ذلك حتى إنهم لا يرتدون في الشتاء لباسا مخالفاً للباسهم في الصيف، وتسير النساء عاريات تقريباً

(69) أولاد الرحامنة.

وبدون نعال، وكذلك الرجال. كانوا يعيشون أحراراً في القديم على غرار غيرهم من سكان الإقليم، لأن الجبل وعر صعب. وعانى الشرفاء كثيراً في إخضاعهم، وإن كان ذلك طوعاً أكثر منه عنوة. وهلك من جملة خمسة آلاف منهم ذهبوا إلى رأس أكير أزيد من النصف، حسب ما علمنا بمراكش.

الفصل الثلاثـون

عَلَم جَزولَة(70)

هو أحد جبال جيتوليا، وهو معتدل جداً يحتفظ باسم البلاد القديم مع أنه محرف قليلاً. يحده غرباً جبل هنكيسة، وشرقاً الإقليم الذي يحمل اسمه. وجنوباً سهول سوس، وشمالا الاطلس الكبير. يسكنه بربر من قبيلة مصمودة يعتزون بشرف قديم جعلهم مؤمنين بمحالفة الشعوب الأخرى أكثر من سائر شعوب قومهم. علاوة على ذلك فهم أغنى من غيرهم أرضاً ومواشي، ويملكون عدداً كبيراً من الخيل. ورغم ذلك فإنهم لا يختلفون إطلاقاً عن غيرهم لا في الزي ولا في العوائد، وإن كانوا يتعاملون أحسن فيما بينهم. لهم منجم فضة، طالما أذكى التفرقة بينهم. فقد كانوا يعيشون أحراراً قبل الشرفاء على غرار سائر قبائل الإقليم. وكان لكل فرع شيخُهُ الذي يدبر شؤونه، لكنهم كانوا كلهم يدعون أحقية المنجم. وتوجد مناجم أخرى من النحاس والصفر في هذاا الجبل، تستخرج منها كمية من المعدن، وقد كان بالإمكان أن يستخرج منه أكثر لو أقبلوا على العمل والتنقيب أكثر مما يفعلون، لكنهم يفضلون الحرث على الحفر، لأن البلاد جيدة تنتج الكثير من القمح والشعير. ويملكون بالإضافة إلى ذلك كمية من العسل والشمع وعدة قطعان من كبار الماشية وصغارها تشكل موردهم الرئيسي. عدد محاربيهم ستة آلاف، من بينهم عدد كبير من الفرسان ورماة البنادق. إن الجزوليين الذين يحرسون أبواب فاس، ومراكش وترودانت، والذين اتخذهم الشريف لحراسته الشخصية ينتمون الى هذا الجبل، لأنه كأبيه يضع فيهم ثقته أكثر من أي أحد آخر.

هنا تنتهي مساكن سوس، وعندما سنتعرض لنوميديا وجيتوليا، في القسم الثاني من هذا التاريخ، سنتحدث عن سجلماسة، وتفوست وغيرهما من المدن الواقعة في السوس الاقصى، وكذا عن الجماعات حيث تستخرج النيلة الرفيعة.

(70) هو جبل إيلالن عند الحسن الوزان. انظر **وصف افريقيا** (1:121). (مترجم).

الفصل الواحد والثلاثون

إقليم مراكش

يحمل ثالث أقاليم مراكش اسم مملكة، وكان يدعى قديماً بوكانو إيميرو، وعاصمته القديمة هي مدينة أغمات، ومنها أتى لمتونة أو المرابطون ليؤسسوا أولا في البلاد (دولة) ويشيدوا من بعد مدينة مراكش لتكون قاعدة مملكتهم وعاصمة ليس للاقليم فقط، ولكن لكافة غرب موريطانيا الطنجية، يمتد هذا الاقليم من الغرب إلى الشرق من جبل نفيس إلى جبل أمماي، فينحدر نحو الشمال عند نهر تانسيفت إلى المكان الذي يلتقي فيه بأسيف المال، متخذاً هكذا شكلا مستطيلا في وسط خمسة أقاليم أخرى[1]. كل ما هو خارج عن جبال الاطلس الكبير بلاد مستوية، كثيرة القمح والبقول والشعير والدخن، وجميع أنواع الفواكه والخضر والبقول. يسقيها عدد كثير من الجداول والعيون التي تنحدر من هذه الصخور وتروي البراري. وهي مكتنفة بالبساتين والحدائق وعدد من النخيل الذي يؤكل تمرها بلحاً، إذ أنه لا يكون جيداً إذا يبس مثل تمر نوميديا. الجبال وعرة بكيفية غريبة لا تنبت إلا القليل من الشعير الذي ينمو تحت الثلج. ولكن بدلا من ذلك توجد كمية وافرة من الكلإ للمواشي التي تاتي إلى هنا في الصيف من أجل المراعي. غير أنه من الضروري سحبها في الوقت المناسب، أو حبسها في الحظائر لأن الثلوج تاتي فجأة، فتمكث أحياناً في مخابئها خمسة عشر يوماً دون أن تخرج، ويغذونها بأغصان الأشجار أو الحشيش المذخر. إن سكان المدن والقرى في هذا الإقليم ماهرون يمارسون جيدا تجارتهم الصغيرة ويرتدون لباسا حسنا في الجملة حسب زيهم، وعندهم عدد كثير من الفرسان ورماة البنادق والقذافين الراجلين، ولكن سكان الجبال مثل سكان حاحا، ومن نفس القبيل[2]. ولنتحدث الآن عن المدن الكبرى في هذه المنطقة.

---

(1) هي : حاحا وسوس وجزولة وهسكورة ودكالة.

(2) مصمودة.

الفصل الثاني والثلاثون

الجمعة

هي مدينة قديمة أسسها الأفارقة، على ما يقال. تقع في سهل على ضفة نهر(3) بعيدة بفرسخين عن جبل الاطلس من جهة الشمال. كانت مزدهرة أيام الموحدين تشتمل على أزيد من ستة آلاف دار، لكن دمرها بنو مرين وعاملها المشاط، ولم يتركها أعراب هذه النواحي تسترجع عمرانها منذ ذلك الوقت ليتمكنوا من استغلال أراضيها في أمان. وما زالت تلوح آثار الأسوار والمباني التي لا يسكنها اليوم إلا قوم مساكين، يستعملهم الأعراب لحراسة حصادهم. البلاد المجاورة للجمعة ممتازة، لكن الأعراب لا يحرثون منها سوى القدر الذي يكفيهم في السنة، ويستعملون الباقي لرعي مواشيهم، لأن التربة خصبة بحيث كان عشر دخلها قديماً يساوي أكثر من مائة ألف مثقال.

الفصل الثالث والثلاثون

إيمَنْجيَاجَن

هو حصن واقع في أعلى أحد جبال الاطلس الكبير على بعد ثمانية فراسخ من المدينة السابقة الى جهة الجنوب، وفي موقع حصين آمن لا يحتاج إلى أسوار، لذلك كان يستعمل في القديم كقلعة وملجإ لنبلاء قبيلة مصمودة. يذكره المؤرخون الأهلون كثيراً قائلين بأن الأفارقة هم الذين شيدوه، وأنه كان عامراً بالسكان في القديم. ولما ظهر عمر، الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب، في هذه الجبال، وبنى بها مدينته (قلعة المريدين) هاجم هذه المدينة التي كانت تعارضه. ولما احتلها بعد حصار طويل(5) قام فيها بأعمال في غاية الفظاعة وبقيت بذلك خالية من السكان إلى عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر، حيث استقر بها بعض الأهالي بعد هلاك هذا الطاغية. وبما أن الأعراب هم سادة البادية، فإن السكان لا يحرثون غير منحدر الجبل، الذي يستخرجون منه كمية من القمح

---

(3) شيشاوة

(4) كتب في الأصل : أوبجياك.

(5) عام 1495.

والشعير، وترعى فيه مواشيهم. وإذا أرادوا النزول إلى السهل، فلا بد لهم من أداء شيء إلى الأعراب في مقابل الأراضي التي يحرثونها.

الفصل الرابع والثلاثون

تازاروت(6)

مدينة صغيرة على بعد خمسة فراسخ من مراكش، وسبعة فراسخ من جبل الأطلس شمالا. ليست محصنة لا بالطبيعة ولا بالصنعة، وتمتد كقرية في واد على ضفاف نهر(7) . ضواحيها صالحة جداً للقمح والمواشي، وضفاف النهر مكسوة بأشجار مثمرة. لهذا فإن جميع السكان يشتغلون في البساتين والحقول. لكن عملهم جميعاً يجرفه أحياناً فيضان النهر الذي ياتي حتى على الاشجار. خضعت هذه المدينة لملك البرتغال مدة طويلة وهناك استقر الشرفاء أولا، وفيها مات أبوهم(8). ولما كان أعراب أولاد عمران تابعين آنذاك لملك البرتغال، فإن المدينة كانت تؤدي إتاوات لعامل آسفي حتى استولى عليها الشرفاء حين أصبحوا أقوياء، وحرروها من هذا الخراج.

الفصل الخامس والثلاثون

تِينِيـزَّا

هي مدينة صغيرة في موقع ملائم، بناها الأفارقة القدامى على منحدر أحد جبال الاطلس الكبير(9) على بعد ثلاثة فراسخ من أسيف المال إلى جهة الشرق، كل البلاد الممتدة بينها وبين النهر عبارة عن سهل، يمدهم بكمية من القمح والشعير، وكذلك منحدرات الجبال. يربون عددا كثيراً من الماشية الكبيرة والصغيرة، لذا فالمدينة آهلة جداً بالمزارعين وأصحاب الحقول، وهم شجعان وأعداء ألدّاء للأعراب، بسبب الحروب السابقة، إذ كانوا يشنون عليهم غارات بصحبة البرتغاليين، فيقتلونهم أو يأسرونهم.

---

(6) لم يذكرها الحسن الوزان. (مترجم)

(7) أسيف المال.

(8) مولاي محمد بن عبد الرحمن (القائم بأمر الله).

(9) كدميوا.

الفصل السادس والثلاثون

الجمعة الجديدة

هو حصن مشيد على جبل شاهق(10) تحيط به جبال اخرى مجاورة. أسسه الهنتاتيون من قبيلة مصمودة واستقروا به منذ نحو مائتي عام. ينبع نهر (أسيف المال) في سفح المدينة، متخذا هكذا اسماً افريقياً معناه الضجيج، لأنه يرتمي من أعلى جبل بصخب عظيم، فيكوّن غديراً واسعاً عميقاً يسيل منه بهدوء في السهل. وما زال الهنتاتيون يملكون المدينة. ولما بدأ حكم الشرفاء كان مولاي إدريس سيدها وسيد تامّلت حاملاً لقب ملك الجبل، لأن قسماً كبيراً منه كان تابعاً له، لهذا كان يطمح في تاج افريقيا لانتمائه إلى الموحدين. وتحالف مع الشرفاء الذين كان يهاب قوتهم، لكنه لما رأى أنهم احتلوا مدينة مراكش واستولوا على الملك بعد موت الملك ناصر بوشنتوف الذي كان هنتاتياً مثله، تحالف مع ملك البرتغال بواسطة نونيو ماسكارينياس حاكم آسفي. غير أنه حدث أن هذا الحاكم بعث برسالة من سيده الملك إلى مولاي إدريس، بواسطة يهودي كان يتجر بمراكش عندما كان مولاي أحمد يحكمها. وقد توقف هذا التاجر بعض الوقت بمراكش ليرتب أموره ثم انطلق إلى الجبل، فقصد ذلك الامير وسلم إليه الرسالة التي كان قد خاطها بين نعلي حذائه. فسأله مولاي إدريس متى خرج من أسفي وأين كان منذئذ، ولما علم أنه توقف بعض الوقت بمراكش وتحادث مع الشريف، أرجع الرسالة إلى هذا الامير دون أن يطلع عليها، وكتب له أن يحترس في أمره لأن المسيحيين يكيدون له كيداً، لشدة ما كان يخشى أن يَفتضح أمر هذه المناورة. فشكره الشريف جزيل الشكر وأمر باستنطاق اليهودي للحصول على بعض المعلومات منه، لكنه عندما رأى أنه لا يعترف بأي شيء، أمر بربطه بأذناب أربعة أفراس فبترت أعضاؤه. إن أمراء آل إدريس أنصاف مغاربة، ولونهم لون السفرجل المطبوخ، لكنهم يعتبرون أنفسهم أشرف الأفارقة، وينتسبون إلى الموحدين الذين هم محل إجلال كبير.

يتجاوز عدد القاطنين بالمدينة ألفاً ومائة ساكن، كلهم طيبون محبوبون من طرف أميرهم كجميع بربر الجبل. يرتدون لباساً أنيقاً حسب زيهم، وأحياؤهم ودكاكينهم منظمة جيداً، مع حي لليهود يقطنه عدد من التجار والصناع.

(10) سكسيوة

توجد في الشعاب المحيطة حدائق جميلة تجنى منها جميع أنواع الثمار، كما هو الشأن في أوربا، وأراض كثيرة تنتج الشعير، والكتان، والقنب، والدخن، بواسطة الجداول التي تسقى بها، كما توجد بها عدة قطعان من الماعز في الجبل، وهي من أغنى مساكن جبل الاطلس، تؤدي سنويا هي وقراها ثلاثين ألف (بسطول) كإتاوة لأميرها. ومعظم السكان تجار أو صناع متحضرون شيئاً ما بسبب جوارهم لمراكش، ولهم قاض، وفقيه، وعدول. النساء بها جميلات، والرجال غيورون جدا. يجند هذا الامير ثلاثة آلاف فارس وأربعين ألف راجل من بينهم رماة عديدون.

الفصل السابع والثلاثون

تِمَّلْتْ (أو تِينْمَلْ)(11)

مدينة صغيرة بناها على جبل شامخ يحمل نفس الاسم أفارقة قبيلة مصمودة. وهي حصينة آهلة بالسكان، لها جامع كبير يخترقه نهر صغير ينحدر من الجبل. وتجل القبائل هذا الجامع جدا، لأنهم يعتقدون أن المهدي مدفون فيه مع تلميذه عبد المومن، وهما أوّلا ملوك الموحدين ومؤسسا نِحلتهم. كانت هذه المدينة تابعة لمولاي إدريس، وهي مبنية على شكل قرية كبيرة، وإن كانت حصينة بسبب وعورة الجبل. يقيم عادة بالجامع فقيه غني ومحترم جدا. السكان فقراء يرتدون لباساً رديئاً، ويعيشون بدون قانون كالحيوانات، لأن الاجانب لا يختلطون بهم أبداً. غذاؤهم العادي دقيق الشعير والزيت ولحم الماعز، ولهم بساتين كبيرة مسورة بأشجار الصنوبر، وعدد من أشجار الجوز وقطعان الماشية. هؤلاء القوم خبثاء يدّعون العلم لانتمائهم إلى مذهب هؤلاء الملحدين، ويحبون الجدل في أمور الدين مع الأجانب. يسمي بعضهم هذه المدينة المهدية لكونها أسست من لدن مهدي الموحدين. وهي الآن خاضعة للشريف.

الفصل الثامن والثلاثون

أمَزْميز

مدينة قديمة أسسها الأفارقة على منحدر جبل كَديميوة من جهة الشرق، بالقرب من الطريق الكبرى التي تخترق جبل الأطلس للذهاب من مراكش إلى إقليم

---

(11) لم يذكرها الحسن الوزان.

جزولة[12] هذه الطريق مغطاة دائما بالثلج وتسمى لذلك باريكَس. وفي جهة الشمال سهل تفوق مساحته اثني عشر فرسخاً ويمتد حتى مدينة مراكش، حيث ينمو أجود ما في بلاد البربر من القمح والشعير والدخن، كل ذلك بكثرة عظيمة لدرجة أنه يكفي للاقليم كله لو زرعت الأرض بكيفية جيدة. وقبل أن يحتل الشرفاء مراكش، كانت هذه المدينة شبه مهجورة بسبب غارات الأعراب عليها، وإن كانت في ملك مولاي إدريس، وهي الآن آهلة جدا ويعامل سكانها معاملة حسنة من أجل ولي صالح اسمه سيدي كانون كان منها وأخذه البرتغاليون بأزمور منذ أن خرجوا من هذه المدينة وتركوها للمغاربة.

الفصل التاسع والثلاثون

تُومَكْلاسْتْ[13]

وهي من مساكن البربر في نفس الإقليم

عبارة عن ثلاث مدن مسورة في سهل على بعد خمسة فراسخ من الأطلس الكبير من جهة الشمال، تكتنفها الكروم وأماكن مغروسة فيها نخيل وأشجار مثمرة أخرى، مع بادية جميلة تنتج كمية من القمح. ولما كان البرتغاليون يحكمون هذه المناطق، كان السكان يؤدون لهم الخراج، وبعضهم كان يؤديه أيضاً حتى لملك فاس وللأعراب، فاضطروا أخيراً إلى ترك البلاد، إذ كانوا يعاملون معاملة سيئة جدا، لكنهم رجعوا إلى ديارهم منذ أن أصبح الشرفاء سادة هناك. البلاد غنية بالقمح والماشية، بعيدة بنحو تسعة فراسخ عن مراكش من جهة الغرب.

الفصل الأربعون

مراكِش

عاصمة المملكة

مدينة عظيمة تقع في أحسن موقع بإفريقيا كلها على بعد خمسة فراسخ أو ستة من جبل الاطلس، وتحيط بها أجود أقاليم موريطانيا الطنجية بأسرها. أسسها

---

(12) على بعد خمسة فراسخ من الجمعة الحديدة.

(13) كتب في الأصل الفرنسي تمديكَست. (مترجم)

ابن تاشفين، أول ملك مرابطي أو لمتوني، حوالي عام ألف واثنين وخمسين (للميلاد) حسب ما رواه عبد الملك[14] مؤرخ مراكش. ويرجع بعضهم أصل تأسيسها إلى أقدم من ذلك فينسبونه لأبي درامون ابن معاوية[15] الذي أراد بها أن يعارض ويضاد أبا جعفر، خليفة الجزيرة العربية الذي أسس آنذاك مدينة بغداد. لكن عبد الملك ينسب تأسيسها للأمير الذي ذكرت، وتحسينها لابنه يوسف[16] الذي أحرز على انتصارات كبيرة ضد مسيحيي إسبانيا. وقد استعمل في ذلك ثلاثين الف أسير لينهي تشييدها في أقرب وقت، ويتخذها مقراً له. وما زالت تشاهد لحد الآن كتابات عربية على لوحات من المرمر في بعض المباني القديمة تفيد أنها شيدت من طرف دولة لمتونة، أيام يوسف بن تاشفين. ولا تبعد عنها كثيراً مدينة أغمات التي كانت الحاضرة القديمة للمصامدة والممر المؤدي من بلاد البربر إلى نوميديا عبر الأطلس الكبير. ومن هناك دخل لمتونة عندما استولوا على الدولة.

مدينة مراكش مسورة بأسوار متينة، مبنية بالجير والرمل الممزوجين بتراب جيد يجعل الخليط صلباً لدرجة أنه إذا أصيب بضربة معول، تطاير منه الرشاش كأنه صخر، ورغم كون المدينة تعرضت للنهب مراراً فإنه لا توجد بالسور ولو ثُلْمَة واحدة، وهذا شيء غريب، نظراً لأن تخطيطها عجيب وكذلك إنجازها. لها أربعة وعشرون باباً، وتستطيع أن تضم مائة ألف نسمة، وكان ذلك العدد في دولة علي بن يوسف، حسب قول عبد الملك. ويقول جميع المؤلفين الأفارقة الذين كتبوا عنها في ذلك العهد وبعده إنها كانت أعظم وأغنى مدينة بإفريقيا كلها، أيام اللمتونيين والموحدين. ولقد شاهدت قطعة من المرمر في علو قامة رجل، منصوبة على ضريح قديم خارج باب الطبول مكتوب عليها هذه الكلمات بالعربية: «هذا قبر علي بن عطية، الذي كان يقودمائة ألف رجل، ويملك عشرة آلاف فرس، وأمر بحفر مائة بئر وواحد في يوم واحد لتَرِدَهَا خيله. وتزوج ثلاثمائة فتاة. وكان وفياً منصوراً، وأحد قواد يعقوب المنصور الأربعة والعشرين. قضيت نحبي في سن

(14) ظننا في البداية أن مارمول يقصد ابن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة، لكن تبين لنا بالاستقراء أنه يقصد به الحسن الوزان ويحرف اسمه هكذا جهلاً أو تجاهلاً. وقد ذكر الوزان أن تأسيس مراكش عام 424 هـ. وهي توافق سنة 1031 م. وقد نبهنا هناك (1 : 129 هامش 37) أن المشهور في تأسيس مراكش هو عام 454 هـ/ 1062 م. (مترجم).

(15) هذا من أوهام المؤلف، فلا يعرف شخص بهذا الاسم في المغرب، وهو يقصد بلا شك أحد الأمويين، ولم يكن هؤلاء آنذاك في المغرب بل كانوا في الاندلس. (مترجم).

(16) يوسف ابن تاشفين شخص واحد كما هو معروف، لا شخصان كما توهم المؤلف، نعم الذي بنى أسوار مراكش هو علي بن يوسف بن تاشفين. (مترجم).

الأربعين. من يقرأ هذا، فليطلب من الله أن يغفر لي». الامر الذي يبرر، إن صح ذلك، ما كتبه المؤرخون عن قوة هؤلاء الملوك الدين عبروا مرات عديدة لغزو إسبانيا بجيوش عظيمة جداً، إذ يقول قائد واحد إنه كان تحت إمرته رجال وأفراس بهذا العدد.

وتوجد في جهة الجنوب قصبة جميلة كبيرة تستطيع أن تضم أكثر من أربعة آلاف دار، مسورة بأسوار متينة وأبراج وخندق ونهر صغير، ليس فيها سوى بابين، أحدهما في جهة الجنوب ويفضي إلى البادية، والآخر في جهة الشمال نحو المدينة، حيث يقيم عادة حرس من جزولة، يراقبون الداخلين والخارجين، ويمنعون الاسرى المسيحيين من الخروج إلا مع حرسهم. وعندما يدخل المرء من الباب الأول من جانب الوادي يجد ساحة صغيرة فيها عدة مخازن أو أهراء، كان الملوك القدامى يخزنون فيها حبوبهم. ويقع الباب الثاني في زقاق مستقيم، يفضي إلى ساحة كبيرة، فيها جامع عبد المومن ملك الموحدين، وهو بناء ضخم جميل من الداخل والخارج. يقول المؤرخون إن يعقوب المنصور، حفيد هذا الملك، زاد فيه خمسين ذراعاً في العلو، لأنه كان منحدراً جداً، وإنه بنى صومعته التي هي شبيهة تماماً بصومعتي إشبيلية ومدينة الرباط. ولذا يقال بأنها جميعاً من صنع يد واحدة. وعلاوة على ذلك، فإنه زين الجامع بعدة أعمدة من رخام أمر بنقلها من إسبانيا، مضيفاً كشعار لانتصاره أبواب الكنيسة الكبرى بإشبيلية، وما زالت تشاهد حتى اليوم وهي مرصعة بقطع من البرونز مع أقفال كبيرة من نفس المعدن[17] وهي موضوعة بالباب الشمالي الموصل إلى البوابة القديمة بالقرب من المدرسة، وتتميز بالكتابات اللاتينية. كما وضع في هذا الجامع ناقوسين أخذهما من إسبانيا، وهما معلقان مقلوبين[18] في جناح الجامع بسلاسل غليظة، يمكن أن يراهما كل داخل أو خارج. وفي أعلى الصومعة على قمة البرج، أربع تفاحات من الذهب الخالص[19] مشدودة الواحدة فوق الأخرى إلى قضيب غليظ من حديد، أسفلها وهي الكبرى تسع ثمانية أمداد من القمح، والثانية أربعة، والباقي بالتناسب[20]. هيكل التفاحة من النحاس، مموه بصفيحة غليظة من الذهب الخالص. يقول

(17) أو مزلاجات.

(18) دلك لأن المعاربة لا يستعملون النواقيس.

(19) عند الوزان ثلاث تفاحات من فضة. (مترجم).

(20) مد أو مد ونصف لكل واحدة. وربما أكثر.

المؤرخون الأفارقة إن إحدى نساء يعقوب المنصور باعت جواهرها لتصنع هذه التفاحات. لكن الشعب يظن أنها وضعت هنا برصد سحري لبعض الارواح منع عددا من الملوك من أن ينتفعوا بها في ضرورات تسيير شؤونهم. وعندما كنت في هذه المدينة قال لي فقهاء الحامع إن الملك ناصر بوشنتوف أراد أن يقلع هذه النفاحات ليؤدي الأجور لجنده عندما كان يزعجه مولاي إدريس[21] والأعراب من جهة، والبرتغاليون ويحيى وملك فاس الذي أراد أن يسلبه هذه المدينة من جهة أخرى. لكن السكان عارضوه قائلين إنهم يفضلون أن يبيعهم وأبناءهم على أن يزيل شرف مدينتهم. وعندما كنت أسيرا بمراكش فإن الشريف مولاي أحمد الذي كان أكثر منه تدينا أزال التفاحة العليا مع القضيب الحديدي الذي كان بينها وبين ما قبل الأخيرة، وأمر صائغاً يهودياً بتذويبها، فإذا هي ليست كلها من ذهب، وداخلها من نحاس، ومع ذلك فإنها لم تساو أقل من خمسة وعشرين الف (بستول) من الذهب الخالص، وعندما تذمر الشعب من ذلك أمر بتذهيب النحاس وإعادة التفاحة إلى مكانها. وبعد ذلك بقليل شوهد اليهودي مشنوقاً ذات يوم بأعلى البرج، فقال الفقهاء إن الأرواح المرصودة لحراسة الكرة هي التي اختطفته ليلاً ووضعته هناك. لكن الشريف قد فعل ذلك لإرضائهم، أو حتى لا يقوم آخر بمثل ذلك. وحيث إن هذا الامير فَقَدَ منذ ذلك الحين الحياة والتاج، كما ذكرنا ذلك في الكتاب الثاني، فإن الشعب نسب مصيبته لهذا العمل، بحيث لم يُقْدِم أحد بعدُ على مسها.

توجد قرب هذا الحامع مدرسة عتيقة تدعى أيضاً مطرقة العلوم (كذا) بناها أيضاً عبد المومن كان فيها قديماً عدد كبير من الطلبة، مع أساتذة كثيرين. بلقنون الفلَك والتنجيم مع فنون أخرى وعلوم طبيعية كما كانت ندرس بها العربية والشريعة الاسلامية، سواء منها ما يتعلق بالمعاملات أو بالعبادات. كانوا يعيشون عن نفقة المدرسة الغنية جداً، لأن أفضل ممتلكات المدينة كانت لها. ولكنها أصبحت كلا شيء، خاصة منذ أن أسس الشريف الحاكم حالياً مدرسة أخرى أكثر جمالاً في أسفل المدينة، كما سنذكر فيما بعد. وتوجد في هذه المدرسة العتيقة بالقصبة قاعة كبيرة مزخرفة كلها بالفسيفساء، وصحن كبير في المقدمة مبلط بمربعات كبيرة من المرمر، في وسطه حوض قصير جداً حسب طراز البلاد، مصنوع من حجر واحد، لا مثيل له كبراً في بلاد البربر بأسرها. وكل الفضاء الممتد بين

(21) ملك الحبل

الجامع الرئيسي والسور من جهة الشرق حتى القصر العتيق، حيث كان بسكن الملوك القدامى، هو اليوم البستان الملكي الكثير الأشجار المثمرة الظليلة ، وفي الجانب الآخر من جهة الغرب يوجد اثنا عشر مخزناً بناها الشريف الحالي لخزن حبوبه، كلها مقببة، وأبوابها متجهة شطر الجنوب. وكان هنالك في القديم، بين هذه الأهراء والساحة المقابلة للجامع، قصران كبيران، بسكنهما المسيحيون المستعربون، الذين يستعملهم ملوك مراكش في الحرب، ومعهم نساؤهم وأولادهم. أتى بهم يعقوب المنصور من إسبانيا لحراسته الشخصية، وكانوا عادة خمسمائة فارس، يتقاضون أجرة حسنة جداً، ويمارسون شعائر دينهم، بحيث كانت لهم كنيسة في نفس الحي، يذهبون إليها للاستماع إلى القداس. وقد اتخذوا هكذا لمدة طويلة إلى أن استرجعهم دوم يوحنا الاول، ملك قشتالة إلى إسبانيا وأعطاهم أموالاً كثيرة وخصهم بمزايا عظيمة، كما هو الشأن بالنسبة لفرفانيس القوط بالاندلس، وغيرهم كثيرين ممن يأتون منها يسميهم اللاتينيون مستعربة، والعرب مستعربين، لا لكونهم صاروا يعملون في خدمة موسى (بن نصير) بعد هزيمة رودريق، ولكن لأنهم كانوا يعرفون اللغة العربية، ولأن لفظ «عرب» في هذه اللغة معناه «رجل عربي». حقاً إنه كان من بينهم بعض النبلاء ينتمون إلى حاشية أبناء الملك غطيشة والكونت يوليان مما قد يكون سبباً في تسميتهم هكذا. وما زال هذا الاسم ثابتاً في سبع كنائس خورنية بمدينة طليطلة(22) حيث يقام لقداس المتعرب. بالطقوس القوطية، كما كان ذلك جارياً في سائر كنائس نفس المدينة، قبل إقامة القداس الروماني بها.

ولنرجع إلى روايتنا فنقول : في أحد هذين القصرين للمستعربين بقصبة مراكش، مات الكونت دم فيرناندو، الذي كان قد انضم إلى المغاربة، لأن الملك فرناندو، الذي احتل اشبيلية، سلبه ملكه، لذلك خصص له ملك مراكش اقتبالاً حسناً جداً، ورتب له جرايات واسعة. وفي عام ألف ومائتين وتسعة عشر، أتى سان بيلار وخمسة من أصحابه إلى مراكش ليقوموا بالتبشير في هذا المكان، فقتلهم المغاربة لأنهم أخذوا يهاجمون ملة محمد، غير أن دم بيدري، ابن ملك البرتغال، الذي كان إذ ذاك بمراكش حمل رفاتهم إلى كويمبرا، ومنذ ذلك العهد، ألح المستعربون على الملك حتى أذن لهم بإقامة دير للرهبان الفرنسيسكانيين هناك.

(22) هي سان لوك، وسان سيبستيان، وسانت جوست، وسان أنطوان وسان مارك، وسانت أولالي، ومصلى الكنيسة الكبرى الذي يسمى باسم الكارديال جيمينيس مطران طليطلة.

ولما وصل ذلك الخبر إلى إسبانيا توجه إليه العديد من هذه الطائفة الرهبانية للتبشير بالدين المسيحي فذاقوا الأمرين بسبب غيرة الفقهاء[23] ومن جملتهم دانيال وستة من أصحابه الذين ماتوا بها عام ألف ومائتين وسبعة وعشرين. وبنى الشريف الحالي هنالك الآن مخازنه، حيث تصنع ستة وأربعون قنطاراً من البارود في الشهر مع عدة أسلحة، لكن عندما ثار مستعربو غرناطة[24] أحرقتها صاعقة أضرمت النار في البارود، ودمرت معها عدة قصور ودور مجاورة لكن المارقين الاندلسيين[25] وشوا إلى الملك بأن المسيحيين هم الذين تسببوا في ذلك[26] فأمر بإعدامهم. لكنه ندم لحينه بعدما علم بالحقيقة، وأمر بتوقيف الإعدام بعد أن قتل منهم ثلاثمائة.

وبعد الساحة الموجودة أمام الجامع من جهة الجنوب هناك فتحة في جدار من ناحية الغرب إلى ناحية الشرق، حيث باب الطبول، وسوق اخرى تباع فيها المؤن، ثم يسير الزقاق رأساً إلى الملعب الشعبي، وهو ساحة كبرى تقام فيها الأفراح في مختلف الأعياد، ويوجد قصر الملك أمامها. وبعد الدخول من باب الطبول هناك على اليسار بناءات قديمة مبنية بالجير والرمل متصلة بسور القصبة كانت في القديم أهراء ذات طابقين[27] يخزن فيها القمح، وتحتها قباب كثيرة يخزن فيها التبن، مع سلم خارجي واسع جدا بدون درجات، تصعد عليه الدواب المحملة بالقمح، فيكال في أعلى السطح الذي كان مبلطاً ثم يقذف به الى الداخل من ثقوب، ولسحبه كان في أسفلها بويبات مصنوعة على شكل ثقوب الطواحن، ما ان كانت تفتح حتى يسيل القمح إلى الخارج تلقائياً. هذه أجود مخازن بلاد البربر كلها حيث كان القمح يحفظ اثني عشر عاماً دون أن يتعفن أو ياكله السوس، بينما يتعفن بسبب الرطوبة في الأهراء الاخرى التي بناها الملك الحالي. هذه الأهراء القديمة المقببة هي التي يحبس فيها اليوم الاسرى المسيحيون، ذلك لأنهم في المكان الذي كانوا يحبسون فيه قديماً خلف اصطبلات القصر، كانوا ينقبون السور ويتدلون بحبال من هناك إلى الخندق ويهربون. ويوجد أمام السجن الحالي

(23) وصفهم مارمول بأنهم أعداء الله وكلمته، جرياً على عادته في كراهة الإسلام والمسلمين. (مترجم)
(24) سنة 1569
(25) يقصد المهاجرين الاندلسيين المستقرين بمراكش. (مترجم)
(26) مكيدة البارود هذه بتدبير المسيحيين المقيمين في قصبة مراكش ثابتة تاريخياً برواية مغايرة، انظر الناصري **الاستقصا**، 52:5. (مترجم)
(27) كانت تسع 12.000 كيلو من القمح في كل كيل أربعة أمداد.

للمسيحيين، فيما وراء الزقاق، قصر كبير[28] يسمى قصر النصر، يصهر فيه سلاح المدفعية، وتصنع فيه الاسلحة والذخيرة الحربية. وفي الداخل مصاهر الملك، يعمل فيها الاسرى المسيحيون باستمرار، ورغم أن معظم الرؤساء من الاتراك أو العلوج الذين اعتنقوا الاسلام، فإن ذلك لا يمنع من وجود عمال مسيحيين يخدمون تحت إمرتهم. وكان أمام هذا القصر قصر آخر أكبر منه يقيم فيه رماة الحرس وهم من الأفارقة على الإجمال، لكن الآن توجد عدة دور ودكاكين داخله.
عندما يكون المرء في ساحة الملعب الشعبي يرى من كل جهة عدة قصور على الطراز القديم. ويقع أهمها جهة الجنوب بجانب القصر الملكي ويسكنه القائد العام للجيوش، وبقربه اصطبلان كبيران مبنيان حسب طرازنا، لكنهما غير مستعملين الآن لان المغاربة يعتقدون أن الخيول تكون أصح وأقوى في الهواء الطلق، ولذلك يبنون اصطبلات مكشوفة ويضعون علف الخيل في الأرض، أو في أكياس صغيرة.
وإلى يسار الملعب الشعبي، في الجانب الآخر للقصر الملكي، بناية أخرى عظيمة على الطراز القديم كانت تستعمل كمدرسة لأبناء الملك وأكابر الأمراء، فيها قاعة كبيرة جميلة مربعة تحيط بها من كل جانب رفوف أو خزانات لحفظ الكتب. الأبواب كلها من خشب الأرز المزخرف بالعاج المحبوك بالذهب، وبألوان زاهية لدرجة أنه قد يظن أنها صنعت منذ قليل. وهناك أيضاً عدة قاعات جميلة وكبيرة في هذا الجانب، وصحن تكتنفه بوابات واسعة، مدعمة بأعمدة سميكة من مرمر مختلف الالوان مع زخارف من الفسيفساء على الجدران التي هي بالإضافة إلى ذلك مهيأة بمربعات صغيرة، والسقف مذهب ومزخرف بعدة ألوان. كان الابن البكر للشريف محمد يسكن في هذا القصر، من أجل جماله وكبره، فضلاً عن أنه أجمل قاعة في بلاد البربر كلها. وكان بين هذا القصر وقصر الملك سقائف يقيم بها الحرس الشخصي الذي يتولى السهر على القصر ليلا. إن الملك الحالي سوَّر جميع هذه البنايات، مع الدار الملكية وضمها إلى قصره الجديد الذي يبتدىء على طول سور القصبة، من القصر القديم الواقع خلف الجامع المذكور، إلى القصر الملكي الذي يفضي إلى الملعب الشعبي. ويضم هذا المكان المسور عدة أفنية واسعة (مشاور) ومساكن رائعة، لنسائه وسراريه، يملكن فيه مقاصير معزولاً بعضها عن بعض، فضلا عن مساكنه الخاصة، حيث تخزن الذخائر والأسلحة. وفي إحدى زوايا هذا القصر، ثلاث قاعات قصيرة بقبابها المذهبة، وفي القاعة الوسطى ثلاث

(28 دار الصناعة.

سقايات وبابان يفضيان إلى حديقتين جميلتين مغروستني بالياسمين، والرند والآس، وبعدد من الأزهار العطرة، مع عرائش الكروم والاشجار المثمرة على طول الممرات المسيَّجة بخُشب [29] في أعلاها أسنة من حديد. وفي إحدى هذه الحدائق صهريج طوله مائة قدم، وعرضه خمسة وعشرون، مبلط[30] بمربعات صغيرة يسبح فيه الملك صيفاً. وكان هذا الصهريج عميقاً لدرجة أن الأمير الحالي أوشك أن يغرق فيه وهو ثمل. لذلك أمر بأن ينقص من عمقه، بحيث إنه يمكن الدخول فيه دون أن يغطي الظهر بالماء. وفي هذا القصر أيضاً قبتان غنيتان تسميان مشورين[31] يجلس بهما الملك إذا أراد أن يستقبل الناس، يمكن للجميع أن يراه في إحداهما، ولكن الاخرى لا يجتمع فيها إلا أكابر الحاشية للتداول في مهمات الامور وكلتاهما صممتا بحيث إذا رفعت بعض الشبابيك أو الأبواب المحيطة بها، لم يبق الا درابزين مذهب، يتكىء عليه الجمهور ليستمع الى الفصل في قضاياه، لكن لا يمكن ولوجهما الا من بابين صغيرين يقف عليهما البوابون والحراس، وتحيط بهما فوارات جميلة، مع كثير من أشجار البرتقال، والآس والليمون الحامض، في ساحات كبيرة، يتجول فيها الجمهور يوم الاستقبال. وبأحد جوانب القصر الملكي أماكن خاصة بالعملة والجمرك، حيث توضع البضائع الموجهة الى أوربا ليأخذ الملك عشرها. إن التجار الذين يتسلمونها إسبانيون، وإنجليز، وفرنسيون وفلمنديون، ياتون في مقابلها بسيوف، وقاذفات نارية وأشياء غيرها من البضائع المهربة[32] لإرضاء الشريف. وفي القصر حمام فخم للملك وحمامات اخرى لنسائه. وفي الجانب المؤدي إلى ساحة الملعب الشعبي جامع بصومعته المحتوية على ثلاث تفاحات من نحاس مموهة بالذهب كالتي تحدثنا عنها، لكنها أصغر منها حجما. وأخيراً توجد في جميع جهات هذه القصبة بناءات جميلة ومنازل مبينة حسب الطراز الحديث : وقد زين عبد الله الحاكم حالياً مدينة مراكش حتى أصبحت الآن من أجمل مدن افريقيا. وحيث إنه يحب العمران فإن الناس يتنافسون في البنيان اقتداء به.

---

(29) أو قضبان.

(30) أو مرقش.

(31) اي قاعتي المجلس.

(32) وصف البضائع بأنها مهربة اعتبارا لقرار البابا الذي حرم على التجار المسيحيين تزويد المغرب بالسلاح حتى لا يهاجم به الثغور التي يحتلها المسيحيون في أرضه كسبتة وأصيلا ومازغان. لكن البروتستانتيين وغيرهم من المسيحيين المتحررين لم يكونوا يعتبرون ذلك القرار، ويزودون المغرب بالأسلحة التي ذكرها المؤلف. (مترجم).

ولنعد إلى المدينة فنقول : إن بها عدة مساجد جميلة، قديمة وحديثة، ومن أشهرها في بلاد البربر ذلك الذي يسمى بجامع الكتبيين ويدعى باسمه الحقيقي جامع علي بن يوسف، لأنه هو الذي شيده. ويقال إن عبد المومن، ثاني ملوك الموحدين، هدمه ما عدا الصومعة، ثم أعاد بناءه، للقضاء على ذكر مؤسسه، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يمحو اسمه من ذاكرة الناس. شكله عجيب وصومعته أعلى صومعة في إفريقيا بأسرها. سمك جدرانها اثنا عشر قدماً، ويستطيع ثلاثة فرسان أن يصعدوا جنباً إلى جنب حتى أعلاها، لشدة استواء مدرجها وسعة عرضه، مع نوافذ عديدة من مسافة لأخرى لإعطاء المزيد من الإنارة. وفي أعلى قمة الصومعة ثلاث تفاحات من فضة منضدة في عمود غليظ من فولاذ، مثل التفاحات الذهبية المذكورة، يقال إن كبراها تسع اثني عشر كيلا من القمح، والثانية ثمانية أكيال، والثالثة أربعة. يقول عبد الملك إن علي بن يوسف وضعها هناك تذكاراً لانتصار كبير له على النصارى بإسبانيا، وإن هذه الفضة هي عشر خمس الغنيمة التي كانت من نصيبه. عندما يكون الجو صحواً يلوح من أعلى الصومعة جبل أسفي، الواقع على بعد أربعين فرسخاً. حقاً إنه شاهق جداً وإن سهلاً واحداً فقط يفصل بينهما. ولما كنا متوجهين من إقليم دكالة إلى مراكش أبصرنا تفاحات هذه الصومعة منذ الجبل الأخضر، الواقع على بعد ثمانية عشر فرسخاً. وبالتالي فإنه بناء شديد الارتفاع عجيب الصنع، يعزو الشعب إنجازه إلى العمالقة. أضف إلى ذلك أنه سمِّي بالكتبين، أي جامع الكتَّاب لأنه ـــ عندما كان يشيد ـــ كانت تحيط به دكاكين صغيرة يقيم فيها الذين كانوا يسجلون الاعمال التي تنجز فيه[33] وفي المدينة مسجد آخر يدعى الحامع الكبير، وهو أقدم المساجد كلها. بناه يوسف بن تاشفين، ترفع عليه أول راية عند مبايعة ملك جديد، وفيه تبدو سائر علامات الابتهاج أيام الاستبشار العام. أعاد الملك الحالي بناءه وزينه بمبانٍ جديدة فخمة[34]، وبقربه مدرسة كبيرة تحتوي على أربعمائة حجرة للطلبة بصحونها، وبمراتها، معزول بعضها عن بعض (ومبلطة) كلها بمربعات صغيرة كأنها مرصعة، مع قاعات كبيرة للدروس وأروقة كبيرة للتفسح فيها. ينفق

(33) عند الوزان · مائة دكان لباعة الكتب، وهو الأقرب والأنسب للاسم الذي ذكره مارمول نفسه وقد اختلط عليه جامع الكتبيين وجامع علي بن يوسف فجعلها جامعا واحدا، خلافا لما في الأصل الذي نقل عنه وهو كتاب الحسن الوزان. (مترجم).

(34) يقصد جامع الأشراف بالمواسين. (مترجم).

على الطلبة والاساتذة من موارد المدرسة التي تاتي من أفضل أملاك المدينة. وقد أسس نحوار المدرسة مسجد (مخزن) تحفظ فيه موارد جميع مساجد المملكة.

كان حي اليهود قديماً في وسط المدينة، في مكان يضم أزيد من ثلاثة آلاف منزل، لكن الملك الحالي نقله إلى أحد الأطراف بالقرب من باب أغمات، حتى يكون اليهود مفصولين عن المسلمين. تحيط بهذا الحي أسوار من جميع جهاته، وليس له سوى باب يفضي إلى المدينة، وآخر صغير يؤدي إلى مقبرتهم. وبنيت داخل الاسوار عدة ديار وبيَع. معظم هؤلاء اليهود صاغة، يصنعون رؤوس لُجُم فضية جميلة وغيرها من زينة الخيل مع مهاميز وركابات في غاية الزخرفة. ومنهم تجار عاديون، وآخرون يتجرون بكيفية غير مشروعة، لكن أكثرهم ثراء هم الذين يدبرون ممتلكات أبناء الملك والعمال. لان هذا الرهط يفضل أن يكل أمر تدبير أمواله إلى اليهود، ويجد في ذلك مصلحته. يؤدي جميع اليهود جزية قدرها درهم عن كل رأس، فضلا عن الضرائب العادية.

وتوجد بالقرب من المنطقة القديمة الساحة الكبرى التي في وسطها كومة من التراب أعلى من الدكاكين والدور المحيطة بها، وفيها يقع إعدام الأشرار، وتشاهد بها دائماً مشنقات، يعلق فيها بعضهم من أرجلهم ثم يذبحون، ويعلق آخرون هكذا دون أن يذبحوا حتى يموتوا على هذه الحاله، ويعلق بعضهم من الذراع والبطن مفتوح حتى يموتوا بهذه الكيفية. لكنهم لا يربطون أحداً أبداً إلى مشنقة وذراعاه مبسوطتان. هكذا يعامل المجرمون عند انعدام الخصم، ولكن، إذا كان هناك خصم(35) فإليه ترجع العدالة، فيخنق المجرمين ويذبحهم، أو يطعنهم بالرماح أو الخناجر، أو يبيعهم كعبيد، أو يساعدهم على فداء أنفسهم بالمال. في هذه الساحة عدة دكاكين لصانعي الأقفال والإسكافين والنجارين ولكل أصناف التجار الذين يبيعون أشياء صالحة للأكل. وفي أحد الجوانب مكان يباع فيه الحرير وأقمشة الكتان، والقطن، والصوف الرقيق أو الغليظ، الملتوية وغير الملتوية. وهنا محل الجمرك، حيث يقيم التجار المسيحيون الاوربيون بسلعهم، ويقام كل يوم خميس بهذه الساحة سوق يقصد من جميع النواحي، لشراء وبيع كل أنواع الماشية والمؤن، وإن كان السوق الاكبر هو الذي يقام بالضاحية، قرب باب دكالة، حيث يحضر

---

(35) يقصد والي المقتول الذي قال الله تعالى فيه : «ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا». الآية 33 من سورة الاسراء (مترجم).

كل يوم ثلاثاء أعراب وبربر كثيرون، فيتزود الناس بالقمح، والشعير، والسمن، والزيت، والتمر، وغيره.

ومن أغرب الاشياء بالمدينة مبنى رائع لتجميع المياه، الامر الذي يدل حقاً على ما كان عليه هؤلاء المسلمون(36) من قوة في القديم. ذلك لأنه يدخل إلى المدينة أربعمائة قناة أو ساقية ماء آتية من الجنوب، وهي عميقة جدا في الأرض. يقول بعضهم إن هذا الماء ياتي من بعد ستة فراسخ من نهر ينبع من جبل الاطلس، كانت قناته المغطاة حتى المدينة تحول دون اكتشاف مصدر الماء ومجراه. وللتأكد من ذلك، أمر بعض الملوك رجالاً بأن يدخلوا إلى هذه القنوات ومعهم فوانيس وزاد يكفيهم لمدة يومين أو ثلاثة، ويذهبوا حتى يصلوا الى العين، لكنهم لم ياتوا بشيء ثابت، متعللين جميعا بموانع مختلفة ، يذكر بعضهم أنهم صادفوا، بعد قطع مسافة فرسخين، هواء في غاية البرودة بحيث أطفأ النور، ويزعم بعضهم أنهم وجدوا القناة مغلقة بالحجر أو التراب، بحيث لم يتسطيعوا متابعة مسيرهم، ويقول آخرون إن القنوات كانت مثقوبة، مكونة مستنقعات في بعض الاماكن يستحيل عبورها، وأن طلاسم سحرية كانت منعتهم من متابعة السير، لكن الشريف الذي يحكم حالياً شرع منذ قليل في حفر آبار كبيرة في تلك الجهة، على بعد فرسخين أو ثلاثة من المدينة، حيث تاخذ الارض في الارتفاع، وبعد أن جمع الماء كله في خزان ساقه عبر قناة الى المدينة، ثم أمر بإغلاق جميع الآبار والثقوب بحيث لا يعرف من اين ياتي الماء ولا اين هي القناة. وذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن (القنوات الاخرى) كلها صنعت بهذه الكيفية، حتى إذا ما حوصرت المدينة لم يمكن قطع الماء عنها بتاتاً إن لمعظم هذه القنوات فتحات داخل المدينة، لا في الحقول، يقول المؤرخون العرب إن عشرين الف اسير مسيحي هم الذين حفروا هذه القنوات، ويوجد على بعد فرسخين من المدينة الى جهة الشرق، نهر تنسيفت الذي يسقي المنطقة كلها. لكن الشريف الذي يحكم اليوم جلب منذ أمد قريب من تلك الجهة قناة كبيرة من جبل أغمات الى مراكش، تدير ما يزيد على خمسين طاحونة في السهل، الواحدة تلو الاخرى، وتسقى عدة بساتين غرسها مسلمو الاندلس على ضفاف القناة، ذلك ان الشريف وزع عليهم قطعاً أرضية في هذه المناطق وخصص لهم أجراً كالجنود. ومن هناك ياتون الى سلا وفي المراكب الموجودة عادة في هذا النهر (أبي رقراق) يقومون بمهاجمة شواطىء اسبانيا. قائدهم مسلم من

(36) يعبر عنهم المؤلف ــ كعادته ــ بالكفار (مترجم)

الاندلس يدعى الدغالي، أي الحداع وهم يقيمون في مراكش بحي يسمى الآن أورخيبا الحديدة، لان أول من سكنها منهم جاءوا اليها من تلك المدينة.

سكان مراكش متكبرون، يتباهون بالشجاعة وبأنهم ألد أعداء المسيحيين. يتكلمون بلغة البربر، ويرتدون جبات من جوخ ملونة تصل إلى الأرجل، وقطعاً صغيرة مفصلة على شكل القرن كأنصاف سترات من فوق من شملة رقيقة أو من خيوط الحرير والصوف، ولهم قمصان وسراويل من قماش أبيض، وقلنسوات قرمزية مع عمامات صغيرة. يرتدي الأعيان سترات قرمزية، أو من الحرير الملون، أو من قماش (كامبري) الرفيع، ولباس العامة كذلك، ولكن بأثمان أقل. وللعديد منهم دثارات مخصرة ملونة لها اربعة أذيال، ونصف أكمام ضيقة جدا، والكل مزين بأزرار وفوقه شبه سترات أو معاطف من ثوب خشن.

والنساء متحضرات أنيقات يمشين وهن متزينات بعدد من الأساور الملولبة والمنبسطة من الذهب والفضة، وبكمية من الدرر والجواهر في العنق والرأس والأذنين. لباسهن من الحرير أو القماش الرفيع يسترهن حتى الاقدام، وليس لهن سراويل كالفاسيات. لا تخرج السيدات من منازلهن إلا للقيام بزيارة، أو للذهاب إلى المسجد. وإذا خرجن إلى الحمام حجبن وجوههن جيدا ليختفين عن الانظار، لكنهن ظريفات وأنيقات وبعولتهن غيورون عليهن جدا.

يتعامل السكان فيما بينهم بالحسنى، وينفقون على تغذيتهم اكثر من أهل سوس، لأن لهم فضلا عن وفرة القمح واللحم والسمن والتمر، كمية من لحم الصيد وشحمه وجميع أصناف الحلويات مثل أوربا. المدينة اليوم آهلة جدا بالسكان وتتحسن كل يوم بفضل الملك.

لقد تحدثنا في الكتاب الثاني عن الحروب التي جرت بهذه المدينة، وسنذكر هنا كيف جاء القواد البرتغاليون بجنودهم، حتى وصلوا إلى أبواب المدينة، وذلك لإبراز الفرصة الثمينة التي ضيعناها للانتقام من إهانات هؤلاء المسلمين والقيام بهذا الغزو، لو كان الملوك المسيحيون أرادوا الإسهام في غاية شريفة بهذا القدر.

كيف وصل القادة البرتغاليون إلى أبواب مراكش

لما انتصر دم مانويل ملك البرتغال بإفريقيا، سنحت له فرصة ثمينة للاستيلاء على قسم كبير من موريطانيا الطنجية، التي كانت فيها حروب أهلية ويحكمها عدد من الأمراء الصغار، لم يكونوا كلهم أقوياء.

كان مولاي إدريس يسيطر على جبال الاطلس الكبير، وابن حدو وأخوه مولاي فارس على الجبل الاخضر وقسم من اقليم دكالة، وكان هذا الاخير يحتل بعض المواقع على نهر أم الربيع. ولم يفكر الشرفاء بعد استيلائهم على إقليم سوس وبعض مناطق إقليم حاحا إلا في التوسع بدعوى الجهاد. كان محمد الوطاسي ملك فاس قبل الاخير لهذه الدولة يملك إقليمي هسكورة وتادلا، مع قسم من إقليم دكالة، ولم يكن لمولاي الناصر بوشنتوف سوى حكم مراكش، وهو يعاني الكثير للاستمرار في الحكم، لأن الأعراب كانوا سادة البادية يجوبون البلاد كلها. كان إذ ذاك نونيو فرنانديس دي اطايدي حاكماً بأسفي، ومعه في خدمة ملك البرتغال أكثر من خمسة عشر ألف فارس من الأعراب وجماعات إقليمي دكالة وحاحا، بقيادة يحيى بن تعفوفت، بحيث إنه كان يجوب جميع أراضي مراكش ويفرض على السكان إتاوات يؤدونها طوعاً أو كرهاً. وكان له بالإضافة إلى الحلفاء، ثمانمائة فارس برتغالي وعدد من المشاة بأسفي، تمكّن بهم من إحراز بعض الانتصارات على ملك مراكش، وهزم مرارا الشرفاء وعمال ملك فاس بمساعدة هذا الافريقي يحيى الذي خدم ملك البرتغال بوفاء إلى أن مات.

وسنذكر كيف جاء لخدمة هذا الأمير عندما نتعرض لوصف أسفي. كانت الأمور على هذه الحال بإفريقيا، وكان في استطاعة البرتغاليين أن يفتحوا مملكة مراكش، لولا اهتمامهم باكتشاف الهند، وإسهامهم بذلك في الرفع من قدر الشريف. إلا أن نونيو فرنانديس وهو يفكر في غزو مراكش الذي لم يستطع تحقيقه حتى ذلك الحين لاعتبارات شتى، أخبر يحيى، وسيدي ميمون، وهو قائد افريقي آخر كان أيضاً في خدمة ملك البرتغال، أن يتأهبا مع الحلفاء للقيام بعملية حربية مهمة. كما أخبر دم بيدرو دي صوفا حاكم أزمور آنذاك ليلتحق به في الوقت المناسب في ملاحات دكالة. فامتثلوا كلهم بحمية، وقد أطلعهم نونيو فرنانديس بعد انضمامهم إليه على نيته، فأظهروا ابتهاجاً كبيراً. وانطلقوا كلهم من المكان المذكور، عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر في اليوم الخامس والعشرين من ابريل، مع ثلاثمائة فارس مسيحي من أسفي، ومائتين من أزمور، ومائة من رماة البنادق المشاة، وألفين وأربعمائة مغربي(37) وذهبوا ذلك اليوم إلى قرية بوسدان للمِيرة، واصطفوا للقتال، فكان شراقة وعبدة في الميمنة، وأهل الغربية في الميسرة، والمسيحيون

(37) ستمائة من عبدة، وألف من الغربية، وثمانمائة من شراقة، على بعد ميلين من الملاحات.

في الوسط، فاخترقوا هكذا سهلا كبيرا حتى مسقاروطان، حيث تبردوا بقليل من ماء غدير وجدوه هناك، ثم عقدوا مجلسا لمعرفة الجهة التي سيهاجمون منها مراكش، واختلفت الآراء. فبعضهم أرادوا أن ينطلق الهجوم من باب سيدي أبي العباس، معتقدين بأن الانسحاب سيكون أسهل، وعارض آخرون بأن الطريق مقطوعة بعدة خنادق وقنوات، من شأنها أن تؤخر السير، مؤيدين الرأي القائل إنه لا بد من الدخول من باب فاس الذي هو أقرب طريق وأسهل. وأخيرا قر الرأي على أن تتوجه الطليعة إلى الأمام مع بعض الحلفاء لاستطلاع الطريق، وعلى هذا الاساس انطلقوا يوم الغد من مسقاروطان، وعبروا نهر شيشاوة، فلاحت لهم من أعلى ربوة في وضح النهار التفاحات الذهبية بجامع القصبة، فاصطفوا للقتال، فكوّن حاكم أزمور جيشين من رجاله، ووقف في ميمنة نونيو فرنانديس، وسار عبدة وأهل الغربية في المقدمة، ووقف شراقة في ميسرة المسيحيين. وساروا هكذا في سهل مليء بالأدغال، يتقدمهم جنود الطليعة، مع بعض ضباط المشاة لاستطلاع البلاد. ولما وصل هؤلاء إلى الجامع القديم المسمى سيدي أبا العباس السبتي، الواقع قرب الأسوار، أشاروا إلى نونيو فرنانديس بأن الطريق غير صالحة، بسبب العديد من القنوات والمستنقعات التي يجب اجتيازها، فقرروا الدخول من باب فاس. ولما نفخ في الابواق انطلق المغاربة بكل سرعة في سفح جبل قريب من الاسوار، وانتشروا في كل مكان حتى يظن أن عددهم كثير. فأمر نونيو فرنانديس العدائين من أهل الغربية أن يذهبوا حتى الابواب ليروا هل سيخرج أحد، وكان بعضهم قد ضرب الباب برمحه مرة، ولحق به الباقون ، بينما سار المسيحيون في الطريق، والقمح الذي يسقى بماء القنوات المكشوفة في ذلك المكان بسبب انحدار الارض، وحيث انها كانت مكسورة في شتى المواضيع كان من المستحيل أن يسير أكثر من فارسين أو ثلاثة مجتمعين. ولما خرجوا من هذه المسالك، وقفوا كلهم على مسافة نحو مَجْرَيَين للخيل من باب فاس، واتفق أن حاكم أزمور كان هو الأقرب لأنه كان في الطريق الكبير بحيث يسهل عليه الاقتراب. ووصل شراقة الذين كانوا في ميسرة فرناندو إلى باب الدباغين، وأهل الغربية إلى سيدي أبي العباس، وعبدة إلى باب الرب، حيث أزعجوا شيئاً مّا السكان الخارجين منه. كان الشرفاء ذلك اليوم في مراكش، مع أحد نواب ملك فاس وعدد كثير من الجنود الذين خرجوا عندما سمعوا الضجة من باب فاس، وحملوا على العدائين الذين كانوا غير منظمين بحمية كبيرة، فتصدوا لهم بمشقة عظيمة وجرح سيدي ميمون قائد عبدة في إحدى ساقيه

وسقط لوبي باريكًا حاكم أسفي، وكاد يهلك لولا أن أعانه ابن أخيه بيدرو باريكًا وأهل الغربية. ودامت المعركة أكثر من أربع ساعات، أسفرت عن عدد عديد من القتلى والجرحى من الجانبين. وأخيراً خرج من جميع الأبواب أقوام كثيرون راجلون وراكبون، فعزم المسيحيون على الانسحاب من إحدى مجازات واد تانسيفت إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك دون أن يقتل ويجرح العديد من الرجال والخيل أثناء الانسحاب. ولما وصلوا إلى المجاز الذي لا يستطيع أن يمر فيه سوى فارسين أو ثلاثة معاً، ضيَّق أهل المدينة الخناق على عدوّهم إلى حد أن دُمْ فرناندو اضطُرَّ إلى الوقوف في المؤخرة مع جنده حتى يجتاز الآخرون، ومع ذلك فقد وجد مشقة عظيمة في مقاومة حمية المغاربة. ولما اجتاز المغاربة التابعون له اجتاز هو مع المسحيين دون أن يفقدوا واحداً منهم، لكن الآخرين كان من بينهم عدد كثير من القتلى والجرحى. وبعد قطع المجازة، انضموا إلى بعضهم ليسيروا مجتمعين، لكن أهل المدينة عبروا المجازة في أثرهم، عازمين على الانقضاض عليهم بجميع قواتهم، وقد ساءهم أن يروا المسيحيين يجرؤون على مهاجمتهم وهم أكثر عدداً. غير أن المغاربة التابعين لدُمْ فرناندو، بعد أن ابتعدوا بنصف فرسخ عن النهر، كروا عليهم مع بعض المسيحيين الذين انفصلوا عن معظم الجيش، وصدوهم حتى النهر، بعد أن هلك بعض الأعداء، وقد قتل فرس نائب ملك فاس وهو راكب عليه. ثم عادوا ليلتحقوا بجيشهم الذي توقف في انتظارهم، وباتوا تلك الليلة في عين الحبن بعدما اجتاحوا البلاد وأفسدوها. وفي يوم الغد باتوا في حكَوسدن، ومن هناك إلى تازروت، حيث خصص لهم أعراب أولاد عمران استقبالاً حسناً جدا وأرسلوا إليهم قِرىً ومرطبات. ثم قصدوا المدينة وافترقوا هناك. التحق المسيحيون بأسفي وأزمور، والمغاربة بدواويرهم. إلا أن جرأة هذه العملية العسكرية زادت في سمعة البرتغاليين لكونهم جاءوا يهاجمون مدينة شهيرة، طالما أشاد المؤرخون بعجائبها، سواء منهم القدامى والمحدثون.

الفصل الواحد والاربعون

أغْمـــاتْ

في إقليم مراكش

هذه المدينة البعيدة عن مراكش بثمانية فراسخ، الواقعة على منحدر أحد جبال الأطلس الكبير كانت في القديم عامرة جدا ومحاطة بأسوار عالية مع قصبة

جيدة، لذا كانت حاضرة الامبراطورية قبل أن تبنى مراكش. وينسب تأسيسها إلى الأفارقة الأقدمين، يقال إن المرابطين عندما انتقلوا من نوميديا إلى بلاد البربر مع ابن تاشفين، كان بأغمات أزيد من سبعة آلاف دار كما كانت عاصمة الإقليم، لكنها نقصت شيئاً فشيئاً، منذ تأسيس مراكش، إلى أن أصبحت خالية تقريباً. وقد عمرها الموحدون بعد دولة المرابطين، وأصلحوا من شأنها بحيث إنها غدت تدعى مراكش الثانية، لكن بني مرين دمروها وثلموا الأسوار في أماكن عديدة، وخربوا الدور، وتركوها مأوى للوحوش. موقعها جيد تكتنفه بساتين وكروم، مع نهر(38) في أسفلها يخرج من بحيرة كبيرة، ويسيل في سهول خصبة فسيحة، إلى أن يصب في تنسيفت. إن البادية الممتدة بين هذين النهرين تنتج غلة وافرة، بحيث إن صاعاً واحداً يعطي خمسين أو ستين صاعاً؛ وكانوا يشتكون من ضعف المحاصيل إن لم ينتج سوى نصف ذلك العدد. لقد أخذت قناة مراكش من هذا النهر، ويمر في أسفل المدينة الطريق الكبير المؤدي من بلاد البربر إلى إقليم جزولة عبر جبل الاطلس حيث يوجد ممر صعب جداً دخل منه المرابطون. يسكن القصر عُبَّاد من قبيلة مصمودة، يعيشون عيشة الزهاد، ومن أجل ذلك بقي بعض السكان في المدينة، نظراً لما يكنّون لهم من احترام، لا يزعجهم سكان مراكش ولا الأعراب، ويعمل معظمهم في البساتين أو صنع الفخار أو حرث الحقول، وقد ألفوا ذلك المكان منذ حكم الشرفاء. يسمي بطليموس أغمات (يميري) في خريطة ليبيا، ويجعلها في الدرجة التاسعة وعشرين دقيقة طولا والدرجة العشرين(39) وثلاثين دقيقة عرضاً. لغة السكان هي البربرية، وقبيلتهم مصمودة. ومن أعجب ما في هذا المكان البحيرة التي تتجمع فيها كل مياه الجبل، وهي مقعرة في جهة ومرعبة بكبرها وعمقها اللذين يجعلانها معرضة كثيراً للزوابع.

الفصل الثاني والاربعون

أئمَـاي أو أنيـم

هي مدينة صغيرة سكانها بربر من قبيلة مصمودة، بناها الأفارقة القدامى على منحدر أحد جبال الأطلس الكبير المسمى أئماي، في اتجاه الشمال، على بعد

---

(38) واد أغمات

(39) تقرأ : الدرجة التاسعة والعشرين بدلا من العشرين.

ثلاثة عشر فرسخاً من مراكش شرقيها على طريق فاس المحاذي للتل. يمر واد أغمات على بعد خمسة فراسخ من هناك، ويمتد بينه وبين المدينة سهل كبير ينتج كمية من القمح، وكثيراً من الكلأ للقطعان. وفي عام ألف وخمسمائة وثلاثة عشر استولى عليها شاب افريقي شجاع مقدام من نفس القبيلة، بعد أن قتل عمه، وأعاد إلى الطاعة مناطق كثيرة كانت ثائرة. وانتصر حتى على البرتغاليين الذين أغاروا على البلاد بصحبة الأعراب وغامروا دون أن ياخذوا طبيعة الأرض بعين الاعتبار، فلم ينج من ثلاثمائة برتغالي ولو واحد. وقد حمّسه هذا الانتصار كثيراً حتى إنه امتنع عن أداء الخراج لملك فاس، فأرسل هذا الأخير لمحاربته عدداً وافراً من الفرسان ورماة البنادق المشاة فقتلوه في إحدى المعارك، ثم استسلمت المدينة وأصبحت تابعة لهذا الملك كذي قبل(40) وظلت منذ ذلك الوقت خاضعة لملك فاس إلى دولة الشرفاء. وليست هذه المدينة محصنة، اصطناعياً ولا طبيعياً، إذ يشرف عليها الجبل وليست لها سوى أسوار سيئة. ينبع وادي تانسيفت بالقرب من هناك، ويسيل نحو الشمال ثم يدور نحو الغرب دائماً عبر السهول إلى أن يصب في المحيط بناحية أسفي.

ولا وجود لمدن أخرى في إقليم مراكش، والأماكن الواقعة حول المدينة في منطقة الحوز، حيث يكثر الإنتاج ويزود المدينة بكل ما تحتاج إليه، هي الآتية : الحوز، أسطار، أزكيندن، سور الجوهرة، كرة التبن، تركَين، الحارة، سور الفقراء. وتوجد بالقرب من مراكش قرية أو مدينة صغيرة، تسمى مرامر تحيط بها سهول كبيرة، بها هذه الاشجار التي يصنع منها زيت الهرجان (أركَان). وهناك مدينة أخرى على بعد خمسة فراسخ من مراكش إلى جهة الشمال تسمى شيشاوة، باسم نهر يمر بالقرب منها. وقد حصنها الشريف، عندما كان يدافع عن نفسه ضد مراكش وآسفي، وأحاطها بأسوار عالية من الطوب، وهي الآن مهدمة، ولم يبق إلا أن نتحدث عن ثمانية جبال بهذا الاقليم، كثيرة السكان جداً.

---

(40) سنة 1515.

الفصل الثالث والاربعون

الجبال وسكانها

نفوسة المسماة الآن أدْرَارْ ـــ نْ ـــ دْرن(41)

هذا فرع من الاطلس الكبير، المحاذي لفرع تنزير من جهة الغرب، في إقليم حاحا. يسقط فيه الثلج عادة، لأنه شاهق، لكن ذلك لا يمنع من أن يحصد فيه الكثير من الشعير. سكانه من مجموعات رَكراكَة، وهسكورة، ونفوسة، وغيرهم من برابرة قبيلة مصمودة، وهي قبائل شجاعة، كثيرة العدد، متغطرسة، لكنها من جهة أخرى في غاية البساطة والسذاجة بحيث تصدق كل ما يقال لها في أمور الدين، وإذا لقوا رجلاً من سكان المدن جعلوا يتعجبون من سلوكه ولباسه، لهم كمية من قطعان الماعز، وكثير من العسل والشمع، وتلك الثمار التي يصنع منها الزيت. يعيشون ويعاملون الأجانب على غرار أخبث قوم في العالم. ليس لهم مدينة مسورة، ودورهم مبنية بحجارة صماء(42) أو بمربعات رديئة من طين، ومغطاة بشبه أردواز، أو عروش أشجار، وهي مبعثرة هنا وهناك عبر الجبل. ولا تتعدى أهم مجموعة سكنية عندهم خمسين داراً، ولا تشتمل جلها إلا على ثمانية مساكن أو عشرة، توجد في الأعماق بأعلى الجبال. وفي سنة ألف وخمسمائة وثلاث وأربعين أيام كان الشريف محمد ملكاً بمراكش، ظهر بهذا الجبل سيدي عبد الله، الفقيه أو الخطيب المرابط من رهط الموحدين وحشد عدداً من البربر، لكن الشريف أرسل في الحين لقتاله سبعمائة من رماة البنادق الأتراك وأربعة آلاف من الفرسان المغاربة، بقيادة فارسي(43) فتسلق الأتراك الجبل، تاركين خيولهم في السفح. ونظراً لكونه قائماً جداً ومحتوياً على أماكن في غاية الوعورة، فإنهم تسلقوا شيئاً فشيئاً إلى القمة بكل عناء وخطر، لأن هؤلاء البربر كانوا يجتازون من جبل إلى آخر، دون أن يكترثوا بطلقات البنادق. وعلى مرأى من العدو، وفي المضايق والمنعطفات، يدحرجون على خصومهم قطعاً كبيرة من الصخر، فيهاجمونه من الجنب، ويهزمونه بصيحاتهم وصراخهم، فقتلوا العديد من الأتراك سواء بالنهار أو بالليل، ورغم هذا

---

(41) أدرار تعني بالبربرية جبال. ودَرَن علم على مرتفعات الاطلس الكبير، وتتوسط الكلمتين نون الاضافة ـــ في التركيب البربري ـــ فتصير : أَدْرَارْنْ دَرَن، وقد كتبت في الأصل الفرنسي بدون همزة. (مترجم)

(42) دون ربط بعضها ببعض.

(43) تاجر.

كله فإن الأتراك اتبعوا نظاماً حسناً فأخذت كل فصيلة تساند بأخرى في الأماكن الأكثر وعورة، إلى أن وصلوا إلى قمة الجبل، التي كان الملجأ الأخير للبربر، فأخذوها عنوة، وانسحب عبد الله إلى أعلى مكان. لكن نظرا لكون الجبال المجاورة تابعة للشريف، ولانه يئس من الإغاثة من أية جهة، فقد استسلم على شرط أن ينسحب إلى مملكة فاس، مع أولاده وحاشيته، لكن الشريف عمل بِمَثَل يعقوب المنصور، الذي يقول إنه ليس من الضروري أن يُؤَمَّن الخائن، فأمر بقطع رأسه أمامه حين وصوله إلى مراكش. فقد كان ساحرا كبيرا، أو متظاهراً بالسحر. ذلك أنه عندما أراد أن يثور، جمع بربراً آخرين من جبل شيشاوة، وقال لهم إنه سيقضي بسهولة على أعدائه بفضل حكمته، بحيث إن جنود الشريف كانوا يصادفون في الطريق لدى وصولهم إلى الجبل، أكباشاً مذبوحة صوفها محروقة، وأرجلها مقطوعة وموضوعة في أعينها، مع تمائم مؤذية في الممرات الصعبة، الأمر الذي كان يفزعهم ويخيفهم من وقوع مكروه، لكن الفارسي الذي كان يترأسهم، ساق بعض المسيحيين الذي كانوا معه، وأمر بإحراق كل هذه التمائم، ومن أجل ذلك قال عبد الله إن المسيحيين هم الذين غلبوه، لأن المغاربة هم الذين نصب سحره ضدهم لا ضد الآخرين. وكانت هناك أجمل فتاة في الإقليم يرغب فيها الناس أكثر من غيرها، فلما رأت هؤلاء الجبليين يفرون، فكّت شعرها الجميل الذي كان مضفوراً وطويلاً جداً، وأمسكت سهمين في يدها، وجعلت تنادي الشباب قائلة : «تمسكوا بالشجاعة، وليَتبعني من يحبني! ولا ترضوا أن يتمتع الغير بما تحبون ولا أن أقع في يد هؤلاء اللصوص!» ولما جمعت حولها زمرة وافرة، اخترقت صفوف العدو، ولولا أنها قتلت بطلقة بندقية، لأذاقتهم الأمرين بعدما قتلت واحداً منهم بيدها. وقتل معها بعض عشاقها، ثم أخذ المكان عنوة ودمر بدون شفقة ولا رحمة. وبذلك أرغم المرابط ــ كما أسلفنا ــ على الاستسلام مع أتباعه، وبقي الشريف سيد الجبل الذي لم يتخل عن الثورة عدة مرات منذ ذلك التاريخ، وما زال ثائراً حتى اليوم. وهناك ينبع نهر نفوسة، الذي يلتحق بتنسيفت فيما بعد.

الصفل الرابع والاربعون

سَـمِـدْ

هو أيضاً فرع من الأطلس الكبير، طوله سبعة فراسخ من الشرق إلى الغرب، ابتداءً من الفرع السابق الذي لا يفصل بينهما إلا نهر شيشاوة، وينتهي

إلى فرع كَدميوة. يسكنه قوم فقراء من قبيلة مصمودة، وقمته مكسوة دائما بالثلج، لكن هذا لا يمنع من أن يستخرج منه كثير من الشعير وتلك الثمار التي يصنع منها الزيت. وهناك عدة قطعان من الماعز وعدد من العيون، لكن السكان لا يبغون بديلاً ببلادهم لشدة خشونتهم، ظانين أنه لا يوجد أفضل منها. كان عبد الله قد ضم إليه أيضاً هذه القبائل فقتل منهم الكثير، حتى إن الجبل لم يسكنه أحد تلك السنة.

الفصل الخامس والأربعون

شيشاوة

يقع هذا الجبل جنوب الجبل السابق وملحقات الأطلس الكبير، وينبع فيه نهر يحمل نفس الاسم(44) ويسكنه بربر من نفس القبيلة، يحبون الحرب ويتقاتلون دائماً مع جيرانهم، جلهم مسلحون بالمقاليع يقذفون بها أحجاراً غليظة بدقة لدرجة أنهم يقتلون بها الطيور، وذلك هو مِرانهم الرئيسي. هذا الجبل شديد البرودة مكسو دائماً بالثلج في القمة، لكن هذا لا يمنع من أن يكثر فيه الشعير، والعسل والشمع والماشية الصغيرة، لأن البقر فيه قليل، والخيل غير جيدة. هناك بعض البنائين، وصانعي الأقفال من اليهود، لكن هؤلاء قليلو العمل بالنسبة للحرفة الاولى، لأن الجدران مبنية بالحجر الجاف أو المملط من خارج فقط(45) والسقوف مغطاة بالقش أو الأردواز، لأنهم لا يستعملون القرميد ولا الآجر ولا الجير. ولا يوجد بناء آخر في هذا الجبل ما عدا شبه برج قديم أو مسجد.

الفصل السادس والأربعون

سَكْسيوَة

جبل شاهق شديد البرودة، يقع شمال جبل شيشاوة وتخرج من شعابه عدة عيون، وفيه ينبع أسيف المال. قمة الجبل مكسوة دائماً بالثلج، وفي كل مكان منه صخور كبيرة وعرة، وكهوف تحفظ فيها المواشي في الشتاء خوفا من البرد(46)

(44) واد شيشاوة.
(45) أو بالحجر والتراب الجيد.
(46) ذلك لأن الثلج يسقط بغزارة.

وتعلف بالحشيش وأغصان الأشجار. لا يحصد السكان قمحا ولا شعيرا ولا حبوباً أخرى، لأن الأرض باردة جداً، وياتون بذلك من مكان آخر، لكن لهم كمية من اللبن والسمن والجبن، خلال الربيع والصيف، ولا ينقصهم اللحم طوال السنة. يعيشون كالمتوحشين بصحة جيدة، بحيث انهم عندما يبلغون من العمر مائة وستاً وعشرين سنة لا يظهرون مسنين، ولا يشتغلون بشيء آخر طوال حياتهم سوى رعي قطعانهم. ومن العجب كيف يرتدون ملابس قليلة يتقون بها هذا البرد الشديد، إذ ليس لهم سوى عباءة تلفهم وأحذية نصفية من الجلد الطري، وخرق يلفونها حول أقدامهم. ولشدة نخوتهم يتحاربون دوماً مع جيرانهم، ويقتتلون لأتفه الأسباب. لا يتردد إليهم قاض ولا فقيه، ولا حضري من أهل المدينة، لأنهم ليسوا على الطريق المستقيم، ولذا فليس لهم قانون ولا قاعدة، ويعيشون كالحيوانات بين هذه الصخور.

الصفل السابع والاربعون

تِينْمَل(47)

هذا الجبل أيضاً شاهق شديد البرودة، يسكنه بربر من قبيلة مصمودة. وتوجد في قمته مدينة تينمل التي دفن ملوك الموحدين الاولون(48) كما أسلفنا. وهم قوم خبثاء يتباهون بالعقيدة لكونهم درسوا مذهب المهدي الذي كان في بلادهم. لباسهم رديء، لأن التجار لا يمرون من هناك إطلاقاً، لكن عندهم جميع أنواع المواشي، وكثير من الشعير، وكمية من أشجار الجوز والصنوبر، ويعصرون زيت الزيتون. لما استولى الشريف على مراكش، كان سيد هذا الجبل وما جاوره هو مولاي إدريس الآنف الذكر، الذي كان يدَّعي بأنه من سلالة الموحدين، وبما أنه أيَّد الشريف، فقد أُقِرَّ في إمارته هو وعقبه في مقابل إتاوة يؤدونها له.

الفصل الثامن والاربعون

كَدميوة

يبتدىء هذا الجبل عند جبل سمد من جهة الغرب، وينتهي عند مدينة أمزميز في جهة الشرق، ويقع في جنوبه جبل تينمل. سكانه بربر من قبيلة مصمودة

(47) كتب في الاصل . تملت.

(48) المهدي وعبد المومن

وسلالة هنتاتة، يعيشون في فقر مذقع، تابعين للأعراب، لأنهم يقطنون قرب السهل على منحدر الجبل المواجه للجنوب، حيث توجد مدينتا أمزميز وتينيزًا. منحدر الجبل كله مكسو بالزيتون، أو أراض صالحة للحرث، يزرعون فيها الشعير. وهناك غابات من الصنوبر والجوز. وتنحدر من القمة جداول صغيرة عديدة، تسقي بعض القطع الارضية في السهل. السكان مهذبون أكثر من سكان الجبال الاخرى، لاتصالهم بالأجانب : لأن هذا ممر بلاد البربر إلى نوميديا، كما ذكرنا ذلك في وصف أمزميز(49).

الفصل التاسع والأربعون

هنتاتة

هذا أعلى جبال الاطلس الكبير، يبتدىء غرباً من جبل كَدميوة، ويمتد نحو الشرق إلى جبل أنماي، على مسافة ستة عشر فرسخاً(50) سكانه بربر من فرع هنتاتة المنتمين لقبيلة مصمودة، وهم قوم أثرياء محبون للحرب، يدعون أنهم أشرف سكان إفريقيا، لهم عدد عديد من الفرسان، وحصن حصين بناه أكابر القبيلة منذ زمن قريب، ومنه كانوا يحاربون الشرفاء قبل أن يستولوا على مراكش. لكن مولاي إدريس اتفق مع هؤلاء (الأشراف) منذ ذلك العهد، وأقروه في حكمه، كما أسلفنا. ويوجد في هذا الجبل عدد كثير من الصناع اليهود يعتبرهم اليهود الآخرون زنادقة لانتمائهم إلى فرقة القراء (يعتمدون نصوص التوراة وحدها).

قمة هذا الجبل مغطاة بالثلج طوال معظم السنة، بحيث إنه لا وجود لشجر ولا نبات من شدة البرد، وتشاهد في كل مكان أعمدة كبيرة وأحواض من الرخام الابيض الرفيع جدا لسقايات يبدو أنها صنعت أيام ازدهار مدينة مراكش، إذ توجد في الضواحي عدة مقالع من هذه الأحجار، لكن الحروب حالت دون أهداف الملوك فبقيت هنا بدون استعمال بسبب همجية السكان.

(49) الكتاب 3، الفصل 37.

(50) عند الوزان : يمتد على مسافة نحو 45 ميلا إلى جبل ادنيمي. (مترجم).

الفصل الخمسون

أنْـمَـايْ

وهذا أيضاً أحد جبال الأطلس الكبير الشاهقة، يحده الجبل السابق من جهة الغروب، وجبل تسيوين من ناحية الشرق. يسكنه نفس القوم، وتقع مدينة أنماي في المنحدر، كما أسلفنا(51). تكثر في أرجائه أشجار الجوز، والزيتون، والسفرجل، والتفاح، وغيرها من الاشجار المثمرة، وهو آهل بعدد كثير من السكان الذين يتباهون بالشجاعة، ويملكون كمية وافرة من الخيل، وقطعان المواشي الكبيرة والصغيرة، بسبب كثرة الكلإ واعتدال الهواء. يحصلون القمح والشعير والدخن في أراضي المنحدر والأودية التي يسقونها بالعيون المتفجرة بين هذه الصخور فتُكوِّن فيما بعد النهرين اللذين تحدثنا عنهما سابقاً، المسميين تساوين. وحيث انه لا وجود لمساكن اخرى عظيمة في هذا الاقليم، فسننتقل إلى إقليم جزولة الواقع جنوب الاطلس الكبير.

(51) الفصل 40، الكتاب 3.

الفصل الواحد والخمسون

إقليم جزولة، بمملكة مراكش

جزولة بلاد آهلة بكثير من السكان البربر من قبيلة مصمودة، يحدها إقليم درعـة شرقاً، وجبل العلم غرباً بإقليم سوس، وتمتد شمالاً إلى سفح جبل الاطلس تقريباً. يعتبر السكان أنفسهم أقدم شعوب افريقيا كلها لكونهم احتفظوا باسم جيتول، ولا يكسبون كثيراً من المال ولا من القمح، ولكن يملكون الشعير والمواشي بكميات كبيرة. وفي جبالهم عدد من مناجم الحديد والنحاس، وأغلب السكان نحاسون، يذهبون الى الحدود لمبادلة بضائعهم (1)بأشياء أخرى فضلا عن النحاس الذي ينقل من هناك إلى مراكش وترودانت لصنع سلاح المدفعية. لا وجود لأية مدينة ولا قصبة مسورة في الإقليم كله، بل ما هي إلا قرى كبيرة تضم ألف نسمة وأزيد. وكانوا في القديم يدبرون شؤونهم بنظام شبه جمهوري، بدون أي أمير ولا شيخ، لذلك كانوا يتحاربون دائماً فيما بينهم، لكنهم كانوا يقررون هدنة للتجارة ثلاثة أيام في الأسبوع ثم يقتتلون بعدها. كان هذا النظام قد أحدثه بينهم أحد الأولياء الذي يقدسونه كثيراً، فاحتفظوا به منذ ذلك العهد دون أن يخرقوه. يقام بالإقليم كل سنة سوق يدوم شهرين، وأثناء هذه المدة كلها يطعمون الغرباء الوافدين عليه مجاناً، ويحرس مكان التجمع ليل نهار جنود تحت إمرة قائدين، لمنع السرقات وغيرها من الجرائم. والعقوبة المطبقة على المجرمين، وخاصة اللصوص الذين يُفاجأون متلبسين بجريمتهم، هي القتل بطعنهم بالرمح ورمي جثثهم إلى الكلاب. يعين كل فريق أحد هؤلاء القواد عندما يحين وقت السوق الذي يقام في سهل بين الجبال، وتبقى الهدنة قائمة ما دام السوق. يوزع التجار على أروقة مختلفة، حسب اختلاف البضائع، فيقيم في أحد الجوانب باعة الجوخ أو القماش، والبزازون وباعة الخردوات في جانب آخر، وباعة المواشي في مكان، والمؤن في أماكن اخرى، فتكون الدكاكين منظمة حسب الترتيب والأزقة، وهذا شيء عجيب لا سيما وأن عشرة آلاف تاجر أجنبي ياتون إلى هذا السوق، سواء من بلاد الزنوج أو غيرها، فيطعمون على حساب الجمهور مع دوابهم(2) ما طالت إقامتهم به، وياكلون في ظلال أشجار قريبة من أخبية كبيرة، تعد بها المؤن من لدن أناس

(1) ثياب، وتوابل، وخيول.
(2) دواب العربات.

انتدبوا لهذا الغرض، لكنهم يربحون في بضاعتهم ضعف ما ينفقون، مهما كلفهم ذلك من نفقات. ومن الغريب مشاهدة النظام العجيب السائد في هذا السوق، وكيف يسير الكل بدون ضوضاء، مع أن هذه الشعوب هي الأكثر فظاظة وطيشاً في افريقيا بكاملها.

يبدأ السوق يوم المولد النبوي، الذي يقع في ثالث الشهور العربية الذي يسمى المولد أو ربيع[3] ويدوم شهرين كما أسلفا. يحظى الجزوليون بمعاملة حسنة، منذ حكم الشرفاء مراكش، لأنهم يستخدمونهم كحرس راجلين حاملين البندقيات، ولأنهم وجدوهم دائماً أوفياء، فضلا عن كونهم كانوا يؤدون خدمات جلى للشريف محمد، عندما كان ملك ترودانت. يوجد من بينهم حدادون ماهرون، وهم أول من أحسنوا تذويب الحديد وصنعوا منه كورا، عندما كان الشريف أحمد ملكاً بمراكش وكان هذا السر مجهولا لدى الأفارقة.

واللباس العادي لهؤلاء القوم عبارة عن معاطف صغيرة أو قمصان من صوف ضيقة جدا، لاصقة بالبشرة، قصيرة لا تصل إلا إلى الركبتين، وليس لها أكام ولا أطواق. يضعون فوقها سترة من القماش الخشن، مثل المسح، ويتقلدون خناجر طويلة على شكل مناجل، حادة من كلا الجانبين دقيقة الرأس جداً. ويشبهون أهل حاحا تقريباً في سائر الاشياء الأخرى.

الفصل الثاني والخمسون

إقليم دكالة

يبتدىء هذا الاقليم من جهة الغرب، عند نهر تنسيفت على حدود حاحا ويمتد نحو الشمال حتى المحيط. يقع إقليم مراكش في جنوبه، ونهر أم الربيع في شرقه فاصلا إياه عن إقليم تامسنا ثم يصب في المحيط قرب مدينة أزمور. يغطي الاقليم من الشرق إلى الغرب أزيد من ثلاثين فرسخاً، ومن الجنوب إلى الشمال أزيد من أربعة وعشرين. يكثر فيه القمح وقطعان الماشية، ويتكون معظمه من سهول، يجوب فيه أعراب كثيرون[4]، ويقطنه بربر كثيرون، يجوب بعضهم كذلك عبر البادية ويسكن البعض الآخر في منازل وأماكن مسورة.

(3) كتب في الاصل : جعفر.
(4) شراكة، وعدة، وغربية.

الفصل الثالث والخمسون

الـمـــدن

أسـفــــي

يعتقد بعضهم أن هذه المدينة، التي يسميها الأفارقة أسفي والبرتغاليون أسافيي، إحدى المدن التي شيدها حانون قائد القرطاجنيين في ليبيا بأمر من مجلس الشيوخ، وسميت من أجل ذلك ليبي — فنيقية(5) ولذلك فإنها قد أسست قديماً، وبناها الأهلون، على ما يقال. تقع على شاطىء المحيط، في طرف إقليم دكالة، ولها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجاً، ودائرتها ألف وثلاثمائة وسبعون مقياساً زراعياً(6). وفي اتجاه الغرب يوجد قصر مرتفع قليلاً يطل على جرف صغير، فيه صخور كثيرة، وليست محصنة إلا من جهة الشمال. تضم أربعة آلاف دار، وهي غير حصينة بسبب أبواب عدة تتحكم فيها. الأراضي المحيطة بها غنية بالقمح والمواشي ولو أن السكان لا يهتمون الا ببساتينهم المحيطة بالمدينة. والتجارة في أسفي لا بأس بها منذ أن تركها ملك البرتغال، لأن العديد من اليهود يلجأون إليها. لكن رواجها كان أكثر بكثير قبل أن تسقط في أيدي البرتغاليين، لان تجار اسبانيا كانوا يحملون إليها في كل آن الجوخ، والقماش، وبضائع اخرى، يستبدلون بها الجلود، والشمع والنيلة، والصمغ عند أفول نجم بني مرين، لكن سرعان ما استولى عليها بعد ذلك مباشرة أحد أكابر المدينة، الأمر الذي أدى إلى حروب أهلية وجعلهم فريسة للبرتغاليين لما استنجدوا بهم.

كيف استولى الملك دُم مانويل البرتغالي على مدينة أسفي :

إن هذه المدينة وإقليم دكالة بأسره كانا تابعين لمملكة مراكش، خاضعين دائماً لملوكها، لكن عندما أفل نجم بني مرين، بقي مولاي ناصر بوشنتوف مسيطراً على هذه المملكة، فثار عليه أقوام كثيرون بسبب ضعفه، ومن جملتهم سكان أسفي، بواسطة بني فرحون، وهم مواطنون نبلاء جعلوا من أسفي جمهورية تحت سلطتهم. لكن أحدهم اسمه احمادوش كان يدبر شؤونها فقتل من طرف أحد أبناء أخيه المدعو عبد الرحمن الذي استمال الشعب بثقته وحذقه وصار أميراً.

---

(5) ذلك لأن قرطاجنة كان يسكنها الفنيقيون.

(6) أداة لمسح الاراضي (في القديم).

وبعد أن حكم طويلاً قتل بدوره في وقت كان فيه اقل تفكيرا في الموت، إذ كانت له ابنة جميلة يعشقها شاب من أكابر المدينة اسمه علي بن وشيمن،.تمكن من وطئها بواسطة أمها نفسها وخادمة. ولما بلغه الخبر، عزم على أن يثأر منه، لكن المرأة وابنتها فطنتا بذلك فأخبرتا العاشق، وعزم هذا الاخير على أن يسبقه. ولما اطلع على سره أحد أصدقائه(7) الذي كان أيضاً من أكابر المدينة، اتفقا معاً على تنفيذ مشروعهما في أقرب وقت ممكن. وفي هذه الأثناء، كان عبد الرحمن يفكر في الانتقام فأرسل إلى علي في يوم عيد أن ياتي إلى المسجد ومنه سيذهبان للتفسح، لأنه يرغب في أن يطلعه على أحد المشاريع الكبرى. شك علي في الأمر، وأخذ معه المدعو يحيى وعشرة شبان(8) آخرين من أصحابهم، وتوجهوا إلى المسجد الذي كان غاصاً بالناس من أجل العيد. فأفسحوا لهم الطريق مثلما يفعلون بالنسبة للوجهاء، ولما وصلوا إلى حيث كان عبد الرحمن يصلي بجانب الإمام تقدم يحيى إلى الأمام بينما طعنه علي من خلف بخنجر، ثم دار الآخر وأجهزا عليه. وعندما أراد الحرس أن يتحركوا، شهر باقي المتآمرين السلاح وأوقفوهم، فظنوا أن ذلك كان مؤامرة عامة، وخرجوا من المسجد، والجمهور كله معهم. ولما أيقن المتآمرون من إفلاتهم من الخطر انطلقوا إلى وسط الساحة مع العديد من الأقرباء والأصدقاء، وهم يصيحون بأنهم قتلوا الطاغية الذي أراد أن يفتك بهم ليتمتع بطغيانه أكثر، فوافق الشعب على عملهم وانتخب علياً ويحيى حاكمين بصفتهما القائمين بتحريره. وكان اذ ذاك في أسفي ثلاثة عشر مسيحياً أسيراً، تمكنوا في غمرة هذا الاضطراب من الفرار على زورق إلى قصر كان ملك البرتغال قد بناه على الشاطىء في السنة الفارطة. وبعد أن أخبر علي الحاكم(9) بما جرى، أتاه بعد يومين، وطلب منه باسم يحيى واسمه أن ياتي مع بعض أصحابه لنصرتهم على أهل الميت، واعدين إياه أن يكونا تابعين للملك،فاقتنع الحاكم بهذه المبررات وذهب مع اثني عشر برتغالياً إلى أسفي، حيث كان فيه عدد من المسيحيين مقيمين من أجل الاتجار. لكنه، بعدما قضى هنالك ثمانية أيام، ورأى أن الأمور لا تدبر حسب مشيئته، وخشي غدر المغاربة، عاد أدراجه مع علي وثلاثة من الوجهاء، تاركاً يحيى عاملاً على المدينة. لكن علياً والثلاثة الآخرين تبعوه إلى البرتغال وقدموا أنفسهم كأتباع للملك لينجدهم. ومن جملة ما وقع عليه الاتفاق، أنهم سيهبون للبرتغاليين

(7) يحيى بن تعفوفت.

(8) عند الوزان : 20 شاباً.

(9) دييكو دازامبوك.

داراً مطلة على البحر تستعمل لحساب التجار المسيحيين، وأحد الأبراج الرئيسية لأمنهم. وعندما رأى ملك البرتغال أنه قادر على التمكن من هذه المدينة، صرف عامل القصر، دييكَو دازامبوك، مزوِّداً إياه بتعليمات، وأمر كَارسيا دي ميلو، الذي كان قائد سفن الكرافيل للأسطول البحري في المضيق أن يساعده في كل ما يحتاج إليه. فانطلق لحينه إلى آسفي، قبل مجيء أزامبوك، ووجد السكان مسلحين، بعيدين كل البعد عما قاله علي وأصحابه. وبعد ذلك بقليل[10] وصل أزامبوك مع علي الذي حضر لتنفيذ وعده، لكن سرعان ما صرفه عن ذلك الفقهاء الذين أفادوه بأنه من الأولى والأحسن للمغاربة أن يقتتلوا من أن يطيعوا المسيحيين. ولما رأى البرتغاليون أنه بدأ يندم، عزموا على بث الريبة بينه وبين يحي. أما كَارسيا دي ميلو، فبواسطة طبيب يهودي كان يزوره لأنه كان عليلاً، أرسل بطاقات صادرة عنه وعن أزامبوك على حد سواء إلى قائدي المغاربة[11] لإذكاء ريبتهما، وحمل كلٌ منهما على الظن بأن الآخر يريد قتله. كان الطبيب اليهودي يتناول البطاقات من يد كَارسيا دي ميلو وهو يجس نبضه في السرير، ويرد إليه الجواب بنفس الطريقة. وكان المغربيان، في هذه الأثناء، يقدمان اقتراحات هامة للبرتغاليين حتى يستعين بهم كل منهما ضد خصمه، فساعداهم على الدخول الى المدينة مع خمسين جندياً. ومن أجل ذلك منحاهم منزلا كبيرا في تلك الجهة، كان يملكه عبد الرحمن ويطل على البحر. لم يطل ندمهما، إذ لم يفت البرتغاليين، مهما كانت ريبتهم، أن يحملوا الاسلحة والعدد إلى منزلهم في براميل وصناديق. ومن جهة أخرى أرسل ملك البرتغال وقد علم بذلك في بداية السنة[12] كَونزالي مينديس[13] بأربع كرافيلات ليستولي على المدينة، على أمل أن يحتل بعد ذلك مملكة مراكش بأسرها. ولما وصل كَونزالي إلى أسفي مع مائتين من رماة البنادق أو القذافين وعدد من المتطوعين وجد البرتغاليين في غاية القلق من مناورات المغاربة، واتفق معهم على أنهم سيصرحون ليحيى وعلي بأنه لا بد من الاتفاق، تلافياً للتفرقة، وأن يتقلد أحدهما حكم المدينة تحت سلطة البرتغال. فكان كل واحد منهما يؤثر صاحبه نخوة، لكن الحكم آل أخيراً إلى يحيى الذي منع فوراً أن يحمل الحجر والجير والرمل إلى منزل البرتغاليين لتحصينه. وفي الحين أشار دييكَو دازامبوك على علي بأن

(10) 1507.

(11) علي ويحيى.

(12) 1508

(13) كونزالي ميندیس دي سكوط.

يذهب ليلا مع أهله وأصدقائه ليقتلوا يحيي في داره، واعداً إياه أن يبقى عاملاً، فنفذ علي هذا المشروع وأرغم يحيى على أن يفر في وسط الليل ويلجأ إلى منزل المسيحيين الذين كان يجهل أنهم شركاء في هذه المؤامرة. وذهب أحدهم[14] ولم يكن أزامبوك قد أطلعه على ذلك، إلى أن خصص له اقتبالاً حسناً وأواه ثمانية أيام في مسكنه، فأدلى أثناءها بمبررات مقبولة لما قام به، حتى إن أزامبوك أرسله إلى البرتغال ليتبرأ إلى الملك، فأرجعه هذا الأخير إلى أسفي وأنعم عليه وعلى عشرين من الفرسان المغاربة، ومنحه لقب قائد البادية، نظرا لمعرفته للبلاد. وقد أدى من ذلك الحين خدمات جلى للملك البرتغال برفقة الأعراب والبربر من شيعته، فلم يهزم الشرفاء الحاكمين بسوس وحاحا وحدهم، بل تغلب حتى على جنود مراكش وفاس، جاعلاً جميع سكان دكالة و قسماً من سكان حاحا ومراكش تابعين للبرتغال. إلا أن دييكَو دازامبوك سلم في غيبته حكم آسفي إلى خصمه ظاناً أنه سيساعد على تقوية البرتغاليين لكنه تعرض لذلك بكل سلطته مع عقوبات وامتناعات. ولم يلبث الحصن يرتفع شيئاً فشيئاً، واجتناباً لكل ريبة، كانوا يغلقون من الخارج ويبلطون من الداخل الثقب ومرامي المدافع، حتى يظن أنه مجرد سكن يلجأ إليه. وعندما هيء البناء للدفاع، فتحوا في الليل السور المجاور للساحل لجعل باب فيه، وأقاموا حاجزين في الماء ليسيروا عليهما من مسكنهم في مأمن كما لو كانوا يجتازون رواقاً. ثم إن أزامبوك عزم على قطع العلاقات جهراً مع علي، ملاحظاً عليه عدم احترام كلمته في أنه يتركه يتم التحصين، فأجابه أنه يستغرب من تكبر لبرتغاليين، الذين يعتبرون أنفسهم سادة بينما هم ما يزالون خاضعين لسلطته، ولا يستطيعون العيش بدونه، إذ كان يحضر لهم المؤن يومياً، فأجابه أزامبوك قائلا إنهم سيتغذون من دم المغاربة ومن لحمهم. فعض علي أصبعه عندما سمع هذه الكلمات دون أن ينطق بكلمة، الامر الذي ينبيء عن تهديد كبير عند المغاربة. لكن دييكَو دي أزامبوك عزم على مهاجمته قبل أن يحشد الجنود ويتحصن. وحتى لا يظن أنه تسبب هو في قطع العلاقات اغتنم فرصة صفع أحد أتباعه من جراء نزاع حدث له في شأن لحم مع جزار فأمره أن يقتل المغربي الذي صفعه، وعين أحد أصحابه ليحضر معه كي ينجز ذلك بسهولة. وعندما وصل الجزار إلى الساحة، جاءوه من خلف وضربوه بالسيف، لكنهم لم يستطيعوا أن يشفعوا الضربة بأخرى، لأن الناس أسرعوا إليه ولأنه ارتمى في دكان تاجر كان قريباً من هنالك. فتراجعوا بصعوبة كبيرة

(14) دييكَو ديعبراندا.

إلى مسكنهم، وسرعان ما طوقه جمهور غفير من المغاربة برماحهم ودروعهم وبعضهم بالبنادق والقذافات، لكن، لما شاهدوا أنهم لا يستطيعون الاقتحام في هذه الحالة، ذهبوا يبحثون عن مدافع قديمة كانت في القصر، أخرجوا منها طلقات بصيحات وصرخات هائلة، وفي غداة الغد تناول البرتغاليون أسلحتهم بعدما استمعوا إلى القداس، وحملوا عليهم بشدة، ففاجؤوهم غير منتظمين وساقوهم بالضرب إلى المسجد، حيث استؤنف القتال وهلك فيه مغاربة كثيرون. وفي الأخير عندما لم يستطيعوا أن يقاوموا البرتغاليين، ولا أن يصمدوا أمام طلقات بندقياتهم، غادروا المسجد، ولجأ الأعيان إلى القصر المطل على البحر، ومن هناك قتلوا بعض المسيحيين بطلقات المدفع، لكن المدفع الذي كانوا يضربون به حطم بقذفة من الكرافيلات، بحيث إنهم لم يعودوا يستطيعون استعماله. فلما رأوا أن دفاعهم غير مجد، طلبوا السلم من أزامبوك فأراد هذا الأخير أن يأخذ مفاتيح القصر والأبواب، فسلموها إليه مرغمين، وصاروا أتباعاً لملك البرتغال. لكن الكثير منهم خرجوا بنسائهم وأولادهم أنفةً من الخضوع للمسيحيين، ولجأوا إلى جبل بني ماكر وغيره من الأماكن. والتحق علي بمدينة تاركة[15] مع أهله وأصدقائه وجميع أفراد أسرته، فأقام بها إلى أن دخل أخو ملك فاس[16] إلى إقليم دكالة، بدعوى أنه سيخلصه من نير البرتغاليين، فأخذه معه إلى مملكة فاس. وهكذا استولى ملك البرتغال على أسفي، حيث أقام منذئذ حامية قوية إلى أن رأى أن يغادرها[17] لأسباب أشرنا إليها في مكان آخر، وأرجع إلى البرتغال الجنود المقيمين بها، بعد أن حطم قسماً من الأبراج والأسوار، لكن الشريف[18] ما عتم أن عمرها بالمغاربة وأقام لحراستها والمحافظة على الأمن بها عاملاً مع مائتين من رماة البنادق، بحيث إنه يوجد بها جمرك ويقصدها التجار من كل جهة. ولنتحدث الآن عن أعظم ما تم إنجازه في أسفي تحت حكم ملك البرتغال.

كيف حاصر المغاربة مدينة أسفي :

لما استولى البرتغاليون على أسفي بالكيفية التي ذكرناها، أرسل اليها نونيو فرنانديس دي أطايدي كحاكم مع جنود من الفرسان والمشاة، وكمية من السلاح والمدفعية، والذخيرة الحربية، فأخذ في الحين يشن الغارات في جميع الجهات،

---

(15) على بعد عشرة فراسخ من أزمور.

(16) هو مولاي ناصر، أخو محمد الوطاسي.

(17) سنة 1541.

(18) هو مولاي أحمد (الأعرج).

وحصل على عدد من الأسرى والغنائم حتى إن السكان خضعوا لملك البرتغال في دائرة تبلغ مسافتها خمسة أو ستة فراسخ، إلا أنهم أتوا لمحاصرة المدينة مع مغاربة آخرين، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين استنكفوا عن أداء الخراج للمسيحيين. وكان أكابر هذه الفئة أعراب أزمور[19] والغربية مع آخرين، وكافة البربر المقيمين بين أزمور والمدينة إلى نهر كوز الواقع غربي أسفي، وعددهم خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. فعسكر البربر مع قسم من أعراب أولاد سبيط[20] من باب كافس إلى القصر، وأولاد عمران مع باقي أولاد سبيط، وبعض البربر من الشياظمة، من القصر الى البحر. فطوقوا المدينة هكذا من بحر إلى آخر، بعدة حصون ومعاقل، وبدأوا يحطمون السور بقذائف المدفعية من الحديد والبرونز. وعندما أخبر الحاكم بمجيئهم أطلَع ملكَ البرتغال على ذلك بواسطة بعض التجار المسيحيين بحيث إنه وصلته النجدة من قشتالة والبرتغال، ومن جزيرة مادير نفسها، التي أوفد إليها رسولا في هذا الصدد. فحدد لكل واحد مركزه منذ بداية الحصار، وسلح اليهود بقيادة رئيسين منهم[21]. وبعد أن قام ببعض الترتيبات والأشغال التي يقتضيها الدفاع، عزم على انتظار الهجوم. وبعد مرور سبعة عشر يوماً من الحصار، ومقتل ستة الاف مغربي في هجومين، انسحب المحاصرون بخسارة كبيرة، وقد رأوا أنهم غير قادرين على أي شيء أمام صمود المحاصرين. فحمل الحاكم على المؤخرة بأربعمائة فارس، ومائة من رماة البنادق، ثم انسحب وهو خجل من قلة عدد جنوده بعد أن قتل وأسر عدداً من خصومه، ولولا ذلك لكانت الهزيمة أكبر.

وفي هذه الأثناء خضع عدد من الأعراب والبربر لملك البرتغال. ووقع الفتك بالذين امتنعوا من الإذعان : ذلك لأن الحاكم، الذي استحضر يحيى من البرتغال، اغتنم الوقت والمناسبة فنهب عدة قرى للبربر، وعدة دواوير للأعراب، ثم أرسل عدداً من الأسرى ليباعوا في البرتغال، من إقليم دكالة والأماكن المجاورة. وبالتالي فقد نال هذان القائدان انتصارات على المغاربة، لدرجة أن سكان إقليم دكالة، والأماكن الواقعة على طول نهر أم الربيع، أو على طول الساحل، وكذا سكان داخل البلاد إلى جبل الأطلس، وعلى بعد أكثر من خمسة عشر ميلا من جهة مراكش، كانوا يؤدون الإتاوة[22].

---

(19) أولاد عمران، وأولاد يعقوب، وأولاد بوعزيز، وأولاد سبيط.

(20) في 13 دسمبر 1510.

(21) هما إسحاق بن زمرة وإسماعيل.

(22) القمح والشعير والماشية.

غارة كبرى شنها المسيحيون من أسفي على بلاد المغاربة سنة 1511 :

عندما علم حاكم أسفي أن خمسة وعشرين دواراً رحلوا إلى مكان يبعد بنحو فرسخين من المدينة بعث أربعة من فرسانه من ذوي التجربة الكبيرة لاستطلاع الخبر. ولدى وصولهم إلى ربوة استطاعوا من أعلاها أن يكتشفوا الدواوير ويقفوا على وضعية البلاد، عادوا إلى أسفي دون أن يتجاوزوا ذلك المكان لئلا يعرفوا بأثر خيولهم، لأن حوافر أفراس المسيحيين لها ثمانية مسامير، وأفراس المغاربة له ستة فقط، فأطلعوا الحاكم ليلا على وضعية المكان الذي يعسكر فيه الأعراب، والطريق الذي يمكن الوصول منه إليهم في أمان. وفي غداة الغد عند الفجر، أمر الحاكم بألا يخرج مغربي ولا يهودي، وأعلن بالبوق الركوب على الخيل، وانطلق مع أربعمائة فارس وخمسمائة من رماة البنادق والقرابينات، تاركاً حراسة المدينة لنونيو كَاطو والثكنات مزودة بأحسن زاد، إذ كان بالمدينة حينئذ تسعمائة فارس وألف راجل. وكان الأعراب معسكرين في سهل قرب البحر، محتلين أزيد من نصف فرسخ على طول أحد الوديان، وما أن أبصرهم الحاكم عند بزوغ الشمس حتى أمر الفاري أطايدي، ولوبي باريكَا نائبه على المدينة بالهجوم من أحد الجوانب مع مائتين وخمسين فارساً، بينما توقف هو على أعلى الربوة مع باقي الجنود، فدهم العدو فجأة وبشدة قوية بحيث لم يتمكن من الصمود كثيراً، وتفرق هنا وهناك، تاركاً أكثر من ثلاثمائة قتيل في عين المكان، وأسر خمسمائة وسبعة وستون شخصاً، سواء من الصغار أو الكبار، وغنمت خمسة آلاف رأس من الماشية الصغيرة، وألف ثور أو بقرة، وثلاثمائة جمل، مع عدد من الخيل والدواب، وعادوا بها الى أسفي منتصرين. كانت الغنيمة كبيرة تغطي أزيد من نصف فرسخ من الأرض، فخشي الحاكم أن يكر العدو فيهزم جيشه أثناء عودته، لأنه كان مضطراً إلى السير وهو متفرق ليضم القطعان، فترك الإبل وجميع الماشية الصغيرة، لأنه كان عليه أن يقطع ثمانية فراسخ في طريق وعرة، فوصل ليلا إلى أسفي بسير منتظم مع ما بقي من الغنيمة، دون أن يجسر على مهاجمته ثلاثمائة فارس مغربي من المدينة كانوا يتبعونه. ولم يفقد سوى ابن أخ له كان تركه لحراسة المدينة(23)، فاختلط مع الأعداء حتى إنهم لم يستطيعوا إغاثته. وفي غداة الغد ذهب قائد(24) أعراب الغربية وقواد آخرون ليسلموا عليه

(23) هو نونيو كَاطو.

(24) هو عيسى أبو بكر.

ويقدموا له الولاء باسم قبائلهم، وقد كانوا مقيمين بأسفي عندما خرج منه فرنانديس وأخذوا منذ ذلك العهد يؤدّون الإتاوة، وحذا حذوهم أعراب وبربر آخرون من الإقليم : بحيث إن البرتغاليين بدأوا يشتهرون في هذه المناطق. كان ملك البرتغال يجبي موردا كبيراً من الإتاوات، ومن دخول البضائع الواردة إلى أسفي، فكان المسيحيون واليهود والمغاربة يحصلون على أرباح طائلة على حد سواء. وها هي الإتاوات التي كان المغاربة يؤدونها إلى حاكم أسفي باسم ملك البرتغال في ذلك العهد. كان أهل عبدة، وهم أهم أعراب الإقليم، يدفعون حِمْلَ ألف جمل في السنة، نصفها من القمح، ونصفها من الشعير، على أن حملين من الشعير كانا يعادلان حِمْلاً من القمح. ويعادل حمل جمل عشرين كيلا(25) من الشعير أو اثنى عشر من القمح بالاضافة إلى أنهم كانوا يقدمون كهدية ستة من الخيول الفارهة وأربعة صقور. وكان أهل الغربية(26) وهم أيضاً من أكابر الاقليم، خاضعين لنفس الضريبة، وكذلك أولاد عمران الذين هم أيضا في غاية القوة والغنى، وأولاد عمران الافكاني من نفس القبيلة؛ وأولاد الشياظمة، وهم جماعات من البربر يعيشون في الدواوير كالأعراب، أقوياء جداً؛ وأولاد مطاع مع سكان المدينة، وهم بربر. وعلاوة على هذا، كانت إتاوة القمح التي يحملها الأعراب إلى المدينة تساوي أكثر من خمسين ألف كيل قمحاً، ومائة ألف كيل شعيراً. وكان أهل مدن أكوز، وأكَير، وتمر، وهم خاضعون لنفس المقدار، يؤدون أيضاً إتاوتهم كالآخرين، مع اربع صقور إناث. ذلك كان دخل أسفي قبل أن تحتل مدينة أزمور، بقطع النظر عن الجمرك والحقوق الأخرى المفروضة على البضائع الواردة إليها. وزيادة على هذا، كان البرتغاليون يشنون غارات على داخل البلاد بصحبة حلفائهم، ويجبون الخراج من الأقاليم المجاورة أو ينهبونها ويأسرون السكان. وقد فعلوا ذلك مراراً متعددة، كما سنراه في هذا التاريخ.

كيف هزم قائد أزمور كوبي باريكًا الشريف :

عندما كان الشريف يحكم حاحا، ورأى أن حاكم أسفي ويحيى توغلا في السنة الماضية داخل البلاد بأزيد من خمسة وعشرين فرسخاً، مع مسيحيي المدينة والأعراب الخاضعين لملك البرتغال، وأنهم جاءوا إلى ضواحي مدينة البرج الواقعة

---

(25) هانيكا، وهو كيل باريس أو نحوه.

(26) غربية اسيتشا.

على منحدر الأطلس الكبير، حيث نهبوا خمسين دواراً، وقتلوا أو أسروا عدداً من الأشخاص، وحملوا إلى أسفي أكثر من عشرين ألف رأس من الماشية، وأربعمائة جمل، دون أن يجدوا أحداً يجرؤ على مواجهتهم، بالإضافة إلى أنهم احتلوا مدينة تدنست التي كانت مقر إقامته : حشد الشريف ما استطاع من الناس، كما يفعل من يدعي الصلاح ويعلن الجهاد ضد المسيحيين وحلفائهم من المغاربة، فاقتحم معسكر أولاد الشياظمة وكبّد أتباع ملك البرتغال أضراراً جسيمة لجأوا على إثرها إلى حاكم أسفي[27] وعندما علموا أن الشريف خرج إليهم، اجتمعوا وذهبوا لانتظاره في مسكريس، شرقي جبل الخروب، مع خمسين فارساً، كان هذا الحاكم قد أرسلهم إليهم بقيادة نائبه لوبّي باريكا. كان فرسان الشريف قد وصلوا إلى أحد دواوير الشياظمة، وقتلوا بعضهم، ولما كانوا مشتغلين بنهب الخيام، حملوا عليهم فجأة، وشتتوهم واقتفوا أثرهم الليل كله، ثم عادوا منتصرين إلى دواوير الشياظمة، بعد أن قتلوا منهم عدداً كثيراً وأسروا بعضهم، لكن لوبي باريكا، الذي كان شجاعاً مقداماً، أرسل إلى الحاكم يطلب منه النجدة ليذهب إلى أبعد، وقد ظن أنه لم يقم بأعمال كافية، وعندما وصل إليه ثانياً خمسون فارساً بقيادة جورج منديس دي أطايدي عزم على الزحف ضد الشريف، الذي كان آتياً بألف وستمائة من الرماة، ليحاربه بجيشه وحلفائه. ولما تقابل مع الأعداء، كون كتيبتين من ستمائة رام، سلم إحداهما إلى جورج مينديس وإلى بيدرو باريكا ابن أخيه، واتخذ الأخرى لنفسه. كما كون كتيبتين من المغاربة الذين كانوا معه وجعلهما بجانبه، وأمرهما بما ستقومان به. زحف الشريف بثلاث كتائب، الأولى مؤلفة من سبعمائة فارس بقيادة ابنه البكر عبد الكبير، والثانية من ثلاثمائة بقيادته هو، والأخيرة من ستمائة بقيادة ابنه أحمد، كانت هاتان الكتيبتان في الميمنة والميسرة، والأخرى في القلب. ولما طوقت الاولى كتيبة جورج مينديس وضغطت عليها بشدة، أسرع إليها لوبي باريكا بكتيبة فهاجم العدو من خلف، مفسحاً الطريق بقتاله حتى التحق بجورج مينيديس، الذي كان يدافع عن نفسه بشجاعة، وعندئذ هاجم الحلفاء الكتيبتين ودام القتال أكثر من ساعتين، دون أن ترجح كفة أحد الفريقين. وأخيراً أسقط بيدرو باريكا عبد الكبير عن مطيته بضربة رمح، فأعاده إليها قومه بأقصى جهد ممكن، لأنه كان مصابا بجروح بليغة وتفرقت كتيبته. ولما رأى لوبي باريكا أن كتيبة الشريف ما زالت صامدة حشد ما أمكنه من الناس وحمل عليه مع بعض

---

(27) نونيو فيرناديس.

الحلفاء، وهزمه فكسر حيناً باقي الجيش، واقتفى المسيحيون أثره مع حلفائهم، وقتلوا نحو مائة رجل، كان من بينهم عدة شيوخ وحكام، ومن جملتهم المدعو ابن تاكوجين مع ابنه، الذي كان له شأن كبير، فقتلهما لوبي باريكًا معاً، لإغاثة حامل سلاح[28] كان الأول قد جَنْدَلَه بضربة رمح فنجا الشريف هارباً، بعد أن فقد رايتين وطبلا، وعاد المسيحيون إلى أسفي، دون أن يفقدوا أحداً منهم، ولم يصب منهم سوى أربعة بجراح.

هجوم نونيو فرنانديس على بلاد المغاربة حيث قتل وهزم قومه :

وفي السنة الموالية ذهبت جماعات من أولاد مطاع التابعين للملك البرتغال، إلى حاكم أسفي يشتكون له من أعراب أولاد عمران، الذين كانوا يغيرون على بلادهم ويأخذون قطعانهم، طالبين منه النجدة. كان يحيى إذ ذاك في البرتغال، وهؤلاء الأعراب الذين كانوا يحبون القتال ويوجد من بينهم نبلاء شجعان، لم يطيقوا ملامة المغاربة الآخرين، الذين كانوا يسمونهم عبيد المسيحين، فثاروا لذلك، وبعد أن أوغلوا في البلاد بقطعانهم، رَعَوا جميع كلإ حدود هسكورة، على بعد أزيد من أربعة عشر فرسخاً من مدينة مراكش الى جهة الشرق، وحاربوا بعنف الأعراب والبربر الخاضعين للملك البرتغال. ولما كان حاكم أسفي يبحث عن الفرصة لإظهار نفسه، وعلم أنهم اقتربوا من الأطلس الكبير، أراد أن يصيبهم بضربة، وانطلق من أسفي في أربعمائة وخمسين فارساً برتغالياً، وستين من رماة البنادق أو القذافين الراجلين[29] الواقعة على بعد ثمانية فراسخ من أسفي، شرقي جبل بني ماكَر. أخذ ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس سواء منهم أو من الغربية، موهماً إياهم أنه سيجتاح مراكش، فسار الليل كله، وانقض في الصباح الباكر على أحد دواوير أولاد عمران فإذا برئيسه، وهو أرحّو بن شحموط يمتطي فورا فرسه مع بعض الاعراب الذين كانت خيولهم مسرجة ملجمة، حسب عادتهم متى كانوا في مكان خطير، وخاصة من منتصف الليل الى الصباح. إلا أن البرتغاليين خربوا الدوار وانقلبوا راجعين إلى أسفي مع عدد من النساء والاطفال والشيوخ ساقوهم أسرى. ولما وصلوا بعد الظهر إلى شريس الواقعة غربي مراكش، ليقيلوا بها من حرارة النهار. أقبل ابن شحموط مع مائة فارس وقد تأهبوا للمسير، فصاح من بعيد على مغاربة

(28) هو بايو روير.

(29) في شهر ماي.

هو ألفونسو دي فارو.

الفئة المضادة، أن الوقت حان للانتقام من المسيحيين الذين طالما ألحقوا بهم أضرارا، وهو لايفتأ يناوش حولهم كرجل يائس. وأخيراً لمح من بين الأسيرات أعز نسائه إليه، وكانت بارعة الجمال من بنات عمه، فناداها بأعلى صوته ألَّا تَهِن ولا تحزن لأنه يامل بعون الله أن يخلصها ذلك اليوم. فأجابته بشدة، بعد أن استأذنت الجنود : «خلصني من الاسر، أو مت كمداً، إن لم تكن نسيتني أيها الفارس الهمام، فطالما أعربت لي عن شدة محبتك لي. فسوف أصحبك، سواء في الحياة أو في الممات، لكنني أخشى أن تكون الكلمات التي خاطبتني بها مجرد هواء!» إذ ذاك شهر ابن شحموط رمحه وقال : «يطُّو ــ وكان ذلك اسمها ــ لم أقل شيئاً لم أعمل به، وسأحبك دائماً طول حياتي. فالنهار طويل وشجاعتي عظيمة، والقوة في ساعدي، والنصر بيد الله!». فتناولت حفنة من التراب ورمت بها في السماء، وقالت : «هكذا هو كلامك، ارجع في سلام، واذهب لتتسلى مع التي بقيت لك، فيطو لم تعد لك». لكن المغربي نزع حذاءه من شدة الغيظ ورمى به إليها كعربون لوعده، فالتفت إلى قومه، وجعل يشجعهم على القتال، مذكراً إياهم بالإهانات التي تلقوها من المسيحيين. وطلب منهم إن كانوا لايتألمون لرؤية نسائهم وأطفالهم وهم يساقون على مرأى منهم ليذيقوهم إهانات أسوأ من الموت : فحمل على المؤخرة التي كانت تحت قيادة صهر فرنانديس[30] وأوقفها بعض الوقت بمناوشات، فاضطر فرنانديس من أجل ذلك أن يمنع من أن يقوم أي أحد بمناوشة الأعداء وأن يخلف صهره في مكانه ويصرفه إلى المقدمة، ثم ساق الكتيبة متراصة، وأقام هو في المؤخرة، إلا أن ابن شحموط كان يتنقل في كل الجهات، حتى حكَّم الرمح في كتيبة المسيحيين، وضايقهم من قريب فاضطر بعضهم إلى الالتفات إليه، فتقاتلوا فعلا. كانت الحرارة مفرطة لدرجة أن فرنانديس اضطر إلى فك طوق الرقبة من الزرد الذي كان يضعه على درعه، ثم اختلط بالعدو واقترب من ابن شحموط الذي أصابه في حنجرته بضربة وأرداه قتيلا. وبعد أن حملوا جثة القائد، أرادوا أن يختاروا آخر مكانه قبل متابعة السير، فنشأ عن ذلك نزاعات إلى أن اشتبكوا فيما بينهم. حينئذ رأى المغاربة من شيعتهم الفرصة سانحة، فانقضوا عليهم دون ان ينتظروا أوامر رؤسائهم فقتلوا قسماً كبيراً منهم وأقصوا الباقين. لكن الذين نجوا منهم لم يكونوا أحسن حظاً من الآخرين، لأنهم قتلوا كلهم أو أسروا عندما ظنوا أنهم فروا عند أعراب آخرين من شيعتهم، ولم يفلت منهم سوى خمسين فارساً

(30) هو الفونسو دي فارو.

وبعض المشاة. وعاد ابن شحموط منتصراً إلى معسكره مع زوجته والغنيمة كلها. وهلك في هذه الوقعة نونيو فرنانديس وصهره وعمه الذين كانوا يتنافسون في الحكم، وكذا أخو زوجته وعدد كبير من النبلاء[31]. وأسر لوبي باريكًا، مع دُوم هانريكي دي سا، وجورج دي بريتي، ودُم أنطونيو كارنيرو، وعدة أشخاص اخرين من ذوي الوجاهة، بلغ عددهم خمسة وثلاثين. جميع هؤلاء الأسرى وقعوا تحت سلطة الشريف، وعندما حمل لوبي باريكًا إلى مراكش، أسرع الناس من كل جهة ليروه، لشدة شهرته وذيوع صيته، ومن جملتهم مغربي مقدام من تلمسان، دخل إلى إسطبل الشريف حيث كان لوبي باريكًا سجيناً مكبل الرجلين بالحديد، فقال له متحدياً إياه : أأنت ذلك المسيحي الذي يتحدث عنه كثيراً؟ أود لو كنت طليقاً حتى أنتف لحيتك». وشفع القول بالعمل، فلم يطق لوبي ذلك وضربه بعصا على رأسه ضربة قوية فأرداه بين رجليه قتيلاً، وكاد يفعل نفس الشيء باثنين آخرين كانا يتبعانه، لولا أن التحقا بأعلى المكان. ولما علم الشريف بذلك أحضره بين يديه، فأمر بأن يضرب على كتفيه ضرباً كثيراً حتى مزق قميصه على لحمه، دون أن ينبس ببنت شفة، وبعث لوبي بعد بضعة أيام بقميصه الممزق الملطخ بالدم إلى ملك البرتغال، ليثير شفقته ويحمله على افتدائه، ففعل ذلك، ولكن، بعد ذلك بقليل وكان قد شن غارة على المغاربة الذين كانوا يهاجمون ضواحي أسفي، فعندما كان يخترق طريقاً ضيقة متعرجة تؤدي من باب المدينة إلى الخنادق، أصابه طفل صغير بضربة حربة في حنجرته، في نفس المكان الذي أصيب فيه نونيو فرنانديس وأرداه قتيلاً مثله. وأعجب من هذا أن ابن شحموط مات بعد ذلك بقليل بنفس الكيفية، وهو يقاتل مغاربة من فاس. ولما حمل جثمانه إلى زوجته، امتنعت من كل شراب وأكل إلى أن هلكت، فدفنت معه، هذه هي نهاية ثلاثة قواد كبار ملؤوا افريقيا كلها بأخبار بسالتهم.

كيف قتل المغاربة يحيى والمسيحيين الذين كانوا معه وكيف هُزموا بعد ذلك من طرف حاكم أسفي ؟

بعد مقتل فرنانديس أُرسل دُم نونيو ماسكارينيَاس حاكماً لآسفي، ولما وَجَدَ المغاربة شيعةَ البرتغاليين ثائرين عمل ما أمكنه ليردهم إلى الطاعة واعداً إياهم أن ينسى الماضي، فرد بهذه الطريقة أعراب عبدة، ومعظم أهل الغربية، لكنه لم

(31) هم ألونسو دي فاطو، والفارو دي أطايدي، والفارو دي فاطو.

يستطع إطلاقاً أن يستميل بني عمران، الأمر الذي اضطر من أجله إلى شن غارات عليهم إلى بُعد خمسة عشر أو عشرين فرسخاً داخل البلاد، فأعادهم إلى الخضوع الى ملك البرتغال. وكان يحيى قد عاد إذ ذاك بصفته قائداً على جميع أتباع الملك، فاستمر في مهمته، وهو يشن الغارات على جميع الأقاليم المجاورة، ويلزم الجماعات البربرية بأداء الإتاوات، مصطحباً معه أحياناً حتى خمسة عشر الف فارس مغربي، وخمسمائة مسيحي. وأخيراً عندما حشد جنوده لمحاربة الشريف[32] أرسل إلى أسفي يطلب أربعمائة من المقاتلين بالرماح وقطعتين من المدفعية، إذ كان في عزمه الذهاب حتى إلى مراكش ومهاجمتها، لكن الحاكم الذي لم تكن علاقاته حسنة معه، نصحه بعضهم بعدم تلبية طلبه، خوفاً من خيانته، بحيث إن كل ما أمكنه أن يحصل عليه هو خمسون فارساً، بواسطة من يعرفون وفاءه. فذهب إلى الملاحات، مع هؤلاء الخمسين من أصحاب الرماح، ومغاربة عبدة والغربية، ومن ثم نادى بني عمران الذين عادوا إلى الطاعة، كما أسلفنا. وبينما هو مقيم هناك بضعة أيام في انتظار قرارهم، بلغه أن مولاي إدريس حاكم الجبل هجم على دواوير أولاد مطاع، مع فرسان كانوا قد انحدروا من إقليمي هسكورة وتادلا، بمساعدة ملك مراكش، وقتلوا خمسين فارساً وقائدهم المدعو إبراهيم، أخا أحد أشياخ عبدة الذي كان يقدره يحيى كثيراً ويعتبره صديقه الحميم. وبما أن المغاربة كان من عادتهم أن يزوروا بعضهم بعضاً في مثل هذه المناسبة، فإنه ظن أن من واجبه أن يذهب إلى الشيخ ليقدم له تعازيه، وكان صديقاً له، لا سيما أنه لم يكن بعيداً عن دواويره سوى برمية سهم. فانطلق مع أربعة أشياخ من الغربية، أخذهم وحدهم معه. وبينما كانوا يتناولون الطعام جميعاً حضر فجأة شيخان من بني عمران وطعناه غيلة دون أن يتمكن الذين جاءوا معه من إغاثته، فشهر الأربعة كلهم سيوفهم وقتِلوا معه. وبعد ذلك ذهب الخونة لنهب الدواوير، حيث كان يقيم الفرسان المسيحيون الخمسون، الذين امتطوا خيولهم وفروا على التوِّ إلى جهة أسفي مع أعراب الغربية. ولما قطعوا مسافة فرسخ تقريباً، دون أن يتبعهم أحد، عزم الأعراب الذين كانوا يصحبونهم على اغتيالهم ليأخذوا أسلحتهم وأفراسهم. وبعد أن توقفوا فترة بسبب لوم رؤسائهم، حملوا عليهم في الاخير وقتلوهم أو أسروهم جميعاً. وعندما وصل نبأ ذلك إلى أسفي خرج الحاكم في الحين في مائة وخمسين فارساً للانتقام من هذه الخيانة، فاقتفى أثر الخونة وأدركهم على بعد فرسخين ونصف من

(32) سنة 1519.

المدينة، وقتل منهم مائة وخمسين وأسر ستمائة[33] وعاد منتصراً. واتهمه الكثير بقتل يحيى، لأن المغربي كان قد سبق له أن اشتكى إلى ملك البرتغال أن الحاكم كان يهدده بالقتل. وسرعان ما أسف لموته المسيحيون وشيعتهم من المغاربة الذين أخذ عددهم منذ ذلك العهد ينخفض شيئاً فشيئاً، لأن الشرفاء زادت شوكتهم قوة بسبب خضد شوكته، ومع أن حرس أسفي كان يحصل كل يوم على غنائم، فإن منطقة النفوذ كانت تضيق يوماً بعد يوم، إلى درجة أن ملك البرتغال، بعد فقدان رأس أكير وتقوي الشرفاء، تخلى عن هذه المدينة التي كانت تتحكم فيها الجبال المجاورة، ولا يمكن إنجادها بفعالية من البحر، لرداءة مينائها، بالإضافة إلى أنها كانت تتطلب نفقات أكثر من قيمتها.

الفصل الرابع والخمسون

قَنْط[34]

أسس هذه المدينة — حسب قول المؤرخين — القوط عندما كانوا مسيطرين على موريطانيا الطنجية. تقع على شاطىء البحر، بعيدة عن أسفي بسبعة فراسخ في اتجاه الشرق، وكانت في القديم آهلة بالسكان لأنها كانت مركزا تجارياً عظيماً. لكن العرب خربوها أيام حكم طارق الذي عبر البوغاز لغزو إسبانيا، وأتم البرتغاليون تخريبها بعد ذلك العهد. ما زالت تشاهد بعض أنقاض الأسوار العتيقة، ويملك أعراب الغربية، الذين يجوبون إقليم دكالة، هذه المنطقة. وتُكَوِّن الأرض قريباً من هناك رأساً يسميه بطلموس رأس كونطي[35] ويجعله في ست درجات طولاً، وخمس وثلاثين درجة وست وخمسين دقيقة عرضاً. ويجعل بعضهم هذه المدينة من بين المدن التي أسسها حانون بأمر من مجلس شيوخ قرطاجنة.

---

(33) صغارا وكبارا

(34) حرف اسم هذه المدينة في الأصل مكتبت «كوبطى» انظر الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، (1:152) والهامش 60م. (مترجم).

(35) هو رأس إسباط حالياً.

الفصل الخامس والخمسون

تيــط

مدينة قديمة، تلوح الآن أنقاضها على شاطىء البحر[36] على بعد أربعة فراسخ من مازغان (البريجة) في اتجاه الغرب. ويرجع تأسيسها ـ على ما يقال ـ إلى سكان افريقيا الأولين. وكانت آهلة بالسكان في القديم، لأن الضواحي المجاورة لها خصبة جدا. وعندما استولى البرتغاليون على مدينة أزمور، استسلمت عن طريق التفاوض، وأصبحت خاضعة لملك البرتغال مدة من الزمن، لكن مولاي الناصر، أخا محمد الوطاسي ملك فاس، لما ذهب إلى هذا الإقليم لتحرير المسلمين من نير المسيحيين، ولم يتمكن الا من شنق أمين بيت مال ملك البرتغال، مع يهودي كان يساعده على تحصيل الإتاوات أخذ جميع سكانها، ونقلوا إلى قرية صغيرة كانت خالية على بعد ثلاثة فراسخ من فاس، ولم تُعمَّر هذه المدينة بعد ذلك إطلاقاً، وما زالت ديار المدينة وأبراجها قائمة، لكن الأعراب يحرثون الأرض مع اعتراضات كثيرة من حرس مازغان. كانت هذه المدينة تدعى طوط[37] في القديم، حسب يوسف، باسم طوط حفيد نوح، الذي ساق الطوطيين إلى موريطانيا الطنجية. وتقع حسب بطليموس في الدرجة السابعة وثلاثين دقيقة طولا، والدرجة الثلاثين وثلاثين دقيقة عرضاً، وتعد من بين المدن الليبية ـ الفنيقية.

الفصل السادس والخمسون

مازغان (الجديدة)

مدينة حصينة بناها ملك البرتغال على هذه الحدود، وزادها تحصيناً منذ أن تخلى عن مدينتي آسفي وأزمور. بعد عن هذه الأخيرة بثلاثة فراسخ، وتقع في سهل على شاطىء المحيط حيث كان يوجد قديماً برج عتيق[38] لميناء المدينة القديم، وقرية هي الآن خربة تسمى دار الفارس. أسوار مازغان مشيدة على الطراز العصري، بأحجار ملصقة بالجير، وفيها عدد كثير من المدفعية والذخيرة الحربية، مع حامية قوية، ذلك أن ملك البرتغال لما عزم على ترك المدن الأخرى أراد أن يحصن

---

(36) المحيط.

(37) كذا بالاصل.

(38) هو البريجة.

هذه المدينة ويجعلها منيعة بقدر الأمكان. يحرسها المحيط من جهة وخندق عريض عميق من جهة أخرى يرتفع ماؤه مع البحر. وفي داخلها بئر ماؤه عذب يحيط به سور من حجر في غاية الارتفاع والنتوء. تاتي إليها السفن لتتزود بالماء العذب. وكانت لهذه المدينة عدة مجابهات مع المغاربة، منذ أن قويت شوكة الشرفاء وتمكن لويس دي لوريرو حاكم مازاغان من إحراز انتصارات مختلفة على الشرفاء ما عدا في المرتين الأخيرتين اللتين هاجمهم فيها. ذلك أنه عندما ذهب فئة من جنده، بصحبة مائة فارس وأربعمائة راجل، لقي طائفة الشريف مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس، ولما أخذ ينسحب أمامهم في كتيبة متراصة، محاطة من جانب بفرسانه، إذ خرج أحد جنوده من الصف، وجرح برمية بندقية قائد العدو في ساقه وهو يقوم بدوريات حوله. فأثارت هذه الضربة غيظه وحمل مع جنوده على الفرسان المسيحيين الذين دافعوا عن انفسهم دفاعاً مستميتاً ثم أرادوا الالتحاق بمشاتهم والمرور على طول الجانب ليساعدوهم على إطلاق النيران قبل أن يعودوا للاشتباك، لكنهم لم يكفهم الوقت لذلك ووقعوا في ارتباك جعل المغاربة يختلطون بهم اختلاط الحابل بالنابل ويستولون عليهم جميعاً. ولما رأى الحاكم أنه أحيط به من كل جهة، احتمى بترسه وخفض رمحه، فحمل على وسط الاعداء، حيث تلقى عدة طعنات بالرماح والسيوف قطعت إبهامه من جرائها، لكنه تمكن من الفرار مع سبعة آخرين، بينما قتل الباقي أو أسر. وبعد الانتصار، قطع المغاربة رؤوس جميع القتلى، فحملوها على إبل إلى مراكش، وساقوا إليها كذلك الاسرى ليتباهوا بهم. ومن أجل هذه الهزيمة عزل ملك البرتغال لوريرو وعين مكانه الفاري دي كارفال(40) وحاصر الشريف بعد ذلك هذه المدينة بأزيد من مائتي الف جندي وقصفها بشدة، ثم ردم الخندق بجبل من الرمال، وحطم قسماً كبيراً من السور بالمدافع. لكن المحاصرين قاوموا بشجاعة وقتلوا بالمتفجرات والاسهم النارية عدداً كبيرا من المغاربة وأبعدوهم عن المدينة. وعندما رأى الشريف أنه لا يتقلم كثيراً ولا يستطيع قطع المَدَدِ من جهة البحر، انسحب متحملا خسائر جسيمة(41)، فبقي المسيحيون منتصرين،

(40) سنة 1562.

(41) ذكرت المصادر العربية هذه المعركة، وأن عبد الله الغالب اغتمَّ عدما لم يتمكن جيشه من تحرير البريجة بعد طول حصار ــ إلى أن أنشده الشيخ محمد بن ابراهيم التمارتي ــ وكان من المجاهدين المتطوعين في هذه المعركة ــ بيت امرىء القيس :

وَما جَبَنَتْ خَيْلي ولكن تَذَكَّرتْ   مَرَابطَهَا مِن بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَ

أنظر الاستقصا 5 : 42ــ46 وكتابنا **الحركة الفكرية**، 2 : 618.

وتبرىء هذه الشهادة المسيحية ساحة الغالب الذي اتهم ــ ظلماً ــ بأنه تخلى عن البريجة بعد أن تمكن منها. (مترجم).

وإن كانوا قد فقدوا العديد من شجعان الجنود والضباط. يوجد على الحدود ميناء صغير يسمى روسيبيد، يجعله بطليموس في ست درجات وأربعين دقيقة طولاً، واثنتين وثلاين درجة وثلاثين دقيقة عرضاً. والشاطىء مكشوف كله من هناك إلى أزمور.

الفصل السابع والخمسون

أزمّـــــور

مدينة قديمة، أسسها الأفارقة على شاطىء المحيط(42)، عند مصب نهر أم الربيع الذي كان يسمى كوفة في القديم، ويجعله بطليموس في ست درجات وأربعين دقيقة طولاً، وفي اثنتين وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة عرضاً(43). تقع أزمور في سهل رملي على بعد ثلاثة فراسخ من مازغان (البريجة) في اتجاه الشرق، وكانت آهلة جداً بالسكان عندما استولى عليها البرتغاليون، لأن صيد الشابل، والتون، وغيرهما من أصناف السمك، كان يجلب اليها عدداً كبيراً من تجار أوربا. وكانت تحتوي على ما يفوق ألف كانون(44)، من بينها أربعمائة لليهود. كان السكان ماهرين جداً، يبنون منازلهم على الطراز العصري، بسبب الاتجار مع اوربا وكانوا موسرين يدبرون شؤونهم بنظام أحسن من الافارقة الآخرين. وقد تحرروا عند سقوط مملكة بني مرين، وكان واجب صيد السمك المؤدى لهم ينيف على ثمانية آلاف مثقال، ويدوم من بداية اكتوبر إلى نهاية أبريل. وكانت تصطاد فيها كمية عظيمة من السمك تزود به جميع الأقاليم المجاورة، ومدينة مراكش، فضلاً عما كان يحمل إلى أوربا.

الأراضي المجاورة لأزمور كثيرة الخصب قمحاً ومرعى، لان إقليم تامسنا يقع شرقي النهر، وإقليم دكالة غربيه، وكلاهما كثير الكلأ والغلة. ومع أن السكان كانوا منقسمين إلى فئتين، لم يكن هناك خلاف أصلاً فيما يخص الحرية، لكن، إليكم كيف آلت هذه المدينة إلى حكم ملك البرتغال، وكيف تخلى عنها بعد ذلك.

---

(42) في جهة العرب.

(43) يعدها بعضهم من جملة المدن الليبية ـــ الفنيقية.

(44) عند الوزان : خمسة آلاف كانون.

كيف هاجم دُم يوحنا مينيزيس مدينة أزمور وهُزم :

عندما أطْلَعَ التجار البرتغاليون المقيمون بأزمور ملكهم على سهولة احتلال المدينة، ووفرة إيراد صيد السمك بها، أمر الملك حاكم أصيلا، دُم يوحنا دي مينيزيس بالذهاب مع ثلاث كرافيلات وسفينة اخرى لسبر غور مصب نهر أزمور، وأنهار المعمورة، وسلا والعرائش، الواقعة على هذا الساحل، وأن يصحب معه رساماً لتخطيط تصميم أزمور والمدن الأخرى المذكورة. وعندما قدم تقريره(45) تلقى الأمر بمحاصرتها(46). وكان في البرتغال آنذاك فارس مغربي يدعى مولاي زيدان(47) الملقب بالبرتغالي، لأنه كان قد أسر وهو ما يزال طفلاً، ونشأ في البرتغال : كان ابن عم شقيقا لملك فاس، وكان مولاي محمد قد تزوج بأخته التي كانت ابنة مولاي الشيخ أول ملوك فاس من بني وطاس، فاغتاظ هذا الاخير من ملك فاس لأنه سلبه مملكة مكناس وأعطاها أخاه، ولجأ إلى مراكش ظاناً أنه سيقتبل بها كعاهل، بسبب ما كان يتمتع به من تقدير، إلا أنه خاب أمله، فذهب إلى البرتغال وتعهد إلى الملك بأنه سيمكنه من تلك المدينة بقليل من الجنود(48) فقرر الملك ومجلس شُورَاهُ بأن يرسل هذا المغربي مع أسطول بحري صغير، لم يكن كافيا لعملية كبرى كهذه، بقيادة دم يوحنا دي مينيزيس، الذي صحب معه أربعمائة فارس بعضهم مدرعون، وألفين من الجنود الوصفان، منهم رماة بنادق قذافون، مع كثير من المتطوعين. وخرج من لشبونة في العشرين من يوليوز، وأرسى في الجرف الرملي لأزمور،(49) حيث قضى بضعة أيام في جمع الأسطول، ثم صعد النهر عشية ثاني عشر غشت، بينما كانت المياه مرتفعة، وعسكر أمام المدينة. وفي غداة الغد بدأ يقصفها، بعد أن أنزل «مولاي زيدان» ليتولى حشد أصدقائه بها ويحاصرها من جهة البر. فقام السكان بالتصدي للمهاجمين وهم يطلقون عليهم نيران مدافعهم، ويصيحون صياحا مهولا في وجه الاسطول المسيحي ليعربوا عن مدى احتقارهم لهم. كما ألقوا في الماء حزما كبيرة من الأغصان لتسير على طول النهر مختلطة بالتبن ملفوفة في خرق الكتان والقطن

(45) سنة 1506.

(46) سنة 1508.

(47) بل اسمه محمد بن محمد الوطاسي. (مترجم).

(48) كل هذه الاخبار خيالات وأوهام. إذ تسجل الوثائق التاريخية المتواترة في كتب المغاربة والبرتغاليين الطريقة التي رجع بها محمد البرتغالي إلى فاس، وتسنمه العرش بعد والده، وقيامه بأعمال مشهورة، منها مراسلات ومعاهدات كثيرة. انظر أ. الناصر، **الاستقصا**، 4 : 140—143 (مترجم).

(49) وهو مصب النهر.

المطلية بلقار، لإحراق السفن التي عانت الكثير من مقاومة النيران. إلا أن دم يوحنا، الذي كان ينتظر أن يبذل مولاي زيدان بعض المجهود، رأى أنه يزوده بأقوال، وانه تحالف مع سكان المدينة، بعد أن حشد خمسة عشر ألفا من الأعراب، ووعدهم بأنه سيدافع عنهم إذا بايعوه كملك، نزل دم يوحنا إلى الأرض رغم الأعداء الذين كانوا يتصدون لنزوله، وساقهم بالضرب إلى الاسوار، مكبدا إياهم خسائر كبيرة في الأرواح، بحيث إن السكان خشوا أن يدخل إلى المدينة، فاختلط حابلهم بنابلهم وأغلقوا الأبواب تاركين قسما كبيرا من أصحابهم خارجها. وفي أثناء ذلك وصل الأعراب وأفارقة مولاي زيدان فانقضوا على البرتغاليين بشدة وطاردوهم حتى سفنهم بعد أن مزقوهم كل ممزق. فأمر دم يوحنا بالإبحار وساروا في عرض البحر وهم في أشد الاضطراب بسبب خطأ الربابنة، فضلا عن أن البحر كان في حالة جزر، فهلكت بعض السفن، وأحرق المغاربة سفينة جنحت وساخت في الرمل، وقتلوا جميع ركابها وهكذا انسحب دم يوحنا بما أمكنه من السفن، متجها نحو حبل طارق، وأرسى بأصيلا في وقت مناسب كما سنذكر ذلك عندما سنتعرض لوصف هذه المدينة.

كيف استولى دوق دي براكَانس على مدينة أزمور :

دخل مولاي زيدان إلى المدينة بعد انسحاب دُم يوحنا مينيزيس، فاقتبل بها كعاهل، لكن السكان احتموا بملك البرتغال، بواسطة أحد اليهود، شريطة أن يدافع عنهم كرعاياه ومكنوه من اتخاذ دار حصينة له في المدينة، أمكن للتجار المسيحيين أن يلتجؤوا إليها ببضائعهم، ثم التزموا في عقد بأن يؤدوا له كل سنة عشرة آلاف من الشابل كإتاوة، ويعفوا السفن المسيحية من كل واجب عن الارساء، والبضائع المسيحية من جميع أنواع رسوم الدخول. قبل مولاي زيدان كل ذلك لربح ثقة السكان الذين كرهوه بسبب تعسفاته، وحتى يسترجع ثقة ملك البرتغال، بعد أن خدعه من قبل، أوفد إليه سفارة يعتذر عما فرط منه، ويقترح عليه البنود التالية : أن تكون المدينة خاضعة له على الدوام، وفية بما وعدته به، وأن الملك من جهته لن يقوم بعملية عسكرية ضدها، ويدافع عنها بكل قواه. وباختصار انهم سيبرمون تحالفاً هجومياً ودفاعياً. وأبرمت الهدنة لمدة عشرين سنة بهذه الشروط، لكن مولاي زيدان نقضها بعد ذلك خلافاً لإرادة معظم السكان والأعيان، الامر الذي اضطر من اجله المسيحيون المقيمون بها إلى الرجوع إلى البرتغال، وإطلاع الملك على الوسائل اللازمة لاحتلال المدينة. فأرسل(50) ابن أخيه دوق دي براكَانس(51) مع أربعمائة سفينة شراعية، من بين صغيرة وكبيرة، تحمل على متنها ثمانية آلاف راجل وألفين وخمسمائة فارس، منهم خمسمائة من رعايا الدوق، والباقي من رعايا التاج، ومن بينهم مائتان وخمسون مدرعون بزرود الحديد إضافة الى عدد كبير من النبلاء العريقين، وكمية من المدفعية والذخيرة وسائر الأجهزة الحربية. انطلق هذا الاسطول من نوطردام دي بيلين في سابع عشر غشت. وبعد أن وصل الى خليج فرعون، بمملكة فاس، مكث فيه بعض الوقت لتتجمع قطع الاسطول، ثم تابع سيره منه في الثالث والعشرين وجاء ليرسو في الثامن والعشرين بالجرف الرملي

(50) سنة 1513.

(51) دُم جايمس.

لأزمور، لكن نظرا للرياح المعاكسة توقّف الاسطول بيمناء مازاغان (البريجة)، بحيث نزلوا بدون أية عرقلة. وهناك مكثوا ثلاثة أيام قضوها في إصدار الأوامر لمهاجمة المدينة. وفي خلال هذه الأيام اقبل عدد من المتطوعين من أمزور (كذا) ليقاوموا المسيحيين، فقَتَلوا أو جَرَحوا بعضهم ممن كانوا قد ابتعدوا كثيراً. وغنموا كذلك عدة خيول في كمائن نصبوها لها ليلا، ثم حملوا في الصباح من جميع الجهات على خصومهم الذين كانوا غير منتظمين، لكن السكان الذين كانوا يتوجسون خيفة من تلك القوة العظيمة، أخرجوا من المدينة جميع العيال، وبمجرد ما علموا بإقامة أسطول بالبرتغال، تزودوا بكل ما يحتاجون اليه من أجل الدفاع عن مدينتهم، فلما وصل الجيش، كان في المدينة عدد كثير من المحاربين، وعدد من الأعراب يشنون الغارات مع مولاي زيدان وابنيه. ذلك لأنه لم يرد أن يبقى سجيناً في المدينة، وترك حاكماً بها سيدي منصور الذي كان يتمتع بتقدير كبير، بصحبة بعض النبلاء وأمير تاركا[52] الذي كان يعد من أشجع الناس وأكثرهم خبرة بالحروب، فصف هؤلاء القواد رجالهم، وعينوا لكل فئة معسكرها مقدِّمين التعليمات في كل شيء. غادر الدوق مازاغان في فاتح سبتمبر مع جنوده المستعدين للقتال، وأدخل الاسطول إلى النهر مع بضعة مراكب محملة بالمدفعية لإحراق حزمات القصب، والتبن، والخشب اليابس، المدهونة بالقطران، التي كان الأعداء قد أعدوها ليقذفوها في اليم عندما تقترب سفن البرتغاليين. وقد أنجز الاسطول بنجاح ما أمر به، ولو أنه قوبل لدى مروره قرب المدينة بطلقات المدفعية وبعض الشهب النارية، بالإضافة إلى أنهم وضعوا على بعض سفن الكرافيل مدافع للتهيؤ والاستعداد مع ما يلزم من الذخيرة والجنود الذين أمروا بالدخول في النهر والاستقرار أمام المدينة، ففعلوا. وكان قد أرسل بقصد الاستطلاع فرساناً مجهزين أحسن تجهيز[53] فهوجموا من طرف المغاربة بعنف حتى اضطرت طليعة الجيش إلى الإسراع لنجدتهم، وتلاهم جميع الفرسان حتى الدوق نفسه الذي قاوم الأعداء بشجاعة مع معظم المشاة، بالرغم عن أنه هوجم من جميع الجهات حتى الليل. وقد لحقت خسائر بالجانبين وفقد الاعداء نبيلاً شجاعا كان يقودهم[54]، وكان قبل ذلك في خدمة ملك البرتغال.

(52) هو علي بن كيريين.
(53) مع المدعو فرانسيسكو دي بيبدروسا، قائد الحرس، أو ضابط آخر.
(54) هو سيدي عفو.

ولما وصل الجيش إلى أزمور في خضم معارك ومناوشات مستمرة، عسكر الى جانب النهر قريباً جداً من سفنه. وفي غداة الغد أنزلوا المدفعية الثقيلة والذخيرة التي كانت على متن الكرافيلات، لقصف المدينة. وفي هذه الأثناء أخذ المغاربة الذين كانوا يقومون بغارات حتى على مازاغان، وآخرون كثيرون التحقوا بهم، يصطفون في ثلاثة صفوف كبيرة على مرمى المدفع، كأنهم يستعدون للقتال، لكن الدوق منع جنده من الخروج من المعسكر، وصوب ضد المغاربة بعض قطع المدفعية، وأعطى الامر اللازم لقصف المدينة، بحيث إن المغاربة تراجعوا، وقد أزعجتهم المدفعية ورأوا أن أعداءهم لا يريدون أن يقاتلوهم. عند ذلك اقترب (البرتغاليون) من السور لنقبه تحت غطاءات نقالة، فدافع السكان عن أنفسهم بشجاعة، وجرحوا المسيحيين بقنابل يدوية وبجميع أنواع الاسهم النارية التي كانوا يقذفون بها إلى أسفل السور على القائمين بنقبه. وقد قتل أو جرح كثير منهم. وبعد مضي أربع ساعات على القتال، دون أن يظهر على السكان أي ضعف، وقد قتل الحاكم(55) برمية مدفع، تعالى صراخ كبير من المدينة، التي أخذ السكان يغادرونها في الحين يائسين، وبتسارع كبير إلى الابواب حتى إن ثمانين شخصاً اختنقوا في الازدحام. إلا أن يهودياً(56) من الذين طردوا من إسبانيا، أشار من أعلى السور إلى المسيحيين، طالباً أن يسمح له بالمرور ليقابل القائد، وبعد أن سمح له بالمرور التمس من القائد أن يؤمن قومه على أملاكهم وحياتهم، مقابل البشرى التي حملها اليه من أن المغاربة قد غادروا المدينة، فلبى الدوق رغبته بعد أن حمد الله. وما كادت تطلع الشمس من الغد حتى أدخل إلى المدينة كتائب من الجند لحماية دور اليهود من النهب، وبعد أن رفعت رايات البرتغال على الأبراج علامة للانتصار، دخل الدوق إلى المدينة مع باقي جنوده، وبدأ بتحويل المسجد إلى كنيسة باسم حماية الروح القدس، وعثر فيه على ناقوسين كانا به منذ عهد القوط أو حملا إليه من إسبانيا من طرف المغاربة. وحيث إن السكان لم يستطيعوا حمل كل شيء في انسحابهم السريع فإن الغنيمة كانت عظيمة. وتبع احتلال هذه المدينة احتلال تيط والمدينة اللتين غادرهما المغاربة عندما بلغهم هذا الخبر، بحيث إن الدوق أرسل اليهما رجاله ليحتلوهما باسم ملك البرتغال. وأمر إذ ذاك نونيو فرنانديس دي أكايدي، الذي كان قد ذهب إلى أسفي بجنوده، أن يستولي على

(55) سيدي منصور.

(56) هو يعقوب أديف.

المدينة، متعجباً من ذعر المغاربة الذين لم يجرؤوا على المكوث بها، مع كونهم حلفاء للبرتغال. فأسند حكمها إلى يحيى (ابن تعففت). وبعد أن تلقى منه اليمين، أذن لجميع المغاربة بالرجوع إلى منازلهم. وليتأكد أكثر من ذلك هدم جانبين من السور، أحدهما من جهة أزمور، والآخر من جهة أسفي، حتى يمنعهم من أن يتحصنوا أثناء ثورة محتملة، وبعد ذلك عمرت المدينة من جديد وصارت أغنى مما كانت عليه من قبل، واقتدى بها سكان تيط، فأصبحوا كذلك رعايا للملك البرتغال. وبعد أن سهر الدوق على ما يلزم لحماية فتوحاته الجديدة، واقتبل جميع الذين جاءوا مستسلمين، سواء منهم الثوار أو غيرهم، ترك حرساً قوياً في المدينة مزوداً بكمية من المدفعية والذخيرة، ثم عاد بكل أسطوله إلى البرتغال حيث اقتبله الملك وأكابر قومه بما يستحقه.

بعض أعمال حامية أزمور :

بعد انصراف الدوق دي براكَانس، عزم دُم يوحنا دي مينيزيس وروي بارِّيطي، اللذين مكثا بأزمور، أن يقوما بشن غارات على المغاربة، ويهاجما بعض المراكز الصغيرة الواقعة على بعد خمسة عشر فرسخاً من هناك على ضفاف نهر أم الربيع، فانطلقا ذات مساء مع الف ومائتين من الفرسان، وألف من رماة البنادق أو القذائف واستراحا في الصباح بعد أن قطعا مسافة سبعة فراسخ، ثم استأنفا سيرهما من منتصف النهار الى غروب الشمس فوصلا إلى الجبل الأخضر، حيث قضيا الليل كله.(57). وفي غادة الغد عند طلوع الشمس هجما على بني اقفيز (كذا) القاطنين على بعد فرسخين في مرتفع مستدير تحيط به أسوار عالية. وقد دافع المغاربة عن أنفسهم ما استطاعوا، لكنهم أُخذوا عنوة بعد أن هلك بعضهم دون أن يقتل أي مسيحي، ولم يؤخذ منهم أسرى سوى مائة وتسعين نفراً، لأن جل الناس فروا أثناء المعركة وانحدروا عبر الصخور المفضية إلى النهر، فغرق الكثير منهم، وهم يحاولون اجتيازه سباحة، في حين كانت المدينة تنهب وتحرق. ومن جهة أخرى، فإن دم بيرنار إيمانويل، الذي كان قد انفصل قبل مع قسم من الجنود ليحمل في نفس الوقت على تعفوفت، لم يستطع أن يصل حتى طلع النهار، لأن الطريق كان وعراً جداً، وكان لا بد من الاستراحة، فوجد المدينة مهجورة، وانحدر جنوده على

(57) في شهر فبراير 1514

طول الجبل إلى النهر، فصادفوا عدداً من المغاربة مع نسائهم وأولادهم، وهم يحاولون النجاة سباحة إلى الضفة الأخرى للنهر، وعند ذاك اقبل جمع كبير من السكان لمهاجمته، فقاتلوا قتالاً مستميتاً لكنهم استسلموا في الأخير بعد أن فقدوا البعض منهم، ثم عادوا إلى المدينة ينهبون ويحرقون. وبعد الانضمام إلى الفريق الآخر من الجند استؤنف السير إلى أزمور مع مائتي أسير، وكمية من الماشية الكبيرة والصغيرة، وبعض الخيل والجمال، دون مصادفة أي حاجز، كما كان ذلك في الذهاب.

كيف انتصر دُم يوحنا دي مينيزيس ونونيو فرنانديس على قائدين لملك فاس :

لقد سبق لنا، عندما وصفنا مدينة تدنست، أن ذكرنا كيف هزم حاكم أسفي وحلفاؤه الشريف، واحتل هذه المدينة، وكيف التحق به حاكم أزمور ونهبا معاً بعض المواقع الجبلية، ثم عاد كل واحد منهما إلى مقر حكمه مع عدد كبير من الأسرى، لكن حاكم أزمور، لما علم قبل وصوله إلى مقر حكمه بأن ملك فاس وأخاه قادمان بجيش عرمرم لمهاجمة مدينته، قفل راجعاً بسرعة، وإن كان لا بد له من قضاء ثلاثة أيام في اجتياز نهر أكَوز، الذي كان حاملاً بفيضان عظيم، وهناك بلغه خبر الحصار، فجد السير وقطع جبل بني ماكَر(58) حيث أُنذر بالإسراع كيلا يلقاه ألفا فارس أرسلهم ملك فاس أمامه. وكتب على الفور إلى أسفي أن يقدم بعض الفرسان الذين قد تركهم عند الحاكم(59) بسرعة إلى مدينة صغيرة بين أسفي وأزمور، وأن يبعث إليه معهم بشيء من البسكويت والبارود والرصاص حتى يستطيع أن يدافع عن نفسه عند الاقتضاء. ولما تم ذلك توجه من هنالك إلى أزمور دون أن يعترضه أي عائق، وبمجرد ما وصل علم بأن قائدين لملك فاس(60) يوجدان بحصن على نهر أم الربيع لإغاثة سكان هذا الإقليم، وأنهما ينتظران هناك أخا الملك الذي كان يحشد عدداً كبيراً من الفرسان والمشاة في إقليم تامسنا لياتي بهم إلى محاصرته، وقد ظن عندما بلغه الخبر أن من المناسب محاربة هذين القائدين قبل أن يلتحقا بأخي الملك، وطلب من نونيو فرنانديس ويحيى بن تعفوفت أن يشهدا هذه الوقعة. والتقى جميعهم في مدينة صغيرة على ستة فراسخ من المغاربة. وعلماً منهم بأن هؤلاء لن يتخلوا عن المعركة، فإنهم أقاموا معسكرهم في سهل لا

---

(58) الاطلس الكبير.

(59) في أواخر مارس 1514.

(60) هما العطار ولوطت.

يبعد عن هذه المدينة بسوى أربعة فراسخ، قصده جميع الجنود. وعزموا هنالك على أن يخرجوا عند النوبة الرابعة لحراسة الليل، ليصلوا في الصباح الباكر إلى المكان الذي يوجد فيه العدو، حتى إذا كانوا قريبين منه اصطفوا استعدادا للقتال. وجعل دُم يوحنا من الثمانمائة فارس الذين جاء بهم ثلاث كتائب، سلم إحداها الى روي بارِّيطي، والأخرى إلى يوحنا كونزاليس، واحتفظ بالثالثة لنفسه. أما نونيو فرنانديس فلم يؤلف من الخمسمائة فارس من أسفي الذين كانوا معه إلا كتيبة واحدة، ووقف يحيى (بن تعفوفت) في جهة اخرى مع ألف وخمسمائة فارس من الأعراب. وتبع هذه الكتائب الخمس سريتان من المشاة، مع الأمتعة في الوسط. كان على رأسها بعض قطع البادية، وقريباً منها جداً كتيبة دُم يوحنا برايتها. فساروا هكذا إلى أن لاقوا العدو وقد طلعت الشمس، وما أن ظهروا للعيان حتى جعل المغاربة يجمعون أمتعتهم لينسحبوا من السهل إلى الجبل. فحمل دُم يوحنا عليهم وهاجمهم قبل أن ينسحبوا بعد أن أمر المشاة بالالتحاق بأسرع ما يمكن بميدان المعركة. كان عدد المغاربة يزيد على أربعة آلاف فارس مع جماعة من المشاة. ولما رأوا أنهم لا يستطيعون التراجع دون خطر بمرأى من العدو إذ كان لا بد من اجتياز مضيق[61] عزموا على القتال، واصطفوا أربعة صفوف، ثلاثة من الفرسان، وواحد من المشاة جعلوه في المقدمة. وزحفوا هكذا ضد دُم يوحنا، الذي تصدى لهم بكتائبه الثلاث المتراصة، وحمل عليهم بشدة، بعد أن حاد قليلاً لتجنب طلقات رماة البنادق والقذائف، فلاذ المغاربة بالفرار غير قادرين على مقاومته، وتبعهم حتى المضيق دون أن يجتازوه، خوفاً من أن ينتظم العدو فيكرَّ عليهم من خلف. أما نونيو فرنانديس الذي أمر بمهاجمة جماعة كبيرة من العدو فلم يستطع ذلك لأنهم كانوا قد تفرقوا فكرَّ على مشاتهم الذين كانوا نحو ثمانمائة من رماة البنادق والقذائف، ومر على بطونهم بحيث لم ينج منهم سوى حوالي اثني عشر. لكن قواد البرتغاليين لم يستطيعوا ردع هيجان رجالهم، الذين عبروا المضيق، وعندما التقى ابن أخي دُم يوحنا، الذي ذهب لإرجاعهم، بأَرْيَاس طيلِّيسْ الذي كان يقتفي أثر المغاربة عبر الجبل، وبلغه أمر عمه، أجابه بأن الوقت ليس وقت انسحاب بل وقت مطاردة العدو. وبعيداً إذن من أن يتوقفوا، فإن الذين كانوا يتبعون ابن اخي دُم يوحنا صاروا في مؤخرة الآخرين بقيادة طيلِّيس الذي كان شجاعاً كبيراً، فاضطر إلى الاقتداء به، وشاركهم في ذلك أيضاً حامل راية دُم

(61) كان ذلك المضيق نهرا.

يوحنا. ولما أوغلوا كثيراً في الجبل، ورأى المغاربة أنهم قليلو العدد وغير منتظمين كرّوا عليهم وهزموهم. ولما شاهد دُم يوحنا ذلك ورأى أن رايته في خطر عبر المضيق بسرعة وأوقف ما وراءه بكتيبة ليسهل الانسحاب بعد ما أمر المشاة بأن يتبعوه. وبذلك لم يكن الضرر كبيراً جداً. وتوقف نونيو فرنانديس هو الآخر بكتيبته، وقد رأى الجنود يَعلُونَ غير منتظمين، ولكن على جانب المضيق. ولم يستطع يحيى حشد رجاله الذين تفرقوا هنا وهناك وهم مشتغلون بالنهب، وكان الفارون الواصلون إلى المضيق ينضمون إلى كتيبة دُم يوحنا، أو يتجاوزونها إلى كتيبة فرنانديس، لكن المغاربة طاردوهم بشدة إلى درجة أنهم حملوا على كتيبة دُم يوحنا وأرغموها على التقهقر إلى ما وراء المضيق. وقد قتل وجرح الكثير من الجانبين، لأن المعركة دامت أزيد من ثلاث ساعات، وبعد أن التحق دُم يوحنا بنونيو فرنانديس تراجعا خطوة خطوة في نظام محكم، تاركين خمسين فارساً مسيحياً قتيلاً في عين المكان، معظمهم من النبلاء. فقد قتل هناك دم كَارسيا دي مينيزيس، ابن كونت دي كانطا نييدي، ودُم فرنانديّ مينيزيس، ودُم رودريكي دي مينيزيس، وآرياس طليس دي مينزيس، ابن روي طليس، ودُم فرانسيسكو ديها ابن دُم يوحنا ديها، وعدد كثير من الفرسان الآخرين. وقتل القليل من المشاة لكن جرح منهم ما يفوق المائة، ومن جملتهم دم رودريكي دي كاسترو، مع فقدان حاملي رايتين(62) كل ذلك بسبب اندفاعهم في مطاردة العدو خلافاً لأوامر قوادهم. وفقد المغاربة أكثر من ألف وستمائة فارس وراجل، وأحد قائديهم، بينما فر الآخر راجلا وهو جريح بعدما ترك فرسه، ورمحه وترسه. كما هلك سبعة من شيوخ أعراب شراكَة. ونهب المسيحيون المعسكر، وأسروا فيه خمسمائة وثمانين رجلاً وجميع النساء والأطفال والشيوخ الذين عثر عليهم بالمعركة. فكان الأسرى من نصيب المسيحيين، والغنيمة من نصيب الحلفاء. وإثر هذه المعركة وبعد هذا الانتصار وإن كان دامياً، ذهب البرتغاليون لقضاء الليل في مكان على ثلاثة فراسخ من هنالك فافترقوا يوم الغد، فعاد بعضهم إلى أسفي، وبعضهم إلى أزمور، حيث خصص لهم اقتبال حار، إلا أن أخا ملك فاس الذي كان قد غادر إقليم تامسنا ليلتحق بهؤلاء الجنود قَصْدَ محاصرة أزمور، عندما وصل إلى أحد مشارع نهر أم الربيع قضى سبعة أيام في عبور النهر إذ كان معه مائة ألف مقاتل، ولما وصله هناك خبر المعركة بين المغاربة والمسيحيين أغذّ السير للأخذ بالثأر.

(62) هما القارودي كارفاللّو، وخوان دي سيلفا

ولما علم أن دُم يوحنا دي مينيزيس كان قد طلب المدد من البرتغال، وأنه مزود بكل ما يلزم للدفاع، غير رأيه وتوجه لمهاجمة المدن الأخرى بالإقليم المعترفة بملك البرتغال، وللقضاء على عدوه يحيى (بن تعففت)، وذلك لعدم قدرته على القيام بعملية عسكرية كبرى كهذه. وكان عدد رجاله كثيراً حتى إنه كان يجتاح كل ما يعترض طريقه، دون أن يجرؤ أحد على التعرض له. وعندما وصل إلى «المدينة» احتلها بدون مقاومة تذكر وذبح ثلاثة من أعيانها كانوا قد مكثوا للتصدي مع بعض الجنود. ذلك أن علي ميمون الذي كان يحكمها تراجع إلى أسفي بحاشيته وأسرته، لعدم تجرئه على ملاقاة خصمه. ومن جهة أخرى، فإن يحيى الذي لم يستطع أن يجند من أسفي سوى عشرين فارساً، لأنهم كانوا يخشون الحصار، ذهب إلى سرنو ليلتجيء فيها بجميع جنده وحاشيته، لكن عندما أراد أن يطمس أو يسمم الآبار الواقعة في الضواحي على مسافة ثلاثة فراسخ، أقبل العدو وقتل بعض فرسانه وأحد شيوخ الأعراب الرئيسيين بالغربية يدعى ابن عمير، وهلك معه خمسون فارساً، وشيخ كان هو القائد العام لجميع الفرسان. وقد أبلى يحيى ذلك اليوم بلاء حسناً إلى درجة أنه أثار إعجاب رجاله ودهشة أعدائه، وبعد أن قاوم مجهودهم جاء إلى أسوار أسفي ليحتمي بها، فانقلب العدو نحو سرنو الواقعة على بعد ثلاثة أميال من هناك، فاحتلها ودمرها. ومكث بها بضعة أيام وهو فاقد الماء تماماً، لأن جميع الآبار كانت مطموسة أو مسمومة. وكان لا بد من حفر آبار جديدة، الأمر الذي دفع يحيى إلى مداهمة هذه المدينة ليلا بصحبة بعض المسيحيين الراغبين في الظهور، لكنه رحل فجأة عندما بلغه الخبر، وتوجه نحو تادلا عائدا إلى فاس إلا أن أعراب شراكة المرافقين له، عندما رأوا أنه لم يجرؤ على مهاجمة أية مدينة للعدو، كما كان قد وعدهم بذلك ليدفعهم إلى نقض العهد مع ملك البرتغال، شهروا السلاح في وجهه، بإيعاز من الشرفاء الموجودين إذ ذاك بمراكش، وهزموه قرب تازاروت، حيث قتلوا من رجاله أو أسروا أكثر من عشرة آلاف مقاتل مع ثمانمائة فارس، وساقوا معظم القطعان والغنائم التي كانت معه، ونجا هو بشق النفس إلى الجبل مع بعض جنود فاس، ثم عاد إلى مكناس وقد فقد رجاله وسمعته، آخذاً معه بعض سكان دكالة والمدن الواقعة على طول نهر أم الربيع، بدعوى تخليصهم من الرق ووزعهم في شتى الأماكن المهجورة بإقليم فاس. وقد استولى الشرفاء على أكبر جزء من ذخائره، لأن الأعراب الذين ساءت علاقاتهم مع كل من البرتغاليين وملك فاس ويحيى (بن تعففت) اضطروا إلى أن يخضعوا له. لكن شوكة المسيحيين قويت أكثر فأكثر وأحرزوا على انتصارات عظيمة، كما ذكرنا

ذلك عند وصفنا للاماكن التي وقعت بها[63] إلى أن قتل المغاربة نونيو فرنانديس ويحيى، فكان ذلك بداية عظمة الشرفاء.

كيف غادر ملك البرتغال مدينة أزمور، التي أعاد المغاربة تعميرها ثم نهبها سكان مازاغان (البريجة).

ظلت مدينة أزمور في قبضة ملك البرتغال مدة اثنتين وثلاثين سنة، ثم تركها بعد ذلك، لأنها كانت عبئاً عليه أكثر من أي شيء آخر، فضلاً عن ان الدفاع عنها لم يكن يتحقق إلا بشق الانفس ضد الشرفاء الذين أصبحوا ملوك مراكش، ولأنها كانت تشرف عليها ربوة تتحكم فيها، بالإضافة إلى أن الدخول إلى النهر خطير جداً على المراكب. وبالمقابل حصّن مدينة مازاغان (البريجة) بالجنود والمدفعية والمؤن التي استخرجها من أزمور. وما أن غادرها حتى احتلها الشريف، ولكي يعود تعميرها بسرعة، ذهب فقيهان شهيران بصلاحهما ليسكناها[64]. وعندما علم حاكم مازاغان بهذا الخبر هاجم أزمور ليلاً، وأسر وقتل جميع المغاربة الموجودين فيها. وسيق الفقيهان والحاكم إلى البرتغال، حيث مكثوا طويلاً في اصطبل الملك وقد قيدت أرجلهم بالحديد، إلى أن فدوا بأسرى آخرين[65] . فلم يعد المغاربة يجرؤون على إعادة تعمير المدينة وأصبحت مأوى للوحوش. إن الشريف الذي يحكم حالياً يكري صيد الشابل في أزمور بثمن مرتفع للتجار المسيحيين، وترسو السفن المسيحية فيها بجواز لكنهم ليسوا في مأمن خارج مراكبهم، ولا يدخلون بتاتاً إلى المدينة التي لا يقطن بها أحد.

الفصل الثامن والخمسون
مْرامَر

هذه المدينة الواقعة على بعد خمسة فراسخ[66] في اتجاه الشرق أسسها القوط — على ما يقال —، وهي محاطة بأسوار عتيقة، ولو أنها غير محصنة لا

---

(63) عند وصف أسفي

(64) سيدي عبد الله بن ساسي وسيدي كانون.

كتب اسم عبد الله بن ساسي مصحفا في هامش النسخة الفرنسية هكذا ابن صافي. والآخر حسب رواية النزهة هو عبد الله الكوش. انظر الناصري. **الاستقصا**، 5 : 20 (مترجم)

(65) الذي في **النزهة** وغيرها أن الشيخين الصالحين فديا بمال قدره ألفان ومائتا ريال. وأيما طلا سحيين بأزمور لم ينقلا إلى مازاغان. (مترجم).

(66) عند الوزان . على بعد 14 ميلا، وربما كان الأصل 44 ميلا، وتبع مارمول — كعادته — الوزان حتى في هذا الخطأ محولا الاميال إلى فراسخ، إذ تبعد عنها في الواقع بنحو 70 كيلومتر، انظر الوزان، **وصف افريقيا**، 1 ' 158، والهامش 76 (مترجم).

بكيفية اصطناعية ولا طبيعية، غير أن المنطقة غنية بالقمح والزيت والماشية. ينيف عدد سكانها على أربعمائة نسمة، وهم تابعون لأسفي، وقد فروا عندما استولى البرتغاليون على المدينة، ثم عادوا إليها بعد أكثر من سنة، حين استحضرهم نونيو فرنانديس من جديد ووعدهم بالأمان التام على أن يؤدوا الإتاوة إلى ملك البرتغال، وقد فعلوا ذلك إلى أن غادر أسفي. فأسرعوا إليها من جميع الجهات. وهي الآن خاضعة للشريف الذي نصب بها حاكما.

الفصل التاسع والخمسون

سائر مدن هذا الاقليم وقصوره التابعة لأسفي التي هُجر معظمها ودمرها البرتغاليون عندما استولوا على هذه المدينة

سرنو

مدينة صغيرة مسورة، كانت تابعة ليحيى (بن تعففت) ودمرها أخو ملك فاس، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل،(67) عندما قدم إلى دكالة. وهي واقعة على بعد ثلاثة فراسخ من أسفي، في موقع مناسب، وعمرت مرة ثانية بعد أن أخلى المسيحيون اسفي، لأن البلاد جيدة كثيرة القمح والمراعي.

أكَوز

مدينة أخرى خَرِبَةٌ على ضفاف نهر يحمل اسمها ويصب في البحر على بعد فرسخين من اسفي،حيث ما زالت تشاهد أطلال قصر كان يسمى أكَوز. إقليمها شاسع جدا وخصيب، بقطنه بربر أولاد الشياظمة.

وتوجد على بعد خمسة فراسخ من أسفي، على حدود جبل بني ماكَر الذي تسكنه نفس القبائل، مدينتان صغيرتان مسورتان(68)، بالإضافة إلى مدن عديدة أخرى في هذه البقاع، بعضها مسكون، وبعضها مهجور لكونها دمرت خلال الحروب البرتغالية، لكنها كثيرة القمح والزيت والمرعى. وقد أعيد تعمير معظمها منذ أن غادر المسيحيون أسفي، إذ لم يجرؤ أحد من قبل أن يقيم بها إلا بجواز مرور من الحاكم، وبأداء الإتاوة.

---

(67) الفصل 56.

(68) تيلمس وأومز

الفصل الستون

مائة بير

هي مدينة واسعة جداً، دورها متفرقة على غرار قرية، واقعة على جبل خفيف الانحدار. يبدو أن مؤسسيها هم أهل البلاد، وكانت خاضعة لحاكم أسفي عندما كان يحتلها البرتغاليون. سكانها من البربر الذين ليسوا رحلا كالأعراب، لكن من بينهم بعض يهود بلاد البربر، وهم فقراء تعساء. هذه المدينة عجيبة لكونها محاطة بآبار (مطامير) عديدة منحوتة في الصخر يخزن فيها السكان وأعراب دكالة قمحهم. ولهذا سميت مائة بير. ويقال إنه يحفظ فيها القمح عدة سنوات دون أن يفسد، وأنه عثر عليه بعد ثمانين سنة وهو جاف جيد كأنه وضع فيها منذ قليل. ولما قدم أخو ملك فاس إلى إقليم دكالة، ورحَّل بعض سكانه، أبى هؤلاء الانتقال وهربوا إلى أسفي، فنهب مدينتهم. بلادهم غنية بالقمح والمرعى، ينتقل فيها أعراب الغربية بمواشيهم، لكنهم خاضعون للشريف، كالبربر الذين يسكنون مثلهم في الدواوير(69) على حد سواء، تابعون للحاكم الذي نصبه في أسفي.

الفصل الواحد والستون

المدينة(70)

هي مدينة أسسها الأفارقة القدامى، في سهل جميل، بين أسفي وأزمور(71) تحيط بها أسوار عتيقة وأبراج. كانت في القديم غنية مأهولة، عاصمة للإقليم، إذ لا يوجد في مملكة مراكش كلها بلاد أخصب منها قمحاً ومرعى. وحيث إنها كانت خاضعة مدة طويلة لملك البرتغال، فإن أخا ملك فاس دمرها أثناء رحلته إلى الإقليم، لكنها عمرت مرة ثانية بعد ذلك، غير أن السكان لم يطيقوا صبراً أمام اتساع نفوذ الشرفاء والمجاعة الكبرى لسنة ألف وخمسمائة وإحدى وعشرين، فباع جلهم انفسهم وأبناءهم لكسب الخبز(72) بحيث أمست الآن مقفرة.

---

(69) تمييز للآخرين الذين هم حضر.
(70) أضاف إليها أداة التعريف العربية، إذ كان ينبغي أن يقال : «مدينة»
(71) على بعد عشرة فراسخ من آسفي.
(72) كانت المجاعة من الفرص التي يستغلها البرتغاليون لاسترقاق سكان المناطق المحتلة (مترجم)

إن أعراب عبدة وبعض أعراب الغربية يتنقلون اليوم عبر هذه البوادي، وينعمون فيها جيداً بحيث لا يقبلون أن يعاد تعميرها، ولا يريدون أن يقطنوا بها، لأنهم لا يحبون أن يسجنوا في منازل. ومنذ أن هجرت أسفي وأزمور وهم في حرب دائمة مع سكان مازاغان، أغاروا عليها مرارا حتى وصلوا إلى أبوابها، وأسروا أو قتلوا عددا من البرتغاليين، لأن هؤلاء الأعراب شجعان ومن بينهم عدد عديد من الفرسان. إن القلب ليرقّ لرؤية مدينة بهذا القدر من الجمال في موقع حسن تكتنفها البساتين وهي الآن خربة وأسوارها كلها مثلومة لأن الأعراب أنفسهم ليسوا آمنين في خيامهم، بسبب وجود مسيحيي مازاغان.

الفصل الثاني والستون

السبِيَّتْ

مدينة صغيرة أسسها الأفارقة القدامى على ضفة نهر أم الربيع. موقعها مناسب جدا، ومنطقتها كثيرة القمح والمرعى. تحيط بها أسوار وبروج عتيقة، وكانت كثيرة السكان فيما مضى، وهم مرتاحون لأداء الإتاوة إلى المسيحيين عندما غزوا أزمور التي هي تابعة لها، لكن أخا ملك فاس[73] الذي تحدثنا عنه نقلهم إلى بلاده بدعوى تحريرهم. إن أعراب شراكَة، الذين يسمون أولاد سبيط، يتنقلون الآن عبر هذه البوادي والمنطقة كلها. يوجد النحل بكثرة في تجويف الاشجار وشقق الصخور، ولاكتشاف خلاياه يتمددون على الارض، وعندما يبصرون نحلة محملة تمر يتبعونها حتى يروها وهي تدخل في غارها، فيحفرون ويكتشفون الخلية التي يستخرجون منها العسل بعد تبخيرها. وهكذا فإن أهل البلاد يقومون بتجارة كبرى في العسل والشمع، سواء في مراكش أو غيرها حيث يشتري تجار أوربا الشمع ويستخرج أحياناً أكثر من مائة وخمسين رطلا عسلا من تجويف واحد، لم يكن يُظَنُّ أنه فيه.

(73) مولاي الناصر.

الفصل الثالث والستون

تمرّاكْشت

مدينة عتيقة أسسها الأفارقة على نهر أم الربيع، محاطة بأسوار وأبراج على الشكل القديم. يقول بعض المؤرخين إن ابن تاشفين هو الذي بناها عندما أسس مراكش، ومن ثَــمَّ اتخذت اسمها. وهي تابعة لأزمور، ولما احتلها الدوق دي براكَانس، تركها السكان والتجأوا إلى المدينة، التي لم يكونوا فيها أقل انزعاجاً، ولم تعمر منذ ذلك العهد.

يتنقّل الآن أعراب شراكَة عبر بواديها التي هي غنية جداً قمحاً ومرعى، ويبدو أنها كانت كثيرة السكان وأن البنايات من عمل البربر . لذلك فإن اسمها بربري كسائر الأماكن التي تبدأ (بتَـ) مثل تَدْنست، وتَزاروت، وتَنْزُولين، وما شاكَلَها. ونظراً لموقعها بين إقليمي دكالة وتامسنا، وإقليمي سكورة، وتادلا، التي هي أراض خصبة كثيرة القمح والمرعى، يبدو أنها مراكش القديمة، التي يذكرها التاريخ الروماني : لأن مراكش الحالية أسسها (يوسف بن) تاشفين ولمتونة بعد عهد الرومان بكثير وبعد مجيء العرب.

الفصل الرابع والستون

تَــرْكَــا

تبعد هذه المدينة عن أزمور بعشرة فراسخ، وتقع على ضفاف نهر أم الربيع. وهي من تأسيس الأفارقة القدامى الذين أحاطوها بأسوار وأبراج. موقعها مناسب جداً، وكانت في القديم تابعة لأعراب شراكَة، لكن عندما غزا البرتغاليون آسفي، سكنها علي الذي قتل عبد الرحمن بصحبة يحيى، كما أسلفنا، مدة من الزمان مع عدد من المحاربين الذين تبعوه. واصطحبه أخو ملك فاس معه عندما رحَّلَ قسماً من هذه القبائل، فبقيت المدينة خالية دون أن يعاد تعميرها منذ ذلك العهد، بسبب مختلف آفات الحرب والطاعون والمجاعة التي أصابت البلاد. إن البوادي المجاورة لترْكَا ممتازة، يتنقل فيها أعراب شراكَة بماشيتهم.

الفصل الخامس والستون

بُولَعْوَان

هي مدينة حسنة على نهر أم الربيع، تحيط بها أسوار وأبراج قديمة في موقع مناسب، أسسها عبد المومن، ملك مراكش، من دولة الموحدين. تضم اكثر من خمسمائة دار، وسكانها أغنياء لوجودهم في الطريق الرابط بين فاس ومراكش عبر السهل، وكلهم حراثون وفلاحون، يكسبون أراضي كثيرة للحرث وكمية هائلة من الماشية في أراضي صالحة للرعي. وقريباً من هناك دارت المعركة بين حاكم أزمور(74) وقائدي ملك فاس. وقد بلغ فزع السكان من ذلك مبلغاً أدى بهم إلى الالتجاء إلى جبال تادلا، تخلصاً من النهب وتحرراً من سيطرة البرتغاليين. ثم عادوا إلى مدينتهم بعد اضمحلال سلطة البرتغاليين وتقوّي الشرفاء، وهم اليوم يملكون كثيرا من القمح وقطعان الماشية كسائر أعراب هذه المناطق الذين يعترفون كلهم بالشريف.

الفصل السادس والستون

بني قفيز

تقع هذه المدينة على بعد خمسة عشر فرسخاً من أزمور، وفرسخين من الجبل الأخضر من جهة الشرق، على ضفة أم الربيع، فوق ربوة مرتفعة مستديرة تماماً، وتحيط بها أسوار وأبراج قديمة، لكونها عتيقة أزلية.

ينتقل أعراب شراكَة في السهول التي تكتنفها، وهي جميلة للغاية. كانت في القديم آهلة جداً بالبربر، لكن البرتغاليين نهبوها وقرية بجوارها على إثر غزو أزمور وأحرقوهما معاً. ولم يفكر أحد في تعميرهما من جديد منذ ذلك العهد، بسبب الطاعون والمجاعة، بحيث بقيتا خاليتين مع عدة أماكن أخرى. وهذه المناطق الآن في حوزة أعراب شراكَة.

وتوجد أيضاً بعض المساكن الأخرى في هذه النواحي، لا نذكرها لقلة أهميتها. أما كَيليز، وترَّار، وسيا، التي كان لها بعض الاعتبار، فهي الآن خالية من

---

(74) دُم يوحنَّا دي مينيزيس.

السكان، وأراضيها في حوزة الأعراب. ولنتحدث الان عن جبال هذا الاقليم، مبتدئين منها بالقريب من أسفي.

الفصل السابع والستون

الجبال وسكانها

بني ماكِر

يقع هذا الجبل الذي كان الأقدمون يسمونه جبل الشمس على بعد أربعة فراسخ من أسفي[75] في اتجاه الشرق، ويجعله بطليموس في الدرجة السادسة وخمس وأربعين دقيقة طولاً، والدرجة الواحدة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً. وهو وإن كان شاهقاً جداً فإنه ليس شديد الوعورة، وفيه قرى يقطنها البربر، وقصر يحمل اسمه، لكنه ليس حصيناً لا بالصناعة ولا بالطبيعة. وغندما كانت أسفي في قبضة البرتغاليين، كان يقيم به حاكم مغربي[76] مع ثلاثمائة فارس يحتفظ بهم في الضواحي ويجمعهم إذا أراد أن يشن غارات على المسيحيين.

الجبل غني بالقمح، وشجر الزيتون، والمواشي، من ملحقات أسفي. لذلك عندما استولى المسيحيون على هذه المدينة، التجأ السكان إلى هذا الجبل للدفاع عن أنفسهم، لكنهم أرغموا على الخضوع والتبعية لملك البرتغال. وكانوا كذلك عندما قدم أخو ملك فاس إلى هذه البلاد، فأخذ بعضَهم معه وانحاز الباقون إلى البرتغاليين، حتى لا يتركوا امتعتهم. وحيث إنهم كانوا يشنون الغارات على المغاربة الآخرين، أرسل الشريف[77] وهو إذ ذاك ملك مراكش، إلى تلك المنطقة حاكماً يحميها. ومنذ أن رجعت أسفي إلى سلطة المغاربة، فإن الجبل وجميع سكانه أصبحوا كذي قبل تابعين لحاكم هذه المدينة، والقرى فيه آهلة بالبربر من قبيلة أولاد الشياظمة. لكن أعراب الغربية وعبدة يجوبون في السهول المجاورة حيث تكثر المراعي.

---

(75) عند الوزان : على بعد 12 ميلا. (مترجم)

(76) هو بودبرة.

(77) أحمد (الأعرج).

الفصل الثامن والستون

الجبل الأخضر

هذا الجبل الذي يسميه المغاربة الجبل الاخضر يحده شرقاً نهر أم الربيع وغرباً جبل هسكورة الذي يفصل هذين الإقليمين عن قسم من إقليم تادلا. وفي كل مكان منه غابات كثيفة من الصنوبر والأرز، وعُنّاب السدر، يقطنها عدد من النساك لا يعيشون إلا على الكلإ والثمار البرية بعيدين عادة عن المنازل المسكونة بعشرة فراسخ أو اثني عشر فرسخا. كان هذا الجبل آهلاً جداً بالسكان أيام الموحدين، لكن بني مرين دمروا جميع منازله. وما زالت فيه عدة بنايات عتيقة، ومناسك وصوامع فيها أماكن مرتفعة بشكل قباب على عادة المسلمين، كان النساك يبيتون فيها، ويحج إليها أعراب المنطقة وبربرها.

نكوِّن كثرة العيون النابعة من هذه الصخور في السفح بحيرة كبيرة تكثر فيها أسماك النون، والتونة، والبوري، مع سمك ضخم ابيض يدعى «بوغ» لذيذ الطعم جدا. ومن العجيب مشاهدة الطيور الكثيرة المختلفة على هذا الجبل، وكذا وفرة الطرائد والخنازير البرية(78) بحيث إنه لا يوجد مكان أحسن منه للصيد في افريقيا كلها.

ولما استولى البرتغاليون على أسفي وأزمور، كان ابن حلو الذي يملك هذا الجبل يقيم في هذه الأدغال كناسك، حتى إنه بمساعدة بعض أعراب شراكَة التابعين له وأخيه مولاي فارس، اتخذ لقب ملك، وحدثت له عدة خلافات مع بوشنتوف ملك مراكش، ومع الشرفاء لكنه اضطر اخيراً هو وأخوه إلى الاعتراف بالشريف احمد كملك.

ويوجد حول البحيرة كثير من نبات الخلنج، وتشاهد فيها أسراب عديدة من طيور السماني، والحمام فيها ضخم بحجم الوَرَشان. وأخيراً فإن جميع الأماكن هناك مليئة بالطرائد لأنه قلما يُصاد فيها. ولا بوجد في إقليم دكالة أماكن أعظم من التي ذكرناها لكن كثيراً من الأعراب والبربر يتنقلون عبر الحقول.

(78) من أصناف الخنزير والإيل واليحمور، والإيل الأسمر والبقر الوحشي والعزال والاور الوحشي وما إلى دلك.

الفصل التاسع والستون

إقليم هسكورة

هذا الإقليم كان يسمى قديماً دمنات،وهو سادس أقاليم مملكة مراكش، حسب الترتيب الذي وضعناه(1). يبتدىء شمالاً عند الجبل الأخضر على حدود دكالة حيث ينتهي عند نهر تانسيفت، ويمتد غرباً قرب نهر أنماي، ويصل شرقاً إلى وادي العبيد الذي يفصله عن إقليم تادلا، ثم إلى وادي أم الربيع. وفي جنوبه بعض جبال الأطلس الكبير، التي تشتمل عليها دائرته، وهي مليئة بالكروم وشجر الزيتون وسائر أصناف الفواكه التي تزود بها بغزارة مدينة مراكش الواقعة منها على بعد عشرين فرسخاً إلى جهة الغرب.

سكان هذا الإقليم أفارقة حضريون(2) من أحد فروع قبيلة مصمودة التي سميت بها هسكورة. وهم أغنى من سكان دكالة لأنهم أقل تعرضاً لإزعاج الأعراب، يزرعون بلاداً خصبة يكثر فيها القمح والماشية الكبيرة والصغيرة. وهناك يعالج جلد الماعز الجميل الذي تصنع منه الأحذية النصفية، وأغطية السروج المطرزة، وسائر أنواع الأحذية الجميلة. كما تصنع في هذا الاقليم عدة أقمشة رفيعة، لكنها ليست بمثل جمال أقمشة أوربا. ويقصد هذا الاقليم من جميع الجهات من جل التجارة. يشبه سكان المدن تقريباً سكان مراكش في الزي والعادات وأساليب العيش، لكن الجبليين منهم غلاظ يعيشون كالقرويين. ويوجد من بينهم عدد من الصناع والتجار اليهود، يحملون الاسلحة كبرابرة الجبال الاخرى في حاحا، وقد أصبحوا يملكون منذ قليل الاسلحة النارية من قذافات وبندقيات، على غرار المغاربة الآخرين منذ عهد الشرفاء ولا يعتد بشيخ لا تكون معه بندقيات لمدافعة الأعراب.

---

(1) من الغرب إلى الشرق.
(2) خلافاً للبدو مثل الاعراب.

الفصل السبعون

المدن

المدينة

هذه المدينة قديمة أسسها أهل البلاد، كمدينة إقليم دكالة، على منحدر أحد جبال الاطلس الكبير، بعيدة بثلاثين فرسخا من مراكش في جهة الشرق. وهي مسورة بأسوار عتيقة ذات ابراج، عامرة بالصناع والتجار، من بينهم عدد من اليهود. الضواحي كلها مغطاة بالكروم وأشجار الزيتون، وبكمية هائلة من أشجار الجوز وغيرها من الاشجار المثمرة حتى ليخيل للمرء أنها غابة. كان السكان في القديم أعداء ألداء لسكان المدين، فكانوا يتقاتلون بشراسة لدرجة أنهم لم يكونوا يجرؤون على الخروج لزراعة أراضيهم[3] وان التجار كانوا مضطرين إلى أن يصحبوا معهم من مكان إلى آخر مسلحين بالبنادق والقذافات النارية، يعطونهم اثني عشر أو خمسة عشر مثقالا في الشهر، غير أن عداوتهم لم تمتد الى النساء والأطفال والعبيد الذين كانوا يذهبون إلى الحقول ليعملوا بكل حرية، لكن الشرفاء وضعوا حدا لجميع هذه الخلافات، عندما أصبحت مقاليد أمور البلاد بأيديهم.

يزرع أهل المدينة أراضي جيدة في السهول الواقعة إلى جهتي الشرق والجنوب، مقابل مبلغ يؤدونه للأعراب الذين يملكون هذه الأراضي. وهم قوم محاربون، يفتخرون بنبلهم ومروءتهم. نساؤهم بيضاوات جميلات، يعشقن الغرباء جدا. وفيهم بعض العلماء بشريعتهم ويدبرون شؤونهم بكيفية معقولة. ليست المدينة محصنة لا بكيفية اصطناعية ولا طبيعية، إلا أن لها وسائل الهجوم والدفاع، نظراً لكثرة السكان.

الفصل الواحد والسبعون

المَدِين

تحتوي هذه المدينة على ألف ومائتي كانون، وتقع على بعد فرسخ ونصف من المدينة السابقة إلى جهة الغرب، في شعب تكتنفه أربعة جبال شاهقة، الأمر الذي يجعل البرد فيها قارساً. أسسها الأفارقة الأقدمون وأحاطوها بأسوار متينة

(3) سنذكر المسافة بين المدينتين فيما يأتي.

مزودة بأبراج مشيدة عالية. سكانها بربر من أحد فروع قبيلة مصمودة(4) وهم شجعان يدَّعون النبل، ويوجد من بينهم عدد كثير من التجار والصناع.

المنطقة واسعة جداً يكثر فيها القمح والزيت والماشية. والمْدِين ليست محصنة بذاتها، وإن كانت محمية بالصخور المجاورة. وفي عام ألف وخمسمائة وستة عشر خضعت لملك فاس كسابقتها، بعدما كانت كلتاهما جمهوريتين منذ انحطاط الامبراطورية المرينية. وإليكم كيف فقدتا حريتهما : كان بهذه المدينة تاجر غني من فاس عشق فتاة ذات حسب وجاه فحصل عليها كزوجة له، لكنه لما كان يوم الزفاف، اختطفها أحد الأعيان البرجوازيين، الذي كان رئيس عصابة ودخل بها. فكتم التاجر هذا العار وطلب بعد مرور بعض الوقت من الحاكم أن يأذن له في الذهاب إلى فاس، ولما حصل على الإذن حمل إلى ملك فاس بعض الهدايا من طُرَف البلاد، وحكى له ما أصابه من غم. ثم التمس منه أن يعطيه ثلاثمائة فارس وخمسمائة راجل على أن يتحمل نفقتهم ويستولي بهم على المدين التي سيجعلها تابعة للملك ويؤدي له سبعة آلاف مثقال كل سنة. فلبى الملك رغبته، مقدراً أهمية هذه المدينة في تحقيق الغارة التي ينوي شنها على مراكش، لكنه لم يجعله يتحمل سوى نفقة مائة من رماة القرابينات النارية، وأما الباقون فأمر عامل تادلا المقيم بفستلة بالانفاق عليهم. ولما رأى السكان أنهم محاصرون، وأن أصحاب المدين يساعدون أعداءهم، قالوا للمختطف إنه ليس من الإنصاف أن يكون سبباً في تخريب المدينة، وأنه يجب عليه أن ينصرف لأنهم يريدون أن يستسلموا لملك فاس الذي تم حصارهم باسمه. فخرج المختطِف متنكرا في زي مسكين، لكنه عُرِف من لدن بعض المغاربة، فأُخِذ وسيق إلى التاجر الذي سلم له السكان مفاتيح المدينة وأعلنوا خضوعهم لملك فاس، فجاءه أهل الفتاة يعتذرون عما حدث ويقولون إن هو إلا إكراه لم يقبلوه. فتزوج بهذه السيدة في احتفال عظيم، وحكم على مختطفها كغاصب وزانٍ بالرجم. ونُفذ القصاص في نفس اليوم. وبقي التاجر منذ ذلك الحين عاملاً على المدين وأحسن التصرف فيها وصالح سكانها مع أهل المدينة، وأخضع المدينتين معا إلى طاعة ملك فاس، فكان يؤدي له سنوياً ما وعده به، إلى أن استولى الشرفاء على الاقليم كله.

---

(4) من فرع هسكورة.

الفصل الثاني والسبعون

تكُودَاسْتْ (5)

مدينة قديمة أسسها الأفارقة على قمة جبل شاهق تحيط بها أربعة جبال أخرى، بينها وبين الأنهار التي تمر قرب المدينة عدة أشجار مثمرة وأدغال، تجنى منها جميع أنواع الفواكه الجيدة مثل ما هو عليه الحال بأوربا. وتزحف على الاشجار دُوالٍ كبيرة تحمل عنباً أسود تسمى حبوبه بيض الدجاج لكبر حجمها. كما توجد كمية وافرة من أشجار الزيتون عبر المنطقة كلها تعطي زيتاً كثيراً، وعدد عديد من خلايا النحل يستخرج منها كثيرٍ من العسلٍ والشمع فيحملان إلى المدن المجاورة لبيعهما. عسلها مرغوب فيه جداً، لأنه فضلاً عن بياضه إذا احتفظ به أزيد من سنة صار مثل قواليب السكر(6).

معظم السكان أغنياء بحرثهم وتدبيرهم، ولهم تجارة رابحة مع سكان نوميديا وجتولة، المقيمين على الجانب الآخر لجبل الاطلس. كما يتجرون أيضاً في مدن فاس ومكناس، ومراكش، حيث يحملون العسل والشمع والزيت لبيعها، ويأتون بأقمشة من الصوف، والكتان، والحرير، مع مصنوعات من الفضة، وأشياء أخرى يبيعونها لجيرانهم ولبربر المنطقة. نساء تكُوداست جميلات يتزين كثيراً على عادة البلاد، ويحملن حلياً كثيراً من الذهب والفضة في سواعدهن، وآذانهن، وأعناقهن، وصدورهن. والرجال ليسوا غيورين إذا قورنوا بسائر سكان هذه الجبال. والمدينة متحضرة شيئاً ما لوجود بعض الفقهاء فيها.

تنبع فيها عدة عيون يدير ماؤها الأرحاء بالسافلة ويسقي البساتين والأراضي التي تكوِّن سهلا يمتد على ثلاثة فراسخ أمام المدينة، حيث يستخرج الكثير من القمح والشعير والخضر. وهناك أيضاً قطعان كثيرة من الماشية الصغيرة تسرح في هذه الجبال التي يوجد بها الكلأ والمرعى بكثرة، حتى إن بعض السكان يملكون ما يربو على ثلاثين أو أربعين ألف رأس من الماشية الصغيرة، ويحصد البعض الآخر عشرين أو ثلاثين ألف كيل من القمح سنوياً. وأخيراً فإن اللبن والسمن فيها لا قيمة لهما بحيث لا يستفيدون سوى من الصوف والجلد، ولا يساوي خروف سمين

---

(5) كتبت في الاصل الفرنسي بما يشبه «إيفاكاسب» والتصحيح من كتاب الحسن الوران، لأن مارمول ناقل عنه.

(6) يصير صلباً مثل قالب السكر. (مترجم)

غير ريالين. يؤدي الذين يحرثون السهل شيئاً[7] للأعراب الذين يزعمون أنهم مالكوه.

هناك كثير من النبلاء كانوا يعيشون أحراراً على إثر انحلال امبراطورية بني مرين، لكنهم يخضعون الآن للشريف. وكذلك عدد من القضاة والفقهاء الذين يشرفون على الأمور الدنيوية والدينية. ولما استولى الشريف على هذه المدينة كان حاكمها افريقياً[8] من أحد فروع قبيلة مصمودة[9] لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً دون استشارة مجلس الاعيان، الذين كانوا بمثابة مجلس الشيوخ. كانت هناك فرق كثيرة، لكنه أحسن التصرف حتى تخلص من رؤساء الفريق المعارض، وتصالح مع الباقي، بحيث إنهم أصبحوا خاضعين له عن طواعية.

هؤلاء السكان صرحاء مهذبون، يحبون إسكان الأجانب عندهم، ويعاملونهم معاملات حسنة دون أن يطلبوا منهم شيئاً. يقولون إنهم يفعلون ذلك لوجه الله، وللاقتداء بعادات أسلافهم التي هي شبيهة بعادات سكان مراكش وفاس من حيث الزي وأسلوب العيش. ليست المدينة محصنة لا بكيفية اصطناعية ولا طبيعية، وتضم نحو ألف من السكان، أغلبهم تجار وصناع، ومن بينهم يهود يتمتعون بحرية الاعتقاد.

الفصل الثالث والسبعون

الجمعة

مدينة صغيرة تضم حوالي خمسمائة كانون، أسسها منذ زمن قريب أهل البلاد على جبل في الاطلس الكبير، تكتنفه جبال أخرى وعرة جداً، لكن هناك عدة قرى فيما بينها تنبع فيها شتى الجداول وينحدر ماؤها إلى السهل. تحيط بها بساتين وحدائق، تجنى منها كمية وافرة من الفواكه، وخاصة الجوز في أشجار غاية في الارتفاع والضخامة.

جميع تلال هذه الجبال، والربوات مليئة بأشجار الزيتون والكروم، ومعظم السكان يشتغلون بالجلد ويصنعون سروجاً جميلة مطرزة. يوجد في أحد هذه

(7) خمسة عشر فلساً من عملتنا الحالية.

(8) ابن عمرو.

(9) هسكورة.

الجبال منجم حديد وعدة مصانع لمعالجة هذا المعدن، ومنها يُحمل لبيعه قضباناً صغيرة في الاقليم كله. كما تصنع في هذه المدينة درق من جلد الجاموس(10) الذي يوجد بكثرة في نوميديا وليبيا.

أسس هذه المدينة سكان المدينة السابقة(11) الذين لاحظوا اختلاف الاعيان ولم يتحملوا طغيانهم، فالتمسوا من ملك فاس أن يأذن لهم في توسيع قرية كان فيها مسجد عتيق شهير، فساعدهم على ذلك. وتركوا نبلاءهم، وعاشوا بضع سنوات أحراراً تحت حكم شيخ لم يكن يفعل شيئاً دون استشارة لأعيان، ما دام الشرفاء قد ملكوها.

تقع المدينة على صخرة وعرة جداً، على بعد نحو فرسخين من المدينة السابقة في اتجاه الشرق، لكنها غير محصنة البتة. السكان صرحاء مهذبون لكنهم ليسوا أغنياء بقدر ما هم عليه جيرانهم.

الفصل الرابع والسبعون

ابْـــــزُو

هي مدينة قديمة تضم أزيد من ألف وخمسمائة ساكن، في موقع لائق ملائم على جبل شاهق من جبال الأطلس الكبير. تحيط بها أسوار وبروج مشيدة بالحجر الموثق بالجير، على بعد سبعة فراسخ من المدينة السابقة في اتجاه الشرق. تربتها في غاية الخصب تنتج القمح والزيت، ويرعى فيها العديد من القطعان. تكتنفها حدائق وبساتين تسقى من جداول منحدرة من الجبل، ويمر وادي العبيد على بعد فرسخ من هناك من جهة الشرق، تاركاً بينهما سهلاً كبيراً حيث توجد معظم البساتين، ويكثر العنب والتين لدرجة أنهم يجففونهما ويبيعونهما للمناطق المجاورة، فيحصلون من ذلك على فوائد جمة، وكذلك الجوز كثير هناك.

السكان أغنياء مهذبون، يحبون الغرباء كثيراً. لباسهم أنيق بالنسبة للبلاد، يتكون من قماش ونسيج رقيق، كسكان مراكش، وهم بربر من قبيلة مصمودة، نساؤهم بيض جميلات أنيقات. وفي المدينة مسجد جميل، يخترقه جدول ماء

---

(10) الانط، وهو نوع من الجاموس.

(11) تكَوداست.

ويخرج منه إلى الساحة، ثم ينحدر الى السهل، فيسقي في طريقه البساتين الموجودة في الحدور.

ليس في هذا الاقليم مدن اخرى، لكن هناك ثلاث قرى مسورة(12) آهلة بنفس القوم، مع عدة قرى أخرى في الشعاب. وفيما يخص الجبال سنتحدث عنها في الفصل التالي.

الفصل الخامس والسبعون

الجبال وسكانها

تاناندز(13)

هو جبل كبير بالاطلس، يطل على الجنوب، الشيء الذي من أجله لا يدرجه بعضهم في هذا الاقليم، لكن آخرين يجعلونه منه لأنه من بلاد البربر، يسكنه كثير منهم، وهم جفاة لكنهم شجعان، يدّعون الشرف ويملكون العديد من الخيل القصيرة القامة والسريعة الخفيفة القوية. لا تنتج البلاد أي شيء من القمح، لكنها تعطي كمية من الشعير، ويكسب السكان عدداً كثيراً من الماشية الكبيرة والصغيرة. وقمة أعالي الجبال مكسوة بالثلج طوال السنة.

هناك عدد من النبلاء يترأسهم شيخ من أتباع الشريف (السعدي)، وكانت مداخيل الإقليم تخص فيما قبل للحروب التي كانوا يشنونها عادة على سكان جبل تنزيت، الذين يحدونهم من جهة الشرق ويكوِّنون أكثر من خمسة آلاف فارس، وخمسين ألف راجل، دون رماة القرابين والقذافين. وسلاحهم كسلاح سائر برير حاحا.

ليس في الجبل كله مدينة ولا بلدة مسورة، ولكن عدة قرى آهلة بالسكان. ذلك لأن البلاد وإن كانت باردة فهي كثيرة المرعى، وتقوم وعورة الجبل الشديدة مقام الدفاع. والمسافة من هناك الى إقليم درعة الواقع في نوميديا هي خمسة وثلاثون فرسخا. كان أمراء هذا الجبل وجبل تنزيت وكذا أمراء درعة كلهم من أسرة

(12) درعة اتّنديكَى، وابن زمر، وبوهلي.

(13) سمي هذا الجبل عند الحسن الوزان، «تينواوز» ويدل الموقع على أن المقصود حول أيت واوزكَيت (انظر **وصف افريقيا**، الطبعة الثانية، 1 : 170 والهامش 87) (مترجم).

واحدة، ويسمون مزوارة، لكن خلافاتهم سمحت بدخول الشريف الذي كانوا قادرين على التصدي له لو كانوا متفقين. وما زالوا يذيقونه الأمرين بثوراتهم المتكررة.

الفصل السادس والسبعون

تنزيت

هذا جزء آخر من الاطلس الكبير، يحده الجبل السابق من جهة الغرب ويصل الى جبل دادس في إقليم تادلا من جهة الشرق، ويحده من الجنوب صحراء درعة، وينتهي شمالا الى سائر جبال الاطلس الكبير. يجعله بعض المؤرخين على رأس اقليم درعة، من جهة السوس الأقصى، لأنه كان دائماً للمزوارين، دون أن يكون تابعاً لإقليم هسكورة، لكن القدامى يدرجونه فيه، لأنه من بلاد البربر، غير واضعين في نوميديا إلا جزء الاطلس الكبير الذي يطل على الجنوب.

إنها بلاد آهلة بالسكان، يسقيها نهر درعة[14] الذي تقع على طول ضفافه خمسون بلدة كلها محاطة بأسوار من طين، وتبعد عن النهر بفرسخ وأكثر. كان يحكم هذه البلاد مزوار من الذين تحدثنا عنهم، يدعى ابن عمرو، وكان معه ألفا فارس عندما استولى الشريف على مراكش. لكن بعد مقاومة طويلة، كان الشقاق الذي حدث بينه وبين أمير تدسي ودرعة سبب هلاكه. ذلك لانهما، رغم قرابتهما الوثيقة وانتمائهما الى نفس القبيلة، كانا يتحاربان بضراوة، ويستنجدان ببرتغاليي رأس كير فجعلت عداوتهما الشريف ينتصر ويخضع له ابن عمرو.

المطر في هذه الجبال نزر قليل، لأنها تنظر إلى الجنوب، وتمتد عبر رمال ليبيا، بحيث إن البلاد شديدة الحرارة، لا يستخرج منها قمح البتة، وإنما تاتي بالكثير من الشعير. القطعان فيها قليلة جدا، لكن النهر تكتنفه من جميع جهاته حقول كثيرة من النخيل تنتج أجود ما يوجد في إفريقيا كلها من التمر[15]، وهو رفيع الى درجة أن أدنى رطوبة تذيبه «كالسكر»، لذلك يصدر القليل منه إلى أوربا بعد أن يجفف جيدا قبل أن يحمل اليها، ويوضع في قفف صغيرة مغطاة بجلود

---

(14) الذي ينبع في إقليم هسكورة.

(15) بسوقريس.

الضأن، لاتقاء الرطوبة(16). ويوجد النخل بكثرة على طول هذا النهر، حتى إنهم بسيرون تحت ظله مسافة عدة فراسخ، دون أن يتضرروا من حرارة الشمس.

السكان سمر البشرات بدينو الأجسام، والنساء يتجملن بالخضاب، ويسرن سافرات الوجوه دائماً، ولهذا فإنهن يحببن الأجانب كثيراً. يتعاطى هؤلاء القوم التجارة بدرعة، وسائر أقاليم نوميديا وليبيا، حتى بلاد الزنوج(17)، حيث يقوم العديد منهم بتجارة كبرى، الامر الذي يجعلهم يعيشون عيشة راضية، ويملكون كمية وافرة من تبر الذهب.

الفصل السابع والسبعون

غجدامة

يتاخم هذا الجبل جبل تنزيت، وليس آهلاً إلا من جهة الشمال، لأن الجزء المطل على الصحراء كله قفر. يقول المؤرخون إن هذا الجبل اجتاحته الحروب، عندما استولى الموحدون على الحكم من يد المرابطين، لأن السكان آووا ابراهيم بن علي عندما فر أمام عبد المومن، فغضب المنتصر لذلك وحرق كل شيء، دون أن برحم سنا ولا جنسا، بحيث إن الذين جاءوا يسكنونه منذ ذلك العهد وهم فقراء ضعفاء، لم يعمروا إلا الجانب الشمالي الأجود المطل على بلاد البربر. يربى في هذا الجبل عدداً كثيراً من الماعز، والبغال، والأفراس التي مع صغر قامتها لا تنقصها القوة ولا السرعة. هذا الجانب من الجبل كله مكسو بشجر الزيتون الذي تحمل كمية من زيته إلى نوميديا. وينتج كذلك كمية من الشعير الذي يقتاته هؤلاء القوم، لندرة القمح عندهم. لقد عاشوا مدة طويلة وهم أحرار، بسبب وعورة الجبل الكثير التصلب والانحدار، لكنهم استسلموا للشرفاء منذ أن استولوا على فستالة. يقيمون في قرى وضياع صغيرة مبعثرة في الشعاب، الدور مبنية بالطين ومسقفة بالتبن أو الأغصان. تنبع في الجبل عينان نضاختان تبعد الواحدة عن الاخرى بنحو فرسخ، حيث يتكون نهرا تيسوين اللذان يخترقان الاقليم، ثم يصبان في أم الربيع. وبسمى كل واحد منهما على حدة تساوت، وعندما يلتقيان يدعيان نيسوبن، أي حواش.

(16) بسمى في اسبانيا تمراً، وفي غيرها بوصير
(17) المكان الذي ياتي منه ذهب الزنوج الجيد، وهو مسحوق.

الفصل الثامن والسبعون

تيساوين

إنهما جبلان يتماسان، يبدآن عند الجبل السابق غرباً، وينتهيان في جبل تكَوداست. سكانهما معا من برابر قبيلة مصمودة، لكنهم لا يقتاتون الا الشعير وشيئاً من الدخن، تخرج عدة عيون من شعاب الجبل الظليلة المظلمة، وتكوِّن جميعها نهراً يخترق سهول هسكورة، ثم يصب في أم الربيع. يزرع السكان بعض الاراضي في السهل، ويؤدون عنها إتاوة إلى أعراب من أتباع الشريف[18] الذي تخضع له جميع هذه الجبال موزعة بين قواده لتمرين الجنود الذين فرض عليهم القيام بهم، فينزعج السكان منهم كثيراً بحيث لا يرجون الا تغيير الوضع.

(18) بني حابر.

الفصل التاسع والسبعون

إقليم تـادلا

هذا آخر أقاليم هذه المملكة وأكثرها اتجاهاً نحو الشرق، وبالرغم من صغره فإنه كثير القمح والزيت والقطعان، وأهله أغنياء. سكان الجبال بربر من قبيلة مصمودة، لكن السهول آهلة بسلالتين من الأعراب(1) لكل واحدة منهما أزيد من تسعة آلاف فارس، يرحلون إلى الأقاليم المجاورة. يبدأ هذا الاقليم عند وادي العبيد غرباً، وينتهي من جهة الشرق عند أم الربيع. ويحتل في الجنوب جبال الاطلس الكبير، بينما يكوّن في اتجاه الشمال رأساً يلتقي فيه هذان النهران. شكله مثلث، ويضم جميع البوادي الممتدة بين النهرين قبل التقائهما. لأنهما يفصلان بعد ذلك إقليم دكالة عن إقليم تامسنا، إلى أن يصبا في البحر تحت اسم نهر أزمور. هذا الإقليم جزء من مملكة مراكش، ولو أنه سبق أن كان بعض الوقت تابعا لملوك فاس. كان بنو مرين يملكونه عندما كانوا مسيطرين على موريطانيا الطنجية كلها، لكن لما انقرضت امبراطوريتهم وانفصلت مملكتا فاس ومراكش(2) استولى عليه عدد من المتسلطين الصغار فأعطوا الفرصة بنزاعاتهم لملوك فاس ليحتلوا أهم المدن، وكان إقليم تادلا في ملكهم عندما تغلب الشرفاء على هذه المناطق. يحكمه بالتوالي الزرنجي، والعطار، وولده ابن دراعو، وابن عنزار، فسلمه هذا الاخير بعد أن هُزم الشريف الكبير من طرف اخيه الأصغر(3) ذلك لأن جميع حصون الإقليم استسلمت إذ ذاك(4) فبقي سالماً للمنتصر. وهذه أهم مدن الاقليم :

الفصل الثمانون

تفزة(5) حاضرة هذا الإقليم

يقول المؤرخون القدامى إن أهل البلاد هو الذين أسسوها، وهي على بعد فرسخين من السهل في منحدر الأطلس الكبير المتجه نحو الشمال. وفضلا عن

(1) أولاد رعير وبني حابر.
(2) مع بني وطاس.
(3) سنة 1544.
(4) في اليوم المعروف بيوم درن.
(5) كتب في النص الفرنسي بالتاء (ـزة).(مترجم)

موقعها المناسب، فإنها محاطة بأسوار متينة مزودة ببروج جيدة، ولها في السفح سهول فسيحة تدعى بادية فستالة. السكان أغنياء بما يملكون من قمح ومواش، ويتجرون في الصوف الرفيع الذي تصنع منه زرابي كزرابي تركيا، وبرانس جيدة للبادية. تجتذب هذه البضاعة التجار من جميع النواحي، ويتعامل السكان معاملة حسنة حسب عادتهم، وهم أشداء في الحرب. وهناك نحو مائتي دار لليهود، وهم الذين يقصدهم التجار بالخصوص.

كانت هذه المدينة وجميع مدن الإقليم خاضعة لملوك فاس، خاصة على عهد بني مرين، عندما كان نفوذهم يمتد إلى السوس الأقصى. ومنذ أن انقرضت دولتهم، ثار أهم الرؤساء أثناء خلافاتهم، مع المدن وغيرها من الأماكن الهامة، وتمكنوا من احتلالها. وقد تحرر بعضها، ومن جملتها هذه، لكن المدينة التي انقسمت الى فرقتين في شأن الحكم، جعلت الفرقة القوية تطرد الضعيفة، فلجأت هذه الى ملك فاس(6) واعدة إياه أن تبايعه، شريطة أن يرجعها إلى مكانتها. فأرسل اليهم الفي فارس، مع خمسمائة من رماة القرابين، ومائتي قذاف، وأعطى الأمر لأربعة آلاف فارس من الأعراب أن يلتحقوا بهم. ولما وصل هؤلاء الجنود الى تفزة، بقيادة الزرانكي بآلات الحرب لذلك الوقت، تصدي لها المحاصرون بعض الوقت ثم استنجدوا بعد ذلك بأعراب من حلفائهم(7) فأنجدوهم بخمسمائة فارس، وقاتلوا المحاصرين في السهول الواقعة أسفل المدينة، وهلك كثير من الجانبين. لكن رماة فاس وقذافيها قاموا في الأخير بطلقات مكثفة حتى هزمهم، ففتح سكان المدينة الأبواب للمنتصر وجعلوا أنفسهم رعايا خاضعين لملك فاس. لكن الزرانكي بعدما دخل الى المدينة واستولى على القصر الذي كان حصيناً جدا، عاقبهم بالمال، وألزمهم زيادة على ذلك بأداء خمسة وعشرين الف مثقال كل سنة(8) غير أنه قتل أثناء غارة ضد الأعراب(9) إما من طرف أصحابه أو أعدائه، فاسترجعت المدينة حريتها، واحتفظت بها إلى عهد الشرفاء. وبعد أن قاسى السكان كثيرا من آلام الحروب التي كانت لهم ضد ملك فاس، استسلمت المدينة لأحد قواد الشرفاء(10).

(6) هو مولاي محمد، آخر ملوك بني وطاس

(7) هم بنو جابر.

(8) حضر الحسن الوزان دخول قائد الوطاسيين هذه المدينة، ووصف بأسلوب قصصي شيق مكر هذا القائد وتحايله في استصفاء أموال السكان. **وصف افريقيا**، 1 : 178ـــ183. (مترجم)

(9) بنو جابر.

(10) وهو مومن بلعيش.

الفصل الواحد والثمانون

أفْزا (11) أو فستالة(12)

تضم هذه المدينة سبعمائة كانون، أسسها الأفارقة الأقدمون على ربوة عالية إلى جهة الشمال من الأطلس الكبير، على بعد فرسخين من تفزة في اتجاه الشرق. ولها من ناحية الجنوب حصن يحيط به سوران قويان مشيدان بالحجر والجير، يبعد الواحد منهما عن الآخر بخمسين قدماً، وتحيط به من جميع الجهات أبراج وحواجز، وشِعْبٌ منخفض من خارج. وليست المدينة مسوَّرة، لكنها حصينة بموقعها، إذ لايمكن حمل المدفعية إليها بسبب المستنقعات، فضلا عن وعورة الربوة. يشرف على القصر جبلٌ شاهق، في قمته برج شيد — على ما يبدو — لحمايته. يقول السكان إن عاملاً لملك فاس(13) هو الذي بناه أو رممه، لكن الأسس وجزءا من الأسوار التي ما زالت قائمة تدل على أن العمل أقدم من ذلك. وهذا البرج واقع بحيث لا يمكن حصار القصر إلا بمشقة عظيمة وخطر إن لم تحتل. ويوجد برج آخر في غاية المناعة بجهة الغرب، يصله بالبرج الرئيسي للقصر شق جدار بحاجز مزدوج، للتمكن من سقي الماء في مأمن من عين قريبة من هنالك واقعة في شعب، وهذا البرج منحدر لدرجة أنه يستحيل قصفه من أية جهة، وتكاد شرفاته لا ترى. لكنه محروس على الدوام لأن حفظه مرتبط بحفظ القصر والمدينة اللذين ليس لهما ماء دونه.

السكان أغنياء يزرعون السهل، ولهم حدائق جميلة وكروم على الربوة الواقعة فوق المدينة. يتجر بعضهم بالصوف الرفيع الذي تصنع منه أقمصة ثمينة وزرابي، لأن النساء يتقن غزله. إنهم قوم محاربون وإن كانت محادثتهم عذبة شيقة، والنساء جميلات يتزين بالحلي ويفتخرن به كثيراً.

يمر بين هذه المدينة والسابقة نهر درنة، الذي ينحدر من الاطلس الكبير ويسيل بين جبال وتلال، حيث تزين ضفافه بساتين وحدائق، ومن ثَم يمضي في

---

(11) وردت عند مارمول : تفزة. مع أن هذه المدينة سبق له الكلام عنها قبل مباشرة، ونقل باختصار ما ذكره عنها الوزان عن مشاهدة. وإنما هذه أفزاَ كما جاءت عند الوزان. (مترجم).

(12) تسمى فستالة باسم البربر الذين يسكنونها.

(13) هو الزرانكي.

السهل ليصب في أم الربيع نحو الشمال. لقد اعتادت هذه المدينة أن تعيش حرة ومتحدة أكثر من سائر مدن الإقليم، لكن جنود ملك فاس عندما استولوا على تفزة، مكروا بالسكان مكرا شديدا حتى أرغموهم على الخضوع والطاعة. وعندما ثار الشرفاء كانوا ما يزالون تحت سلطة ملوك فاس، لكن، منذ أن احتلوا مراكش واتجهت أنظارهم إلى مملكة فاس، حاولوا بكل الوسائل الاستيلاء على هذه المدينة الواقعة في الممر، فأرسل[14] محمد لمحاربتها أحد أبنائه مع مومن بلعيش وجميع جنود حرسه، فضلاً عن عشرة آلاف فارس من الأعراب، فحاصرها وقصف بمدفعين عظيمين البرج الذي يحمي الماء كما قلت. وبعد أن أسقط الحواجز وأحدث ثقباً صغيراً، أمر بالهجوم العام، لكن العامل تصدى له بقوة إلى أن أرغمه على الانسحاب سريعاً تاركاً عدداً كبيراً من القتلى من بين الأتراك والمغاربة حرس الشريف. وفي هذه الأثناء وصل نبأ قدوم ملك فاس، فرفع ابن الشريف الحصار وانسحب إلى مراكش، تاركاً قسماً من جنوده مع مومن في تفزة. وبعد ذلك بقليل، توجه ملك فاس إلى تادلا بجيشه، فخرج الشريف من مراكش والتحق بجنود تفزة. وحاربه على ضفاف نهر درنة، فأسر ملك فاسٍ وهُزِم جيشه، واستسلم قصر فستالة في اليوم نفسه، فأصبح جميع الاقليم خاضعاً للشريف، كما هو عليه الحال حتى اليوم. سكان هذه المدينة أغنياء يصنعون فيها أقمصة جميلة وثياباً أخرى تسمى فستالة، تحمل إلى فاس ومراكش. وفي المدينة أزيد من مائة دار لليهود.

الفصل الثاني والثمانون

أيتْ عْتَاب[15]

مدينة صغيرة لكنها محصنة، تقع على بعد ثلاثة فراسخ من السابقة في اتجاه الشرق[16] يقول المؤرخون إن أهل البلاد من قبيلة مصمودة هم الذين أسسوها. تقع على قمة جبل، ويسكنها قوم هادئون أغنياء ، يتعاملون معاملة حسنة، لأن لهم

---

(14) سنة 1543

(15) كتب في الترجمة الفرنسية · سيتيتاب

(16) عند الوزان : عشرة أميال. والصواب أنها على بعد 40 ميلا من مدينة أفرا في الجنوب العربي منها. انظر **وصف افريقيا**، 1 : 184 والهامش 96. (مترجم)

أراضي كبيرة تنتج الكثير من القمح، وجبالاً ملائمة للقطعان. جميع الشعاب والتلال المحيطة بها مكسوة بالكروم والأشجار المثمرة التي تعطي كمية من الفواكه الجيدة. يقوم السكان بتجارة واسعة في الصوف، ويصنعون زرابي وأقمصة ثمينة، كما يفعلون في فستالة. وحيث إنهم رجال حرب أشاوس، فإنهم دافعوا عن أنفسهم بشجاعة ضد ملك فاس[17] دون أن يجنحوا للاستسلام كغيرهم، وعرّضوه لخطر الهلاك، بفضل بطولة أحد السكان الذي كان يدافع عن البلاد على رأس ألفي فارس. لكن الملك، عندما رأى أنه لا يستطيع القضاء عليه بالقوة، سمّه بواسطة طبيب يهودي كان في المدينة، ثم استسلمت المدينة وبقيت خاضعة لملوك فاس، إلى وقعة درن[18] حيث رجعت لطاعة المنتصر مع سائر مدن الإقليم.

الفصل الثالث والثمانون

أيت عياض

هو حصن واقع على ربوة صغيرة من الربى المنحدرة من الأطلس الكبير، أسسه رجال قبيلة مصمودة كسائر مدن هذه المناطق. يضم نحو ثلاثمائة نسمة، وتحيط به أسوار عالية من جهة الجبل، وليس له بها حاجة من جهة أخرى، لأنه تكتنفه صخور وعرة وجرف. بين هذا الحصن والمدينة السابقة أربعة فراسخ من الجبال، ويسقيها نهر صغير ينحدر من هذه الصخور ويخترقها. ومن السكان تجار وصناع يهود، وهم يتجرون في الصوف ويملكون كمية من القطعان.

وتوجد في المدينة عدة عيون، تصب كلها في نهر درنة، مكونة جداول كبيرة، تسقي هذه التلال والشعاب، وتكتنفها حدائق وبساتين فيها كثير من شجر الزيتون. ويحصد الشعير بوفرة في الجبل، والقمح الجيد في السهل، لأن البلاد خصبة جداً. وقد اجتاحتها عدة حروب في مختلف العصور، وعند قيام الشرفاء كانت تحت سيطرة متسلط قتله السكان بعد أن حكم عدة سنوات واستسلموا لملك فاس إلى أن غُلب على أمره فخضعوا للشريف.

(17) محمد الوطاسي
(18) سنة 1510.

الفصل الرابع والثمانون

سْكِيمْ

يبتدىء هذا الجبل غرباً عند جبل تيساوين، وينتهي شرقاً إلى جبل مغران. يحده في الجنوب جبل دادس، وفي الشمال بادية فستالة، ويسكنه بربر من قبيلة زناكَة سراع أقوياء يدَّعون المروءة ويسيرون دائماً مسلحين بدبابيس أو رماح أو خناجر أو سيوف مثل سكان حاحا. وقد ملكوا منذ زمن قليل بعض البندقيات، فضلا عن المقاليع التي يستعملونها ببراعة. كانوا في القديم يعيشون أحرارا، ويتحاربون دائماً مع جيرانهم. تتباعد منازلهم الصغيرة بعضها عن بعض، بحيث لا تتجاور منها سوى أربعة فقط، ويتجرون بالماعز والبغال التي يربونها ويبيعونها للأجانب. توجد في البلاد عيون كثيرة، وكمية من الشعير الذي يشكل الغذاء الرئيسي للسكان. والجبل وعر جدا ذو مسالك صعبة بحيث لا يكادون يخشون العدو. ولما غزا قائد ملك فاس[19] تفزة، قصدهم بألفي فارس، وعدد كثير من المشاة، لكنهم عندما تجمعوا نصبوا له كميناً قرب أحد المضايق، فلما اجتازه هجموا عليه من كل جانب بالدبابيس والحجر، بحيث إن جنود فاس الذين لم يستطيعوا التقدم ولا التراجع، أخذ ينقلب بعضهم على بعض، وسقط العديد منهم، سواء الراجلون أو الفرسان، إلى أسفل الصخور، فهلك جلهم أو أسروا، بينما فر القائد على رجليه بمشقة عظيمة. وكان حظ الأسرى أسوأ من حظ الموتى، بسبب شراسة هؤلاء المتوحشين الذين سلموهم لنسائهم، فألحقن بهم أضراراً كثيرة حتى جعلنهم في النهاية خصيانا. ثم تفاوضوا مع عامل ملك فاس[20] الذي خلف هذا الأخير، وعادوا إلى حريتهم القديمة عندما سمعوا بقدوم الشرفاء إلى أن أخضعهم هؤلاء بعد أن بسطوا نفوذهم على إقليمي درعة وتفيلالت. لكنهم لا يخضعون إلا إذا شاءوا، لأنهم لا يخشون شيئاً في جبلهم، ولا يستطيع أحد أن يهاجمهم ما داموا يتحكمون في المسالك.

---

(19) الزرانكي.

(20) هو العطار.

الفلص الخامس والثمانون

مَغُـــران

يحد هذا الجبل غرباً الجبل السابق، ويمتد في ذلك الجانب من جبل الاطلس الكبير المطل على إقليم فركلة جهة الجنوب(21) إلى جبل دادس، والبلاد شديدة البرودة حيث إن الثلج يكسو قمم الجبال طوال السنة. ليس للسكان منازل قارة، وإنما يقطنون في أكواخ من لحاء الشجر يبدلونها من حين لآخر، بحثاً عن المراعي، لأنهم يكسبون عدداً كبيراً من قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة. وهكذا فإنهم يرحلون الصيف كله عبر هذه الجبال، بنسائهم وأطفالهم، ويقيمون في مكان يقضون فيه فصل الشتاء، جاعلين أكواخهم منخفضة جدا بسبب البرد. لكونها غير مغطاة إلا بأغصان يوقدون حولها نيراناً قوية خوفاً على الماشية من البرد تاركين فتحتين أو ثلاث فتحات للفرار عند وقوع حادث. هذا الجبل مليء بالأسود التي لا تهاجم الماشية فقط، ولكنها تهاجم الناس كذلك.

ليس هؤلاء القوم على كثرتهم بشجعان مثل زناكَة رغم أنهم عاشوا أحراراً في القديم يسمون عادة مغراوة. وكان يحكمهم قديماً شيخ يخضعون لأوامره، بحيث إنهم صدوا عدة مرات أعداءهم بمساعدة النوميديين. وقد استولى عليهم الشريف أحمد في أول وقعة تافيلالت، وأصبحوا منذ ذلك الحين رعايا لأخيه، وما زالوا خاضعين لابن أخيه الذي يحكم حالياً.

الفصل الأخيـر

دَادَس، ومدينة دوراق القديمة التي كانت فيه

دادس جبل شاهق بارد تكسوه غابات عالية كثيفة تنبع فيها عيون كثيرة، ويكتنفه من جهة جبل مغران، ومن جهة اخرى جبل أدَخْسان(22) الذي يفضي إلى مملكة فاس(23)، وتحده جنوباً سهول تدغة التابعة لنوميديا أو جيتوليا.يزيد طوله على ثلاثين فرسخاً من الشرق إلى الغرب، وتظهر في أعلاه أنقاض مدينة عتيقة،

(21) على مشارف مفازات ليبيا.
(22) كتب في الترجمة الفرنسية : ادران
(23) من الغرب إلى الشرق

الاسوار الباقية منها سميكة جدا مبنية بالحجر المنحوت. وهناك بعض الألواح من الرخام فيها حروف قوطية ممحوة جزئياً. يقول بعضهم إنها من عمل الرومان، وإنها دوراق التي تحدث عنها بطليموس في خريطة ليبيا الأولى. وقد خربها الموحدون فلم تعمر بعدهم.

يذكر الشريف الصقلي، مؤرخ افريقيا، مدينة تيدسي، الواقعة بين اقليمي سجلماسة ودرعة، الأمر الذي يجعل بعضهم يظن أنها هي هذه، لوجودها في نفس الارتفاع، ولعدم وجود أية مدينة أخرى بهذه المناطق، بحيث إن المحدثين يدعونها هكذا، لكنهم مخطئون، لأنه لا يجعل قطعاً مدينة تيدسي في جبل دادس، وهي التي وضعناها في إقليم سوس(24)، لكن هذه هي دوراق بطليموس التي يجعلها على تسع درجات طولا، وإحدى وثلاثين درجة وخمس عشرة دقيقة عرضاً.

سكان هذا الجبل فقراء بؤساء ليس لهم إيراد آخر غير قطعانهم، التي يرحلون معها مثل سكان مغران، ويسكنون في كهوف، لا في أكواخ كالآخرين. قوتهم من الشعير واللبن، ولهم قليل من الزيت، وكثير من السمن، لكن ليس لهم أي شيء من القمح، لأنه لا ينبت في البلاد. يدخلون قطعانهم ليلاً في كهوفهم، حيث يكثر ملح البارود، لكنهم يجهلونه، لباسهم رديء جداً، ينتعلون شبه نعال من جلد الحمير وتفوح منهم رائحة التيوس بقوة، لأنهم يشتغلون ليل نهار بقطعانهم يملك بعض كبرائهم وأغنيائهم دورا صغيرا مبنية بالحجر الصلد ومسقفة بالاردواز الموجود في هذه الجبال، إنهم لصوص كبار، لا يعرفون عقلاً ولا عدلاً، ولا يتحدثون مع الأجانب إطلاقاً، ولذلك لا يوجد أحد منهم في هذه البلاد وإذا مروا بها سلبوهم. النساء قبيحات المنظر، قذرات منتنات، وهن كأزواجهن أكثر سكان افريقيا كلها توحشاً. كانوا دائما رعايا للذين يحكمون تادلا، كما أنهم ما يزالون خاضعين للشريف.

هنا تنتهي أقاليم ومساكن مملكة مراكش، التي لها أهمية في بلاد البربر. وسنتحدث في مكان آخر عن أقاليم ومساكن درعة وغيرها من بلاد نوميديا، الخاضعة للشرفاء.

(24) هناك قريتان تدعى كل منهما تيدسي، إحداهما بدرعة والثانية بسوس (مترجم)

الكتاب الرابع

ويشتمل على وصف الأقاليم، والمدن والقرى بمملكة فاس، والمساكن الجبلية، مع الحروب، ومسائل أخرى تستحق الذكر

الحدود

تمثل مملكة فاس القسم الثاني من موريطانيا الطنجية المواجه للشرق، ويفصله عن القسم السابق نهر أم الربيع من جهة إقليمي دكالة وتادلا. ويحده شرقاً نهر ملوية الذي يميزه عن إقليم تلمسان أو موريطانيا القيصرية، وشمالاً مضيق جبل طارق وبحر إسبانيا، وجنوباً قمة جبال الأطلس الكبير التي تحتوي عليها في بعض الأماكن، ثم تمتد إلى نوميديا أو جيتوليا(1) وقد سمى القدامى جبالها الواقعة على الشاطىء «أمبولوز» بسبب الكروم، وخاصة منها كروم (عبيلة)(2) التي هي أحد أعمدة هرقل. ولهذه المملكة سبعة أقاليم، أولها إقليم تامسنا من ناحية الغرب، الذي سنتحدث عنه في الفصول التالية.

(1) من أرمور إلى ملوية وعساسة

(2) أو العودية.

الفصل الأول

إقليم تامسنا

هذا الإقليم هو أقصى أقاليم مملكة فاس من ناحية الغرب، يبتدئ عند أم الربيع، ويمتد نحو الشرق إلى إقليم أبي رقراق، الذي يصب في البحر بين سلا والرباط. تحده جنوباً تلال الأطلس الكبير، وشمالاً بحر جبل طارق في اتجاه المحيط. طول الشاطىء ثلاثون فرسخاً من أم الربيع إلى أبي رقراق، وعرضه عشرون فرسخاً، وأحياناً أكثر من ذلك. كل هذه المساحة ليست سوى أرض خصبة كانت في القديم زهرة بلاد البربر كلها، تضم ما يزيد عن أربعين مدينة أو قرية يقطنها قوم محاربون شجعان، بحيث إنها مشهورة في كتب المؤرخين المغاربة. وخربها ثاني ملوك المرابطين(3)، لأنها كانت تحت سيطرة خلفاء أحد الطغاة(4) الذي تحدثنا عنه في الفصل الثلاثين من الكتاب الثاني(5)، وبقيت خالية مائة وثمانين سنة، إلى أن أعاد تعميرها يعقوب المنصور ببعض أعراب مملكة تونس، الذين ملكوها طوال حكم الموحدين(6). ثم طردهم بنو مرين منها وعوضوهم بزناتة وهوارة، جزاءً للخدمات التي قدموها لهم عند توطيد ملكهم. ومنذ ذلك التاريخ وهي في ملك هذه القبائل التي تدعى الشاوية(7) وهم يرحلون بخيامهم مثل الاعراب، ويتكلمون بعربية فاسدة، ولو أنهم أفارقة (بربر). كانوا في القديم أقوياء جداً، وحاربوا بني وطاس حتى كادوا يخلعونهم من الملك، إذ كانوا يجندون خمسين ألف فارس وثلاثة أضعاف هذا العدد من المشاة. قيل إنهم في إحدى المعارك المشهورة بفاس، أظهروا عجرفة كبيرة إلى حد أنهم وعدوا ملك فاس(8) الذي كانوا يحاربونه، بأنهم لن يقاتلوا على خيول ينيف عمرها على ثلاث سنوات، ووعد ملك فاس بنفس الشيء إلا أنه أَمَرَ بقطع أعراض خيله وأذنابها حتى تظهر كأنها أمهار، وهزمهم بهذه الوسيلة، لأن الآخرين لم يستطيعوا في المعركة أن يتحكموا في خيلهم. وقد انحط هؤلاء القوم منذ ذلك العهد من جراء الحروب المتواصلة التي كانت لهم

---

(3) هو يوسف بن تاشفين.

(4) هو قتين بن ملال. (يقصد أمراء [برغواطة] (مترجم).

(5)الكتاب الثاني، الفصل 35.

(6) أي ما ينيف عن خمسين سنة. [بل طال حكم الدولة الموحدية أكثر من 150 سنة.] (مترجم).

(7) يسمي البرتغاليون الاقليم شاوية باسمهم.

(8) مولاي الشيخ الوطاسي.

ضد ملوك فاس ومراكش والبرتغاليين، فضلا عن ثلاث سنوات من الطاعون والمجاعة، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الآن أن يعبؤوا أكثر من ثمانية آلاف فارس وخمسين ألف راجل. وهم خاضعون لحكم الشريف، فرسانهم في غاية الجودة، لكن عدد مشاتهم قليل، وإن كانوا متعجرفين بحيث إنهم لا يطيقون تحمل الخضوع، ويثورون في كل المناسبات متنقلين من مملكة إلى أخرى بخيامهم وقطعانهم، فإن لم يستطيعوا القيام بشيء آخر كانوا يستعينون بمسيحيي أزمور ضد خصومهم من الأفارقة والأعراب. نساؤهم بيض يتدلّلن بجمالهن وزينتهن، ويتحلّين بحلي عديدة من الذهب والفضة والجوهر والعقيق الاحمر، يضعنها في الذراع والعنق والأذن.

البلاد خصبة ملائمة للحبوب والمواشي، وبالإمكان أن تجتنى منها كمية وافرة من القمح والشعير لو زرعت جميع الأراضي، لكن هؤلاء الناس لا يحرثون إلا ما يحيط بمساكنهم. وهناك كلأ(9) في الحقول يسمن الخيل والماشية في أقل من اثني عشر أو خمسة عشر يوماً. لكن إذا أخرج سنبلة صغيرة ملتحية، منعوا دوابهم من أكلها، لأنها تخنقها وتقتلها. لم يبق من المدن القديمة سوى الاسوار دون أية مبان يخيم فيها هؤلاء القوم شتاء، ولا يفوتنا أن نذكر ما كانت عليه في القديم، والأطلال التي شاهدناها بها.

الفصل الثاني

المـــدن

أنفا أو أنافي(10)، التي كانت قاعدة هذا الإقليم في القديم

كانت مدينة أنفا عامرة آهلة بالسكان بين الرباط وأزمور على شاطىء المحيط، بعيدة عن الاطلس الكبير باثنين وعشرين فرسخاً، وعن أزمور بعشرين، وعن الرباط بثلاثة عشر فرسخا. يجعل منها بعضهم إحدى تلك المدن الليبية — الفنيقية التي أسسها حانون بأمر من مجلس شيوخ قرطاجنة(11) وتوجد في أجمل

(9) هو البهيمة. (كذا).

(10) أو أبصا.

(11) يعزو بعضهم تأسيسها إلى الرومان.

مكان بإفريقيا. البحر من جهة، والسهول الكبرى من جهة أخرى حيث ترعى قطعان عديدة. ويبدو أنها كانت في القديم مُحكمة البناء متمدنة متحضرة بسبب تجارة المسيحيين. وكان فيها ميناء صغير يقصده تجار أوربا، لذلك كان المكان الوحيد الذي أعيد بناؤه في هذا الاقليم بعد تدميره العام. لكن ثراء الميناء ورفاهيته تسببا مرة ثانية في خرابه، لأن السكان جهزوا سفناً للقيام بالقرصنة في الشواطىء المسيحية، وأحدثوا فيها اتلافات كبيرة حتى إن الفونسو ملك البرتغال أرسل إليها أخاه دم فرناندو في عشرة آلاف جندي[12]، فأحرقوها ودمروها دون أية مقاومة، لان السكان ما أن شاهدوا الاسطول الحربي حتى تركوا المدينة ولم يعودوا إليها. وما تزال تشاهد فيها أنقاض الأسوار التي كانت في غاية المتانة، وبعض بقايا المساجد. وقد عزم ملك البرتغال عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر على تشييد قلعة فيها، وأخرى على نهر المعمورة، لكن عندما كانوا مشتغلين في بناء هذه الأخيرة، أتى ملك فاس مسرعاً وطرد منها المسيحيين، كما سنذكر ذلك في محله. لم يذكر بطليموس إطلاقاً هذه المدينة، وذلك لأنه ربما لم يكن يعرفها[13].

الفصل الثالث

المنصورة

مدينة صغيرة أسسها يعقوب المنصور بين أنفا والرباط، وما زالت بعض أنقاضها ماثلة للعيان. تقع في سهل جميل على بعد نصف فرسخ من شاطىء المحيط، على ضفاف كَبر الذي يسميه القدامى دُورُو، والذي يجعله بطليموس على طول ست درجات وعشر دقائق، وعلى عرض ثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة. وحولها شبه غابة من الأشجار المثمرة، التي صارت برية لأنها لم تشذّب منذعهد طويل[14]. كانت هناك تجارة كبيرة، لوجود القمح بكثرة، وكانت ترعى فيها عدة قطعان من الماشية، والارض صالحة لها جدا. وقد فر السكان إلى الرباط بجميع أثاثهم عندما شن ملك البرتغال الغارة على أنفا، ولم يعودوا إليها قط. ما زالت الاسوار قائمة ولو أن جميع المنازل هدمت، وكان السكان قد أحدثوا في الاسوار ثُلماً، لأنهم لا يحبون أن يحبسوا أنفسهم في المدن.

(12) سنة 1468.
(13) بل سبق له أن بين موقعها.
(14) ذلك لأنها تنبت من حديد من جذرها.

الفصل الرابع

عين الخَلُّوف

تلوح في سهول المنصورة أنقاض مدينة كان الرومان قد أسسوها، حسب قول مؤرخي البلاد، وحولها غابات كبيرة من شجر أركَان. وهو شجر ارتفاعه كارتفاع العُنَّاب، وشوكه أكثر، لا يصلح ثمره الجميل المر الا لعلف الماعز، وإن كان يصنع الزيت من نواته. تحيط بالمدينة عدة مستنقعات مليئة بسلاحف عظيمة، وتكتنفها أدغال كثيفة، تعيش فيها الأسود وجميع أنواع حيوانات الصيد(15). لم تعد العمارة قط إلى المدينة منذ الاجتياح العام للإقليم على يد الملك يوسف اللمتوني.

الفصل الخامس

الـربـاط

تقع على شلطىء المحيط، في مصب نهر أبي رقراق(16) بجهة الغرب، مدينة الرباط الكبيرة التي أسسها يعقوب المنصور ــ حسب قول عبد الملك ــ وإن كان بعضهم ينسب تأسيسها إلى عبد المومن الذي أسماها المهدية(17) لهذه المدينة قصبة حصينة يكتنفها البحر من جهة، والنهر من جهة أخرى، وهي تشبه مراكش من حيث مبانيها وإن كانت أصغر منها بكثير. أسسها هذا الأمير ليقيم بها في الصيف حتى يكون أقرب إلى الجيوش التي يرسلها إلى إسبانيا، حيث إن مدينة مراكش نائية جدا عنها. ولأن إقامته بسبتة الواقعة في المضيق لم تكن مريحة له، لأن الارض هناك غير خصبة بمقدار هذه البلاد التي توفر الكثير من المؤن، وهي دار مقام الأعراب الذين كان يستعملهم في حروب إسبانيا، لكونهم ألدُّ أعداء المسيحيين. سميت الرباط، كما لو سميت الربض(18)، وشيدت في مدة وجيزة ولو أن فيها قصوراً كبيرة ومساجد عظيمة؛ مع عدة مبان اخرى، تستعمل لتزيين المدينة

---

(15) مثل الوعول، وبقر الوحش، والغزلان، والخنازير الخ.

(16) أو سلا، أو أسمير... [هكذا علق عليها في الهامش. وهو يقصد أن النهر يدعى أيضاً نهر سلا أو نهر أسمير. واسمير اسم لعين جارية في ضاحية سلا المعروفة اليوم بـ (الولجة) وكان المؤرخ محمد بن علي الدكالي السلوي يعتقد أن التلال المحيطة بعين اسمير تغطي أطلال سلا القديمة (مترجم)

(17) هناك القصبة الموحدية المعروفة اليوم باسم (قصبة الاوداية) التي أشار إليها المؤلف بعد هذا وهي ــ كما قال ــ من تأسيس عبد المومن بن علي الموحدي. (مترجم)

(18) خفي معنى «الرباط» الديني على المؤلف فلم يعرف أنه دار مقام المجاهدين (مترجم)

أو لتسيير شؤون حكمها. وقد اعتنى بزخرفتها حتى إنها لم تنحط عن مدينة مراكش في أي شيء. فالصومعة الرئيسية للجامع (حسان) شبيهة تماماً بصومعة مراكش (الكتبية) والكنيسة الكبرى بإشبيلية، (الخيرالدة)، وكأنها من عمل صانع واحد، وإن كان مدرج صومعة حسان أوسع من مدرج الآخرين بحيث يمكن أن يصعد فيه أربعة فرسان معاً جنباً إلى جنب حتى يصلوا إلى أعلاها. ويقال إنها أعلى صومعة بإفريقيا كلها(19)، لأنهم يكتشفون منها السفن على بعد عشرين فرسخاً. ولما انتهى بناء المدينة، جلب إليها يعقوب المنصور جميع أنواع الصناع، والتجار والفقهاء، وتكفل بالإنفاق عليهم، ولذلك قصدها كثير من الناس من جميع الجهات، إلى درجة أنها أصبحت من أجمل مدن افريقيا، وكان يقيم فيها من بداية ابريل الى آخر شتنبر. وبما أن ماء الآبار والنهر يعكره مد المحيط، فإنه جلب إليها ماء عين على أقواس من بعد أربعة فراسخ، ووزعه على الساحات، والمساجد والقصور. ظلت المدينة في نمو مستمر، طوال حياة هذا الامير، لكن الحروب التي نشبت بعد موته بين الموحدين والمرينيين، والتي دمرت عدة مدن اخرى، لم تُبقِ فيها الا عُشر السكان. لقد حطمت الاقواس الآنفة الذكر، ودمرت عدة مساجد وقصور. ولا يوجد فيها الآن أزيد من ستمائة كانون. في ثلاثة أحياء قرب القصر (القصبة). وقد تحول كل ما بقي إلى زرائب وبساتين. يملك الشاوية جميع البلاد المحيطة بالرباط ويمتدون إلى البوادي الواقعة شرقي النهر، حيث المراعي الجميلة. وقد أقام ملك فاس حامية عسكرية في القصبة يرأسها عامل المدينة. وهذه القصبة يمكن الدفاع عنها ضد أي هجوم مفاجىء، لكنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً ضد المدفعية لانعدام الأسوار. يبعد ميناء المدينة بنصف فرسخ في الأعلى على طول النهر، وتقع إلى جهة الشرق مدينة أخرى تسمى سلا، وسنتحدث عنها عند وصفنا لإقليم فاس الذي لا يفصله عنها سوى هذا النهر.

الفصل السادس

المنزلة (شالّة)

هناك مدينة صغيرة أخرى على ضفة نهر أبي رقراق، على بعد نصف فرسخ من الرباط، تبدو ــ نظرا لشكل الاسوار ــ كأنها من عمل الرومان. وقد دمرها

(19) ذلك لأنها تقع على ربوة، بالإضافة إلى علو بنائها.

الملك يوسف أثناء التخريب العام للإقليم. لكن يعقوب المنصور أعاد تعميرها عندما أسس المدينة الآنفة الذكر، وشيد فيها مستشفى كبيراً للجرحى والمرضى. كما شيد في الجامع الكبير قبة للصلاة كلها من المرمر والزليج لتكون ضريحاً له وأحاطها بنوافذ من زجاج من كل جهة. يقول أهل البلاد إنه مدفون هناك، وإن على رأسه ورجليه لوحتين كبيرتين من المرمر، ذكرت فيهما انتصاراته ومرثياته. كما أقبر فيها جميع من خلفه من أسرته، وبعض ملوك بني مرين، بحيث إنه يوجد فيها ما يزيد على ثلاثين من قبور الملوك، عليها رخامات من المرمر، كما ذكرت، كتب فيها اسمهم ومدة حكمهم وموجز اعمالهم. لكن الكثير يؤكدون بأن يعقوب المنصور توفي بالإسكندرية وأقبر فيها، ويضيفون بأن الذي هنا هو ملك آخر يحمل نفس الاسم من بني مرين، كان أيضاً ملك فاس ومراكش، وإن لم يكن هذا رأي عبد الملك[20].

الفصل السابع

التخيلة

ما زالت تشاهد في وسط هذا الاقليم آثار أسوار مدينة شيدها أهل البلاد. كان يسكنها قوم شجعان، لا سيما عندما كانت تحت حكم قمام[21] وأعقابه، وكان يقام فيها سوق كبير في كل أسبوع. ياتي إليه سكان الإقليم بمختلف البضائع، لكنها لم تعمر بعد التخريب العام الذي أصاب البلاد. وما زالت صومعة الجامع الكبير قائمة، تحيط بها غابة كثيفة من الاشجار المثمرة التي صارت برية بسبب إهمال الزراعة[22]. يتردد أهل الشاوية كثيراً على هذه الأماكن لوجود الماء والمرعى، فضلا عن الحرث الجيد فيها، ومن أجل ذلك فإن المدينة بسببهم وبسبب الأعراب لم تعمر من جديد، لأن ذلك من شأنه أن يسلبهم حرية التجول في الضواحي مع قطعانهم. وهذا هو السبب الذي من أجله صارت معظم المدن الاخرى بهذا الاقليم خالية، ولو أن هذه البلاد أغنى.وأجود بلدان البربر بأسرها، التي يمكن العيش فيها بأكثر حظ من الرفاهية.

(20) يقصد الحسن الوزان كما أشرنا الى ذلك آنفاً. (مترجم).
(21) يقصد ـــ ولا شك ـــ حد البرغواطيين.
(22) ذلك لأن النباتات الطفيلية تسمو وتقتل الغلة.

الفصل الثامن

أدَنْـــــدون

توجد على بعد سبعة فراسخ من المدينة السابقة من جهة الجنوب، وعلى بعد خمسة فراسخ من الأطلس الكبير، أطلال مدينة صغيرة يقال إن الرومان هم الذين أسسوها. الاراضي المجاورة كلها صالحة لزراعة الحبوب، وتغذية المواشي، وبالقرب من المدينة عين عظيمة ينبيء طعمها ولون ترابها عن وجود معادن كثيرة في هذه الأماكن. ولم يُعَد تعميرها مثل ما هي عليه المدن الأخرى، منذ التخريب العام الذي أصاب الإقليم، وليس فيها أي بناء قائم. يجوب الشاوية ضواحيها بقطعانهم بسبب وفرة الماء.

الفصل التاسع

تيكَيكَيلت (تكّيت)

هناك على ضفة أم الربيع بالقرب من جبل الأطلس مجموعة سكنية بشكل قرية، في المكان الذي شيدت فيه تيكَيكَيلت قديماً، في منتصف الطريق بين إقليم تادلا ومدينة فاس. يقول المؤرخون إنها كانت غاية في الغنى والعمران، وإنها كانت مرتين في السنة مقصد القادمين من جيتوليا وليبيا، بسبب قرب ممر لجبل الاطلس، وذلك لمبادلة التمر بالقمح والبضائع. بقيت خالية مدة طويلة منذ تدميرها، لكن قوماً فقراء سكنوها منذئذ، وهم يخزنون قمح الشاوية في حفر كبيرة، مقابل مكافآت وقطع أرضية يسمحون لهم بحرثها في الضواحي.

الفصل العاشر

معدن عوام

تقع هذه المدينة على بعد ثلاثة فراسخ من الأطلس الكبير، على ضفة أبي رقراق من جهة الشمال، أسسها ثاني ملوك مراكش من دولة الموحدين(23) وذلك لوجود بعض مناجم الحديد بالضواحي، وتوجد غيضات كبيرة مليئة بالأسد بين المدينة والجبل. كانت آهلة بالسكان أيام هذا الأمير، وفيها قصور ومساجد، لكن عندما دمرها بنو مرين في حربهم ضد الموحدين، انتقل أهلها إلى سكنى مدينة سلا. وما زالت الاسوار قائمة لكن أحدثت فيها ثُلم، وبقيت بعض الضومعات،

(23) هو عبد المومن

واضمحل كل ما عداها. يتردد الشاوية كثيراً على هذه الاماكن في الصيف، بسبب وجود الماء والمرعى.

الفصل الحادي عشر

تاغيـة

تقع بين الجبال المجاورة للأطلس الكبير، مدينة صغيرة أسسها الافارقة في أرض وعرة مجدبة مكسوة بغابات كبيرة كثيفة مليئة بالأسد. وبما أن البلاد باردة، فإن القمح ياتي فيها قليلا جداً، لكن الماعز فيها كثير، وكذلك العسل والشمع بمقدار يغني السكان. يقطن أهلها في دور رديئة مبنية بالطين أو الحجر الجاف، ومسقفة بالتبن أو بأغصان الشجر. وهناك ضريح ولي(24) كان يربي الأسد، على ما يقال، بحيث إن ضريحه محل تقديس عظيم، يحج إليه أهل فاس ومراكش في أعيادهم الكبرى(25). ويكثر عددهم أحياناً لدرجة أن المدينة لا تستطيع استيعابهم، فتغطى بهم الجبال المجاورة، حتي ليخيل للرائي من بعيد أنهم جيش، لكثرة الخيام، وتبعد مدينة فاس عن تاغيا بأربعين فرسخاً.

الفصل الثاني عشر

أزرفـــة

تُشاهد في ملتقى هذا الاقليم بإقليم فاس آثار مدبنة قديمة أسسها أهل البلاد، في سهل جميل فسيح، ترويه عدة أنهار صغيرة تنحدر عيونها من جبال الأطلس، وقد دُمِّرت كغيرها أثناء الاجتياح العام الذي أصاب الاقليم، ولم يُعد تعميرها قطّ بعد ذلك. توجد حوالي هذه الانقاض أشجار مثمرة عديدة مهملة تماماً، لكن الشاوية وبعض الاعراب الاقوياء(26) الذبن لايهتمون بالبساتين ولا بالديار يترددون عليها، ويتركون كل شيء يضيع مكتفين بالحرث وإنتاج قطعانهم. وفيما عدا ذلك فإن البلاد في غاية الخصب لدرجة أن صاعا من القمح يعطي خمسين أو ستين(27) صاعا. كما أن هناك عدة مدن أخرى أو قرى في هذا الاقليم لا يذكرها المؤرخون إلا نادراً، أو لا يذكرونها البتة، لكن بعض الذكريات ما زالت قائمة عن المواقع التي كانت توجد فيها، دون التمكن من ذكر أسمائها.

(24) هو مولاي بوعزة. [كتب في الأصل : ديدا بوعزة].

(25) لعله يقصد عيد الأضحى.

(26) بني مالك من سفيان

(27) تنتج 50 أو 60 صاعا لكل صاع زرع فيها.

الفصل الثالث عشر
إقليم فـــاس

يحمل الاقليم الثاني لفاس اسم مملكة(1)، ويحده من جهة الغرب نهر أبي رقرارق الذي يفصله عن إقليم تامسنا، ومن الشرق نهر آخر يسمى إناون حلوان، ومن الشمال نهر سبو(2) وقسم المحيط الواقع بين سلا والمعمورة، ومن الجنوب مرتفعات الاطلس الكبير. كل هذه البلاد غنية بالقمح والمراعي بسبب رطوبتها، ولذلك توجد فيها كمية من الماشية الكبيرة والصغيرة، وتكثر فيها الحدائق المنتجة لجميع أنواع الفواكه، كما هو الحال بأوربا.

يقطن البربر والخلوط في الجبال وجميع السهول الواقعة بين فاس ومكناس، وهم خليط من الأفارقة والأعراب، فضلا عن أعراب آخرين أشداء أقوياء(3) يملكون كل السهول الواقعة بين فاس والبحر، ويرحلون بقطعانهم عبر المراعي الجيدة. وليست البلاد الممتدة بين فاس والاطلس الكبير بعامرة، وإنما يسكنها أعراب فقراء(4) في أكواخ بين البربر، ويؤدون شيئا لملك فاس ولسكانها من أجل الاراضي التي يستغلونها. وسنذكر في الفصول التالية المساكن الموجودة في هذا الاقليم، منطلقين دائما من الغرب إلى الشرق حسب منهجنا.

الفصل الرابع عشر
المـــدن
ســـلا (أو سيلـــي)

مدينة عتيقة أسسها الرومان، أو حانون القرطاجني على الضفة الشرقية قرب مصب نهر أبي رقراق، على بعد أكثر من نصف فرسخ بقليل من مدينة الرباط.

(1) كانت تسمى قديماً بوليبيلا.

(2) أو سوبرو.

(3) هم غمارة، وصنهاجة، وكتامة، ولواتة، الخ .....
يخلط المؤلف بين القبائل العربية والبربرية. (مترجم)

(4) بني مالك سفيان.

كانت سلا عاصمة هذا الاقليم عندما كان القوط يحكمون افريقيا، لكن مدينة فاس تفوقت على سائر المدن منذ تأسيسها. إن بنية الاسوار والدّيار والمساجد جميلة جدا، والمدينة محصنة بقصبة على النهر. المنازل لها أفنية وممرات مسقوفة على الطراز المحلي، مزدانة بعدة سوارٍ، ولوحات من الاحجار الملونة والمرمز. ساحات المدينة وأزقتها المصفوفة بانتظام تبين بكفاية التنسيق الجميل الذي كانت عليه. يوجد بمصب النهر ميناء لا بأس به ولو أنه صغير، ترسو فيه سفن البضائع الأوربية. وهناك تجهز سفن حربية للقيام بالقرصنة في الشواطىء المسيحية، منذ أن التجأ إليها موريسكي من غرناطة(5). لكن هذه السفن تعود لقضاء الشتاء في الميناء الذي مدخله صعب جدا. كانت هذه المدينة ثرية مزدهرة آهلة بالسكان، ويقول أحد المؤرخين الأفارقة إن الأضرار التي كانت تسلط منها على المسيحية تفاقمت إلى درجة أن الفونس الحكيم، ملك قشتالة، هجم عليها واحتلها(6) لكنه لم يقم بها طويلا، لأن أول ملك بفاس من دولة بني مرين(7)، الذي كان في حرب مع مملكة تلمسان أبرم هدنة مع عدوه(8) لينجد سلا، ففاجأ الاسبانيين وفتحها وقتل أو أسر جل من وجد منهم فيها، بينما فر الباقون على السفن عائدين إلى قشتالة. فكان هذا الاحتلال وهذا الاسترجاع مفاجئين عنيفين بحيث إن المدينة أصبحت منذ يومئذ في حالة لم تسمح لها قط بأن تتجدد ولا بأن تستعيد ازدهارها القديم. تحرث بعض الأراضي في ضواحي سلا. وأما الباقي فهو رمل يزرع فيه القطن ويجتنى، فيصنع منه معظم السكان أقمشة وملابس.

كانت سلا في القديم تاخذ عن البضائع الواردة واجب الجمرك الذي يؤدّى الآن إلى فاس. وفي سلا عامل فقط مع ثلاثمائة فارس وبعض رماة البنادق لحفظ أمن المدينة.

---

(5) هو الدغالي.
(6) سنة 1263 = 670 هـ.
(7) هو يعقوب.
(8) يغمراسن بن ريان.

الفصل الخامس عشر

تفنزارة (أو فنزارة)

ما زالت آثار هذه المدينة ظاهرة في سهل جميل كبير على بعد ثلاثة فراسخ من سلا في داخل البلاد. كانت تسمى قديماً بأنارة أو بلنسية، حسب بلين الذي يجعلها على ست درجات وثلاثين دقيقة طولاً، وأربع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضاً. لكن عبد الملك يقول إن تأسيسها يعود إلى أحد الملوك الموحدين[9]، وتوسيعها إلى آخر من ملوك بني مرين[10]، كما أن تخريبها كان على يد سعيد أثناء حربه ضد عمه،[11] دون أن يعاد تعميرها إطلاقاً منذ ذلك العهد. الاراضي في ضاحيتها جميلة صالحة للحرث والماشية، يجوبها أعراب بني مالك من سفيان، وبعض الشاوية الذين أقطعهم سعيد إياها مكافأة على الخدمات التي أدوها له في هذه الحرب.

الفصل السادس عشر

المعمورة

هناك مدينة أخرى خربة على بعد أربعة فراسخ من سلا الى جهة الشرق، ونصف فرسخ من شاطىء المحيط قرب مصب نهر سبو[12]. يقال إن يعقوب المنصور أسسها لحماية مدخل هذا النهر، لكن سعيداً دمرها كما دمر عدة مدن أخرى بهذا الاقليم، ولم يبق منها سوى الأنقاض. الأراضي المحيطة بها رمال قاحلة، ما عدا قرب النهر، حيث الاراضي الجيدة التي يملكها الأعراب الذين تحدثنا عنهم انفا[13]. أراد ملك البرتغال أن يشيد قلعة في مصب سبو — كما سنذكر ذلك — لكن لم يتيسر له الامر.

(9) هو عبد المومن.

[الذي عند حسن الوزان (1·209) أن في خارج المدينة بقرب الاسوار سقايات جميلة من عمل ابي الحسن المريني (مترجم).

(10) يعمراسن بن زيان [كذا وقع التعليق في الهامش] (مترجم).

(11) هو ابو سعيد [أنظر الحسن الوزان، 1·210 والهامش 22] (مترجم).

(12) أو سوبور.

(13) بني مالك من سفيان.

انهزام دُم أنطوان دي نورانيا

قائد الملك دُم مانويل

في عام ألف وخمسمائة وخمسة عشر، عندما كان البرتغاليون منتصرين في افريقيا، أرسل دُم مانويل أسطولاً حربياً ليشيد قلعة في مصب نهر سبو، حيث توجد أطلال المدينة الآنفة الذكر. كان أنطونيو دي نورانيا من نبلاء البرتغاليين قد أصبح منذ ذلك العهد كونت دي لينار وهو قائد الجيش، فتلقى الأمر أنه بعد تشييد القلعة يسلم ثلاثة آلاف محارب مع سفن لنونيو ماسكارينياس ليشيد قلعة أخرى بمدينة أنفا، الشيء الذي يساعد على غزو مملكة فاس. كان الاسطول البحري مؤلفاً من ألف ومائتي مركب بين كبير وصغير، وبعض الكراكات[14] مع ثمانئة آلاف مقاتل، دون البحارة والصناع وبعض الناس لتعمير القلعة. وصل الاسطول ليلة عيد سان بوحنا[15]، ولم يتوغل في النهر لأن الوقت كان متأخراً. فأرسل القائد لحينه سفينة كارافيل لترسو في المكان الذي أرادوا تشييد الحصن فيه، وبعد ذلك دخلت السفن الأخرى مع السفن الحاملة للمدفعية والمقاتلين، ولم تبق سوى الكراكات المذكورة التي لم تستطع الدخول لكبرها. لكنهم بعد أن تعرفوا على المكان المعين ارتأوا أن يشيدوا حصناً في مكان أقرب إلى المصب، يسهل النزول فيه أكثر وتوجد فيه بعض العيون. فأنزلت المدفعية فوراً إلى الأرض، وأقاموا حصناً من خشب كانوا قد حملوه معهم، ثم إنهم عملوا بسرعة متناهية في بناء البرج، فأعدوه تقريباً للدفاع في ظرف أيام قلائل وأحاطوه بخندق من تسعة أقدام[17] في عرض عشرين قدماً. وفي هذه الأثناء حشد ملك فاس[18] جنوده، وبعث إلى أخيه[19] حاكم مدينة مكناس على بعد عشرين فرسخاً من المعمورة ليتوجه نحو المعمورة مع أكثر عدد ممكن من الناس، وست قطع من المدفعية، واعداً إياه بأن يتبعه مع باقي الجنود. فتوجه الأخ إلى المعمورة بثلاثة آلاف فارس، وثلاثين ألف راجل، ولم يلبث أن لحق به الملك في عدد لا يحصى من الفرسان والمشاة، والتقيا على بعد أربعة

(14) هي سفن ضخمة من قشتالة.
(15) في 24 يونيو
(16) وهو نهر المعمورة.
(17) أي أربعة عشر شبراً.
(18) هو محمد الوطاسي
(19) هو مولاي الناصر

فراسخ من الحصن. ومن هنالك أرسلا فرسانهما لإيقاف الاشغال حتى لا يتركوها تستمر، ويضعوا حدا لها. كان بإمكان البرتغاليين أن يحموا الحصن ضد قوة المغاربة كلها لو لم يفكروا إلا في ذلك. لكن القائد عندما علم بأن قطع المدفعية الست كانت على بعد نصف فرسخ من الحصن مع قليل من الناس لحراستها، ظن أنه يسهل الاستيلاء عليها مقدِّراً ما لها من أهمية، فأرسل ألفا ومائتي جندي لأخذها. وكاد ينجح هذا المخطط لولا أن ثبطت العزيمة، لأن البرتغاليين وصلوا قبل الفجر إلى مكان المدفعية، فوجدوا الحرس نائمين وسحبوها على مسافة أزيد من رميتي قذافة قبل أن يشعر المغاربة بذلك. لكنهم اكتشفوا اخيراً، فَدُقَّ ناقوس الانذار في كل جهة، وحمل عليهم أحو الملك خميع فرسانه، وكان البرتغاليون يسيرون بنظام حسن ولو أن العدو كان يحمل عليهم من كل جهة لتأخر سيرهم في انتظار محيء مشاته، فكانوا بفتحون الطريق بالقوة، ومعهم قطع المدفعية الست محاطة داخل كتيبتهم. لكنهم عندما اقتربوا من القلعة ورأوا الارض كلها مغطاة بالمغاربة على مسافة فرسخين استولى عليهم الهلع، فغادر أكثرهم حيناً الصفوف وأسرعوا في الفرار عند مجيء العدو الذي صاح عندما رأى ذلك : لنحمل عليهم : فناداهم حيناً عدد من الاسلاميين والاندلسيين بلغتهم أن استسلموا لتنجوا بأعماركم، فعمل بعضهم بهذا النداء وألقوا السلاح فاتحين بذلك ثلمة في الكتيبة دخل منها المغاربة واستولوا عليها، ولم ينج من البرتغاليين سوى خمسة عشر تقريباً اتخذهم بعض ضباط ملك فاس أسرى عندهم، ثم اقترب المنتصرون من الحصن. ولما رأوا انفسهم مضايقين بالمدفعية التي كانت على ظهر السفن تحصنوا في مصب النهر وصوبوا إليه مدفعيتهم لحماية انفسهم ولمنع السفن المحملة بالمؤن من الدخول في آن واحد. وعندئذ أمر قائد البرتغالين بشحن سفينة ضخمة بالركائز وأكياس القطن والصوف ووضعها عرضاً في مصب النهر مع ثلاث كارافيلات لحمايتها، حتى يكون الذهاب والإياب بدون إزعاج من مدفعية الأعداء. لكن المغاربة أغرقوا فوراً هذه السفينة. وعندما رأى قائد البرتغاليين أن المؤن والعدد بدأت تنقص، وأن الدفاع عن القلعة بين هذا القدر من الموتى والجرحى سيكون عبثاً، فضلا عن عدد المرضى المرتفع، عزم على الانسحاب باتفاق مع الضباط، وقيل إنه توصل بأمر من الملك. فانطلق[20] بتسرع كبير حتى إن

(20) في 10 غشت

معظم الجنود هلكوا عند الطلوع إلى المراكب، إما بالغرق أو بالسلاح، وفقد ما يزيد عن مائة سفينة بمدفعيتها كاملة. ذلك لأن مدفعية الأعداء المصوبة إلى مصب النهر من جهة الشرق، كانت ترغم السفن البرتغالية، للابتعاد عنها، على السير بالقرب من الشاطىء في الجانب الآخر، حيث كانت تصطدم بأرصفة رملية، فيقتلهم المغاربة. أما الذين ظنوا أنهم سينجون عوماً للالتحاق بالسفن التي كانت خارج الحاجز الرملي، فإنهم لم يستطيعوا مقاومة صدمات الأمواج، فغرقوا أو أبيدوا عند نزولهم، وهم يحاولون الفرار براً. وهلك أزيد من أربعة آلاف رجل دون الاسرى، مع عدد من المؤن والعدد. وبعد ذلك استخرج المغاربة من الماء المدفعية التي كانت على متن الكارافيلات التي غرقت في اليم، وأخذوها إلى فاس. ذلك كان الاضطراب الذي أحدثه خوف بعض الجنود. لقد لوحظ في حروب إفريقيا أنه إذا بقيت كتيبة مسيحية متكثفة دون أن تتزعزع أو تتشتت، فإنها تقاوم جيدا المغاربة الذين يفرون بمجرد ما يجدون مقاومة، لكنها سرعان ما تتفكك إذا حدثت فيها أدنى ثلمة. ولما سألت بفاس بعض المسيحيين الذين أسروا في هذه المعركة، لماذا لم يفسدوا مدفعية المغاربة عندما رأوا أنهم على وشك أن يفقدوها، قالوا إنهم لم يكن لديهم ما يساعدهم على القيام بذلك، وإنهم لم يفكروا فيه وهم قريبون جداً من المعسكر عندما هزموا.

الفصل السابع عشر

تِفَلْفَلْت(21)

توجد على بعد خمسة فراسخ من المدينة السابقة وأربعة فراسخ من المحيط، خرائب المدينة العتيقة تاميفيد التي تسمى اليوم تفلفلت والتي يجعلها بطليموس في الدرجة السابعة طولاً، والرابعة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً. يقال إن مؤسسيها هم أفارقة من قبيلة صنهاجة. وهي محاطة برمال دقيقة، لكن يمر بالقرب منها نهر(22) تكتنف ضفافه غابات مليئة بأسود جريئة جداً، تهجم على المارين وخاصة في الليل. لكنهم بنوا في وسط الطريق داراً منبسطة السقف تصلح كملجإ للمسافرين ضد شراسة هذه السباع. وقد دمر سعيد هذه المدينة أثناء

(21) انظر الحسن الوزان وصف افريقيا، 1 : 213، الهامش 27. (مترجم).
(22) زيلي.

الحرب المذكورة آنفا، ولم يعد تعميرها منذ ذلك العهد، لأن الأعراب[23] الذين يتنقلون عبر هذه السهول لم يسمحوا بذلك، ليتمتعوا بها بكامل الحرية.

الفصل الثامن عشر

مكنـاس

توجد مكناس على بعد سبعة عشر فرسخاً من سلا، وعشرين فرسخاً من المعمورة، غير بعيدة من جبال الاطلس[24] وهي مدينة كبيرة تضم أكثر من ثمانية آلاف نسمة، يجعلها بطليموس في الدرجة السابعة وخمسين دقيقة طولاً، والدرجة الرابعة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً، تحت اسم سيلدة الذي غير منذ ذلك العهد إلى مكناس بسبب فرع من زناتة كان يحمل هذا الاسم[25]، وطرد أبناء إدريس من مملكة فاس بمساعدة خليفة القيروان الشيعي. يقول ابن الرقيق[26] إن هـؤلاء المكناسيين كانوا يعيشون قديماً في الخيام مثل الاعراب، لكنهم انقسموا على أنفسهم عندما استغنوا فطرد الأقوياء منهم الضعفاء الذين ألفوا هذا المكان، وكانت فيه بعض المساكن، فتكاثرت إلى أن أصبحت اليوم من أهم مدن موريطانيا الطنجية، وهي مع ذلك حسنة البناء، في سهل جميل على ضفة نهر لطيف[27] لا يبعد عن منبعه سوى بنصف فرسخ. الاراضي المجاورة غنية بالقمح والكتان والزيت، وترعى فيها جميع أنواع الماشية الصغيرة والكبيرة. تكتنفها بساتين تنتج عدة ثمار في غاية الجودة. وتحيط بها أسوار متينة محصنة ببروج مشيـدة علـى الشكل العتيق. جميع الحمامات والقصور والمساجد مبنية على طراز أهل البلاد، ويقام بها يوم الاثنين سوق خارج المدينة، يقصده جميع أعراب المنطقة وبربرها ليبيعوا فيه صوفهم، وجلودهم، وسمنهم، وشمعهم، وسائر بضائعهم؛ ويشتروا ما هو ضروري من معداتهم الصغيرة ومعدات خيلهم. من عادة ملوك فاس أن يعطوا هذه المدينة اقطاعاً إلى من يخلفهم، سواء كان ابناً، أو أخاً، أو قريباً كأهـم مدينة بعد العاصمة، الشيء الذي لم يكن دائماً لصالحهم. ذلك أن محمداً الوطاسي،

(23) بني مالك سفيان.

(24) على مسافة خمسة فراسخ من الجبال.

(25) بني مكناسة [يقصد آل موسى بن ابي العافية المكناسي] (مترجم).

(26) في شجرة نسب الأفارقة.

(27) كتاب ابن غانم

عندما أهداها الى ابن عمه (28)، الذي كان حاكماً لأزمور منذ ذلك العهد، أوشك هذا الاخير أن يستولي على مدينة فاس عندما كان الملك يحارب ملك تلمسان. لكن محمداً قفل راجعاً لحينه. فخيم أمام مكناس، وضايق البلد كله طوال شهرين، حتى إن السكان فتحوا له باباً بدون علم الأمير الذي ألقي عليه القبض بعد ذلك وأرسل أسيراً إلى فاس، حيث مكث طويلاً وهو مسجون في أحد البروج. لكن الملك أطلق سراحه في الأخير وسلّم المدينة إلى أخيه مولاي الناصر، الذي هزم جيش البرتغال على نهر المعمورة كما أسلفنا.

ولنعد إلى مكناس فنقول إنها مدينة ذات أسوار متينة، وأزقة كبيرة فسيحة لطيفة، مع سقاية جميلة في وسط الساحة، يجلب إليها الماء على أقواس من جبل قريب(29). كما يوجد هناك حصن منيع متقن البناء فيه قصر الامير، وعلى بعد نصف فرسخ من هناك عدد من الطاحونات على طول النهر. المكناسيون شجعان متكبرون، لكنهم أعداء لأهل فاس من قديم. يفتخرون بكونهم أتوا من مكة، وجلهم يشتغل بالتجارة. تغزل النساء الصوف الرقيق جداً، ويصنعن أقمشة جميلة من الحرير والقطن، وأخرى من القطن والصوف تحمل اسم البلد وهي معتبرة جدا في افريقيا، لنعومتها وحسن صنعها. الرجال غيورون جدا، لا يسمحون للنساء بأن يقمن بزيارات، ولا أن يخرجن من المنزل إلا للذهاب إلى الحمام، ومع ذلك فإنهن محجبات بخمارات من الصوف الابيض الدقيق جدا، لدرجة أن وجوههن لا ترى. يجوب أعراب(30) هذه المملكة الأكثر ثراء البوادي المجاورة، وقد أقطع الشريف الذي يحكم اليوم إبنه الثاني هذه المدينة.

الفصل التاسع عشر

جمعة الحمام(31)

تشاهد على بعد خمسة فراسخ من مكناس، في سهل كبير توجد فيه حامة، أطلال مدينة قديمة على المحجة المؤدية من تادلا إلى فاس. وقد دمرت المدينة

(28) مولاي زيدان.

(29) بني نازل.

(30) بني مالك سفيان

(31) قرأنهاها عند الوزان حامع الحمام. ولعل الصواب ما هنا (مترجم)

أثناء حروب سعيد ولم يعد تعميرها قط منذ ذلك العهد. جميع المباني فيها منهارة، ولم يبق قائماً سوى الأسوار والأبراج. يقام سوق(32) كل يوم أحد على بعد نصف فرسخ من المدينة، يحمل إليه جميع أعراب المنطقة وبربرها حبوبهم ومواشيهم ليبيعوها فيه مع السمن والصوف، والشمع، وسائر الأشياء المحلية. ذلك لأن جميع البوادي المجاورة يملكها أعراب أقوياء(33)، لا يقبلون أن يعاد بناؤها، ويكتم ملك فاس استنكاره لذلك حتى لا يغضبهم، وإن كان من صالحه أكثر أن تستعيد عمرانها. يسمي بطليموس هذه المدينة كونتيان حسب اللوحات العصرية، ويجعلها في الدرجة السابعة وخمسين دقيقة طولاً، وفي الرابعة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضاً، لكن مؤرخي البلاد ينسبون تأسيسها إلى أحد الملوك الموحدين(34).

الفصل العشرون

خميس مطغرة(35)

تقع بين المدينة الآنفة الذكر ومدينة فاس، على بعد خمسة فراسخ من كل منهما، خرائبُ مدينة دمرت أثناء حروب سعيد. لكن ملوك فاس سلموها لبعض موريسكي غرناطة منذ ذلك العهد من أجل أن يعمروها، فغرسوا بساتين تحيط بها من كل جانب على مسافة اكثر من فرسخين. يربون فيها دود القز، ويغرسون كمية من قصب السكر، لكنهم عوملوا معاملة سيئة جدا في حروب الشرفاء(36). ذلك أن محمداً الذي خيم قرب هذه المدينة أتلف فلاحتها، وأمر بذبح معظم السكان بمحضره حتى يُرعب أهل فاس(37) كما أن هذه المدينة تضررت من مرور الجيش أثناء حروب ابي حسون ملك بادس لوجودها على المحجة المؤدية من فاس إلى مراكش. يقام بها سوق كل يوم خميس، ومنه اتخذت اسمها. يقول ابن الرقيق إن مؤسسيها هم الافارقة القدامى. وفي أسوارها ثلم كبيرة، ولو أنها رممت في بعض الاماكن من طرف الغرناطيين، لكن الموقع ليس بجيد، وخُرِّب قصر صغير بكامله كان هناك.

(32) هو سوق أحد ربة
(33) بني مالك سفيان.
(34) عبد المومن.
(35) أو سوق الخميس.
(36) عندما أسر الاخ الاصغر (محمد الشيخ) الاخ البكر (أحمد الأعرج) في معركة درن.
(37) كان ذلك سنة 1544.

الفصل الواحد والعشرون

بني بـازل

مدينة صغيرة أسسها صنهاجة بين فاس ومكناس، على مسافة تكاد تكون متساوية من كليهما، وعلى جدول(38) لا يبعد منبعه(39) عنها الا بنصف فرسخ. دمرت أثناء حروب سعيد، وبقيت خالية طويلاً، إلى أن عاد مولاي الناصر، أمير مكناس، من إقليم دكالة(40) فأعاد تعميرها ببعض السكان الذين جاء بهم من هذه النواحي(41) ليحررهم من نير البرتغاليين. كانت في القديم تابعة لمملكة فاس، وهي اليوم خاضعة لمكناس منذ إعادة تعميرها، لكن السكان ندموا أكثر من مرة على مغادرة بلادهم ليسكنوا في هذا المكان الذي لم يملكوا فيه أي شيء، وهم مرغمون على أن يؤدوا للاعراب(42) خراج الأراضي التي يزرعونها. ليس الموقع جيداً، والسكان كلهم تقريباً نساجون، لأنه تزرع كمية من الكتان والقنب في سهل رطب يوجد أمام المدينة. كما أنه ينتج الشعير وجميع أنواع الخضر، ولكن لا ينبت فيه القمح إطلاقاً، بسبب الرطوبة المفرطة. وقريباً من هناك جبل بني بازل الذي يمتد إلى جهة مكناس، ويجلب منه الماء إلى المدينة عبر قنوات.

(38) هو واد السحا.
(39) عين زرق.
(40) سنة 1514.
(41) أي نواحي أزمور.
(42) بني ملك سفيان.

الفصل الثاني والعشرون

فـــــاس

عاصمة المملكة وبلاط الغرب، إذ تسمى هكذا خلافاً للقسطنطينية

فاس أكبر وأجمل مدينة بإفريقيا كلها، فيها مدارس الملة المحمدية(1) وتنقسم إلى ثلاثة أقسام، أو بالأحرى هي ثلاث مدن جمعت في واحدة، وتحمل نفس الاسم. وقد أسست في تواريخ مختلفة، أقدمها مدينة البليدة الواقعة شرقي النهر، حيث بساتين وعيون الزنجفور، تضم حوالي أربعة آلاف نسمة. أسسها ادريس(2)، ذلك الإمام الشهير الذي تحدثنا عنه في الفصل العشرين من الكتاب الثاني. والمدينة الاخرى، المسماة فاس البالي أو عين علّو تقع غربي النهر، وتضم ثمانين الف نسمة. أسسها حفيد هذا الامام(3)، وفيها جامع القرويين العظيم. يقول عبد الملك إن هاتين المدينتين كانتا في القديم لأميرين مختلفين من هذه الأسرة، يتحاربان على الدوام وإن لم يكن يفصل بينهما سوى النهر والزقاق . لكن ثاني ملوك المرابطين(4)، بعد أن اجتاح إقليم تامسنا، هاجمهما لكونهما زنديقين يختلف مذهبهما عن مذهب سائر المسلمين، فأخذهما وقتلهما، وجعل من المدينتين مدينة واحدة ببناء قنطرة فوق النهر، وهدم السور الذي كان يفصل بينهما(5)، وسماها فاسا باسم النهر الذي كان يسمى قديماً وادي الجواهر ويسمى الآن وادي فاس، اي وادي الذهب، لأنه مكتنف بحدائق، ولان المنطقة غنية جدا، والمدينة الثالثة هي فاس الجديد، التي تضم أكثر من ثمانية آلاف نسمة، وتقع منعزلة شيئاً ما. بناها يعقوب المنصور ملك بني مرين، على شكل قصبة ليقيم بها مع حاشيته، وسماها المدينة البيضاء، لكنها تسمى الآن فاس الجديد، لتشييدها بعد الأخريين، وإن كانت كلها لا تحمل الا اسماً واحداً. وتوجد أقدمها في نفس المكان الذي كان يسمى قديماً وليلي(6)، التي يجعلها بطليموس في الدرجة الثامنة وخمس عشرة دقيقة طولاً، والثالثة والثلاثين وأربعين دقيقة عرضاً. يحملني هذا على الظن بأنه كانت هناك بعض المنازل أسس عليها ادريس مدينته، لأنني رأيت أن الارتفاع

(1) سيذكر الباقي أثناء وصفها.

(2) سنة 798 = 185 هـ.

(3) هو حسن (كذا) [تبع مارمول في هذا الخطأ الحسن الوزان وزاده تعقيداً. انظر **وصف افريقيا**، 1 . 220، والهامش 38] (مترجم).

(4) هو يوسف اللمتوني.

(5) كان لازماً أن يكون ذلك في مكان آخر من غير جهة النهر.

(6) هذا خلط، إذ وليلي في جبل زرهون مقر الادارسة قبل تأسيس مدينة فاس. (مترجم).

يوخذ في نفس المدينة من أعلى جبل تاورتين، حيث توجد الكهوف المذكورة. لكن العرب الذين اعتادوا أن ينسبوا إلى أنفسهم أغرب الأشياء، يجعلون من إدريس أول مؤسس، ويقولون إن المدينة الواقعة غربيّ النهر أسست منذ ذلك العهد، وهي التي سنتحدث عنها بالخصوص، لأنها أهم مدن إفريقيا كلها.

فاس البالي الواقع غربيّ النهر

يقع فاس البالي الشهير على تلال وفي شعاب، وتحيط به أسوار قديمة، محصنة ببروج من صنع جيد، لها سبعة أبواب، الاول يسمى باب الغدر (كذا) والثاني باب المحروق، والثالث باب الجيسة، والرابع باب الحديد، والخامس باب الرب، والسادس باب فتوح، والسابع باب المرحومين.

تنقسم هذه المدينة إلى اثني عشر حياً، لكل واحد حاكم من الأعيان، يحرص، مثل عقيد جيش، على أن تكون الأسلحة متوفرة بكفاية، ويسلمها لمن ليست عندهم من مخزن الملك، ولكن على نفقتهم. كما أنه يهتم بشؤون الشرطة، على غرار ضباط (ريجيدور) بإسبانيا. يجندون عند الاقتضاء نحو ثلاثين ألف محارب[7]. أشجعهم موريسكيو إسبانيا، الذين نزحوا إلى فاس من غرناطة والاندلس، لأن الآخرين إنما هم أناس تسلية مترفهون، لا يذهبون إلى الحرب إلا مكرهين. ويتمتعون بتلك المزية الشهيرة التي ذكرناها، والتي منحهم إياها الملوك الأولون، وهي أنهم ليسوا ملزمين بالدفاع عن أنفسهم إن لم يستطع الملك أن يمسك البادية، بحيث إنهم يستسلمون للمنتصر إذا اقترب من المدينة بنصف فرسخ دون أن يتهموا بالجبن ولا بالخيانة، ذلك ما جعل عاصمة كهذه تتلافى التخريب لو كانت تتظاهر بوفاء باطل وخطير لأمير لا يستطيع الدفاع عنها. كان هؤلاء الملوك إذن أقوياء بفرسانهم، حتى يتحكموا في البادية، وإن كان السكان قد تحملوا حصارات طويلة من أجل بعض ملوكهم الذين أحبوهم كثيراً، كما فعلوا أثناء الحرب ضد سعيد.

الدور مبنية بالآجر أو الطوب الملصق بالجير أو الاسمنت، وهي جميلة في الداخل أكثر منها في الخارج، لأن فيها غرفاً جميلة مبيضة ومزلجة بمربعات صغيرة مرصوصة شديدة الصفاء. وتوجد عادة في حجر الدور البهية خزانات داخل الجدران وأقواس من جبس شديدة البياض مزخرف (بصور) أرقام وأوراق شجر ملونة بشتى الالوان. الدور مغطاة بسقوف من طين مخلوط بالجير والرمل،

(7) مسلحون بالبنادق أو القذافات.

والاسمنت، ولها كلها أفنية محاطة بممرات وأروقة فيها خزانات مصنوعة من خشب طيب الرائحة(8) كما توجد في الدور أحواض كبيرة من الآجر مبلطة مرصعة، وحمامات أو برك من المرمر. يوجد في المدينة خمسون جامعاً كبيراً، في كل واحد منها سقاية من الماء الجاري، مع أحواض كبيرة من المرمر أو اليشت، وعدد من السواري لدعم القبة، فضلا عن ستمائة مسجد آخر ليس بناؤها جيدا كثيرا. والسقوف كلها مغطاة بخشب الأرز المزخرف بعدة نحوت ونقوش، ولها صوامع عالية، مثل أبراج الأجراس، يصعد إليها المؤذن الذي هو بمثابة خادم الكنيسة، لينادي إلى الصلاة أربع مرات(9) في النهار، من الصباح إلى المساء. وليس في كل مسجد إلا فقيه واحد يلقي الخطبة في الساعات المعينة، وأهمها جامع القرويين الذي هو أبهى وأعظم جامع في افريقيا كلها. يقع وسط المدينة، في مكان منبسط سوي، ودائرته نحو نصف فرسخ. له ستة أبواب رئيسية متصلة بستة من الأزقة المهمة. وكل الأبواب مغشاة بقطع صغيرة من نحاس، تشكل شتى الأحرف والتشبيكات بشكل لطيف جدا، مع أقفال ضخمة مصنوعة بنفس الطراز، مثلما يشاهد في الكنيسة العظمى بإشبيلية. وبجامع القرويين سبعة عشر قوساً أو قبةَ كبيرة عرضاً على مائة وعشرين طولاً، مرفوعة على عشرة آلاف وخمسمائة سارية ضخمة من الرخام الابيض. وفي القبة الرئيسية حيث منبر الخطيب، الذي يصعد إليه ليلقي الخطبة، ثريا عظيمة من النحاس، يحيط بها مائة وخمسون مصباحاً أقل كِبراً، فضلا عن الثريات المعلقة في الأقواس، في كل واحد منها ثريا من نفس المعدن بحيث يمكن أن توقد فيه ألف وخمسمائة مصباح في آن واحد. يقول السكان إن هذه الثريات كلها مصنوعة من نواقيس أخذها هؤلاء المسلمون(10) من كنائس إسبانيا، ووضعت كأنصاب تذكارية.

في داخل هذا الجامع مدرسة(11)، يلقن فيها علم اللاهوت عندهم مع سائر الفنون والعلوم، وأفقه البلاد كلها الرئيس الذي هو كالأسقف، يتلقى منه الامرَ جميعُ الفقهاء الآخرين، ويحل جميع مشاكلهم(12) ويسمونه المفتي. هو الذي يتصرف في موارد الجامع التي تزيد عن ثمانين ألف أوقية. لكن الشريف الذي يحكم الآن ياخذ كل الإيراد ولا يدفع له إلا ما يحتاج إليه هو وسائر الفقهاء

(8) هو نوع من الارز.

(9) بل خمس مرات في اليوم والليلة. (مترجم).

(10) عبر عنهم بالكفار كعادته (مترجم).

(11) ليس في داخل القرويين مدرسة، وإنما الجامع كله مكان دراسة. (مترجم).

(12) أو مشاكل الغير.

وسدنة الجامع. وهناك مدارس أخرى بفاس يدرس فيها النحو[13] والبلاغة، والعقائد، والفلسفة، والرسم، والحساب وغيرها من العلوم. وكانت تلقن فيها قديماً المقامات ولكنهم لا يجرؤون على ذلك علانية منذ عدة سنوات.

وأهم هذه المؤسسات تسمى مدرسة، وهي من أجمل بنايات افريقيا كلها، من حيث أفنيتها الكبيرة وأروقتها وغرفها العديدة الملبسة بالطلاء الجيد أرضيتها مزلجة والكرسي الذي تلقى منه الدروس، مرصع بالأبنوس والعاج. كان هناك قديماً طلبة داخليون في هذه المدرسة وفي غيرها، ينفق عليهم مثلما هو الشأن في أوربا، لكن الملوك أخذوا حالياً هذه الموارد الباهظة، ولم يتركوا إلا ما هو ضروري للاساتذة، فلم يبق للطلبة سوى الغرفة والدروس. يوجد في مدينة فاس ما يزيد عن مائتي مدرسة[14] لتعليم القراءة، وإن كان الخط والنحو العربي يلقنان عادة في الجامعات.

هل سأتحدث عن المستشفيات التي لا تقل حسناً ولا سعة عن المدارس؟ فهناك كان يحبس المجانين والمرضى، ويطعم المساكين طيلة ثلاثة أيام، لكنها الآن خالية، لأن الملوك استولوا على مواردها. بل هناك فقط مستشفى في الربض[15]، معد للمرضى الغرباء، لكن يجب أن يعالجوا أنفسهم على نفقتهم، إذ يكتفون بخدمتهم وتغذيتهم، لأن المستشفى أفقر من أن يزودهم بالباقي.

وهناك أيضاً عدة حمامات، تشكل أهم تسليات المدينة. يذهب اليها النساء والرجال للاستحمام، هؤلاء في الصباح وأولئك في المساء، ويترددون اليها كثيرا من اجل النظافة ــ على ما يقولون ــ لكن ذلك يحدث اضطرابات كثيرة، وقد تعودوا عليها حتى إنهم يدفعون من المال للحمَّام أكثر مما ينفقون على أنفسهم.

وهناك ما يربو عن مائتي فندق للغرباء مثلما هو عليه الحال بأوربا، وهي كبيرة حسنة البناء، فيها عدة غرف بأعلاها وأسفلها، مع ما هو ضروري. ويوجد أهمها قرب الجامع الكبير، وسائر الفنادق الاخرى ملاجيء للشياطين، ترتكب فيها آلاف المعاصي، بكامل الاباحة وبدون عقاب، لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزي النساء، محلقين اللحى متمنطقين كالنساء، مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال على فسق بشع. ويباح لهم اتخاذ

(13) النحو العربي.
(14) يقصد بالمدرسة الكتاب (مترجم)
(15) المارستان.

وسطاء عموميين، وبيع الخمر، وإيواء النساء والصبيان، كما هو جار في المواخير المخصصة للفجور. وأغرب من ذلك أن ممثلي العدالة لا يجرؤون على الذهاب اليها، وأن الشرطة لا يلقون القبض على اي أحد هناك، بحيث إنها أصبحت ملجأ اللصوص والقوادين والقتلة وجميع فجار المدينة. يؤدي اصحاب هذه الفنادق الذين يدعون باديس من أجل ذلك مبلغاً كبيرا الى العامل كل سنة، ويلزمون كلما تحرك الجيش مع الملك أو الأمير بإرسال بعضهم لخدمة ضباط الحاشية وطهي طعامهم، لكنهم يُمنعون من الدخول إلى الحمامات والمساجد، والتحدث الى التجار، وكراء الفنادق القريبة من الجامع الكبير.

وعندما حارب أبو الشريف[16] الذي يحكم حالياً ملك فاس وعاتبه الفقهاء على محاربته لملك يدين مثله بدين الاسلام، أجابهم بأنه يفعل ذلك عقاباً له على المناكر البشعة التي يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله، بحيث إنه مثَّل بهؤلاء الفقهاء بمجرد ما أصبح سيداً، وكان معه قاض[17] أخذ في ذبح كل من استطاع إمساكه، ومنع أن يدفنوا حتى أكلتهم الكلاب. الأمر لم يطل، إذ ما كاد يرجع عنهم حتى استأنفوا عاداتهم الكريهة، وإن كان ذلك بجرأة أقل من السابق.

إن النهر الذي يخترق فاسا يدير فيها أربعمائة طاحونة، لكل واحدة منها أربع أو خمس عجلات، وأحياناً ست، بعضها مخصص لطحن قمح المنازل والبعض الآخر يملكه طحانون أو خبازون، يبيعون الدقيق بالتقسيط [illegible] الصناع وغيرهم الذين ليس لهم وسيلة لشراء القمح، والباقي يطحن للسكان في مقابل مال أو دقيق، لكن الملك ياخذ نصف ريال أو نحوه عن كل كيل قمح ولو أن الطاحونات ليست في ملكه، ولا يطحن قمحه بها أصلا هو ولا حاشيته، بل طحن بفاس الجديد، حيث يملك خمس عشرة طاحونة، والباقي منها للخواص والمدارس والمساجد، لكنه يزعم أن مِلك الماء يرجع إليه.

وفي وسط المدينة مكان مسور يدعى القيصرية، حيث دكاكين التجار وجميع ثروات فاس. لها اثنا عشر باباً كبيراً. بسلاسل غليظة من الحديد تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكباً. وتضم خمسة عشر زقاقاً للدكاكين. أهمها زقاقا الاسكافيين الذين يصنعون أحذية مطرزة بالذهب والحرير، وبعدهما زقاقا

---

(16) هو محمد المهدي الشيخ.

(17) هو سيدي موسى.

القطانين الذين يصنعون اشرطة وشُرَّابات تعلق بالركابات وعلى صدور الخيل مع عُدة السروج من نفس المادة. وهناك أيضاً أزيد من مائة دكان للتجار الذين يبيعون جميع أنواع النسيج من الحرير وأخرى بجوارها تباع فيها النُّطُق من الحرير والصوف للنساء، منسوجة على وشاحات غليظة من الخيط بأهداب طويلة في أطرافها. تدار هذه النطق مرتين، ثم تسدل في الأمام على شكل قنزعات، مما يعتبر زينة كبرى في تلك البلاد، وتتمنطق بها جميع النساء العربيات. كما أنه توجد في نفس المكان عدة دكاكين، تباع فيها أقمشة رقيقة من الصوف، وربطات من الحرير الخام، جل هؤلاء التجار من مسلمي الأندلس وبلنسية. وفي دكاكين أخرى تباع الفُرُش والوسائد من قماش الحرير أو الكتان، وزرابي من الجلد المزركش بالذهب والحرير، تستعمل هناك كسماطات تفرش على الارض لتناول الطعام، وللجلوس عليها في الصيف. ويوجد قريباً من هناك الجُباة الذين يقبضون واجب كل ما يباع في القيصرية[18].

ويوجد أيضاً زقاق آخر للدلالين، يسمونه (كواكَوا سادور) ـــ كذا ـــ يقيدون فيه كل ما كان يباع. يحمل الدلالون السلعة من دكان إلى دكان، ولا يسلمونها إلا للتاجر الذي اعطى فيها اعلى ثمن، لكن يسمح لساكن المدينة أو الغريب عنها أن يشتريها في الحين بنفس الثمن. عدد هؤلاء الدلالين سبعون دلالا، ياخذون فلساً واحداً[19] تقريباً عن كل درهم من مبيعاتهم وكل شيء يمر بين ايديهم كما اسلفت.

وهناك أيضاً في نفس المكان عدة دكاكين اخرى للخياطين والقصارين، وأغناها التي تباع فيها أقمصة وأحذية وزينة رأس النساء، وهي من الحرير والقماش المطرز، لان تجارتها نافقة أكثر من سائر البضائع[20]، ويقيم الرثاثون بائعو الملابس المستعملة في زقاق آخر، حيث تباع البسة كل من الرجال والنساء سواء من الحرير أو القماش المطرز، كانت بالية أم جديدة. وفي المساء تباع فيه بالمزاد عدة أمتعة عتيقة، وهناك زقاق آخر مقابل لهذا الزقاق، يباع فيه القماش البالي، وأغطية وزرابي فخمة من جميع الأنواع. كما أن هناك عدة دكاكين تباع فيها ضفائر وأزرار. كل ذلك مسور في المكان الذي ذكرته، والذي يغلقه كل ليلة رجل مكلف بذلك.

(18) أو ما يحمل إليها قصد البيع.
(19) اي ما يعادل ثمانية مرابطية على وحه التقريب.
(20) أو لأنها تتطلب عملا اكثر . الخ

وبالتالي، فإن هـذا المكان[21] سمي باسم قيصر، لأن المؤرخين يقولون إنه عندما كان الرومان يحكمون افريقيا كانت لهم في كل مدينة دار جمرك تحفظ فيها السلع وأشياء أخرى يملكونها. وبما أن هذه الدار غالباً ما كانت تتعرض للنهب أثناء الفتن، أمر أحد القياصرة أن يكون في كل مدينة مكان مسور تحفظ فيه البضائع التي يمكن أن تكون للامبراطور، مع سلع التجار، حتى يهتم السكان الذين لهم مصلحة فيه اهتماماً أكثر بمنع نهبه. ومن ثم جاء اسم قيصرية، وحرف إلى القيصرية بإضافة أداة التعريف العربية. وما زال الكثير منها في أهم مدن إسبانيا محتفظاً بهذا الاسم.

وعند الخروج من القيصرية من جهة الباب المفضي إلى الشمال، زقاق جميل يسمى العطارين، ويشتمل على مائة وسبعين دكاناً في كلا الجانبين. له مدخلان يغلقان كل ليلة، فضلاً عن إقامة الحراسة عليه، وإن كان جمرك التجار المسيحيين قد نقل من هناك إلى فاس الجديد للمزيد من الامن. ومن بين هذه الدكاكين عدة دكاكين للعشابين، يبيعون مراهِمَ وأدوية لهؤلاء القوم الذين ليس من عادتهم أن يتناولوا المسهلات، ولا أن يتعالجوا بالطب، وإنما يتداوون بالنار، أو الحِمية، أو ببعض العقاقير. هذا الزقاق أجمل أزقة فاس، لأن الدكاكين فيه كبيرة ومستضيئة جدا، والصناديق أو العلب منضدة بنظام دقيق يبهج الناظر ويسره.

لحميع الصناع والبزازين حي منعزل، ويوجد حول الجامع الكبير ثمانون مكتباً للعدول[22] يجلس في كل واحد منها عدلان أمام منضدتين لتحرير جميع أنواع العقود، سواء منها المتعلقة بالمدينة أو بالبادية، يوقعها بعد ذلك القاضي، وإلا فليس لها اي اعتبار.

وبالقرب من ثم ثلاثون دكاناً للكتبيين، وأزيد من مائتي إسكاف يبيعون الاحذية للرجال والنساء على السواء. وأمام الباب الآخر للجامع المتجه نحو الغرب، ساحة كبرى تباع فيها الفواكه، وقريباً منها جداً أربعون دكاناً للبزازين والشماعين[23] وعدد آخر من الدكاكين لباقات الزهر التي اعتاد كل واحد منهم أن يحملها في يده، كما يباع فيها الليمون الحلو والحامض، وجميع أنواع المشروبات،

---

(21) القيصرية.

(22) أو كتاب التوثيق.

(23) ربقة الشماعين.

وتقابلها دكاكين اخرى مليئة بقلل كبيرة مغلقة باتقان يباع فيها اللبن الطري، واللبن الحامض والزبدة الطرية، وأكثر من ثلاثين اخرى، يباع فيها القطن المغزول وغير المغزول.

وعن اليمين زقاق آخر يباع فيه القنب، وفيه عدة دكاكين للسراجين والحصريين. وقبالتها عدة دكاكين اخرى تباع فيها أكياس النقود وأحزمة من الجلد مزخرفة بالحرير الملون، ونوع من الأزِمَّة المذهبة لقيادة الخيل باليد دون لجام، وقريباً من هنالك يوجد صانعو اللُّجم، واللبانات، وسيور الركاب، وغيرها من زينة الخيل. وتوجد غير بعيد من ثم دكاكين يباع فيها الملح والجبص بالتقسيط، وأكثر من مائة دكان للزجاجين. وبجوارها ما يزيد عن تسعين دكاناً للسراجين(24)، فساحة الحمالين التي يتردد إليها يومياً أزيد من ثلاثمائة من الحمالين وسائقي العجلات لنقل البضائع، ولا يمكن أن تزاول هذه المهنة بدون رخصة من العامل ودفع كفالة، وتعفى من القضاء وكل إعانة مالية، لأن لهم أميناً يفصل في نزاعاتهم، ويكوِّنون فيما بينهم جمعية أو طائفة، ولهم صندوق مشترك(25) يضعون فيه يومياً بعض ما كسبوه لسد حاجياتهم والانفاق بمناسبة زفافهم أو جنازتهم.

وعلى بعد يسير من هناك ساحة اخرى(26) يقيم فيها المحتسب(27) الذي يسعر الاطعمة، ويراقب الموازين والمكاييل. له محكمته الصغيرة على حدة يصدر فيها أحكامه، ويُختار أعظم شخصية في المدينة للقيام بهذه المهمة، ولهذا فإنه يشتغل أكثر من العامل.

وفي وسط هذه الساحة مكان مسور تباع فيه جميع أنواع الاعشاب والخضر وحوله اكثر من مائة دكان يباع فيها حلوى العسل والاسفنج، وأزيد من ستين دكاناً آخر للشوائين، بجوارها عدة دكاكين يباع فيها اللحم والسمك المطبوخ، وحلويات وفطائر بالسمن، تطهى في إناء من خزف وتؤكل مع هذه اللحوم، وأمامها أكثر من خمسين دكاناً يباع فيها الزيت، والسمن والعسل، والجبن، والزيتون، والكبار وما أشبه ذلك. وقريباً من هناك أربعون دكاناً للجزارين يباع فيها

(24) أي صانعي اللحامات، والأحزمة، ورؤوس الحامات والسروج.
(25) أو علبة نقود.
(26) عين علُو.
(27) ابن المواز.

اللحم بالوزن لدى خروجه من المجزرة الواقعة على النهر. لكنه يُعرض قبل ذلك على المحتسب الذي يسعّره ويسلّم بطاقة بخط يده يُلزم الجزار بإلصاقها في أعلى الباب ما دام يبيع اللحم، حتى لا يقع أدنى غش.

وبعد تجاوز الجزارين نصل إلى زقاق آخر يدعى (اللوسى) ـــ كذا ـــ تباع فيه الزرابي، والقمصان وأقمشة الصوف من صنع محلي في أكثر من ثمانين دكاناً. وبعيداً من هناك توجد حارة صقالي الاسلحة الذين يبيعون السيوف، والخناجر والرماح(28) ثم دكاكين يباع فيها حوت طري يصطاد من وادي فاس ونهر سبو الكبير، الذي يكثر فيه الشابل حتى لا تساوي الواحدة منها أحياناً فلساً. يُكري الملك صيد الحوت في النهر بأكثر من عشرين ألف مثقال، ويستمر من بداية اكتوبر الى منتصف ابريل. وقريباً من هناك ساحة(29) يوجد فيها صهريج حسن حوله اربعون دكاناً تصنع فيها أقفاص كبيرة من قصب لتربية الدجاج. وبعدها مباشرة سوق الصابون فيه أزيد من خمسين دكاناً يباع فيها الصابون الاسود، لأنه لا يوجد غيره بإفريقيا.

ويوجد عدد آخر من الدكاكين المتفرقة عبر المدينة كلها، يباع فيها بالتقسيط الزيت، والسعل، والسمن، والتوابل والصابون. وأمام الساحة المذكورة آنفاً ساحة اخرى(30) يباع فيها القمح، والشعير، والتبن، والشمع بالجملة وبالتقسيط.

وقريباً جداً من هناك ساحة الملابس الداخلية على شكل رواق كبير ذي أربعة أبواب، تباع فيها المشاقة، والخيط والقماش. يقام فيها يومياً سوق يستمر من الزوال إلى الساعة الثانية يزدحم فيها جمهور من النساء اللاتي ياتين لبيع أو شراء القماش، حتى لا يستطيع المرء أن يدور فيها، وغالباً ما يتضاربن وينتف بعضهن شعور البعض.

وهناك زقاق آخر يبتدىء من الباب الغربي للجامع الكبير، ويؤودي الى باب المدينة المفضي الى فاس الجديد(31). وهذا الزقاق مليء بساحات ودكاكين تهيأ فيها قِرب الماء من جلود الماعز. كما أن هناك اكثر من خمسين(32) سلالا وحدادا

(28) أو الحراب
(29) قبيب النقاش.
(30) ساحة الشعير.
(31) باب المحروق.
(32) 50 دكانا.

يصقلون ركاب الخيل وغيرها من المصنوعات الحديدية، وقبالتهم صانعو التروس، وهي درق جميلة من الجلد، ونحو خمسة وعشرين دكانا للذين يغسلون الثياب في أحواض كبيرة حتى تصير بيضاء كالثلج، لكن يوجد منهم ايضاً اكثر من مائتين موزعين على المدينة كلها، وبعدهم صانعو قرابيس السروج.

وقريباً جدا من هناك توجد المدرسة[33]، وتحيط بها عدة دكاكين للذين يموهون الركابات، والمهامز واللبانات واللجم بالذهب ويزخرفونها، وأشياء اخرى من الحديد بكامل الاتقان، وإن كانت تصنع أحسن منها في تلمسان. وأمام هذا الزقاق زقاق آخر[34] فيه ما يزيد عن ثمانين دكاناً لصانعي اغطية السروج من هذه الجلود المغربية المخيطة بدقة متناهية.

وقريباً من هناك القصبة المشتملة من كلا الجانبين على رواقين جميلين، يمتد احدهما إلى أحد أبواب المدينة[35]، والآخر الى قصر كبير[36] يقيم فيه عادة أخو الملك أو أقرب الناس إليه. ويوجد زقاق آخر من جهة الشرق قريب جدا من العطارين، فيه أكثر من اربعين دكاناً لصانعي الإبر[37]، وخمسة عشر أخرى تصنع فيها المشط، ثم ياتي الخراطون، ولو ان كثيرا غيرهم متفرقون عبر المدينة كلها. وعلى بعد يسير من هذا المكان ساحة صغيرة فيها عدة دكاكين متماسة يباع فيها الدقيق، والصابون، والمكنسات، وأشياء اخرى للاشغال المنزلية. وتتصل هذه الساحة[38] بقاعة الكتان التي تحدثنا عنها. وبالقرب من الدكاكين التي يباع فيها القطن زقاق صغير عارض، تباع فيه الخيام وسراديق البادية[39]. وقريباً جداً من هناك يوجد ستة عشر دكاناً تباع فيها طيور حية تجعل في الاقفاص، وأخرى مذبوحة توكل. وفي هذا المكان منزل كبير يباع فيه الزنوج من الجنسين في كل مساء[40] وقريباً من هناك صانعو الاخفاف والنعال المزخرفة المغشاة بالجلد أو الحرير، ينتعلها السكان عادة عندما تمطر السماء أو يكون الوحل في الطريق، منها ما هو غال جدا يساوي عشرة

---

(33) أسسها الملك أبو عنان.
(34) رنقة الاشين.
(35) باب الغدر.
(36) بيت الحوط
(37) اللبارين
(38) الرحبة
(39) البرصة.
(40) أو بعد الظهر.

أو اثني عشر مثقالا. وأمام هذه الدكاكين اثنا عشر دكانا لموريسكيين من غرناطة أو بلنسية يصنعون أسلحة نارية، وبعدها خمسون دكانا لا يصنع فيها سوى المكانس من سعف النخل وتباع في المدينة كلها، فتبدل بالرماد، والنخالة والاحذية البالية. وبجوارها عشرون دكانا اخر لصانعي المسامير، فضلا عن التي تصنع فيها دِنان، ومكاييل خشبية للقمح. وغيره مما يباع كذلك، لان جل الاشياء التي تباع في فاس توزن أو تُكال.

وفيما وراء ذلك زقاق عارض(41) يباع فيه صوف جلود الضأن، التي تطرى وتصنع منها الجلود الناعمة. وبجانبها الذين يطرون جلود البقر، وكذلك جلد الماعز المدبوغ الملون. ثم تاتي دكاكين تصنع فيها قبعات من التبن أو سعف النخل، وسلال صغيرة متقنة الصنع كذلك، وأشياء اخرى مماثلة(42) ويفضي هذا الزقاق الى الصفارين، لكن إذا عدنا الى المكان الذي تصنع فيه الدنان، وجدنا زقاقا عارضاً فيه عدة دكاكين تصنع فيها ممشقات وأمشاط من الحديد حادة جدا لإصلاح الكتان ونفش الصوف.

وبعيدا من هناك، توجد ساحة كبيرة مليئة بدكاكين، تصقل فيها المهاميز، والركابات، واللبانات، وغيرها من المصنوعات الحديدية الدقيقة. ثم ياتي النجارون الذي يصنعون المحاريث وعجلات العربات، وأخرى كبيرة للطاحونات، أو لرفع الماء، وبعدهم مباشرة الصباغون الذين يغسلون في سقاية جميلة الحرير الذي يريدون صبغه. ووراءهم صانعو الرماح الطويلة في ساحة كبرى(43) تكون جد باردة في الصيف، بسبب الظل الظليل الذي تضفيه عليها اشجار التوت. وياتي بعد ذلك البيطريون وأمامهم مباشرة صانعو حبال القذافات، والحراب أو السهام. وبعيدا من هناك عدد كبير من الدكاكين، لا تصنع فيها سوى حلوات الخيل والبغال، وقريباً منها جداً الذين يغسلون القماش. تلك هي أهم أزقة فاس البالي وساحاته وسنتحدث الآن عن قسم المدينة الواقع وراء النهر في اتجاه الشرق(44).

(41) هو رقاق المتوهين.
(42) الحلفاويين.
(43) هي ساحة باب السلسلة.
(44) وقد سبق القول عن البالي أعلاه.

وصف قسم مدينة فاس
المسمى البليدة

هذا أول قسم أسس في المدينة ولو أنه غير عامر جدا، يضم مباني جميلة عتيقة، سواء منها القصور، أو الحمامات، أو المساجد، أو المدارس، لكن لا وجود فيه لتجارة الحرير والاقمشة الرفيعة، مثلما هو الحال في القسم الآخر، وليس فيه صناع كثيرون، وإنما فيه زقاق جميل يضم ثلاثين دكاناً[45]. وجله خال خاصة ما يلي الاسوار، حيث يصنع الآجر والزجاج. لكن هناك مسجدا كبيرا يسمى جامع الاندلس، أمامه ساحة مبلطة بالآجر، فيها عدد من الصناع والبزازين، وهناك ساحات عديدة متفرقة في المدينة كلها، تباع فيها المؤن. وأعظم شيء فيها هو صناعة النسيج من الكتان والحرير، يشتغل فيها عادة عشرون ألف عامل، علاوة على خمسين وخمسمائة دار، ذات طابقين أو ثلاث طبقات، كلها مليئة بالأقمشة والثياب الحريرية الموضوعة على النول، فضلا عن مائة وخمسين مسكناً، معظمها على النهر، حيث لا عمل لساكنيها الا الخياطة أو تبييض الخيط وصبغ الحرير. كما أن هناك ساحات كبرى ينشر فيه الاسرى المسيحيون الخشب طوال الاسبوع، ما عدا يوم الجمعة، من الزوال الى المساء، وسبعة ايام أو ثمانية من الاعياد التي يحتفى بها على مدى السنة. ويظهر في ناحية الشمال جبل[46] يحفظ فيه القمح مدة طويلة جدا، في تجويفات ارضية، يحرسه سكان الحي[47]، مقابل شيء يعطيه إياهم من يملكون القمح. وهناك بساتين وعيون الزنجفور، التي سنتحدث عنها في الفصل الذي نتعرض فيه لهذه الاشياء.

فاس الجديد

يقع فاس الجديد في سهل على ضفة النهر بعيدا بأكثر من الف قدم من فاس البالي، بين الغرب والجنوب، وله سور مزدوج متقن الصنع، ومحصن ببروج، على شكل قلعة يسكنه اكثر من ثمانية آلاف نسمة. وقد أسس هذه المدينة ثاني ملوك فاس من بني مرين، الذي استولى على مملكة مراكش من يد آخر ملوك الموحدين، ونقل عاصمة الامبراطورية من مراكش الى فاس، ليكون اقرب من ملك

(45) للخياطين، والاسكافين، الخ...
(46) جبل تاورتين.
(47) حارة مغراوة.

تلمسان الذي كان معه في حرب دائمة. وأسماها المدينة البيضاء، لكن اطلق عليها اسم فاس الحديد، وهو منقسم الى ثلاثة احياء.

يوجد في الاول قصر الملك، وقصر أبنائه وإخوانه، وفيه ديار جميلة بالبساتين، والحمامات، والسقايات، لتسليته، وقريباً منه جدا جامع كبير فائق الحسن.

وتوجد في الحي الثاني اصطبلات الملك، وعدة فنادق لكبار النبلاء، مع زقاق ممتد من الشرق الى الغرب على مسافة أريد من ربع ميل فيه دكاكين التجار والصناع، والساحات والجزارون، وفي هذا المكان الفسيح عدد من الحمامات والمساجد الممتازة التي انفقت أموال عظيمة في تشييدها.

وفي الحي الثالث، حيث كان يقطن قديما حرس الامير، وهم أجانب يتقاضون اجورا باهظة، توجد الآن الجماعة المحلية من اليهود التي كانت من قبل في فاس البالي : ولما كانت تتعرض للنهب عند وفاة الملوك، نقلت إلى هنالك لضمان امنها، مقابل جزية مضاعفة. وفي هذا الحي ساحة كبيرة محاطة بدكاكين وبِيَع وديار حسنة البناء، يعيش اليهود فيها وكأنهم في مدينة على حدة، وينيف عددهم على عشرة آلاف، إذ يضم كل منزل أربع أو خمس أسر، معظمهم ممن طردوا من اسبانيا من طرف الملكين الكاثوليكيين، ويوجد من بينهم بعض الاغنياء. يدير شؤونهم شيخ او عامل، يفصل في أمورهم، ويجبي منهم ما يؤدى للامير، وحتى لا يتعرضوا للتعذيب، يقبض المغارم والضرائب المفروضة على معاملهم وبضائعهم، لأنهم يؤدون واجباً عن كل ما يصنعون ويبيعون، ولان هذا الرهط يعامل معاملة سيئة في افريقيا. يبصقون عليهم في الأزقة، ويضربونهم، ولا يسمح لهم بانتعال الاحذية، ما عدا بعضهم المقربين من الملك وأكابر القوم، أما الباقون فليس لهم سوى احذية من أسل، يرغمون على نزعها إذا دخلوا عند الامير ويضعون على رؤوسهم عمامات سودا، وعلى العمامة أو الطاقية خرقة ملونة، وحتى على ملابسهم لتمييزهم عن غيرهم. وإذا كان أحدهم غنيا، سلبه الملك ماله، وأحياناً حتى روحه، لكنهم يحسنون التصرف، ويظهرون ذكاء كبيرا في العمليات التجارية، حتى إن الملوك وكبراء القوم يكلون اليهم تدبير مواردهم، لان أشراف المغاربة لا يعتنون بالادخار، ولا يفقهون شيئا في هذه الدقائق الصغيرة، بحيث إن لكل واحد منهم يهوديا كمقتصد، الشيء الذي يجعلهم يحتفظون بهم، فيكون ذلك في صالحهم.

وبجوار القصر دار السكة حيث يقيم المشرف عليها، وبالقرب منها دار الصباغة، والصراف الذي يملك حقَّ السَّكِّ ويزن النقود ويضع عليها السعر، اذ لا يمكن التصرف في فاس بالذهب ولا بالفضة إن لم يكن ذلك مسجلا من قبل، ثم يتداول كعملة بالوزن. جل اليهود صاغة، يعملون في فاس الجديد، حيث توجد دكاكينهم ويذهبون الى فاس البالي لبيع مصنوعاتهم في ساحة قريبة من العطارين، لأنه لا يمكن صياغة الذهب والفضة في فاس البالي. إن المغاربة لا يهتمون بهذا الفن، وإذا كان من بينهم بعض الصاغة، فإنهم لا يصنعون سوى خواتم، وأقراط، وحبات سبحة لنساء الأعراب والقرويين. وأخيراً، فإن الامير الذي بَنَى هذه المدينة الجديدة جهزها بكل ما كان ضرورياً لمكان جيد، حتى يستطيع أن يعيش فيه في أمن وراحة هو وجميع عقبه، ويدبِّر أمر فاس البالي من هنالك، حيث أحدث طريقاً تحت الارض تؤدي الى القصبة، وهي عريضة لدرجة أن ثلاثة فرسان يمكنهم المرور بها معا جنباً الى جنب. الامر الذي كان هيناً عليه عندما كانت دولة بني مرين في أوج قوتها. لكن الباحث جيدا في هذه البنايات بإفريقيا يجد أن أشهر مدن موريطانيا الطنجية[48] شيدت وزينت من الثروات التي حملها اليها هؤلاء المسلمون[49] من اسبانيا.

يوجد بفاس الجديد فندق كبير[50] كان من عادة الاسرى المسيحيين أن يصنعوا فيه أدوات من الحديد وأشياء اخرى، تحت إمرة إسلاميين من غرناطة والأندلس وغيرهما، كانوا يصنعون الاسلحة والذخيرة[51] لكن الشريف الذي يحكم حاليا سلم هذه الدار لليهود أصحاب دكاكين الصياغة، وصار المسيحيون يعملون في أماكن اخرى مختلفة.

وكان هنالك قديماً حي يعيش فيه عدد من المسيحيين الاحرار، وحتى بعض العبيد منهم الذين كانوا عمالا مهرة، يعاملهم الملك معاملة حسنة، ويسمح لهم بالإقامة هناك مع نسائهم وأطفالهم. وما زال عدد منهم حتى الآن بفاس ومراكش.

---

(48) فاس، مراكش، الرباط، المنصورة، القصر الكبير، الخ

[هذا خطأ وتحامل : إذ فاس بنيت قبل أن يكون للادارسة اي صلة بالاندلس، وكذلك الامر بالنسبة للمرابطين في مراكش. أما الموحدون فكانت موارد امبراطوريتهم في المغرب الكبير الممتد الى حدود مصر أضعاف أضعاف ما يفيدون من الاندلس. وإنما كانوا يصنعون ثريات المساجد العظيمة من نحاس نواقيس الكنائس وشبه ذلك]. (مترجم).

(49) عبر عنهم ــ كعادته ــ بالكفار. (مترجم)

(50) دار الصناعة

(51) سيوف، وبنادق مختلفة، ومسحوق البارود، ومدافع الخ..

وسائر سكان المدينة الجديدة اناس لا يعتبرون كثيرا، لأن جميع الاشخاص الاغنياء ودوي البيوتات برتاحون جدا الى أن بكونوا غير معروفين من طرف البلاط، حتى يطمئنوا اكثر، ولا يحبون حتى أن يسكنوا معهم أعضاء الحاشية، ولا أن يزوجوا بناتهم منهم.

للمدينة الجديدة بابان رئيسيان(52) أحدهما بفضي الى المدينة القديمة، والآحر يوحد فيه السقيفة وحرس الملك. وهناك باب ثالث(53) في الداخل اكثر، يسير بين حواجز السورين، ولكن الحرس في كل مكان. يكون مع الملك دائماً في فاس الجديد ألف وخمسمائة فارس مجهزون أحسن تجهيز، وألفان من رماة البنادق الراجلين، وكثير من المدفعية والعدد تزود بها المراكز الاخرى.

ثم إن قوة الدولة كلها ترتكز على هذه المدينة، التي لن تحسن جيدا الدفاع عن نفسها مع ذلك إن حوصرت اليوم، ليس فحسب لأنه يمكن قصفها ومهاجمتها من شتى الأماكن ومن قريب جدا، ولكن ايضا لعدم وجود حصون مناسبة ومسطحات تصف فيها المدفعية والمقاتلون الذين يحسنون استعمالها، ولوجود عدد كثير من السكان الذين لا فائدة فيهم وإنما يعجلون فيها المجاعة، خاصة اذا احتل فاس البالي، كما يمكن أن يحدث إن أراد الله اتحاد الامراء المسيحيين وقيامهم بهذه العملية(54).

انهار مدينة فاس وعيونها

يمر في وسط فاس البالي نهر ينبع على بعد ثلاثة فراسخ من هناك، قرب محل صغير يسمى عين الخميس(55)، وبعد أن يخترق سهلاً كبيرا يسيل بين تلال، ومن هناك يصل الى البساتين الواقعة أمام باب الجديد(56) وينقسم هناك الى فرعين يدخلان إلى المدينة من موضعين، أحدهما قرب هذا الباب المفضي إلى الصفارين القريبين من قنطرة الرصيف(57)، والآخر عبر باب الفتوح، ومنه يلتحق بالأول عند

(52) هما باب السبع، وباب عيون صنهاجة.
(53) هو باب الجيف
(54) هكذا يتجلى حقد المؤلف المتعصب ضد الإسلام والمسلمين خانت أمانيه. (مترجم).

(55) كذا، ولعله عين عمير. (مترجم)
(56) حرف القنطرة.
(57) قنطرة الصاعين.

قنطرة الصباغين، ثم يخترقان المدينة معاً، ويخرجان إلى باب الغدر، حيث تكتنفهما بساتين جميلة على مسافة أكثر من فرسخ، وبعد ذلك يصبان في نهر سبو الكبير، على بعد ميل ونصف من المدينة، ويديران في المدينة أربعمائة وعشرين طاحونة. وهناك نهر اخر يسمى واد فاس، ياتي من بعد ثلاثة فراسخ من هناك، من عين كبيرة[58] قرب قصر يقيم فيه ملوك فاس حرساً مؤلفاً من خمسين رجلاً، فينحدر عبر سهل جميل ويدخل الى فاس الجديد من الباب[59] المؤدي الى فاس البالي عندما يمر بين السورين، يسيل في البساتين الواقعة أمام باب الحديد، ويرتمي من هناك خارج المدينة عبر حدائق جميلة إلى أن يصب في نهر سبو. ويدير خمس عشرة طاحونة فيما بين سوري فاس الجديد الذي يمر منه، بالإضافة الى انه توجد بفاس الجديد عدة سقايات أصلها من نبع واحد غير بعيد من هناك، حيث يجلب الماء بواسطة قنوات تحت الارض الى قصر الملك، ويوز ع من هناك على باقي القصور وعبر المدينة كلها[60]. كما توجد عدة سقايات في فاس البالي، ماؤها بارد جداً، ومنبعها كلها بين الأسوار ومن شتى الانابيب والقنوات التي تحمل ماء النهر الى المساجد والمدارس والحمامات وأهم المنازل، مع آبار كثيرة عبر المدينة كلها، التي يوجد الماء قريباً من سطحها بحيث يستقى في عدة أماكن بالسطل في اليد. ذلك لأن عيناً كبيرة[61] تنبع على بعد أربعة فراسخ ونصف من هناك، وبعد أن تسيل على مسافة فرسخ ونصف وهي مكشوفة، تختفي جزئياً في بحيرة كبيرة[62]. ويقول أهل فاس إن القسم الذي يختفي منها يدخل إلى المدينة، التي تهتز في غالب الأحيان، لأنها مجوفة كثيراً ومحمولة على المياه. وفي البليدة الواقعة أمام النهر، ستمائة عين، كلها مسورة ومغلقة بالاقفال، لأن الماء يسيل منها إلى فاس البالي عبر مجار، وهو شديد البرودة في الصيف. ياتي جل هذه العيون من ناحيتي الغرب والجنوب من ساحة فسيحة ذات بساتين جميلة جدا وأشجار مثمرة، كالليمون الحلو والحامض والصبر، والرند والياسمين، مع ورود وأزهار عطرة اخرى تعطر الهواء في الصيف حتى يخيل للمرء أنها جنة على وجه الارض، والكل تسقيه عدة سواق مجلوبة من هذه العيون.

(58) رأس الماء.
(59) باب السبع.
(60) دار الدبيبغ.
(61) عين أغبال.
(62) تيملوين.

في كل هذه الأماكن منازل رطبة باردة، يقيم فيها الاعيان وطلاب التسلية في الصيف، من بداية ابريل الى آخر شتنبر، وكل هذه الأماكن تسمى بساتين الزنجفور، لان لون ترابها كلون الذهب، وهذا هو معنى الكلمة بالعربية، وفي خارج أسوار فاس الجديد، يرفع ماء النهر بواسطة عجلات(63) تحمل الماء فوق الاسوار، ويوزع من هناك على قصور، وحمامات، وبساتين المدينة كلها. ويوجد مثل ذلك في سهل طليطلة، حيث يرفع ماء نهر الطاج لسقي البساتين(64) يقال إن أسيراً من طليطلة هو الذي أتى بهذا الاختراع إلى بلاد البربر، لأن أهل فاس كانوا في القديم يجلبون ماء العين التي تسيل الآن تحت الأرض عبر قنوات قد خربت. وهذه العجلات التي ترفع الماء موضوعة على جانب النهر، في قناة ضيقة جدا، ليديرها الماء الذي يدخل بقوة في القواديس المحيطة بها بسرعة أكثر، وعندما تكون في الأعلى، تصب الماء لدى نزولها، لكنها تقضي ساعة كاملة لإتمام دورة واحدة.

أرباض فاس البالي

يقع خارج المدينة القديمة، في جهة الغرب، ربض المرس، الذي تربو الديار فيه على ثلاثمائة، وفيه ساحة تفضي الى باب الغدر، ويشتمل على عدة كهوف منحوتة في الصخر، كان ملوك فاس قديماً يخزنون فيها القمح ويقام في هذه الساحة سوق كل يوم من الصباح الى منتصف النهار. وليس في هذا الربض سوى دور قبيحة، يلتجيء إليها جميع اللصوص والمحتالين والمتسكعين في المدينة، يتخذونها أماكن للفساد والعهارة، ويتعاطون فيها لعب الورق والقمار ومعاقرة الخمر، دون أن تستطيع العدالة أن تلقي عليهم القبض، لأن هذه الديار قائمة على جانب النهر. فبمجرد ما يحضر قاض يقطعون النهر إلى الضفة الأخرى ويلتجؤون الى غابة كثيفة من الاشجار المثمرة، حيث يستحيل العثور عليهم. ويحفظ القمح الآن في فاس الجديد، حيث يكون في أمن أكثر.

كما يوجد في نفس الجانب ربض يضم نحو ستين داراً، فيه مستشفى للمجذومين(65) يقبض مديره الدخل، فيطعمهم منه ويعولهم، وكذا الصدقات، ولا

(63) تسمى ناعورات.

(64) تسمى أصوداس.

(65) يُسمى هذا المرض مارستان. [احتلط الامر هنا على المؤلف، فظن أن المارستان (المستشفى) الذي يقيم فيه هؤلاء المرضى هو اسم للمرض، وإنما هو الجذام كما ورد عند الحسن الوزان في هذا الموضع]. (مترجم).

يسمح لهم بالتجول عبر المدينة كسائر المصابين بمرض عضال في مدينة فاس. وحتى لو أراد رجل أن يعالج من ذوي البيوتات الكبرى في منزله، فإنه لا يقبل منه ذلك، بل يحمل إلى المستشفى الذي يرث نصف ماله إذا توفي، ويترك الباقي لورثته، وبذلك أصبح مستشفى الجذمى يملك ثروة طائلة.

ويوجد ربض آخر(66) أمامه يسكنه مائة وخمسون نسمة، يعيشون في كهوف تحت الارض، وكلهم بغالون أو فخارون أو بناؤون أو حطابون أو عمال يدويون، وأبعد من هناك في اتجاه الغرب دائماً يوجد ايضاً ربض آخر(67) يضم أزيد من خمسمائة دار، يقطنها عمال فقراء، ويتصل به مباشرة سهل يتجاوز عرضه نصف فرسخ، بين الدور والنهر، وطوله اكثر من فرسخ، يقام فيه سوق كل يوم خميس، ويفد عليه الفلاحون بالماشية والصوف، والشمع، والسمن، ومواد أخرى يحملونها من الحقول، وياتي التجار والصناع من فاس اليه، فينصبون دكاكينهم في نظام حسن حول زاوية هناك. وفي أعلى هذا الربض مقطع حجر كبير يستخرج منه كل الحجر الذي يصنع منه الجير، وبالقرب منه أفران عديدة لشيِّهِ، وهي كبيرة لدرجة أنهم يشوون فيها خمسة وعشرين الف صاع دفعة واحدة.

وهناك ربض آخر(68) في نفس الجانب من النهر، يشتمل على أكثر من مائة وعشرين سكنا للقصارين الذي يغسلون القماش في مرج جميل مشمس يسقونه من حين لآخر بماء النهر، فيكون مكسواً بالعشب طوال السنة وخاصة في الصيف، عندما تنشر الأقمشة، وتتلألأ فيه جميع أنواع الأزهار، فيكون منظرها جميلاً رائقاً لا سيما وأن ماء النهر يبدو إذ ذاك كالبلور، حتى يمكن عدّ كل ما في قعره من حصى.

وفي خارج المدينة من جهة الشمال قصر مشيد على جبل شامخ، أقبر فيه ملوك فاس من بني مرين، فيه لوحات كبيرة من المرمر عند أرجلهم ورؤوسهم، نقشت فيها بأحرف ذهبية مشوبة بحمرة، أسماؤهم، وتاريخ وفياتهم، وبعض الأبيات في مدحهم. وتوجد عدة قبور اخرى عبر البادية، إذ لا بد لكل مسلم من أن يكون له قبر مستقل.

(66) الكيفان.
(67) سوق الخميس في الطريق الكبرى الرابطة بين فاس ومكناس والقصر الكبير.
(68) القصارين.

بساتين فاس البالي

يكتنف فاس البالي، سواء من الجنوب أو من الشرق أو الشمال، بساتين مليئة بأشجار كبيرة تنتج كمية من الفواكه الجيدة، وتحيط بها عدة سواق تؤخذ من النهر. تشكل هذه الأشجار غابة كثيفة من جميع الجوانب لا يستطيع الخروج منها إلا من له تجربة وخبرة. ولا تسقى جذوع هذه الاشجار الا في شهر ماي، وهو إبان الكشف عن جذورها وحرثها، لكن البساتين تسقى كل يوم. يوجد بفاس سوق للخضر تنزل فيه جميع الفواكه المحمولة الى المدينة، فتباع فيه بالمزاد في سلال بواسطة هؤلاء الدلالين الذين تحدثت عنهم. وبعد أن يتزود منها الخواص، يشتري الباقي البائعون بالتقسيط، ولا يمكنهم أن يشتروا شيئاً الا بعد الساعة العاشرة صباحاً. ومن اشرى قبل ذلك الوقت شيئاً منها ليبيعه أو حمل الفاكهة الى مكان غير سوق الخضر لا يؤدي المكوس، حكم عليه بغرامة كبيرة، لأن المزارعين حاضرون.

ويوجد في اتجاه الغرب حقول واسعة طولها عشرة فراسخ وعرضها خمسة، تجنى فيها كمية من الكتان والقنب، وعدد كبير من الخضر والبقول(69)، بسبب تعدد السواقي والعيون فيها، حتى إنها تكفي للمدينة كلها. لكن هواءها غير صحي بحيث تكون ألوان سكانها دائماً شاحبة وقواهم منهوكة، ويموت الكثير منهم بالاستسقاء. وهناك مسجد في أحد أحياء فاس(70) مغروس بالاشجار أقبر فيه مغربي تحكى عنه هذه القصة، وهي أنه كان كفيفا واتفق له أن نام تحت سور دفن فيه جثمان دُم فرناندو أمير البرتغال، الذي مات وهو أسير بفاس، فتقاطر منه شيء على عينيه أعاد له بصره، فانطلق يجري في كل مكان وهو يصيح بأن دين هذا الرجل هو الأفضل، وأنه يومن به، فرجمه المغاربة وأسموه سيدي الكافر، وما زالوا يزرورن ضريحه بكل خشوع.

يوجد بفاس البالي والٍ يسمى قائد الاسقيف، يقيم عادة في القصر، ويتولى القضاء وحراسة المدينة معا، لأنه قاض مطلق سواء في المسائل المدنية والجنحية وقبض المغارم، لكن المجرمين لا يحكم عليهم الا بالموت أو الجلد. ويقوم خليفته الذي هو بمثابة قائد الشرطة بدوريات ليل نهار يلقي القبض على المجرمين

(69) كالبطيخ، والخيار من جميع الانواع، واللفت، والجزر، والكرنب، والخس، والبصل، والثوم، الخ ....
(70) هو رواغة.

ويعدمهم. إن رئيس فقهاء الجامع الكبير، وهو بمثابة الاسقف، يبت بحرية في المسائل الدينية، وفي بعض الحالات التي يتعلق الأمر فيها بالموت، يثبت سائر القضاة حيثيات حكمهم في الاحكام التي يقضون بها ليطلع عليها المفتي(71) الذي ترفع اليه ــ وهكذا يسمى ــ ليرى هل أصابوا أم لا، وهو وحده الذي لا معقب لحكمه.

وللعامل حاكم آخر تحت أمره، يدعى القاضي، وهو مطلع على عاداتهم، يفصل في النزاع بين الخواص، وحتى فيما يهم الزواج، وباختصار فإنه يتصرف في كل ما يدخل في اختصاصه، سواء في الشؤون المدنية أو الجنحية وإذا أرادوا اعدام رجل ولم يكن من ذوي الحيثيات ساقوه عبر الأزقة وهو مكتوف اليدين، إلى مكان الإعدام، وهو دائماً مكان مطروق بكثرة في المدينة. ويذكر هو نفسه بأعلى صوته السبب الذي من أجله حكم عليه بالإعدام، قائلا : «هذا ما يستحق من ارتكب مثل هذه الجريمة!» ثم يعلق من رجليه في مشنقة. ويذبح، ويترك هناك يوماً أو يومين. لكن، إذا كان من ذوي البيوتات يذبح في السجن، ويساق عبر الازقة محمولا معكوسا على دابة، وهم يصيحون بنفس الشيء، وإن كان ذلك لجريمة خيانة ذبح من خلف، أي من القفا، وأحياناً يشق بطنه شقاً معكوساً ويترك هكذا إلى أن يموت. ومنهم من يخنقون في السجن، أو يُشنقون علناً، ويقولون إنها عادة أدخلها القوط إلى افريقيا حتى لا يعذبوا كثيرا في الموت. وإذا ارتكب أحدهم جريمة قتل وكان له خصم، سيق إلى المكان المذكور، بعد اعترافه، ووضع بين يدي أقرب الناس إلى الميت، ليفعل به مايشاء. فيقتله بالخنجر أوالرمح أو يستحييه أحيانا مقابل فدية مالية. ذلك لأنه إذا رضي الخصم فإن العدالة لا تتجاوز ذلك. وإنما نقوم بترجمتها إن لم يكن شيء من ذلك. وإذا أنكر المتهم الجريمة، سيق أمام القاضي، فيأمر بجلده بالسوط بين يديه عدة جلدات، حسب قيمة الحجج، محترساً الا يصيب الضرب جنبيه أو جوفه حتى لا يموت : لأنهم يجلدون بقساوة، بشرائط مضفورة من جلد البعير، وقد يفقد الرجل الكلام في الضربة الثانية. ثم يطلق سراحه بعد التكفير عن الجريمة، لكن القاضي يامر بضربات سوط لحقه ولحق كاتبه إن لم يفتد بالمال. وإذا جلد أحد من أجل السرقة، أو جريمة اخرى اعترف بها، سيق أولا أمام القاضي، ثم طافوا به عبر الأزقة عرياناً وهو مغلول العنق بسلسلة مأتزر بمئزر

---

(71) يقال عن المفتي ما يقال عن الوزير

صغير، ويذكر هو نفسه بأعلى صوته سبب العقوبة التي يعانيها. ترجع مصادرة أموال المجرمين الى الملك، إن لم يكن هناك خصم، لكن إذا كان هناك خصم وقبض على المجرم فلا تصادر أمواله قطعاً. وياخد القاضي لنفسه من الذين تصادر أموالهم ما يقل قليلاً عن خمسة عشر ريالاً(72)، لكن إن لم يكن للمجرم ما يؤدي به حق القاضي كما اسلفت، فمن حق القاضي أن يجلده من أجل الأداء، اللهم إلا إذا عفا عنه تفضلا مه أو شفقة عليه.

إن عامل فاس ملزم بالإنفاق على ثلاثمائة فارس مجهزين أحسن تجهيز لحراسة المدينة، فياخذ لهذا الغرض ريع ارض تساوي سبعة آلاف أو ثمانية آلاف مثقال(73) ولا ياخذ المفتي وسائر القضاة الشرعيين لا حقاً ولا اجرة عن حكمهم، لأن الدين الاسلامي يحرم عليهم دلك، لكن القاضي يتسلم مرتباً ضئيلا من العامل، أما الباقون، وهم فقهاء المساجد، فلهم كراسي في الجامع الكبير، أو المدارس، تضمن لهم ما يتعيشون به.

يوجد بفاس سجنان، أحدهما للمدني، والآخر للجنحي، وأربعة مسؤولين من الحرس(74) يتجولون دائماً عبر المدينة ليل نهار، مع عدد من الرماة ولا مرتب لهم غير ما يحق لهم على كل شخص قبضوه، مع قسط من المغارم. يتخذ هؤلاء الرماة حانة ويتحرون في أعراض النساء والفتيات، الامر الذي يقاسي منه النـ‍ـ‍ـ‍س في جملة أشياء اخرى، لان هذه المهنة شائنة سواء في افريقيا أو أوربا. وإذا طرحـ‍ـ‍ـ على العامل قضية ليست مهمة ولا رئيسية فصلها في الحين، دون مشاركة قاض ولا كاتب، ولا يكون عليه فيها نعقـ‍ـ‍ـ لان له السلطة المطلقة، وتدوم وظيفته طالما شاء الملك، لأنها تزاول بالتفويض.

وهناك قاض آخر بفاس(75)، مكلف باستخلاص جميع موارد الملك، ويسلم له شيئاً من ذلك كل يوم(76) يحرس الابواب والمدينة كلها لاستخلاص الضرائب، ويقضي في السلع وسلع التهريب. لكنه لا يعاقب بكامل الشدة، ويكتفي بإلزام الذين تحايلوا على الواجبات بأدائها مضاعفة، أو بجلد من اشتراها أو

(72) يساوي ريالاك 15 فلسا مي عملتنا الحالية.
(73) يساوي المتقال (اللوكة) الآن 4 ليرات و10 فلوس من عملتنا.
(74) هم شبه عمداء الشرطة.
(75) هو الوالي.
(76) هو شبه مقتصد.

باعها، والحكم عليه بدفع نصف قيمتها. ويأخذ الملك عادة كواجب الدخول أو الخروج، اثنين بالمائة من سكان المدينة، وعشرة بالمائة من الغرباء، لكن لا يؤخذ شيء عن القمح، والشعير، والبقر، والدجاج، وسائر الأشياء الصالحة للأكل.

يأخذ الملك ثمانية (فلوس) عن كل خروف ذبح، وللمحتسب نصف ذلك، ويتبعه دائماً اثنا عشر أو خمسة عشر من الرماة، فيطوف على جميع الساحات والدكاكين، آمراً بوزن الخبز بين يديه، وفاحصاً في كل مكان الموازين والمكاييل. وإذا وجد فيها أدنى عيب أمر في الحين بضرب المجرم عدة ضربات بالعصا أو السوط، دون أي اجراء آخر، ثم حجز السلعة وأرسلها الى المستشفى. لذلك كانت هذه أهم وظيفة بالمدينة. ويطبق نفس النظام في جميع مدن بلاد البربر تقريباً، ولهذا أردنا أن نفصل القول فيها هنا تفصيلا، حتى لا نكون مضطرين الى تكراره في مكان آخر.

الشرطة الاضافية بفاس والمحاربون الذين يعولهم الملك

كان ملوك فاس دائماً أقوياء، وعبد الله الذي يحكم الآن أقوى من أي ملك آخر في افريقيا، لأنه يملك موريطانيا الطنجية كلها، مع قسم من نوميديا أو جيتوليا. ودار ملكه منذ وفاة ابيه غالباً هي مدينة فاس، بسبب حدود أتراك تلمسان، لكنه يقيم حالياً بمراكش، ويترك أخاه الاكبر بفاس. وكان له عادة عندما يقيم بفاس الجديد ألف وخمسمائة فارس، وألفان من رماة البنادق يحرسونه، وكلهم جنود قدامى، إسلاميون أو جزوليون (سوسيون) ومن بينهم بعض الزنوج. وكان ينفق بفاس البالي على الف ومائة فارس، علاوة على الثلاثمائة التي للعامل، لكنه أخذ الآن جلهم معه إلى مراكش. وسائر الجنود الآخرين موزعون في الأقاليم ومراكز الحدود، تحت سلطة العمال: لانه يمنح لجميع أبنائه أو إخوانه، وجميع الشيوخ وغيرهم ممن لهم سلطة على جمهور الشعب، حكم المدن، مع الوسائل اللازمة للنفقة على الجنود، مخصصاً عدداً معيناً من السكان للقيام بشؤون كل فارس، دون أن يشتغل الامير بشيء آخر أكثر من أن يبلغهم أوامره، ويلزمهم بالقدوم اليه ليؤدوا اليه الخدمة إذا احتاج اليهم. وهم الذين يقدرون مواردهم، ويتسلمونها قمحاً، وشعيراً، وسمناً، وغنماً، ودجاجاً، ونقوداً، وأشياء اخرى يدخرونها في مخازنهم، ويدفعونها بعد ذلك الى ضباطهم، حسب منزلة كل واحد منهم،

والنفقة التي تلزمه، ودلك ما يؤدي كل شهر. كما يزودوبهم بملابس من الجوخ أو الحرير، جاهزة في غالب الاحيان، وبقماش مخيط ويعطونهم الاسلحة[77] والخيل، إذ يرتاح كل واحد منهم أن يكون رحاله مجهزين كما ينبغي، لأن ذلك من علامة الشرف. يعجبون كثيراً بالسيوف المسيحية، والرماح الطويلة والقصيره المصنوعة من شجر المران، ومن استطاع الحصول على خوذه وزرد اعتُبر كثيرا، وإن كان يوجد منها اليوم بإفريقيا بقدرما يوجد بأوربا، إذ لا يفوتهم أن يزودوهم بها، ولأن التجار (الأوربيين) يخبؤونها في السفن، ويدسونها في حزم السلع. وبالنسبة للفرسان، فبعضهم يجعلون خيلهم في منازلهم، ويذهبون كل مساء الى قوادهم للحصول على الشعير. وآخرون يجعلونها عند قوادهم أنفسهم، حيث يخدمها أسارى مسيحيون، ويعتبر أولئك كأنهم من دارهم، فيأكلون عندهم. يتقاضون كلهم خمسة وعشرين أو ثلاثين ديناراً (اسكوس) في السنة، تؤدى لهم مقسطة كل اربعة أشهر.

هؤلاء هم الفرسان الذين يعتبرهم الملك اعتبارا فائقاً بعد كتيبته التي هي بمثابة النبلاء، يمتطون خيولاً مطهمة مسرجة بفخامة، مذهبة اللجامات والركابات والمهاميز، بينما رؤوس اللجم[78] من الذهب الرفيع. ولبعضهم حتى صفائح من الذهب أو الفضة في ركاباتهم، ولجميعهم أشرطة جميلة مطرزة بالذهب والحرير، ولآلىء معلقة في سروج ثمينة مغطاة بتلك الجلود الجميلة القرمزية والبرتقالية اللون، وفي طرفها شرابات من شتى الألوان، تسدل على الركابات فتغطيها كلها. وأكثرهم اعتناء يزيحون اغطية سروج أفراسهم عند القتال، مدعين بأن الريح المندفعة فيه تحول بينهم وبين العدو. ملابسهم من المخمل، والدمقس، والاطلس، أو الحرير الصقيل من مختلف الالوان، ومقابض السيوف والخناجر عند معظمهم مموهة بالذهب أو الفضة، وسيوف بعضهم مقابضها وأغمادها من الفضة أو الذهب، بحمائل مغشاة بصفائح من الذهب أو الفضة، أو منسوجة بالحرير والذهب، مع شرابتين كبيرتين معلقتين في السيف أو الخنجر. ويحملون في الجانب الآخر كتميمة، علبة من ذهب أو فضة، يجعل فيها بعض الاوراق التي تتضمن أذكاراً أو رُقى وتعلق في حمالة أخرى فاخرة كذلك، تتقاطع مع حمالة السيف، وكلاهما مشدودتان بحزام عريض له صفائح كبيره من الذهب أو الفضة. ويحملون يوم

(77) مثل الرماح، والتروس، والسيوف، والزرد، والخوذات، والقداقات والسدقيات.

(78) سلاح الرأس

الاستعراض أو المعركة زروداً فخمة، وخوذات لامعة براقة مزدانة من كل جهة، سواء في الذروة أو في الزينة، بصفائح من ذهب وفضة مرصعة. إضافة إلى أنهم يحملون رماحاً من شجر المران طولها ستة عشر قدماً، ودرقاً من جلود الظباء ناصعة البياض، مزينة بشرابات فخمة من الذهب والحرير تروق الناظر.

ويشاهد عادة ثلاثة آلاف فارس مجهزون على هذا الشكل، وإن كانت الكوكبة الملكية مؤلفة من ستة آلاف كلهم ممتطون جياداً مغربية جميلة. وتحفظ عادة هذه الاجهزة الفاخرة في مخزن الملك الى يوم الاستعراض، لان لهم أخرى أقل قيمة يستعملونها يومياً. إن المؤونة التي يقدمها لهم الملك قمحاً، وشعيراً، وسمناً وزيتا وغنما سواء لهم ولنسائهم، وأبنائهم وخدمهم، أهم من التي يعطيها العمال، وأجرتهم مائتان أو ثلاثمائة ليرة، وأحياناً اكثر، لكن إذا جاء بعض الأجانب الى خدمته، غمرهم بكل ما يحتاجون اليه، وأعطاهم حتى سريات وجواري من قصره، بحيث يردهم وهم فرحون جذلون.

إن الشريف الحالي له زهاء خمسة آلاف من الرماة الفرسان، يزودهم بالاسلحة، والخيل، والملابس والمال، وجلهم جزوليون أو زنوج من مملكتي مراكش وسوس. وله علاوة عن ذلك ستمائة إسلامي، يصحبهم دائما معه، لكن ليس في حرسه أتراك أصلا، بسبب خيانتهم لأبيه. كما أنه يستعمل الأعراب لكن في المناسبات فقط، إذ يقيمون في دواويرهم ويعرفون أين يجب الالتحاق عند الحاجة. ولهم كذلك خيول، ويعفون من كل مؤونة، ولا يؤدون اي شيء عن حرثهم ولا علف مواشيهم، لكن تجهيز معظمهم سيء جدا، سواء من حيث الخيول أو من حيث الاسلحة والازياء، باستثناء بعض الخواص الذين يعتزون أكثر بالشرف. وهم لصوص كبار يعيثون فساداً في اي مكان مروا به. وحيث إنهم لا يتقاضون أي أجر فإنهم يعودون الى منازلهم ويتركون الجيش إذا طالت الحرب أو تضرروا بأي شيء مهما قل. وهم مستعدون بالأحرى للنهب والفرار أكثر من القتال، ولا يهجمون إلا على الساقطين على الارض كما تفعل الكلاب. وأكثرهم ثروة هم الخلط وبني مالك سفيان، الذين يُلزمون بإمداد الملك بأحد عشر الف فارس عند الاقتضاء، لكنهم لا يُقَدِّمون إطلاقا اكثر من ثمانية أو تسعة آلاف، ومع ذلك فلا بد من أن يرسلوا من يشتري لهم الخيل من فاس ومكناس أو من مكان آخر لإتمام هذا العدد، إذ ليس لهم عادة سوى اربعة أو خمسة آلاف فرس.

لجميع عمال وقواد مملكة فاس رئيس بمثابة قائد عام يدعى والي الولاة، ويرجع اليه وإلى الوزير الذي هو كالنائب العام للعرش، جميع حكومة المملكة، لذا فإن وظيفة وزير يتقلدها عادة ولي عهد الامبراطورية. وإن كان هذا أصغر من أن يقوم بهذا المنصب الكبير، منحه الملك للمفضل عنده، لأن الوزير يمكنه أن يُنَصِّب من شاء في العرش، لكونه يملك بين يديه قوات الدولة والحكومة، لهذا وجبت طاعته مثل الملك عند انعدام خلف شرعي.

يرث الملك جميع العمال والمحاربين الذين يستأجرهم، ويستحوذ على أموالهم عند وفاتهم، فياخذ الاسلحة والخيل، والاجهزة، وجميع المنقولات، لكنه يردها على أبنائهم إن كانوا قادرين على استعمالها، وإن كانوا صغاراً عالهم حتى يدركوا السن اللازم، والبنات إلى أن يتزوجن. ويتيح له هذا الحق الفرصة ليقلد تاجرا أو شخصاً آخر من الاغنياء حكما أو وظيفة في قصره، وتجري عليه جرايات حتى إذا مات ورثه. ولهذا السبب فإن الكثير منهم يجتنبون أن يكونوا في خدمة الملك، وإن كان لديهم مال ستروه، بالرغم على أنه كان يعذبهم أحياناً لياخذ مالهم. وحيث إن هؤلاء الأمراء ظلمة فإنهم يعيشون دائماً خائفين، لكنهم يُرغمون الناس على طاعتهم قسراً، ويتخذون عيونا يخبرونهم بكل ما يجري. وبمجرد ما يصلهم تقرير عن خيانة أو ثورة، يامرون بقتل المتهم دون مزيد من البحث والتثبت، يفعلون مثل ذلك بالمائة كما يفعلونه بالواحد. لكن المتهِمين ليسوا في أمان أكثر من المتهَمين، إذ يُقتلون بالظنة، حتى إنهم ليكونون دائماً في حالة حذر مهما بلغت الألفة معهم.

ويستعمل هؤلاء الأمراء أيضاً جنوداً آخرين عند المناسبة، كتعبئة عامة، وهم سكان المدن والقرى، وبربر الجبال الذين لا يحصى عددهم، وإن كان لا يُعبأ بهم كثيراً، ما عدا في الحروب ضد المسيحيين. ويخشى حتى من حَشدهم خوفاً من أن يعرفوا قواتهم ويروا أنفسهم مسلحين فينتقموا من طغيان هؤلاء الأمراء ووزرائهم. فإذا عزموا على ذلك، ففي الأماكن الأقل خطرا، ويستعملون الآخرين لحمل الأمتعة والمؤن، لأن كل الرعية ملزمة بإرسال أناس من أجل ذلك على نفقتها عند أول نداء، لكن الحملة لا تدوم أبداً الا ثلاثة أو أربعة اشهر، مهما كانت أهمية الحرب.

وإذا اراد الشريف أن يستخرج المال من أغنياء فاس، جمع مقدمي الأحياء كلها وأمرهم أن يصلحوا حالة الجنود في أحيائهم، عند ذلك فإن الأغنياء والتجار الذين لا يستطيعون مفارقة منازلهم يعرضون بأنفسهم أن يجهزوا جنوداً عوضاً

عنهم أو أن يقدموا ما يلزم لذلك، فيحصل بهذه الوسيلة على مبلغ طائل بحيث يتلقى من المال أكثر مما ينفق أحياناً في الحرب. وقد لجأ الحاكم الحالي عدة مرات الى هذه الحيلة، الشيء الذي جعله مكروهاً جدا، لكنه مهيب لدرجة أنهم لا يجرؤون على عصيانه. إذا قام هؤلاء الأمراء بعملية عسكرية ضد المسيحيين أسرع كل الناس للمشاركة فيها، سواء منهم أعيان المدن أو غيرهم، لأنهم يعتقدون أنهم يذهبون تواً إلى الجنة، سواء ماتوا في هذه الحرب، أو قتلوا فيها مسيحياً. ويخرج الى هذه الحرب المقدسة حتى النساء اللاتي بلغن من العمر ثمانين أو مائة سنة، وبأيديهن العصيّ فقط، ليقتلن ويكسبن ذلك الغفران طالما أثرت هذه الخرافات في أذهان هذه الشعوب، التي يغذونها عمدا بكره متناه للمسيحيين، حتى لا يتركوهم يصحون ويؤمنون بدينهم(79).

للشريف أيضاً في فاس ومراكش وترودانت دور للسلاح مليئة بالمدفعية، يصهر منها متى شاء بواسطة انجليزيين وفرنسيين مهرة اعتنقوا الاسلام، يصنعون البارود والكور، ويديرونها بواسطة اسارى مسيحيين آخرين وبعض الأتراك، لأن المغاربة لا يفقهون شيئاً في ذلك . كل قوة هؤلاء الأمراء مركزة على الفرسان الذين يبتعدون ما أمكن من المدفع إذا أرادوا القتال، ويتركونه عادة في ساحة المعارك، وللشريف بعض المدفعية في الحصون والثغور، لكن ذلك نزر قليل وفي حالة سيئة جدّاً.

خلافة هؤلاء الأمراء وضباطهم

إن ملوك موريطانيا وافريقيا كلهم جبابرة، كما أسلفنا، حيث تكون الخلافة في الملك أباً عن جدّ بحكم القرابة، لأن الدين الإسلامي لا يعترف بالشرعية إلا للخلفاء(80). فإذا أراد هؤلاء الأمراء أن يخلفهم أحد أبنائهم بعد وفاتهم، عينوه في حياتهم وزيراً أو منفذاً، وهما أهم مناصب الدولة، وإن لم يكن في السن اللازمة لتقلدهما، أخذوا العهود والمواثيق من أكابر الحاشية، وخاصة من والي الولاة وكاتب الدولة الذين لهما حق الاختيار، على أن ينتخبوه بعد وفاتهم، ويكون كل ذلك بدون جدوى، إن لم يعهدوا لغيره. ذلك لأنهم غالباً ما ينتخبون بعد موت الملك

(79) عميت بصيرة المؤلف فلم ير عظمة إيمان المسلمين والمسلمات، وأولها — كعادته — مما أوحى إليه شيطان الحقد والتعصب. (مترجم).

(80) حفدة محمد (عليه السلام) [لا حاجة إلى التعقيب على ما في هذا الكلام من جهل وتعصب]. (مترجم).

من شاءوا، شريطة أن يكون من الأسرة الملكية. وبمجرد ما ينتخب الأمير يقبِّلون يده ويبايعونه، فتقدم له هدايا فاخرة، ويحاول أن يستميل إليه رجال الحرب، حتى يتمكن من الأمر جيدا. إن الذين لهم أهم قسط في حكم مملكة فاس، هم أوْلا الوزير الذي يملك تحت سلطته القسم الثالث من الفرسان ويقبض المال اللازم لذلك. وكاتب الدولة الذي يزاول مهمة كاتب ناظر المالية والسيد الكبير. والمزوار الذي هو بمثابة خليفة الوزير، ويقوم مقام أمير البحر في غالب الأحيان. ثم العمال الرئيسيون، ومن جملتهم أبناء الملك وإخوانه وأهله، وهم الذين يسوسون الجنود القائمين بالحفاظ على الدولة، إضافة إلى عدد معين من القضاة أو الوكلاء، وهم بمثابة نظار الأقاليم، يذهبون لفصل قضايا الأعراب والبربر وفق قوانينهم وأعرافهم. وهناك أيضاً مكلفون بقبض موارد الأمير، سواء منها العادية أو الاستثنائية، ولا تفوتهم سلطة قضائية بشأن وظيفتهم، علاوة على عدد من الفرسان أو النبلاء العاديين الذين لهم ولايات للقيام بشؤونهم، دون أن يكونوا ملزمين بالإنفاق على أي أحد من الجند، اللهم إلا أن يصحبوا الملك مع الجيش. وهؤلاء أهم من أصحاب الكوكبة الملكية، لأنهم يترقون بذلك فيصبحون قوادا للفرسان(81) ومشرفين ملكيين(82).

وللملك قائد حرس، يستطيع أن يامر القضاة بالقبض على الأشخاص أو إعدامهم أو حجزهم، ويحجز أموال المجرمين الذين لا يراد أن يسمع عنهم عامة الناس. وإذا كان لا بد من إلقاء القبض على عامل أو شخص ذي منزلة، فإن قائد الحرس هو الذي يرسله الملك لذلك وينفذ أوامره السرية. كما أن هناك شبه مستشار عنده الخاتم.، يحرر الرسائل ويختمها زيادة على رئيس التشريفات الذي يقف بين يدي الملك لدى الاستقبالات، وإذا حضر العمال الى المجلس عين لكل واحد منهم مقعده حسب أقدميته أو رتبته، لأن كل واحد يتناول الكلمة حسب ترتيبه في المجلس. ويكلف آخر بالخدام المكلفين بإدخال المدعوين، والذين يحملون أطباق الطعام الى الخوان الملكي، ويذهبون لإحضار من يستدعيهم الملك. وحتى إذا أمر بتنفيذ الإعدام بحضرته كلف هؤلاء الخدم بذلك. يسيرون أمامه إذا امتطى صهوة جواده، يحمل احدهم رمحاً يرفعه عالياً، ويقف بجانب ركابه، ويمسك الآخر

(81) أو قواد الجيش.

(82) يسمى هؤلاء المشرفون الملكيون مستشارين، لأنه يطلق على مجلسهم اسم محكمة أو دائرة اختصاص. [لعله يقصد مجلس المظالم الذي ينظر في شكايات الرعية] (مترجم).

برسَنٍ مذهبٍ أو مطرز يقاد به فرسه باليد إذا نزل على الأرض، ويحمل ثالث خفه أو حذاءه.

وهناك أيضاً ضابط مكلف بإبل الملك، وهي كثيرة جداً، يقدم كل ما يلزم للمكلفين بها، ويعين لهم الأماكن التي ترعى فيها، ويطالبهم بإحضارها إذا عزم الملك على السير.

وهناك مموِّن أو مندوب عام مكلف بتوفير وحفظ وتوزيع جميع مؤن قصر الملك والجيش كله، إذا خرج الأمير إلى الحرب. وله عدة كتاب تحت إمرته، واثنتا عشرة أو خمس عشرة خيمة كبيرة في المعسكر يخزن فيها المؤونة، وتفد عليها الإبل دوماً لإنزالها، هناك توجد جميع مؤن المعسكر ويخضع له رؤساء الخدم وطباخو القصر.

كما أن هناك كبير حاملي السلاح، له اتصال وثيق بالأمير، وتفويض عام في شؤون الفرسان، يقدم لهم الشعير والتبن والعلف أو الكلأ، كما يقدم ذلك لجميع عربات الجيش. وتحت أوامره كتاب يضعون بياناً لذلك حتى يعرضه على السيد الكبير.

وللملك أيضاً خمسون مرافقاً تحت إمرة قائد، يحملون الأوامر من الملك إلى العمال وضباط الجيش سواء في المعسكر أو في المدينة، ويسيرون حول الكتائب حاملين عصيّاً طويلة في أيديهم لتصفيف الجنود وتحريضهم على القتال. وإذا هرب أحد أو انفصل عن الكتيبة حقَّ لهم أن يقتلوه. وهناك ايضاً قائد المحلة المكلف بنقل خيام الملك والكتيبة الملكية أو العلم الأبيض، ونصبها ورفعها. وتحمل البغال خيام الملك، والإبل سائر الخيام الأخرى.

وهناك كثير من حاملي الرايات أو الأعلام وهي مطوية، لا ينشرون إلا واحداً منها في الطليعة. وجميع الرايات مصنوعة من التفتة الغليظة المبطنة مع شريط من الحروف العربية المكتوبة عرضاً من طرف إلى آخر. ومعظم هذه الرايات مربعة، والذين يحملونها يستعملون كرواد لأنهم يعرفون الطرق جيداً بما لهم من خبرة كبيرة بالبلاد وجميع المضايق ومعابر الأنهار.

وهناك أيضاً طبالون عديدون بطبول كبيرة من نحاس، عريضة من أعلى ضيقة من أسفل، ومغشاة بجلد البقر، بأحزمة غليظة محبوكة حولها لشدها. يمتطي هؤلاء الطبالون أفراساً قصيرة، لكنها سريعة جداً، لا يحمل الواحد منها سوى طبل، مع عِدل من رصاص في الجانب الآخر، لكن دويّها مرعب لدرجة أن الشِّعاب تردد صداه. فترتعد منه فرائص الناس والخيل. هؤلاء الطبالون وحاملو الرايات هم احسن الجند تجهيزاً، إذ يكون من العار عليهم أن يفقد أحدهم الطبل أو الراية. ويوجد أيضاً في الحاشية العديد من الابواق والمزامير، وغيرها من الآلات التي تستعمل في السلم والحرب، وهي على حساب المدن التي تلزم بتقديمها.

لا يخدم الملك في غرفته إلا نساءٌ هُنَّ إما زنجيات، أو سُمْرٌ من بينهن بعض المسيحيات، لكن يخدمه في الخارج غلمان(83) من أبناء الأعيان أو من المسيحيين. ولا يتزوج إلا نساء بيضاً من بنات كبار الأمراء تخدمهن اللواتي ذكرناهن قبل قليل وغيرهن. وكلهن تحت حراسة خصيان سود أو سمر في الأغلب. لا يمكن لأي مسلم أن يدخل إلى مقاصير النساء، إن لم يكن خصيّاً، لكن الأسرى المسيحيين وكذلك اليهود يدخلون إليها لخدمة الدار. وبما أن سيدات البلاد في غاية الشبق، فإن الشريف اكتشف في وقته بعض المغامرات الغرامية، جعلته يمنع الدخول إليها على جميع المسيحيين. وإذا كان لا بد من خدمة لا يمكن الاستغناء عنهم فيها، مشى أمامهم خصي وهو يصيح بالنساء أن يبتعدن، الأمر الذي لم يكن معمولاً به أيام أبيه ولا عمه ولا في عهد سائر الملوك، ظناً منهم أن المسيحيين لا يقومون بعمل فاحش، وأن نساء البلاد لا يقبلن ذلك إذا ما رغبوا فيه.

أبهة ملوك فاس وبذخهم، وتنظيمهم لمعسكراتهم وما ينفقون على الجيش مع بيان مواردهم

إن ملوك فاس، كغيرهم من ملوك افريقيا، لا يخرجون بأبهة في غالب الأحيان، إلا في مناسبة الأعياد الرسمية، ويوم الجمعة حيث يذهبون الى المسجد، أو إذا عزموا على السفر. إذ ذاك يخبر رئيس التشريفات العمال والأعيان بأن

(83 مغاربة هجناء.

يصحبوه. فيجتمعون في زينة فاخرة أمام القصر الملكي وفي الشوارع، ويقوم الضباط المخصصون لذلك بصف جميع الجنود في نظام حولهم، ويعيِّنون لكل واحد مكانه حسب خاصيته ومنزلته. وإذا أراد الخروج من المدينة، تبعه كبير حاملي السلاح مع ضباطه، ثم الممون الكبير مع رجاله. وبعد ذلك يتحرك الأعيان العاديون، ويتبعهم رئيس التشريفات والكتاب والقضاة، وخلفهم جميعاً والي الولاة. ثم ياتي الملك مصحوباً بالوزير، يتقدمه أهله وأبناؤه على مسافة قريبة. ويسير أمامه مباشرة بعض الأعيان وهم يحملون سيفه وترسه وقذافته، وحوله خدمه المسلحون، وفي جملتهم واحد يرفع رمحه عالياً ولا يفارق إطلاقاً الركاب الأيمن، بينا يمسك آخر بعنان جواده، وغطاء سرجه، ويحمل ثالث خفين فاخرين يأخذهما الملوك معهم للزينة فقط، لأنهم لا يستعملونهما أبداً. وإذا قطع وادياً اصطف من حوله جميع خدمه المقربين والمسلحين فيغطون رجليه بمعاطفهم وستراتهم، حتى لا يصيبه بلل ويتبعه كبير خدم قصره متلوًّا بالخصيان وخدام حجرته، ثم حرسه الشخصي. أما رماة الأسلحة النارية وسائر الفرسان فيجيئون في المؤخرة.

يرتدي الملك لباساً بسيطاً جداً، حتى إنه لا يُظَن أنه هو الملك، لأن الذين يرافقونه يرتدون لباساً أفخر من لباسه. لا يضع أي ملك مسلم تاجاً على رأسه لأنه غير مباح لهم شرعاً. وإذا صدقنا فقهاءهم فإنهم جميعاً مغتصبون متجبرون، لأن آل محمد وحدهم الذين ينتمي إليهم الخلفاء، هم الذين يحق لهم الحكم.

كم يروق منظر خيام الملك المنصوبة، ومحلته عموماً، فخيمته وحدها تظهر كأنها مدينة تحيط بها أسوار بشرفاتها في دقة متناهية، ولو أنها ليست إلا من قماش حتى ليظن أنها قلعة مربعة ذات أبراج في زواياها الأربع، وتيجان أعمدة عالية، وتفافيح مذهبة، ورايات صغيرة متعددة الألوان، تلوح من كل جوانب المعسكر. وهناك أربعة أبواب يحرسها خصيان لا يسمحون بالدخول منها لا لمغربي ولا لأعرابي، وإنما يدخلها الخصيان أمثالهم والمسيحيون. وفي الوسط حجرات مختلفة للملك ولنسائه وجواريه. ولهذه الخيمة سوران يبعد أحدهما عن الآخر باثني عشر قدماً حيث يقوم الحرس بدوريات طوال الليل، ويلقون القبض على كل من عثروا عليه ممن لم يؤذن له بذلك. وتوجد حول قصر الملك خيام وأروقة ضباطه والمقربين إليه. وبعيداً من هنالك خيام الأعيان، وهي كبيرة كخيام الأعراب، مصنوعة مثلها من الصوف الخشن الذي يشبه اللبد. وفي وسط كل ذلك بيت

المؤونة، والمطبخ، وقاعة العموم. وبالقرب من ذلك خيام الحرس الخاص بجوار الاصطبل الملكي. ويوجد أمام خيمة الملك باستمرار اثنان أو ثلاثة من الجياد المسرجة، واللجام على قربوس السرج، لاستعمالها عند الحاجة. كل هذه الخيام تشبه مدينة جميلة منسقة أحسن تنسيق، لأن خيام الأعيان متصلة بعضها ببعض، بحيث تشكل وقاء لخيمة الملك، التي لايمكن الووصل إليها إلا عبر بعض الممرات. وفي خارج المحلة مساكن البغالين والجزارين وباعة المؤن ودكاكين التجار، وفي كل الجهات، على بعد قريب من هناك، معسكرات العمال والقواد، محاطة بجنودهم من كل جانب.

وتقام الحراسة حول خيمة الملك طول الليل، لكن بدون سلاح، ولا يسمح بحمله الا لقائد الحرس وبعض الأعيان المفضلين الذين يصحبونه في دوريته. كما تقام الحراسة أيضاً حول الاصطبلات، وطوال الليل تقوم كتائب خارج المعسكر بأعمال الدورية، لكن بنظام غير محكم حتى إنها تصطدم أحياناً بفرسان الملك فيتسلل القتلة حتى إلى داخل الخيمة.

ومن عادة هؤلاء الملوك أن يتنقلوا في معظم السنة، سواء لتفقد شؤون الدولة، أو لإرهاب رعاياهم من الأعراب. ويقضون جل أوقاتهم في الصيد ولعب الشطرنج. حقاً إن الملك الحالي لا يخرج إلا قليلاً جداً، وينعزل شهرين أو ثلاثة أشهر داخل قصره، إما بفاس أو مراكش، بحيث لا يظهر إلا يوم الجمعة عندما يذهب إلى المسجد، وحتى هذا لا يحدث دائماً. لذلك فإنه ينجز أعماله بواسطة أبنائه أو قواده، ويعطيهم أوامره من قصره لشدة احترامهم له. وبما أنه يملك جميع أموال رعاياه، فمهما كانت الضريبة التي يفرضها دفعوها بدون احتجاج ولا تهويل. كما كان ذلك في القديم. والضريبة العادية هي العشر، ونصف العشر، لدى أول طلائع الحرث، وأول نتاج القطعان(84) ويؤدى الكل بأتمه، ما عدا المقدمات التي لايؤخذ عنها الا ابتداء من واحد وعشرين. وإذا فاق العدد المائة لم يؤخذ منها سوى اثنين. بالإضافة إلى أنه ياخذ عن كل مساحة (أربّانت) حرثت مثقالاً وربعاً(85)، ومثلها عن كل كانون وكل فرد من كلا الجنسين تجاوز خمس

---

(84) خروف واحد عن عشرين.
[لا حاجة الى التعليق على هذا الخلط، فأنصبة الزكاة ومقاديرها معروفة مفصلة في كتب الفقه] (مترجم).
(85) حوالي مائة وخمسة عشر فلساً من العملة الحالية.

عشرة سنة من عمره، دون الجبايات الاستثنائية التي يطالب فيها دائماً بزيادة أكثر من نصف ما يريده حتى يسمح في الباقي. لكن هناك جبال منيعة يسكنها بربر لا يؤدون أكثر من العشر، وإن كان ذلك عن أرض يحرثونها في السهل. أضف الى هذا المداخيل والجمرك والواجبات الاخرى التي تفرض على سكان المدن، مع ضريبة الطواحين، وعدة موارد اخرى يطول ذكرها.

اللباس في فاس

إن أهل فاس، وخاصة منهم النبلاء، طيبون متحضرون جدا، والتجار ثقات مخلصون. يرتدون ملابس سوداء أو زرقاء، أو ملونة بلون آخر، طويلة من نسج الصوف، تصل إلى منتصف الساق، بأكمام نصفية ضيقة جدا. يلبس بعضهم قمصاناً من الصوف أو الحرير، وبدلا من المعاطف يستعملون أردية (سلاهم) من صوف أو من حرير وصوف ممتزجين معاً. وأما الصناع وعامة الناس، خاصة الراجلين ورماة الأسلحة النارية الذين يمتطون صهوات الخيل فإنهم يلبسون اردية قصيرة ذات أربعة أذيال، تصل الى الركبة، وفوقها سترات من الجوخ الأزرق، أو من لون آخر. ويلبسون جميعاً سراويل طويلة من قماش ضيقة الأسفل تصل إلى العرقوب، وقمصاناً كبيرة فوقها لا تدخل في السراويل(86). ولباس النبلاء والأكابر اكثر تحضراً إذ يلبسون قمصاناً من قماش (كامبري)، من الحرير، أو الجوخ الرفيع، قرمزية أو من لون آخر بضفائر وأزرار ذهبية، وأكمام عريضة مفتوحة من الأسفل، ومبطنة بقطيفة قرمزية(87) أو دمشقية أو بالأطلس الملون. وإن لم يكن لديهم (مارلوط) فإن لهم سترات من صوف، أو أردية قصيرة من صوف أيضاً، مع أقمصة وسراويل من قماش (كامبري) الرفيع. يضعون على رؤوسهم قلانس أرجوانية ياتي بها اليهم تجار اسبانيا، ولبعضهم عمامات بيضاء رفيعة محببة إليهم كثيراً، يديرونها على رؤوسهم ست أو سبع مرات. وينتعلون في فصل الشتاء أحذية أو أخفافاً من جلد الماعز قرمزية أو برتقالية. وإذا كانوا راجلين لبسوا أحذية وقائية مرصعة ومتقنة الصنع لوجود الوحل دائماً في الطريق،

(86) ليس لهم، ولا للاتراك كذلك، سراويل فوقية (تدخل فيها الثياب).
(87) أو ساتان احمر.

وينتعلون في الصيف أخفافاً رقيقة دقيقة من نفس الجلد وأحذية مبطنة قرمزية أو برتقالية، ويرتدي العامة نفس اللباس، لكنه ليس من حرير ولا جوخ رفيع، ويضعون كمعطف سترات من صوف رقيق يميل لونه قليلاً الى الزرقة. والذين لا يملكون ما يشترون به سترات يتدثرون بعباءة، أو يضعون سترات شبيهة بالمسوح، ويحتذون بأحذية نصفية سوداء ذات أزرار أو خيوط، وسراويل من قماش أو جوخ بنفس الشكل، إذ لا يلبسون السراويل الفوقية إطلاقاً في بلاد البربر كلها، ما عدا بعض الغلمان الذين يلبسون جوارب من جوخ بربطات الساق، ليمشوا مرتاحين.

يرتدي النساء لباساً ملائماً مناسباً، وهن في غاية الحسن، لكنهن قليلات العفة، لأنهن شهوانيات شبقات، وإذا خرجن لبسن فساتين بيضاء فاخرة ثمينة، منسوجة بالذهب والحرير، وفوقها خمار أو عباءة من قماش رفيع مطرز الجوانب بحرير قرمزي، وطويلة بقدر غطاء لكنها أقل عرضاً، مع شريط من حرير أبيض أو ملون حولها، منسوج في الخمار بنفس الشكل. ويطوينها إلى صدورهن، حيث تربط بحلقات سميكة من ذهب أو فضة. ذلك هو الزي العادي للسيدات ذوات النسب والحسب في الصيف، لكنهن يلبسن في الشتاء قمصاناً من حرير أو جوخ ملون(88) مطرزة حول العنق، وأطراف الأكمام بالذهب والحرير والجوهر، تثبت فيها أزرار صغيرة وعروات(89) بنفس الشكل. ويضعن على رؤوسهن زينات فاخرة من الذهب والجوهر، مرصعة بالأحجار الكريمة، مسدولة على الشعر، يحرصن دلالاً على أن يكون حالك السواد، كشيء جميل ومُوات جداً. ويستعملن كأقراط أنصاف دوائر دقيقة الصنع من الذهب أو الفضة، بخيوط منتظمة بالجوهر، والأحجار الكريمة في حجم البيض، واحترازاً من أن تتمزق الأذن بثقلها، يربطنها في أعلى الرأس بشريط من حرير. ولا يغطين شعر رأسهن الا بمنديل رفيع مطرز دون زينة أخرى، لكن يروقهن أن يتخذن ضفائر طويلة، تدور ثلاث أو أربع مرات حول رؤوسهن. وإذا لزمن البيت لم يلبسن سوى قميص طويل عريض مع أخفاف أو أحذية واطئة جداً، بينما يكون باقي الساق عارياً، لكن إذا خرجن، وخاصة منهن الاندلسيات، لبسن سراويل طويلة متموجة جداً، تبدو معها الساق جميلة، لأن لباسهن لا يصل إلا إلى منتصف الساق. وينتعلن بأحذية من الجلد الناعم جداً،

---

(88) أو أحمر.

(89) أو ثقب (عيون).

المطرز بالحرير الملون، ويتخذن أساور كبيرة من ذهب أو فضة، وهي ثقيلة بحيث إن الذهبية منها تساوي مائة مثقال، والفضية عشرة مثاقيل أو اثني عشر مثقالاً، لذلك ليس لهن إلا سوار واحد في كل يد. ويتخذن أنواعاً اخرى من الأساور في أرجلهن فوق العقب (خلاخل) وهي مستديرة أغلظ بكثير من أساور اليد. وتتمنطق الأعرابيات وبعض الفاسيات وجميع البربريات بنطاقات القصر التي ذكرناها، لا عندما يرتدين فستانات بل قمصانا لربطها. ويخضبن عادة أظفار الارجل والأيدي بنوع من العقار يسمى الحناء ويجدن أناقة كبيرة في ذلك. كما أنهن يدهنَّ بها رؤوسهن مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع، معتقدات أن ذلك يصلح شعر الرأس ويجعله أسود لامعاً براقاً. هذا ما يمكننا أن نقول عن زي النساء الفاسيات الذي يكاد يكون نفس زي موريسكيات غرناطة.

طريقة عيشة ملوك فاس والأطعمة التي يتناولها السكان

من عادة ملوك فاس أن يامروا بنقل طعامهم علانية الى قاعة الاستقبالات، وإن كانوا يتناولون غذاءهم على انفراد في مقاصير النساء، ويحضرون هناك كل صباح ليتلقوا تحيات الامراء الأقارب وأكابر رجال الحاشية. وحينذاك يقدم اليهم الطعام العادي في قصع كبيرة عالية لامعة مليئة بطعام شهي لذيذ، مصنوع من خالص الدقيق المدهون بالسمن وهي على شكل حبات تشبه الدخن(90) تطهى في آنية مثقوبة، توضع على قدر يطبخ فيها اللحم، ويساعد البخار على طهيه. وإذا صار دافئاً ناضجاً دهن بالسمن، وبعد أن يدهن جيداً يطرح في القصعة ويصب عليه مرق القدر مع اللحم والخضر، ثم يترك قليلاً إلى أن يمتص المرق كله. ذلك هو الغذاء العادي لهذا الأمير مرتين في اليوم. ويقدم اليهم، علاوة على ذلك، لحم الضأن والدجاج المحمر المقطع قطعاً صغيرة بالسمن والتوابل، فياكلون هذه القطع المحمرة ساخنة بالخبز الرطب أو الحلويات(91) في الآنية الكبيرة التي طبخت فيها كما نقدم اليهم كمية من العسل والزبد الطري، وفي الختام سلال كبيرة من التمر أو الفواكه. لكن لا يقدم اليهم كشراب سوى الماء أو اللبن الحامض، لأنهم لا

(90) الكسكسو.
(91) حلويات تنضج على النار فوق مربعات من طين.

يشربون الخمر قطعاً جهاراً، وإذا شربوها فلأجل العربدة والفجور أكثر من قصد التقوِّي بها.

وباختصار إنهم يطعمون بطريقة يرثى لها بالمقارنة مع أمثالهم في أوربا. فليس لهم صوان سفرة ولا موائد حسنة الترتيب، مليئة بآنية ذهبية وفضية، لأن دينهم يحرم عليهم الشراب أو الأكل في غير الأوعية من الخشب أو الطين، ولا يستعملون سوى أباريق من نحاس لغسل أيديهم بعد الأكل. ياكل المغاربة دائماً على الأرض متربعين[92] على أسرتهم، ويفرشون بساطاً من جلد طبعت عليه رسوم، مثلما يصنع في القصر كما أسلفنا، ويتخذونه كخوان. ويقدم اليهم لمسح يدهم اليمنى التي ياكلون بها، ثوب أو فوطة من الصوف الأحمر، ولا شيء غير ذلك، لا يستعملون في الأكل الا اليد اليمنى التي يقطعون بها اللحوم، ويخصصون اليسرى للاستنجاء عند إرادة الصلاة. وبعد أن يتناول الملك لقمتين أو ثلاث لقم، لأنه لاياكل أكثر من ذلك أمام الناس، تبعد عنه القصعة، أو الآنية الأخرى التي قدم اليه فيها الأطعمة، فيقترب منها أبناؤه أو إخوانه، إن كانوا حاضرين، ويتناول كل واحد منهم لقمه، ثم يعودون الى مجالسهم ويفعل مثلهم الأكابر والأعيان الحاضرون، متقدمين كل حسب منزلته، مرتبة مرتبة إلى البوابين والحراس، لأن على كل من حضر بالقاعة، صغيراً كان أم كبيراً، أن يذوق منه قليلاً أو كثيرا، لاعتقادهم أنه يحرم على المرء أن ياكل وحده دون أن يشارك معه من يشاهده، ويقتدي بهم في ذلك الأمراء والسادة وعمال الأقاليم في منازلهم. وأما سائر السكان فلا ياكلون اللحم إلا مرتين في الاسبوع، لكنهم يتناولون الطعام عادة ثلاث مرات في اليوم، فيفطرون في الصباح بالخبز وثمار رطبة أو يابسة حسب الفصل، أو بالعصيدة، ولا سيما في الصيف، حيت من عادتهم أن ياكلوا في الصباح دقيق الشعير المطبوح بقطع من اللحم المملح المقلي بالسمن. وياكلون في منتصف النهار، اللحم، والجبن، والزيتون، وذلك الطعام الذي قلت انه يقدم الى الملك[93] ويتناولون عشاء خفيفاً جداً، كالبطيخ، أو العنب، أو الزبيب بالخبز. لكن جميع الذين يطبخون ياكلون الكسكسو مرة واحدة في اليوم، لأنه رخيص الثمن ومغذ جدا. ذلك هو الطعام المعتاد للصناع عامة الشعب، وبصفة عامة في جميع مدن بلاد البربر، وهذه نهاية وصف فاس.

---

(92) اي جالسين على اعقابهم وسيقانهم ملتفة مثل الخياطين.

(93) الكسكسو

الفصل الثالث والعشرون

المَقْرَمْدَة

تلوح على بعد سبعة فراسح من فاس الى جهة الشرق آثار مدينة قديمة أسسها الأفارقة من قبيلة صنهاجة[1] في سهل بهيج جداً، على ضفة نهر صغير. وما زالت أسوارها قائمة. وقد دمرت أثناء حروب سعيد، ولم يُعَد تعميرها قط منذ ذلك العهد، مع جودة البقعة ووفرة قمحها ومراعيها، لأن الأعراب الذين يملكونها لا يحبون أن يحبسوا أنفسهم في المدن. يقول بعض المؤرخين إن مؤسس هذه المدينة هو نفس الأمير الذي أسس مراكش[2]، لكنه يبدو من خلال سمة الأسوار أن العمل أقدم من ذلك وأنه من صنع الأفارقة، لأن لجميع غزاة افريقيا تقريباً طريقة مختلفة في البناء. وفي نظري انها هي التي بدعوها بطليموس إبربيد ويجعلها في الدرجة العاشرة والدقيقة العشرين طولاً، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة الخامسة والأربعين عرضاً.

الفصل الرابع والعشرون

العُبَّاد[3]

تقع على بعد فرسخين من فاس، في اتجاه الشرق، بلدة مشيدة على منحدر جبل شاهق، لا تبصر من أعلاه مدينة فاس فحسب، ولكن البلاد المجاورة كلها أيضاً. ويرجع تأسيسها إلى مرابط من هذه النواحي، كان أكبر فقهاء الجامع الكبير، لكنها دمرت أثناء حروب سعيد، بحيث لم يبق منها إلا الأسوار والمساجد. منطقتها صغيرة، ويؤجر أراضيها كل سنة فقيه الجامع الكبير الذي يملكها شخصياً.

الفصل الخامس والعشرون

الزاويـــة

وما زالت تشاهد آثار بلدة أخرى على بعد أربعة فراسخ ونصف من فاس في اتجاه الشرق، أسسها ثاني ملوك بني مرين. كانت صغيرة جدا، لكن يوجد فيها

---

(1) عند الوزان: أسسها ملوك زناتة (مترجم)

(2) يوسف بن تاشفين.

(3) كتبت في الأصل «العبر» بتصحيف الدال راء وعند الوزان قصر العباد (مترجم)

قصر كبير كان يستعمل قديماً كمستشفى، أقام فيه هذا الامير ضريحه، وإن لم يقبر فيه على ما يبدو، لأنه اغتاله أحد رجاله في تلمسان. ولم يبق من المدينة سوى الأسوار والقصر المذكور، بينما دمر الباقي أثناء حروب سعيد. الأراضي المجاوره في ملك الجامع الكبير بفاس، وإن كان يستغلها بعض الأعراب. يسميها بطليموس الجديد في خرائط ليبيا بوبريص، ويجعلها في الدرجة التاسعة والدقيقة العشرين طولا، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة الخامسة عشرة عرضاً، لكن المؤرخ العربي الشريف ينسب تأسيسها الى الامير المذكور. وأرى أن بوبريص كانت في المكان الذي توجد فيه الآن العنبرة التي هي في نفس الاقليم وعلى نفس الارتفاع.

الفصل السادس والعشرون

خـــولان[4]

توجد على بعد ثلاثة فراسخ من فاس، في جهة الجنوب، مدينة على ضفاف نهر سبو، أسسها حسب ما يقول أهل البلاد أحد ملوك زناتة لكن ملكاً آخر من بني مرين[5] شيد قربها مباشرة قصراً جميلاً في حمام طبيعي اشتهرت به المدينة وعرفت. لأن سكان فاس يذهبون كل شهر أبريل ليستحموا فيه. ويقيمون هناك للتسلية سبعة أو ثمانية أيام. السكان قرويون همج، يعيشون في فاقة من أراض يكترونها من فقيه الجامع الكبير بفاس. ولا وجود أصلا لمدينة أخرى ولا قرية مسورة في هذا الاقليم، ما عدا في الجبال التي يسكنها البربر، لكن هناك أعراب فقراء يجوبون في السهول.

الفصل السابع والعشرون

الجبال وسكانها

زَ لَا غْ

يبدأ هذا الجبل عند نهر سبو، ويمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة خمسة فراسخ، وتطل قمته على الشمال، وينتهي على بعد فرسخ واحد من فاس.

---

(4) كتبت في الاصل «حلوة».

(5) هو أبو الحسن رابع الملوك.

إن جميع تلاله من جهة الجنوب خالية، لكن التي تطل على الشمال آهلة بالسكان مليئة بالكروم التي تنتج أجود عنب افريقيا كلها(6). الاشجار المثمرة منتشرة في كل مكان بأعداد كثيرة بسبب خصوبة الارض وتعطي فواكه في غاية الجودة، ومن جملتها الزيتون، لأن البلاد جافة شيئاً ما. يملك أعيان فاس أكبر حصة من تراثهم في هذا الجبل الذي يضم سكاناً أغنياء، لأن الأراضي الواقعة في السفح مليئة بالبساتين والحقول الصالحة للفلاحة المسقية من ماء النهر بواسطة الناعورات التي ذكرناها آنفاً. وأهم سكن هي مدينة لمطة، الواقعة على منحدر الجبل، تحت أنقاض مدينة عتيقة من بناء الرومان على ما يبدو، وهي في نظري بوبريص بطليموس، التي يجعلها في الدرجة التاسعة والدقيقة العشرين طولاً، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة الخامسة عشرة عرضاً، لأنها ليست هي الزاوية التي ذكرناها في الفصل الخامس والعشرين.

جميع سكان هذا الجبل فلاحون بستانيون يملكون قطعاناً من الماشية. وأهم متاجرتهم مع فاس، لذلك فهم تابعون لها وخاضعون لنفس المصير.

الفصل الثامن والعشرون

زرهون (أو زراهانون)

جبل كبير جميل بهيج، يقطنه زواغة الذين هم أغنياء شرسون كثيرو العدد، وإن كان أقدم السكان من البربر(6 م)، لكن ليس لهم الآن شهرة تذكر. يبدأ هذا الجبل في سهل سايس، على بعد ثلاثة فراسخ ونصف من مدينة فاس، ويمتد على مسافة عشرة فراسخ شطر الغرب، بينما يبلغ عرضه في بعض الأماكن ثلاثة فراسخ ونصف. يبدو من بعيد كأنه غابة كثيفة من أشجار البلوط والمران الباسقة، مع أنها ليست سوى أشجار الزيتون. وزرهون من ملحقات مكناس، يضم اكثر من اربعين بلدة وقرية أو ضيعة منتثرة بين هذه الأشجار. وكانت هناك في القديم بعض المدن، التي سنتحدث عنها فيما بعد. وأهل البلاد أقوياء أشداء، يشتغلون كثيراً بالحرث، حتى إنه لا يوجد شبر واحد من الأرض غير مزروع. وهم شديدو البياض، تفتخر نساؤهم بجمالهن وزينتهن، ويتحَلَّيْنَ بأساور وأقراط من ذهب وفضة. لباسهم من صوف غير رقيق جداً، وتجارتهم الرئيسية هي الزيت

(6) لأنهم ياكلون العنب في هذه البلاد دون أن يصنعوا منه خمرا.

(6م) هم صنهاجة، وكمية، ولواتة.

الذي يحملونه قصد بيعه الى فاس، ومكناس، وغيرهما من المدن. وهم متمرسون في قنص الأسد التي ياخذونها حية، ويذهبون بها الى فاس، حيث يصارعونها مثل ما يفعل بالثيران في اسبانيا.

الفصل التاسع والعشرون

المـــدن

وليلي (أو تيوليت)

مدينة قديمة أسسها الرومان على قمة الجبل الذي تحدثنا عنه منذ قليل. وهي محصنة بأسوار متينة من الحجر المنحوت تربو دائرتها على فرسخين. دمرها أولاً المكناسيون، ثم أعاد بناءها إدريس والد مؤسس فاس الأول، فجعلها عاصمة الاقليم كله. كانت تدعى آنذاك (بوليبيل) لكن منذ أن شيدت فاس وأفل نجم هؤلاء الأمراء، فقدت كثيراً من ازدهارها الاول، ودمرها اخيرا الملك المرابطي يوسف، فلم يعد لها عمران بعد. ذلك، لأن السكان(7)، انتشروا في أنحاء الجبل، وأقاموا في شتى الأماكن. فلم يبق سوى خمس عشرة أو عشرين دارا حول المسجد، يسكنها بعض الفقهاء تشريفاً لضريح يتمتع بتقديس كبير بين هؤلاء البربر ويحجون اليه من جميع أطراف موريطانيا. وفي وسط المدينة عينان نضاختان، ينحدر ماؤهما الى الشعاب، حيث توجد مساكن زواغة وممتلكاتهم.

الفصل الثلاثون

قصر فرعون

توجد على إحدى قمم هذا الجبل، على بعد ثلاثة فراسخ من وليلى، مدينة أخرى صغيرة، أسسها القوط ــ على ما يقال ــ مع أن السكان ينسبون تأسيسها الى فرعون ملك مصر، ومنه اتخذت اسمها، معتمدين في ذلك على صحة مؤرخ عربي(8)، يجعل من هذا أحد الفاتحين الاربعة. لكننا لا نجد بتاتا في التاريخ أن فرعون(9) ولا المصريين ملكوا افريقية، ويسميها أشهر المؤرخين قصر زرهون لا

(7) أي زواغة.
(8) هو الكلبي.
(9) فرعون موسى

قصر فرعون. وما زالت تشاهد في أماكن من الأسوار نقوش بالحروف القوطية، تبين أن مؤسسيها هم القوط(10). ويمر قرب المدينة نهران صغيران ينبعان في أعلى الجبل، وجميع التلال والشعاب المحيطة بالمدينة مكسوة بشجر الزيتون. وهناك عدد من الضيعات الصغيرة لزواغة والبربر. وقد دمرت هي ووليلي في آن واحد. وحيث إن هؤلاء القوم يفضلون أن يعيشوا متفرقين عبر الجبال على أن يقيموا في المدن، فإنها لم تعمر بعد ذلك، ويقام سوق(11) كل يوم أربعاء على ربوة قريبة من هناك، ياتون اليه من فاس ومكناس وسائر البلاد المجاورة. لكن الذين يريدون أن يقضوا فيه الليل عليهم أن يحترزوا جيدا على أنفسهم، بسبب كثرة الأسد التي تهاجم الناس والقطعان.

الفصل الواحد والثلاثون

الدار الحمراء (11م)

هي «الإِيتيسيان» التي يجعلها بطليموس في الدرجة التاسعة طولاً، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة العشرين عرضاً. شيدها الرومان، ووقع تدميرها مع معظم مدن البلدان الاخرى. تقع على منحدر الربوة التي يقام فيها السوق الذي ذكرناه آنفاً، وهي محاطة بأسوار عالية من حجر منحوت، تهدمت في عدة أماكن، وليست الدور حسنة التنسيق. يتجر السكان بالزيت، ونظرا لقربهم من سهول إقليم أزغار التي تنتج الكثير من القمح، فإنهم أثرياء. وتكثر السباع في البلاد، حتى إنهم لم يعودوا يخشونها لكثرة ما يرونها وهي تجول دائماً حول الزرائب بحثا عن قوتها. وعندما كنت هناك اختطف أسد طفلة صغيرة من أحد المنازل، لكن لما كان ذاهباً بها اسرعت اليه أخت لها لم يتجاوز سنها اثنتي عشرة سنة، فأمسكته من رجله وأنزلت عليه ضربات العصا وهي تصيح به حتى ترك الطفلة، وقد شاهدناها فيما بعد وهي تحمل جروحاً في الأماكن التي أمسكها منها. ومع ذلك فإنه لم يعضها. وأمام اندهاشنا لهذا الحادث قال لنا السكان إن ذلك شيء عادي في

(10) القوطيون، باللغة العربية.

(11) هو أربعاء خيبر.

(11م) يسميها الوزان «الحجر الاحمر». انظره والهامش 86. ص. 296. (مترجم).

البلاد، وإنه اتفق مرة أن أسداً دخل بيتاً كان فيه زوجان نائمين مع أولادهما، فاختطف واحداً من بينهم، لكنهما انتزعاه منه بضربات عصا وهما يتبعانه جرياً. وقد بلغت العادة بهؤلاء السكان أن يصبحوا جريئين ضد حيوانات بهذا القدر من الشراسة.

الفصل الثاني والثلاثون

مُغِيلَة

في قمة هذا الجبل المطل من جهة الشرق على فاس، مدينة صغيرة اسسها الرومان، لها مساحة كبيرة مغروسة بشجر الزيتون على الجبل، وسهل جميل في الأسفل، يسقى من عدة عيون تنبع في النواحي بحيث إنها تنتج الكثير من القمح، والقنب، والبابونج، والكرويا، والحناء، والكبَّار، التي تحمل إلى فاس لبيعها، وذلك ما يجعل السكان أغنياء، لكن ليس لهم سوى دور حقيرة، وأسوار المدينة متهدمة في مواضع شتى.

الفصل الثالث والثلاثون

الجمعة(12)

توجد في سفح هذا الجبل، على المحجة المؤدية من فاس إلى مكناس مدينة صغيرة يجعلها بطليموس في الدرجة السابعة والدقيقة الاربعين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين، وثلاثين دقيقة عرضاً، ويسميها «كونتيان». بناها الأفارقة القدامى على ربوة شديدة الارتفاع، بحيث إنها محصنة صناعياً وطبيعيا. ونظرا لكون السكان قطاع طرق كبار، أعداء أزليين لكل فضيلة، فإن الملك المريني قبل الاخير دمرها، ولم يُعَد تعميرها منذئذ. ويسكن البلاد المجاورة اعراب فقراء، يعيشون هم الآخرون على اللصوصية.

ولنتحدث عن غيرهم من الذين يعيشون بكيفية أخرى، وعلى طريقة البربر.

---

(12) هي «قصر بلاحيا» عند الوزان (مترجم).

الفصل الرابع والثلاثون

الجبال وسكانها

مساكن سايس

توجد على بعد سبعة فراسخ من فاس في اتجاه الغرب، مساكن تمتد إلى حدود جبل كَريكَرة المطلة على الشمال. إنها بلاد منبسطة كانت فيها قديماً عدة مدن وقصور للبربر، لكن لم يبق لها اي أثر. طول هذه البلاد ستة فراسخ من الشرق إلى الغرب، وعرضها سبعة، تستخرج منها كمية وافرة من القمح، لكنه دقيق أسود. وهناك رهط من الأعراب[13] يتنقلون عبر هذه الحبال في دواوير، لكن لا يفوتهم أن يعيشوا على طريقة البربر، ويعوزهم الماء كثيرا، لقلته في هذه السهول. ويمنح الملك عادة دخل هذه البلاد إلى عامل مدينة فاس.

الفصل الخامس والثلاثون

بني وارثين[14]

وهناك مسكن آخر للأعراب[14م] على بعد سبعة فراسخ من فاس من ناحية الشرق، يقطنون في ديار مثل البربر، لا في خيام مثل غيرهم. تنيف قراهم عن مائتين، ويجمعون كمية من القمح : ذلك لأن البلاد، وإن كانت كثيرة الجبال والشعاب، ممتازة للحرث ورعي قطعان الماشية، ويمكن ان تغرس فيها كمية هائلة من الكرم والزيتون والأشجار المثمرة. لكنهم يتجرون في القمح والمواشي، مع كمية من الارز، يحملون ذلك الى فاس وغيرها من الاماكن قصد البيع. هم قوم غلاظ يشتغلون دائماً بشؤون منازلهم دون أن يعتزوا بالتمدن ولا بالقوة، ولذلك لا يتخذون فرساناً أصلا. كما أن هناك قبائل اخرى يحملون نفس الاسم[15] يمتزجون بالأعراب والبربر، ويتنقلون عبر هذه المناطق دون أن يكون لهم سكن قارّ محقق، ولهم مع ذلك ثروة طائلة من القمح والماشية ومرابط كبيرة للخيل والابل. ويقطع ملوك فاس عادة هذه البلاد إلى إخوانهم وأبناء إخوانهم عندما يكونون صغار السن، لقربها من المدينة.

---

(13) بني مسيل.

(14) وردت عند الوزان قبل عنوان «ناحية السايس». (مترجم).

(14م) أولاد مطاع وأولاد أهشة.

(15) بني وارثين.

الفصل السادس والثلاثون

تغات

جبل طويل جدا وضيق، يقع على بعد فرسخين من فاس في ناحية الغرب، ويمتد نحو الشرق الى نهر بونصر، عبر مسافة فرسخين. كل الواجهة المطلة على مدينة فاس مكسوة بالكروم، لكن الجانب الآخر وكذا القمة يشكلان اراضي صالحة للحرث[16]. معظم هذه الكروم في ملك أهل فاس، لكن عنبها وما تنتج من الفواكه الاخرى ليس لها طعم طيب، ولذا فإنها تنضج باكرةً قبل غيرها.

يقطن السكان في ضيعات صغيرة، وكلهم عاملون، يذهبون دائماً الى الحقول، بحيث لا توجد بلدة ولا قصر. وفي كل فصل شتاء ياتي الى هذه الجبال سكان فقراء[17] من فاس للبحث عن كنوز يزعمون أن الرومان تركوها لدي انصرافهم. يقولون إن لهم تقاييد مثبتاً فيها الأماكن التي تحتوي عليها، ولا يمكن علاجهم من هذه الفكرة التي ورثوها خلفاً عن سلف، فيضيعون وقتهم ومالهم في حفر الجبل كله. يقولون إن هذه الكنوز مسحورة وإنها لا تكتشف ما دام لم يبطل السحر. ومع ذلك فإنهم منصرفون الى هذا البحث الذي لا طائل وراءه منذ أزيد من خمسمائة سنة، ويقول الكثير منهم إنهم اكتشفوا بعضها، لكنهم لا يستطيعون أخذها للسبب الذي ذكرناه ولشدة رسوخ هذه الخرافة في ذهن هؤلاء القوم الشرسين الذين يولون اهتماما كبيرا للكتب التي تتحدث عنها.

الفصل السابع والثلاثون

كَريكَرة

جبل آهل بالسكان، ينبع منه نهر أغبال الذي يسيل الى بهت نحو الغرب. وهو قريب من الاطلس الكبير، على بعد ثلاثة عشر فرسخاً من فاس، مفصول عنها بسهول سايس، لكن هناك ايضاً سهول أكثر امتداداً فيما وراء ذلك بينه وبين الاطلس الكبير يقطنها أعراب مقيمون كالبربر. كما انه ياتي كل سنة من

---

(16) يطل هذا الجانب على نهر مكناس.
(17) هم الباحثون عن الكنوز.

نوميديا[18] بمواشيهم أعراب[19]، يتحاربون مع هؤلاء باستمرار، ويرسل ملوك فاس كل سنة جنوداً من الفرسان والراجلين لمقاتلتهم، لأنهم غير خاضعين له كغيرهم[20]. حقاً إنهم اليوم خاضعون للشريف الذي يحكم حالياً، لذلك فإنه يدعهم يرعون هناك بمواشيهم، مدعياً أن البلاد ملك له لا للأعراب[21] الذين يحتلونها ثم يعودون إلى صحرائهم في فصل الشتاء.

تنبع في هذه السهول عدة عيون، وتجري فيها بعض الانهار التي تنحدر من جبال الاطلس. لذلك فإن هناك غابات كبيرة كثيفة مليئة بالأسد والفهود، وهي عادية أو وديعة لدرجة أن النساء يطردنها بالعصي كالكلاب. يحمل السكان اسم جبلهم[22]، وهم في غاية الغنى والشجاعة، يحصدون الكثير من القمح والشعير، ويملكون كمية من قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة. قراهم متعددة عامرة، لكن ليس هناك مدينة، ولا قصر، ولا بلدة مسورة، لأن وعورة المسالك تصلح لهم كوسائل للدفاع.

الفصل الثامن والثلاثون

إقليم أزغار

يبدأ هذا الإقليم عند نهر ابي رقراق غرباً، ويمتد في الجانب الآخر إلى أحد جبال الريف، منتهياً في بعض المواضع الى جبلي زرهون وزلاغ. يحده المحيط شمالا، ونهر بونصر جنوباً ويدعى أزغار، أو البحر المتباعد، لما يقال إنه كان مغموراً في القديم بالبحر الذي كان يصل حتى مدينة انزار، على مسافة اربعين فرسخا داخل البلاد، ثم تراجع بعد ذلك، تاركاً جميع هذه السهول مكشوفة، وهي غنية بالمحاصيل الزراعية. كان يسكنها في قديم الزمان شعب غني قوي، وله فيها عدة مدن وقرى دمرت ودكت دكا، لكن بعضها يقطنها البربر منذ القديم.

طول أزغار سبعة وعشرون فرسخاً من الشرق الى الغرب، وعرضه عشرون من الشمال الى الجنوب. يخترقه من طرف الى طرف وادي سبو الكبير، وتملكه

(18) من سهول أذازن.
(19) هم اولاد زيد.
(20) هم اولاد حسن وأولاد أزمور.
(21) أولاد زيد.
(22) كَرايكَرة.

قبيلتان(23) من أقوى أعراب موريطانيا الطنجية، وهم يخضعون لملك فاس وبانون لخدمته بعدد كبير من الفرسان لأنهم في غاية الشجاعة، لكنهم إذا طالت الحرب عادوا الى ديارهم في أول فرصة تتاح لهم، ولا سيما إذا لم يجدوا ما ينهبون. وهذا أغنى إقليم بإفريقيا قمحاً، وماشية، وصوفاً وسمناً، وجلداً، يُمدّ بذلك مدينة فاس وجميع جبال اقليم الريف التابعة لبادس وغمارة.

الفصل التاسع والثلاثون

المــدن

جمعة القرواش

هي مدينة صغيرة أسسها يعقوب المريني، على ضفة واد (24)، في سهل على الطريق الكبير المؤدي من فاس إلى العرائش. كانت غنية آهلة بالسكان في حياة هذا الامير ومَن خلفه الى أن دمرت أثناء حروب سعيد، ثم لم يُعد تعميرها منذ ذلك العهد. يملك الأعراب(25) الأراضي المجاورة، ويدخرون حبوبهم في مطامير المدينة التي سقطت أسوارها الآن إلى الأرض، ويطحنونها في طاحونتين قائمتين على النهر. يصب هذا النهر في نهر آخر(26) يصب بدوره في أم الربيع (كذا)، وكلها تصب في المحيط قرب مدينة أزمور.

الفصل الاربعون

العرائش (27)

مدينة قديمة أسسها أهل البلاد على الساحل، عند مصب وادي ليس(28) في المحيط. يحدها البحر من جهة، والنهر من جهة اخرى، وكانت عامرة قبل أن تؤول أصيلا الى المسيحيين، لكن السكان هجروها إذ ذاك خيفة، إلى أن حصنها مولاي ناصر وعمرها من جديد(29) لتكون حاجزاً ضد مسيحيي طنجة وأصيلا، وإن

(23) بني مالك سفيان، والخلط.
(24) واد الرَّكيلة.
(25) بني مالك سفيان.
(26) هو كَرْكور.
27) عرائش بني عروس، بلغة البلاد.
28) أو لكوس.
29) بعد 20 سنة.

كان يخشى دائماً أن ياتوا للاستيلاء عليها، لذلك كانت مزودة دوماً بالمدفعية والعدد والمؤن. إن مدخل النهر خطير جدا على السفن، وقد شيد مولاي ناصر قصراً قريباً من هناك. المدينة محاطة بأسوار، تكتنفها سهول كبيرة ومستنقعات يكثر فيها سمك الانقليس (النون) والعديد من الطيور النهرية، وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة مليئة بالأسد وغيرها من الوحوش. جل السكان فحامون، وأهم تجارتهم الفحم الذي كانوا ينقلونه على زوارق صغيرة ليبيعوه في مدينتي طنجة وأصيلا عندما كانتا للمغاربة، ثم أصبحوا يبيعونه للمسيحيين في عهد السلم. تجنى كمية وافرة من القطن في الحقول المجاورة، ويصطاد العديد من الشابل في النهر. وهناك ميناء صالح للسفن الصغيرة، حيث ينزل التجار المسيحيون بسلعهم الاوربية التي يحملونها الى فاس أو الى مكان آخر. وهم الآن في أمان اكثر مما كانوا عليه قبل أن يتخلى ملك البرتغال عن أصيلا، وليس للشريف الذي يحكم اليوم سوى عامل واحد للمدن الثلاث : أصيلا، والقصر الكبير، والعرائش، ومعه خمسمائة فارس وأكثر من ألف من رماة البنادق لشن الغارات على طنجة، ويقيم عادة بالقصر، وإن كان يذهب مرة بعد أخرى لتفقد الحدود كلها.

كيف أحرق دُم يوحنا دي منيسيس، عامل أصيلا سفناً مغربية في نهر العرائش

على بعد خمسة فراسخ من العرائش تقع أصيلا التي كانت تقلق راحة المغاربة دائماً، لأن المسيحيين كانوا يشنون منها الغارات على البلاد. وعندما كانت السفن الحربية لتطوان أو غيرها من الثغور تلتجىء إلى ميناء العرائش، كان المغاربة يستعملونها للهجوم على الشواطىء المسيحية. وفي سنة 1504 خرجوا من هذا الميناء بسفينة حربية في ملك عامل تطوان، وخمس غليوطات احتياطية، فاستولوا على اربع سفن برتغالية من نوع كرافيل كانت تحمل المؤن على الحدود، ثم سحبوا جميع سفنهم الى البر لما رجعوا بهذه الغنيمة. ولما بلغ الخبر دُم يوحنا دي منيسيس، وهو يومئذ عامل أصيلا، أمر على الفور بإبحار جنود أشداء في أربع كرافيلات كانت في الشاطىء، واتجه بهم نحو العرائش، بعدما ارسل خمسة فرسان في البر، وزورقاً يسير محاذياً لطول الشاطىء للتعرف على المكان الذي سحبت فيه السفن الى اليابسة. وعندما بلغه الخبر اليقين عن كل شيء انطلق فجرا مع كرافيلاته الأربع الى مصب النهر. كانت سفينة العامل على اليابسة قرب حصن، ولما علم المغاربة

الذين كانوا يقومون بالحراسة أنها مراكب مسيحية، أعلنوا الإنذار على الفور، وبدأوا يقصفون بالمدفعية. لكن دُم يوحنا دي منيسيس أمر بحشو جانب احدى كرفيلاته بِفُرُش وأكياس من الصوف، وأرسل الربان ليستقر أمام الحصن ، حتى تتمكن السفن الثلاث الاخرى من الدخول. وبعد أن نُفذ هذا الامر اجتازت بسهولة، لأن المدَّ كان مرتفعاً، وكذلك الأخريات دون أن يلحقها أي ضرر، وإن كانت تُقذف بعنف سواء من الحصن أو من السفينة الحربية التي كانت على اليابسة. عند ذلك نزل المسيحيون وقاتلوا بشجاعة المغاربة الذين خرجوا مسرعين من المدينة للتصدي، وبعد أن هزموهم أحرقوا السفينة الحربية، وسحبوا الى البحر الغليوطات الخمس مع سفينة شراعية وإحدى الكرافيلات التي اخذها المغاربة وساقوها الى اصيلا، بعدما احرقوا السفينة الحربية والكرافيلات الاخرى لعدم تمكنهم من سحبها من المكان الذي كانت فيه دون التعرض للخطر. وقد كان بإمكانهم أن ينهبوا العرائش لو خططوا لذلك لشدة ما أنجزت به العملية من جرأة ونجاح.

الفصل الواحد والاربعون

القصر الكبير(30)

هذه المدينة التي معناها باللغة العربية القصر العظيم أسسها رابع ملوك الموحدين(31). ذلك أنه(32)، عندما كان يصطاد في هذا المكان ضل طريقه في المساء بين عدة بحيرات ومستنقعات، ففاجأته عاصفة ونزل قرب شجرة لا يعلم اين يلتجيء، فأمسك فرسه من اللجام، ومكث هناك قسطاً كبيراً من الليل، حتى ابصر على ضوء مصباح صغير صياداً يصطاد سمك الأنقليس، فاندهش هذا الأخير لرؤيته وسأله ماذا يفعل هناك، ومَن هو. فأجابه قائلا إنه أحد حاملي سلاح الملك، وطلب منه أن يقوده إلى المحلة التي ضل عنها. فاعتذر الصياد عن ذلك، بسبب رداءة الطقس، وطول الطريق التي كانت تمتد على ثلاثة فراسخ، قائلا إنه يخشى الهلاك في هذه المستنقعات. وعندما ألح الملك وهو يقدم له وعوداً كبيرة، أجاب بأنه لا يفعل ذلك ولو كان هو الملك الذي يحبه من صميم قلبه، خوفاً من أن يوقعه في الهلاك. قال له الامير : «وماذا يهمك منه؟» فأجاب قائلا : «لأنه

(30) أو قصر عبد الكريم.

(31) هو يعقوب المنصور.

(32) رواه ليون أو عبد الرحمن [يقصد الحسن الوزان، ويدعوه غالبا : عبد الملك] (مترجم).

يمتعنا بما نملك في أمان، ويضمن العدل للشعب». ثم صحبه الى كوخه، وأطعمه لحم جدي ذبحه له. وفي الغد ذهب به ليلتحق بقومه الذين كانوا يبحثون عنه في جميع الجهات عبر هذه المستنقعات، وأثناء مسيرهما أخبره الملك بجلية أمره وسأله عن الجزاء الذي يريده عن الخدمة التي أداها اليه. فطلب منه الصياد أن يبني له داراً في ذلك المكان يقضي فيها بقية أيامه مع أسرته، فشيد قصرا فخما كان يذهب اليه أحياناً للتسلية، وجعل الصياد بوابا له، ثم حصنه ومنح إعفاءات لمن يسكن الدور التي بناها بجواره، حتى أصبح عدد السكان يربو على ستمائة في أقل من لمح البصر، لأن البلاد بهيجة حسنة، يقصدها الملوك للتسلية بالصيد طوال الصيف. وأطلق اسم هذا الصياد(33) على القصر، وإن سمي فيما بعد القصر الكبير، لتمييزه عن القصر الصغير.

يمر نهر اللكوس قرب المدينة حتى إنه يدخلها عندما يفيض، ويجرف منها الدور أحياناً. المدينة آهلة بالتجار والصناع، وفيها عدد من المساجد ومستشفى شيده يعقوب المنصور. لكن ليس فيها ابار ولا عين ماء عذب، وإنما هناك خزانات في كل مكان تتلقى مياه المطر التي يستعملها السكان، لان ماء النهر غير صالح، وهو حار في الصيف مثل ماء الحمام. إنهم قوم مستقيمون، قليلو المكر، يتزينون جيدا، ويملكون بساتين خارج المدينة، يجنون منها جميع أنواع الثمار، فضلا عن كرومهم التي لا طعم لعنبها إطلاقا، لوجودها في مرج. يقام سوق قرب المدينة كل يوم اثنين، يقصدة الأعراب والبربر من المنطقة المجاورة بالقمح، والمواشي، والتمر، والسمن، والصوف، والجلود، وغيرها من البضائع. ومنذ أن تخلى ملك البرتغال عن أصيلا، أصبحوا أغنياء وأكثر اطمئنانا من ذي قبل.

غارة شنها البرتغاليون حتى أبواب القصر الكبير

ولنتحدث الآن عن غارة شنها البرتغاليون على هذه المناطق.

ففي سنة ألف وخمسمائة وثلاث عزم العجوز دم يوحنا دى منيسيس، الذي كان رئيس دير أوكراط، مع ابن أخيه الذي كان سميَّه، أن يشنا غارة على

(33) اي عبد الكريم (؟)

أبواب القصر الكبير، وذلك عندما علما بأن الحرس غادروا المدينة مع العامل، وأن السكان ليسوا محترسين. فانطلقا في منتصف الليل بأربعمائة فارس، لكن العامل الذي كان قد غادر في العشي، حمل عليهم مع أعراب هذه المناطق(34) الذين كانوا بصحبته، فانحدروا من ربوة وجعلوا يقاتلون بشجاعة، فاذا برئيسي المسيحيين يخفضان رمحيهما ويتَّقيان بترسيهما، حاملين عليهم بشدة، إلى أن هزماهم، وطارداهم إلى الأبواب، حيث قتلا منهم أكثر من مائتين، ولم يُرد السكان أن يفتحوا الأبواب، بل بالعكس، كانوا يصيحون على قومهم من أعلى البرج أن يولوا وجوههم ليحملوا على النصارى الذين كانوا في اضطراب، الشيء الذي أرْغمهم على أن يولوا وجوههم شطرهم، فوجدوا المسيحيين متفرقين، فقتلوا وجرحوا منهم الكثير، والتحق الرئيسان بباقي الجنود بأقصى ما امكنهما من جهد، وعادا الى أصيلا منكسرين شيئا ما بسبب خسارتهما.

الفصل الثاني والأربعون

ناحية الهبط

يبدأ هذا الاقليم الذي هو رابع أقاليم المملكة حسب الترتيب الذي اتبعناه، عند مستنقعات إقليم أزعار من جة الغرب، ويمتد نحو الشرق الى جبال الريف، مشتملا على الجبال الأخرى الواقعة في مضيق جبل طارق. يحده نهر ورغة جنوبا، والمحيط شمالا. وطوله سبعة وعشرون فرسخا من الغرب الى الشرق، وأكثر من خمسة وثلاثين فرسخا من الجنوب الى الشمال. هذا الاقليم عبارة عن سهل تكثر فيه الحبوب والقطعان، وترويه عدة أنهار كبار تنحدر من الجبال وتصب في هذا البحر. يتحدث مؤرخو افريقيا بإسهاب عن هذا الاقليم، لكونه أشهر أقاليم البلاد بأسرها، وهو الذي كان يسمى الطنجي، وفيه كانت أكثر المدن التي بناها الرومان والقوط. لكن عندما تأسست مدينة فاس، ذهب أفضل السكان إليها ليقطنوها، اجتنابا لاضطرابات الحرب، وخاصة منذ أن غزا البرتغاليون أهم مدن الساحل، التي ما زالوا يحتلون بعضها حتى اليوم.

(34) الخلط وبني مالك سفيان.

الفصل الثالث والأربعون

المدن

إزاجن (أو أَزْجَن)

على بعد ثلاثة فراسخ من نهر أركَيل (35) في منحدر جبل توجد مدينة قديمة من بناء أهل البلاد، يقع سهل جميل بينها وبين النهر، حيث البساتين الكثيرة، وحيث يحصد القمح بوفرة هناك وفي الجبل الجيد التربة. تبعد إزاجن عن فاس بثلاثة وعشرين فرسخا، ويقطنها نحو سبعمائة نسمة في ضيعات عديدة متفرقة حولها وتابعة لحكمها، فضلا عن أخرى ذات نفس النظام. لكن العامل مضطر إلى اتخاذ خمسمائة فارس لحراسة الاقليم، بسبب البرتغاليين الموجودين في عمق مسافة عشرة أو عشرين فرسخا. لهذه المدينة أسوار جيدة حسنة المنظر، والسكان أغنياء يتعامل معظمهم مثل أهل فاس، وإن كان لباس بعضهم شبيها بزي البربر. يسمح لهم الملك بعصر الخمر وبشربها، فيصنعوها ممتازة، ولهم كروم عظيمة. وفي المدينة عدة عيون، تخرج منها فتسقي الأراضي الفلاحية، حيث يجنى من أجل ذلك كثير من الكتان والقنب. ويقام هناك سوق كل يوم ثلاثاء، يقصده أعراب المنطقة وبربرها، بسلع البلاد وبالمؤن.

الفصل الرابع والأربعون

بني تَوْدِي، (أو تَوْدَة) في نفس الإقليم

تقع هذه المنطقة على ضفتي النهر (35 م) الذي ذكرناه منذ قليل، ويطلق اسمها على البربر المقيمين في الأراضي المجاورة. أسسها الأفارقة القدامى، وكانت تدعى بَابَا، أو جوليا كامبِّيستري حسب بطليموس الجديد، الذي يجعلها في الدرجة الثامنة والدقيقة العاشرة طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة العشرين عرضا. توجد في سهل جميل، على بعد ثمانية عشر فرسخا من فاس إلى جهة الشمال، وكانت تضم ــ على ما يبدو ــ ستة آلاف دار. لكن الخليفة الشيعي القائم دمرها أثناء حربه ضد الأدارسة، عندما غزا هذا الاقليم، بحيث لم يبق منها سوى الأسوار، وبقايا بعض المباني القديمة الرائعة. فيها ثلاث سقايات ذات

(35) نهر ورغة عند الوزان (مترجم).
(35م) هو ورغة.

أحواض كبيرة من الرخام والمرمر، وبعض الأضرحة كذلك، تدل على أنها قبور شخصيات مرموقة. وتمتد على مسافة خمسة فراسخ من هذه الأنقاض الى أوائل جبال غمارة، وهذه البلاد خصبة يملكها البربر المذكورون، لكنهم خاضعون لبعض الأعراب، الذين هم أقوى منهم وأكثر حبوبا ومواشي.

الفصل الخامس والأربعون
أمَرْكِي (أو أمَرْكَو)

توجد على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة السابقة، على قمة جبل شاهق، مدينة أخرى كانت تسمى قديما طوكولوزي، حسب بطليموس الذي يجعلها في الدرجة السابعة والدقيقة العاشرة طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة الثلاثين عرضا. خربها نفس الخليفة، كما خرب جميع المدن الأخرى المجاورة، لكن الأسوار ما زالت قائمة، وتشاهد عليها بعض النقوش بالأحرف اللاتينية التي تبين أنها من تأسيس الرومان منذ زمن طويل. ومنذ تخريبها أنشئت مساكن كبيرة على منحدر هذا الجبل، تحمل اسم المدينة، ويقطنها نساجون، والسهل الواقع في الأسفل أرضه جيدة خصبة. وينبع في هذا الجبل من الجانبين نهران كبيران، يبعد أحدهما عن الآخر بأربعة فراسخ، وهما سبو وورغة، الواحد في الجنوب، والآخر في الشمال. ويقطن هنا وهناك بربر (36) يدعون أنهم أشرف سكان افريقيا قاطبة. وهم في غاية الشجاعة، لهذا فإنهم متكبرون أشرار.

الفصل السادس والأربعون
تَنْزَرْت (37)

هذه المدينة، التي يسميها المؤرخون العرب تهرت، والتي يجعلها بطليموس في الدرجة التاسعة طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة العاشرة عرضا، تحت إسم «تريزيد»، أسسها الرومان على تل، ويسكنها زهاء سبعمائة نسمة، لا يشتغلون الا بالحرث ورعي المواشي، والبلاد صالحة جدا لذلك. يقول ابن الجزار في جغرافيته إنها من بناء العمالقة، وإنه عُثر في عهده على قبور تضم رؤوسا طول

(36) غمارة وصنهاجة.
(37) سماها الوزان «تَنْصُر» (مترجم).

جماجمها قدمان في كل اتجاه. وقد دمر الخليفة المذكور هذه المدينة، لكن قوما من البربر عمروا من جديد بعض أحيائها، وبقي سائرها خاليا.

الفصل السابع والأربعون
أكلا

يشاهد على ضفاف ورغة آثار مدينة قديمة أسسها أهل البلاد، ودمرها خليفة القيروان الشيعي. لم يبق فيها قائما سوى الأسوار. يقام بالقرب من هنالك سوق كل يوم سبت يقصده الأعراب والبربر من المنطقة، وعدة تجار من فاس وغيرها، لبيع بضائع البلاد وشرائها. والأرض الزراعية حولها جميلة جدا، يقطنها أعراب وبربر، يعيشون في الخيام. وهناك عدد من الأسد، لكنها جبانة لدرجة أن طفلا يطردها. ويقولون بفاس، إذا أرادوا أن يرموا أحدا بالجبن بانه مثل أسد أكلا، التي تأكل العجول أذنابها. وقد بقيت بعض الآبار داخل المباني، يرتوي من مائها الذاهبون الى السوق، لعدم وجود الماء في هذه النواحي كلها.

الفصل الثامن والأربعون
فريكسة (48)

تشاهد على بعد ثلاثة فراسخ من إزاجن، على جبل صغير يكتنفه نهر اللكوس، آثار مدينة صغيرة أسسها الأفارقة القدامى، تحيط بها حقول جيدة، رغم كون البلاد مرتفعة منحدرة مليئة بمجاري السيول. لكن توجد غابات كثيفة على طول النهر، تكثر فيها الوحوش. وقد نهبها برتغاليو طنجة وأصيلا سنة ألف وأربعمائة واحدى وثمانين(38م) وأضرموا فيها النار، بحيث لم تعمر منذ ذلك العهد.

الفصل التاسع والأربعون
جزيرة (39)

توجد في وسط نهر اللكوس على بعد ثلاثة فراسخ من المحيط، في اتجاه مضيق جبل طارق، وعلى مسافة ثلاثين فرسخا من فاس، جزيرة يسميها

(38) سماها الوزان «نارنجة» (مترجم).
(38م) 895 ه.
(39) انظر الحسن الوزان، ص. 309. الهامش 99. (مترجم).

البرتغاليون «المليحة»، تشاهد فيها آثار مدينة قديمة أسسها الأفارقة. وعندما بدأ البرتغاليون يقيمون بافريقيا، لم يكن هناك سوى صيادين وقوم مساكين ، لكن ملك البرتغال لما رأى من المناسب أن يحصنها لسهولة إمدادها من جهة البحر، أرسل إليها أسطولا كبيرا صعد إليها عبر النهر، وشرع في بناء قلعة فيها(39م) . وفي هذه الأثناء حشد ملك فاس كل ما أمكنه من المقاتلة للحيلولة دون هذا المشروع، على أنه توقف على مسافة نصف فرسخ من الجزيرة، ولم يجرؤ على متابعة سيره، بسبب المدفعية البرتغالية التي كانت تقصف جميع السهل المحيط بها. وبينما كان هذا الأمير متحيرا في إيجاد وسيلة لايقاف العمل الذي قد يسبب خراب الاقليم، اقترح عليه أحد الاسلاميين اختراعا من شأنه أن يدمر أسطول المسيحيين برمته دون فقدان أي رجل. فأمر بقطع كمية وافرة من خشب الغابات الواقعة على ضفتي النهر، وأغلق ممر النهر بسد أو حاجز أمر بجره مستعرضا على مسافة نصف فرسخ أسفل المكان الذي يوجد فيه البرتغاليون. لكن ملك فاس ترك لهم حرية المرور تفاديا لوقوع قتال خطير، في مقابل أسرى من ذوي الحيثيات أطلق البرتغاليون سراحهم. وقيل انه فعل ذلك جزاء لحسن المعاملة التي عامل بها ملك البرتغال(40) أبناءه عندما أُسروا. فتركت القلعة ولم تسكن منذ ذلك العهد، وكذلك المدينة.

الفصل الخمسون
البصرة (41)

على بعد سبعة فراسخ من القصر الكبير شيدت هذه المدينة على نهر اللكوس في سهل واقع بين جبلين، من قبل ابن مؤسس فاس(41م) بعيدة عنها بأربعة وعشرين فرسخا. وسماها البصرة، تذكيرا بمدينة أخرى تحمل نفس الاسم وتوجد في اليمن من الجزيرة العربية(42)، حيث يتمتع عليّ(43) أحد أسلافه بتقدير كبير، وحيث مات حسب قول بعضهم. في البصرة ما يزيد على ألفي دار، وكان

(39م) سنة 1477=894 هـ.
(40) الملك ألفونس.
(41) كتبت في الأصل : بيزار أو بيصرة. (مترجم).
(41م) محمد (بن ادريس).
(42) البصرة معروفة في العراق شمالي الجزيرة العربية لا جنوبيها (مترجم).
(43) صهر محمد (عليه السلام).

سكانها في غاية الغنى قمحا وماشية، والبلاد صالحة جدا لذلك. ومن عادة ملوك فاس أن يذهبوا اليها لقضاء الصيف، بسبب برودة المياه والغابات، ولأنها من أحسن أماكن الصيد. لكن دمرها الخليفة المذكور(44)هي وسائر مدن الاقليم، ولم يقبل الأعراب أن تعمر من جديد منذ ذلك العهد، ليتمتعوا بالمنطقة في أمان. وما زالت تشاهد الأسوار مثلومة في بعض الجهات وخرائب القصور والمساجد، وتحولت البساتين المحيطة بها إلى غابة لتعطّل الفلاحة.

الفصل الواحد والخمسون
الحُمَّـر

توجد بين أصيلا والقصر الكبير، على بعد خمسة فراسخ من كل منهما، مدينة صغيرة أسسها ـــ على ما يقال ـــ ابن مؤسس المدينة السابقة(45). وموقعها حصين، لأنها مبنية فوق ربوة، على ضفة نهر صغير (46)يروق منظر أسوارها من بعيد. وعندما استولى البرتغاليون على مدينتي طنجة وأصيلا، غادرها السكان ولم يعودوا إليها منذ ذلك العهد(47)، لكنها أخذت تعمر من جديد بالبربر عندما أخلى (المسيحيون) أصيلا، لأن البلاد جميلة منبسطة، غنية بالقمح والمراعي. وتوجد في الضواحي عدة أشجار مثمرة وبعض الكروم، ويجنى الكثير من الكتان في البادية بسبب النهر الذي تسقى به. لكن السكان فيها مضايقون من طرف الأعراب، لدرجة أنهم فقراء مدقعون، يشتغل معظمهم بالنسيج.

الفصل الثاني والخمسون
أصيـلا (48)

مدينة أزليّة، على بعد سبعة وأربعين فرسخا من فاس، وسبعة فراسخ من مضيق جبل طارق، من جهة الغرب. يجعلها بطليموس في الدرجة السادسة والدقيقة الثلاثين طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة العاشرة عرضا،

(44) القائم (الشيعي).
(45) علي بن محمد (بن ادريس).
(46) وادي الريحان.
(47) سنة 1471.
(48) كتب في الأصل : أرزيلا.

ويسميها «زيلي». تعد في الخرائط الجديدة من جملة المدن الواقعة داخل البلاد، لأن المحيط يشكل هناك رصيفاً رمليا سميكا، ويتوغل كثيرا في الأراضي. يسميها المؤلفون الأفارقة أصيلا، ويقولون إنها من تأسيس الرومان، وإنها كانت من ملحقات سبتة. ثم احتلها القوط بعد ذلك التاريخ، وأقاموا فيها حامية دامت إلى عام أربعة وتسعين للهجرة حيث استولى عليها العرب بعد سنتين من فتح اسبانيا،(48م)، وذلك حسب رأي الذين يجعلونه عام اثنين وتسعين، لا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ. لقد سقطت أصيلا إذن في يد القوط بعد سنتين من احتلال سبتة، ثم اضطرت الى الاستسلام لحرمانها من كل إغاثة. فجملها العرب كثيرا، وصارت من أشهر المدن، سواء من حيث البضائع أو من حيث الآداب والأسلحة، لكن الانجليز هاجموها بعد مائتين وعشرين سنة(49) انتقاما من العرب الذين كانوا يجتاحون شواطىء اكوصيا وانجلترا، جاءوها بأسطول قوي وأخذوها عنوة غير أنهم فقدوا كثيرا من الرجال، فاغتاظوا لذلك وأمعنوا فيها قتلا وإحراقاً، وبقيت خربة إلى أن عمرها ملوك قرطبة،(50) بعد عشرين سنة وأسكنها التجار والمحاربين وحصنها، وكانوا يجهزون من هناك سفنا حربية يجتاحون بها الشواطىء المسيحية، الأمر الدي تسبب مرة أخرى في دمارها، كما سنذكر ذلك فيما بعد.

موقع أصيلا ممتاز وأسوارها متينة معززة ببروج، وفيها قصر حصين، لكن قوتها الرئيسية تأتي من صعوبة الدخول الى مينائها بسبب وجود الرصيف الرملي(51)

لذلك أخلاها البرتغاليون الذين كانت تصعب عليهم إغاثتها من البحر. البلاد المحيطة بها صالحة جدا للحبوب والمواشي، ولجميع أنواع الفواكه، وكان ريعها كبيرا لولا الغارات التي يشنها عليها مسيحيو طنجة فيجتاحونها في كل وقت.

كيف انتزع ملك البرتغال أصيلا من المغاربة

عزم ألفونس، خامس ملوك البرتغال، عندما أدرك أهمية هذه المدينة، سواء بالنسبة لغزو إفريقيا أو بالنسبة لتأمين المؤن والعدد المحمولة الى سبتة، عزم على

(48م) سنة 703.
(49) سنة 936.
(50) عبد الرحمن بن علي.
(51) أوسد.

مهاجمتها، بينما كانت الحرب مستعرة في مملكة فاس. ذلك لأن مولاي الوطاسي، أي سعيد، الذي كان مقيما بأصيلا، تزعم ثورة هذا الاقليم. وان أحد سكان فاس المسمى الشريف[52] وكان معظما محترما من طرف الشعب، قتل آخر بني مرين، وتلقب بملك فاس، ولذلك شهر بعض رؤساء هذه الأسرة (المرينية) السلاح ضده. وتوجه سعيد على الخصوص فورا إلى فاس، آملا أن يستولي عليها، لكنه هُزم واضطر الى الفرار. غير أنه لما علم بعد ذلك أن قائد جيوش الشريف الذي كان محل ثقته نظرا لشجاعته قد ذهب ليخمد اضطرابات في إقليم تامسنا، أعاد الكرة على فاس وانقض عليها بثمانية آلاف من الأعراب، فحاصر فاسا الحدبد سنة كاملة، إلى أن أسلمها السكان، ففر الشريف مع ذويه إلى مملكة تونس. وفي أثناء هذا الحصار حشد الملك ألفونس أسطولاً من مائتي سفينة كبيرة وصغيرة وانطلق بها من لشبونة مع عشرين ألف مقاتل وبصحبة ابنه، فوصل إلى أصيلا ليلا وأرسى على طول الرصيف. وفي غداة الغد أمر بالنزول إلى الأرض كلّا من دم الفاري دي كاسترو ودم يوحنا كوتينيو[53] مع جنودهما، وذلك لاستطلاع مكان يمكن أن توضع فيه المدفعية، والمؤن، والعدد، والجيش كله، بقصد مهاجمة المدينة. فأبحر هذان الاميران ذلك اليوم مع جميع رجالهما في زوارق وسفن صغيرة أخرى لينزلا إلى الأرض[54] لكنهما عانيا مشقة كبيرة للتغلب على الأمواج بالتجذيف بسبب هيجان البحر، وصعب النزول من جراء الكتل الرملية المتكونة في مدخل الحاجز. ولما تأخر في النزول إلى الأرض، ركب الملك مع ابنه في زوارق الانقاذ التي كانت جاهزة، ووصل إلى المكان الذي كانا فيه. فتسارع جميع الذين تركاهما في السفن متنافسين في اقتفاء أثرهما فنزلوا إلى الأرض أخيرا بالرغم على الرياح والأمواج، لكن ذلك لم يتم بدون فقدان بعض السفن، وهلاك أكثر من مائتي شخص. وحينما نزل الملك مع جنوده، لم ينتظر أن يُسحب من الماء السياجُ[55] الذي حملوه للوقاية من الفرسان ، وأقام معسكره وحصنه بسرعة، حسبما تقتضيه خاصية المكان وموقعه. إلا أن المدينة لم يخرج منها أحد ولو أنه كان فيها عدد من الحنود الكفاة. ومن شدة

(52) ليس هذا هو الشريف الشهير
(53) كونت دي مونسانطي ودي ماتيالفا.
(54) كان ذلك في 14 غشت.
(55) أو الحاجز.

هيجان البحر لم يستطيعوا أن يسحبوا الّا مدفعين من السفن، جعلوا يقصفون بهما المدينة، فأسقطوا شِقّين كبيرَيْن من السور في ظرف ثلاثة أيام. وفي فجر اليوم الرابع(56) أبصر رجالُ معسكر دم ألفاري الذين كانوا في جهة القصر راية بيضاء في أعلى أحد البروج. وفي الحين أشعر المحاصرون بأنه يمكنهم الخروج بكامل أمان. وإذ ذاك خرج مغربي، وأخبر الكنت بأن العامل يريد أن يستسلم، فأبلغ الكنت هذا النبأ إلى الملك، الذي أمر بأن تمنح له جميع الضمانات الضرورية. لكن بعض الجنود والضباط الذين غضبوا من حرمانهم من ثمرة غزوهم، صعدوا جماعة إلى الثلمة التي كانت مكشوفة بسبب المعاهدة. فأسرع المغاربة فورا للتصدي لهم لكن المهاجمين دحروهم بشدة، ممهِّدين السبيل لمن أرادوا أن يتبعوهم ولو أنه هلك العديد منهم. وهكذا فإنهم دخلوا الى المدينة بدون علم من الملك. فأخذ خوذته، لأنه كان مسلحا دائما، وتوجه إلى الثلمة مع ابنه، لكنها كانت صغيرة جدا بالنسبة لمثل هذا العدد من القوم فأمر بنصب سلالم تسلقها كثيرون منهم وفتحوا الأبواب في وجهه. فحضر في الوقت المناسب لانقاذ جنوده الذين كانوا يتقاتلون مع الأعداء في الأزقة، وردهم إلى القصر والى الجامع الكبير، حيث كانت توجد وسائل الدفاع. ثم إنه أمر دم الفاري بأن يحرص على ألا يفر المغاربة عبر الباب السري للقصر، فحطم باب الجامع بضربات من آلة قوية(57). وبالرغم على أن المغاربة قتلوا بعض المسيحيين وجرحوا العديد منهم فإنهم اضطروا أخيرا إلى التقهقر والانسحاب إلى داخل المسجد، حيث قاوموا بعزيمة أكثر مما يتسلح بها المغلوبون عادة، وقتلوا كلهم تقريبا. وهلك الكنت دي ماريا لفي(58) في هذه الوقعة، وأسِف عليه الملك وانبه شديد الأسف، لكونه أحد الأمراء الشجعان في البلاط. وبعد الاحتواء على الجامع بما فيه من النساء والأطفال، لم يبق إلا القصر الذي التجأ إليه أعيان المدينة، وكان محصنا جدا ومزودا كما ينبغي بالمؤن والعدد. وعندما علم الملك بذلك من طرف بعض الأسرى المسيحيين الذين فكوهم، أمر بنصب السلالم، فتسلقوها من كل جانب بشدة حتى إن المغاربة تركوا السور والتجأوا إلى الأبراج، ظانين أنهم سيكونون في مأمن أكثر، لكنهم اقتفوا أثرهم عن

(56) وهو يوم سانت بارطيليمي.
(57) أو غيرها بقطع كبيرة من الخشب كانوا يحركونها بأذرعهم.
(58) هو دم يوحنا كوتينيو.

قرب ولم يتركوا لهم فرصة، فتبعوهم في درج القصر إلى أن وصلوا إلى الفناء حيث تجمعوا لبذل مجهود أخير. وكانت المعركة دامية من كل جانب، حتى إنه لم يبق موقع خطوة واحدة الا في الدم أو على جثث الاموات، وعندئذ فتح بعضهم الأبواب، فدخل الملك لحسن حظ رجاله، وقد فقد العديد منهم الحياة أمامه، وهو أشرف شيء في القتال. ومات دم الفاري في ذلك المكان، بمكيدة دبرها له معربي، صاح به من أعلى برج بأنه إذا أراد أن ينقذه فعليه أن يدفع إليه فدية كبيرة، لكنه عندما صعد علاه المغربي بذراعه وقطع رأسه بضربة واحدة. وكانت هذه الخسارة بالغة لدرجة أنهم لم يصفحوا عن أحد منذ ذلك الحين. يقول بعضهم إنه قتل برمية نبل عندما كان في أعلى البرج. وأزال خوذته ليتبرد. ومهما يكن من أمر فإنه مات ذلك اليوم في خدمة ملكه ودينه. وبعد هذه المعركة التي أبلى فيها الأمير كجندي أكثر منه كولي عهد الامبراطورية، استسلم أصحاب البرج الرئيسي. وأخذ في ذلك اليوم خمسة آلاف أسير، من بينهم امرأتان، وابن وابنة لمولاي الشريف الوطاسي، الذي رد له الملك ابنته التي كان عمرها تتراوح بين سبع سنوات وثمان، في مقابل جثة الأمير دم فرناند الذي مات وهو أسير، لكنه قبض فدية، وكان سببا في مجاملته حيال أسطوله البحري عندما أصبح ملكا لفاس، كما أسلفنا(59). ومات أكثر من ألفي مغربي في القصر والجامع، ولم تكن خسارة البرتغاليين قليلة من جراء ذلك، وإن لم يذكر مؤرخوهم هذا العدد للزيادة في قيمة انتصارهم. لكن معركة لا تدوم طويلا تكلف المنتصر كثيرا من الدماء. فاسترجع خمسون أسيرا مسيحيا كانوا في المدينة حريتهم، وتجاوزت الغنيمة ثمانمائة آلاف مثقال، تبرع بها على الجنود.

كيف رسَّم ملكُ البرتغال ابنه دم يوحنا فارسا

بعد احتلال أصيلا، توجه الملك الى الجامع الكبير، حيث كان ينتظره كهنته مع الرهبان ومرشدي الجيش الدينيين، ليشكر الله على هذا الانتصار. وما أن دخل حتى أمر أن تقام الصلاة أمام صليب كان موضوعا على جثمان الكونت دي ماريا

(59) كان ذلك سنة 1470.

لفي. ولما رأى الملك الفرصة سانحة لجعل ابنه فارسا، أمره أن يجثو هناك على ركبتيه مع الاحتفالات المعتادة، وسل سيفه من غمده وقال له : «يا بني، لقد أصابتنا اليوم نعمة كبرى من الله الذي مكّننا من هذه المدينة، وأتاح للجميع الفرصة الملائمة لترسيمك فارساً، وتسليحك بيدي. لكن حتى أخبرك قبل ذلك
الفرصة الملائمة لترسيمك فارسا، وتسليحكْ بيدي. لكن حتى أخبرك قبل ذلك
بماهية درجة فارس، اعلم يا بني أنها مُركّبة من القوة والفضيلة لوضع السّلم بين الناس، عندما يكدر الطموح أو الشّح أو الطغيان صفاء الدول، أو يزعج الخواص. ذلك لأن الفرسان ملزمون بسل السيف في هذه المناسبة لخلع الطغاة عن عروشهم ووضع الخيّرين مكانهم. لكنهم ملتزمون كذلك بأن يبقوا أوفياء لعاهلهم، مطيعين أيضا لرؤسائهم، وممدين لهم بنصائح غالية، لأن الفارس الذي لا يقوم بواجبه شبيه بمن يَتَحلّى بالعقل ولا يريد أن يستعمله. فلا بد أن يكون صريحا سخيا، وأن يكون ما يكسبه للجميع، باستثناء فرسه وسلاحه اللذين يجب أن يحتفظ بهما لنيل الشرف. لأن عليه أن يستعمل حياته للدفاع عن دينه وبلاده، وحماية الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم. فكما أن الكهنوت وُضع للخدمة الالهية فإن الفروسية وضعت كذلك للاحتفاظ بالدين والعدل. فيجب أن يكون الفارس زوج الأرامل، وأب اليتامى، وحامي المساكين، وسندَ منْ لا سند لهم، والذين لا يعملون بهذه الأشياء لا يستحقون هذا اللقب. هذا يا بني ما تلزمه درجة الفروسية، فانظر هل ترغب فيها بهذا الثمن» وعندما أجاب الأمير بأن ليس له غرض آخر، تابع الملك قائلا : «تتعهد إذن بأن تحافظ وتعمل بكل ما قلته آنفا. وبأنْ تحرص على إنجازه وتحافظ عليه مع سائر حقوق رتبة الفروسية وواجباتها؟» فاستجاب الأمير لذلك، وقال الملك : «إذا كان الأمر هكذا، فإنني أرسمك وأسلحك فارسا باسم الله، الأب، والابن، والروح القدس، ثلاثة أشخاص في واحد والاله الحق، وقال له، وهو يضرب بالسيف على الخوذة عند كل اسم من هذه الأسماء المقدسة: «جعلك الله فارسا فاضلا مثل الذي تراه أمامك، وهو مثخن بالجراح في مواضع شتى في سبيل الله وأميره!» ثم قبّل وجهه ورفعه من الأرض بيده، لكن الأمير الذي جثا مرة ثانية على ركبتيه قبلها باحترام كبير، ورسم معه عدة فرسان شجعان ذلك اليوم. وبعد ذلك أمر بإقبار الموتى في الجامع، الذي كرسوه من قبل لكفالة السيدة العذراء، وعين دم انريكيس دي منسيس حاكما للمدينة.

كيف سارع ملك فاس إلى إنقاذ أصيلا

وفي هذه الأثناء، فإن مولاي الشيخ الذي كان مشتغلا في حرب فاس كما أسلفنا، انطلق لحينه عندما بلغه الحصار، وما بلغ القصر حتى علم أن المدينة قد احتلت، وأن نساءه وأولاده أسروا، لكنه خشي أن يكبده ملك البرتغال الذي كان هناك بنفسه مع جيشه أضرارا أخرى يمكن أن تمنعه من أن يصبح ملكا على فاس، فأرسل إليه مبعوثا لمقابلته، وتوصل منه بجواز مرور ليلتحق به في أمان تام،وعندما وصل قرب أصيلا مصحوبا بثلاثمائة فارس، لم يرد الدخول إليها، وأبرم معه هدنة لمدة عشرين سنة بواسطة بعض الأشخاص، شريطة أن يبقى ملك البرتغال آمنا فيما يحتله من سبتة، والقصر الصغير وأصيلا، بنواحيها وحكمها، وأن يتلقى الاتاوات من جميع القرى التي حددت فيما بعد. وقد أكدت هذه الهدنة وأدي اليمين عنها مع هذه الخاصية وهي أنها لا تهم المعاقل التي يحتفظ كل واحد منهما بحق الاستيلاء عليها متى شاء، وحيازتها دون نقض الهدنة. وبعد إبرام هذا الاتفاق والمعاهدة من الجانبين، عاد المغربي لمتابعة حرب فاس، فاحتلها واستولى عليها أخيرا وعلى الحكم، ورجع الملك دم الفونس الى البرتغال، بعد أن احتل طنجة، كما سنذكره في محله.

وسنتكلم الآن عما حدث من أشهر الوقائع لِحكام هذه الحدود الذين كانوا باتصال دائم مع المغاربة.

انتصار حاكم أصيلا على قائدين مغربيين

كان رجال حامية أصيلا الشجعان يشنون دائما غارات شعواء على المغاربة، ويناوشون أهل فاس المرة بعد الأخرى منتصرين عليهم في غالب الأحيان. وسأحكي هنا بعضها تاركا الأخريات للأماكن التي وقعت فيها، حتى تكون الرواية أوضح وأكثر تنوعا. فبعد وفاة الفونس ملك البرتغال خلفه ابنه دم يوحنا على العرش، وجاء مغربيان قويان(60) كانا أميرين على شفشاون وتطوان لم تشملهما المعاهدة فحشدا أكثر ما أمكنهما من الرجال، واجتاحا ناحة أصيلا التي كان قائدا فيها دم رودريكس كوتينيو، ابن أخي الحاكم الذي يحمل نفس الاسم(61) وكان قد ذهب إلى البرتغال وحينما سمع ناقوس الانذار، خرج فقتل على الفور

(60) هما علي بن راشد والمنظري.
(61) هو فاسكو كوتينيو.

وانهزمت جنوده. وعندما بلغ هذا النبأ إلى لشبونة، أرسل الملك دم يوحنا إلى هذه الحدود دم يوحنا دي منيسيس، الملقب بيكاسان، فعلم لذى مجيئه بثورة مركز صغير(62)، كان يؤدي الأتاوة الى ملك البرتغال. وبينما كان يبحث عن مناسبة للخروج، أشعر فورا عامل طنجة(63) بأن يمده في الوقت المناسب ببعض الفرسان لقمع هذه الثورة، وبعدما التحق بخليفته(64) في خمسين فارسا، هاجم الثوار عند بزوغ الشمس. وفي هذه الأثناء علم أن المغاربة المذكورين دخلوا في منطقة حكمه بألفي فارس وثمانمائة راجل لاجتياحها، فأرسل على الفور بعض المغاربة من أنصاره يتجسسون على أعدائه فساقوا إليه ثلاثة أسرى، اطلع مِن قِبلهم على عددهم والمكان الذي يوجدون فيه، فعزم على مهاجمتهم بالمائتي فارس الذين معه، خلافا لرأي بعضهم. فكوَّن ثلاث كتائب، أسند إحداها إلى قائد طنجة، وهي مؤلفة من الخمسين فارسا الذين أحضرهم، والأخرى مؤلفة من ثلاثين فارسا جعلها تحت إمرة أحد أبناء أخيه(65)، سميِّه، وترأس هو نفسه الثالثة، وهي مؤلفة من مائة وعشرين رجلا. ثم توجه والحالة هذه لملاقاة الأعداء الذين كانوا يرحفون في ثلاث كتائب بدون كبير نظام، وهم معجبون بعددهم وانتصارهم. لكنهم عندما اقتربوا انضموا الى بعضهم، وهاجموا جميعا فرسان طنجة، الذين كانوا مشقة في التصدي لهم، غير أن الكتيبة الصغيرة التي هرعت لاغاثتهم، هاجمت الأعداء من الجناح، والتحقت بهم قبل أن يتم كسرهم. وعندما كان الجميع مشتبكا، أقبل دم يوحنا دي منيسيس برجاله، وفتح الطريق في صفوف المغاربة، وقد أبلى بلاء حسنا هو والآخرون، لدرجة أن العدو لاذ بالفرار. فتبعهم المسيحيون في نظام حسن وقتلوا منهم أكثر من أربعمائة فارس وأربعمائة راجل، وغنموا خمسة وثمانين جوادا، بجميع الرايات والطبول. وبعد هذا الانتصار، عرج دم يوحنا في الحين على المغاربة الثائرين(66) الذين لم يتأخروا عن أداء ما كان عليهم من إتاوات، معتذرين بعنف الأمراء المغاربة الذين هزموا منذ قليل. وبعد ذلك عاد دم يوحنا منتصرا إلى أصيلا محملا بالغنيمة. حدث ذلك حين فتح غرناطة(67) فردناند وايزابيلا، وبمناسبة هذا الانتصار تنشد الأغنية التي عنوانها : «يهرول المغاربة إلى أصيلا»، الخ...

(62) هو بنو مراس.

(63) هو الاميرال البرتغالي لوبي فايزدي ازيفيدو.

(64) هو بيدرو ليطون.

(65) هو دم يوحنا دي منيسيس الملقب «الحائر» ابن كونت دي كانطانيد.

(66)بني مراس.

(67) سنة 1495، في 15 سبتمبر.

حصار ملك فاس لأصيلا

وبما أن الشغل الشاغل للمغاربة كان هو استرداد هذه المدينة، وخاصة منهم ملك فاس[68] الذي ولد فيها ونشأ، فما أن بويع ملكا حتى حشد جيشا من عشرين ألف فارس، ومائة وعشرين ألف راجل، وأتى ليضرب الحصار على أصيلا بعدد من قطع المدفعية. وشوهدت المدينة منذ يوم الغد[69] وهي محاطة من جميع الجوانب بجمهور غفير من الناس، وعلى طول الشاطىء مكامن منصوبة ببراميل مملوءة بالتراب لوقاية المدفعية، حتى يمنع الدخول الى الميناء. كما اقتلع في نفس الليلة ركائز غرست في الارض لبيان مدخل الحاجز، ثم شرع في قصف المدينة ابتداء من ذلك اليوم واصطف رماة البنادق المختلفة، وكان عددهم اثني عشر ألفا من جميع الجهات لابعاد المحاصرين عن السور عندما يقومون بهدمه. وبعد ذلك دحرجوا أربع عربات وقاء نقالة من خشب، وشرعوا في العمل. ولم يكن آنذاك في المدينة سوى أربعمائة مقاتل، لذلك لم يخرج الحاكم بحيث إن العدو كان لديه متسع من الوقت لتقريب عربات وقائه، ففعل ذلك بسرعة، وفي شتى المواضع، حتى إنه هدم في نفس اليوم شقا من السور، تسلل منه بعضهم وقاتلوا بشجاعة حتى أرغموا المسيحيين على الانسحاب الى القصر، بعد أن أصابوا الحاكم[70] بجراح. غير أن عدد النساء والأطفال المتسارعين إلى الدخول كان كبيرا حتى إن الحاكم أمر باغلاق الأبواب خوفا من أن يدخل العدو مختلطا بهم، بحيث إنه قتل العديد منهم دون رحمة لا للسن ولا للجنس. ولو هاجم المغاربة القصر ذلك اليوم لربما أخذوه لشدة الاضطراب الذي كان سائدا. لكن الله شاء أن يشتغلوا بالنهب غير مهتمين بما هو أهم. وفي هذه الأثناء، ذهب بعض البرتغاليين الذين نجوا على سفينة كرافيل ليخبروا دم يوحنا دى منيسيس[71]، فأسرع لاغاثة المدينة بجنود الأسطول. لأنه عندما بدأت الاشاعة تتردد عن قدوم ملك فاس، أرسل إلى قائد الأسطول يُخبره بذلك وهو يومئذ بالقصر الصغير، ويطلب منه المجيء بالأسطول إلى طنجة، فوصل إليها في نفس الوقت الذي بلغهم فيه نبأ الحصار. ولما وصل دم يوحنا أمام أصيلا كان المغاربة يحتلون المدينة منذ ثلاثة أيام بحيث إن

(68) مولاي محمد بن مولاي الشيخ.
(69) في 19 اكتوبر 1508.
(70) هو فاسكو كوتينكو، كونت دي بورية.
(71) صهر الحاكم.

الأسطول اضطر إلى الارساء خارج الحاجز(72) خوفا من مدفعيتهم، ومكث هناك ثلاثة أيام، لا بسبب ذلك فحسب، ولكن أيضا لأن البحر كان هائجا جدا، وللتأكد من أن القصر ما زال صامدا. وقبل الدخول إلى الميناء، أرسل زورقا مسلحا جدا مع جنديين وفيين، ليرى بالاشارة أو بالصياح ما عسى أن يكتشف عنه. فلقيا صعوبة كبيرة في المرور، إذ كانا يُرميان من المدفعية التي كانت بأحد الأبواب، لكنهما اقتربا أخيراً حتى أبصرا نافذة مفتوحة في منزل الكونت، مع راية منقوش عليها شعارات البرتغال، وامرأة شعثاء أخرجت رأسها وبين ذراعيها صبي وهي تصيح : يا للبرتغال، يا للبرتغال! فعادا إذ ذاك، وعلى الفور أجاز دم يوحنا جميع جنود المراكب الكبيرة في مراكب صغيرة للنزول بأقل خطر. ووصل في هذه الأثناء رجلان يسبحان حاملين رسائل للكونت ملفوفة في كرات من شمع داخل أنابيب، وتبعهما ثالث يحمل الأمر الذي يجب الاحتفاظ به للدخول بأكثر ما يمكن من الأمان، ثم أمر دم يوحنا السفن برفع الأشرعة، وقصف مدفعية المغاربة التي كانت في الشاطيء بجميع مدفعيته، ودخل بالرغم عنهم إلى الميناء، وأرسى على طول الحاجز. فأمر الحاكم حينا بفتح باب القصر المقابل لباب الميناء(73)، وبخروج ثلاثين فارسا ومائتي راجل. وعندما رأى دم يوحنا أن الوقت قد حان للنزول، حسب الأمر الذي كان قد توصل به، والاشارة التي كانت تعطى له من القصر، صوب كل مدفعيته ضد الساحل، وعندما كانت جميع السفن مستعدة، نزل في نفس الوقت مستترا بالدخان، وأثبت مقدم السفينة في الأرض. فأسرع المغاربة في الحين للحيلولة دون النزول، وجرت معركة دامية، قتل أو جرح فيها العديد من الجانبين، لكن البرتغاليين وصلوا في النهاية الى الحاجز الذي نصبه الأعداء، وتحت حماية أصحاب القصر الذين هجموا من الجانب الآخر، استولوا على ست قطع من المدفعية، وألقوا في المدينة مائتين من رماة البنادق المختلفة، مع بعض المؤن والعدد، دون أن يستطيع العدو منعهم من ذلك. وبفضل هذا المدد احتُفظ بالمدينة التي كانت محفورة في عدة أماكن لدرجة أنهم كانوا يتقاتلون تحت الأرض، وكان المحاصرون سيستسلمون بعد يومين، لولا هذا المدد، من شدة ما اعتراهم من تعب. وامتنع العدو، رغم ذلك، من رفع الحصار وأقام هناك ثمانية أيام، وهو يشن غارتين كل يوم، غارة في المساء وأخرى في الصباح، الى أن جاء أسطول قشتالة. ذلك أن دم يوحنا عندما انطلق من طنجة، أرسل سفينتي كرافيل، إحداهما إلى

(72) سبق أن قال إنه كان مصطفا على طول الساحل.

(73) هو باب البحر.

ملك البرتغال، والأخرى إلى مدن الأندلس، وقائد أسطول قشتالة بجبل طارق. وكان قاضي المدينة، وهو إذ ذاك بخيريس دي لافرونتيرا، أول من وصل بسفينة كرافيل من الأسطول محملة بالمؤن، وثلاثمائة من رماة البنادق المختلفة، فأزعج الأعداء كثيرا، لأنه لما خرج من الخليج وحاذى شاطىء المدينة جعل يرمي من الجانب الأعداء الذين كانوا محميين من مدفعية القصر، وقتل عددا كثيرا منهم، حتى إن الملك الذي كان هنالك اضطر إلى نقل خيامه إلى مكان آخر. وفي هذه الأثناء، وصل قائد الأسطول(74) ومعه ثلاثة آلاف قشتالي، وأراد حينا أن يقاتل إلى جانب أسطول البرتغال، لكن دم يوحنا طلب منه أن ينتظر إلى يوم الغد. ولما رأى ملك فاس الامداد الكبير الذي وصل، وهيجان المدفعية أضرم النار في المدينة ورفع الحصار، قافلا الى فاس. دخل المسيحيون إلى المدينة يوم الغد، واقتُبلوا اقتبالا حسنا من طرف المحاصَرين الذين حمدوا الله على خلاصهم. وفي نفس السنة اقتسم ملكا قشتالة والبرتغال غزو افريقيا، فصار من نصيب البرتغال المنطقة الممتدة من سبتة الى جهة الغرب، وللقشتاليين من تطوان الى جهة الشرق. وعاد ملك فاس بعد سنتين لمحاصرة أصيلا، لكنه رفع الحصار لحينه بدون القيام بشيء يذكر(75). ومنذ ذلك العهد، فان ابن الحاكم(76) هزم بمائة وخمسين فارسا ثمانمائة من الأعداء، فقتل منهم مائتين وأسر واحدا وأربعين، من جملتهم بعض الأعيان المغاربة،(77)، وغنم ستة وتسعين فرسا مجهزا.

حصار آخر لأصيلا

لم يقدر ملك فاس على أن يتحمل بقاء المسيحيين مستولين على مسقط رأسه، يشنون منه دائما غارات على رعاياه، فجاء لمحاصرة أصيلا بمائة ألف مقاتل، منهم ثلاثون ألف فارس، وطوَّقها من البحر إلى البحر(78) بخندق كبير على شكل استحكام المحاصرين ونصب مدفعيته خلفه(79). كانت المدفعية تزعج المحاصَرين كثيرا وكذلك رماة البنادق المختلفة الذين كانوا يطلقون النار وهم تحت وقاية الاستحكام الذي لم يكن واقعا إلا على بعد رمية نبل. وبمجرد ما شرع ملك فاس

(74) هو دم بيدري دي نافار.

(75) سنة 1514.

(76) هو دم يوحنا كوتينيو.

(77) أحد أبناء عم عامل لاروز، وشيخان أعرابيان، وخلفاء أخي ملك فاس والقصر الكبير.

(78) يقصد من جميع جهات البر الممتدة من طرف البحر الذي يماسها شمالا الى الطرف الآخر جنوبا. أو بعبارة أخرى من جهات الشمال والشرق والجنوب (مترجم).

(79) في أواخر أبريل 1516.

(80) دم يوحنا كوتينيو.

في هذه العملية، أخبر الحاكم(80) ملك البرتغال بذلك، وكتب الى عميله الموجود بمالقة، ليرسل إليه ما هو في حاجة إليه. وعندما رأى أن المغاربة يتأهبون للهجوم، وزع المعسكرات على الضباط والجنود، وأوقد نيرانا عظيمة على الأسوار، وأمر بالنفخ في الأبواق وقرع الطبول إعلانا عن الابتهاج، حتى يظهر عدم اكتراثه بالعدو. ولما بدأ قصف المدينة، جاء نونيو ماسكارينياس من الأسطول على سفينتي كرافيل بمائة وعشرين فارسا، وبعض الراجلين، وحينما دخل إلى المدينة، أرسل الحاكم إحدى السفينتين إلى عميله، والأخرى إلى ملك البرتغال، طالبا منهما الاسراع بالامداد. فأرسل العميل بعد ثلاثة أيام بعض المؤن، وأربع فرق من المشاة القشتاليين استنفرهم بسرعة من الأندلس، واقتُبلوا اقتبالا حسنا(81). وكان المحاصَرون في غاية الحرج من المدفعية ونيران الأعداء، لأن المدفعية لم تفتر لحظة طوال الخمسة عشر يوما التي دام فيها الحصار. لكنهم لم يستطيعوا هدم السور، لأنه كان محصنا بخندق مزدوج من العوارض، ولأن الحاكم كان قد أحكم وسائل الدفاع في متسع من الوقت. ووصلت بعد ذلك اثنتا عشرة سفينة كرافيل تحمل عددا من النبلاء مع جنود أشداء، أبدى لها المحاصَرون أفراحا كبيرة، وعزموا على الخروج. وقد أراد ملك فاس، بعد أن أطلعه أحد المغاربة الذي ارتمى تحت الأسوار على ما حدث أن يرفع الحصار، لولا أن أخاه منعه من ذلك، لكنه توجه إلى فاس عندما قدمت ثلاثون سفينة من البرتغال(82)فهاجم الحاكم مؤخرة الجيش المغربي وأصاب شيئا من الغنيمة، وقتل عددا من الأعداء، ثم عاد منتصرا إلى أصيلا. وقد أحرزت الحامية عدة انتصارات أخرى على هذه الحدود، إلى أن أمر ملك البرتغال بسحبها من المدينة للأسباب التي شرحناها.

الفصل الثالث والخمسون
مدينة طنجة(83)

أسس الرومان هذه المدينة عندما كانوا مستولين على الأندلس ومملكة غرناطة، وان كانت الخرافات الأهلية تعزو تأسيسها إلى أمير قوي(84) كان يملك

(81) كان يرأسهم اثنان من أبناء بطرس دي شارل حاكم قصر ميناء سانت ماري، وبارطيليمي رويس، واكونيا، وهم برتغاليون.

(82) في 3 يوليوز.

(83) يسميها الرومان طنجيد.

(84) هو شداد بن عاد.

ـــ على ما يقولون ـــ أوربا كلها، وافريقيا كلها، وبعض أقاليم آسيا، وشيد مدينة أسوارها من البرنز، ومنازلها مغشاة بالذهب والفضة، لكن التاريخ يفند هذه الأسطورة. يجعل ابن الجزار منها، في كتابه «نوادر المدن» مكة ثانية من حيث الجمال والقوة، ويقول إنها أزلية. وموقعها جيد على شاطىء المحيط في مدخل البوغاز، وعلى بعد خمسين فرسخا من فاس في جهة الشمال، تحيط بها أسوار متينة محصنة بخنادق وحصون، شيدها ملوك البرتغال. وأقاموا فيها حامية عظيمة سواء من الفرسان أو من الراجلين، مع كمية من المدفعية والعدد. وعندما أخذ القوط هذه المدينة من الرومان ضموها إلى حكم سبتة التي كانت تحت سلطتهم ولم يفقدوها إلّا بفقد أصيلا. وطوال ذلك العهد، كانت طنجة مزدهرة، تحتوي على جامعة وعدد من النبلاء المحنكين في الحروب. كانت الدور حسنة البناء، يسكنها عدد من أعيان موريطانيا الطنجية، ولو أن البلاد المجاورة غير جيدة، باستثناء بعض السهول والشعاب، حيث المراعي الخصبة التي كانت في القديم مزدانة بعدة بساتين وكروم ومنتزهات بسبب وجود المياه فيها. وحيث إن السكان أنفسهم شجعان، فإنهم كانوا يغزون الشواطىء على متن سفن حربية، لكن ملك البرتغال(85) أرسل، سنة 1407، ابنه(86) ليهاجم هذه المدينة، فأمدها ملك فاس على الفور بعدد من الفرسان والمشاة، إلّا أنه، بعد عدة معارك قتل فيها كثير من النبلاء البرتغاليين، أبرم الأمير والملك المغربي معاهدة، وعد بموجبها هذا الأخير أن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين، ووعد الآخر أن يرجع سبتة. ولما لم يستطع إنجاز شيء آخر، بقي رهينة هذا الاتفاق إلى أن صادق عليه ملك البرتغال ونفذه، لكن يقال إنه هو نفسه حذر من الوفاء به، مفضلا أن يموت في الأسر على أن يرى المسيحية تفقد مفتاح المضيق. وقد تسبب له ذلك في أن يعامله ملك فاس معاملة سيئة، إذ سجنه في مطبق وألزمه بخدمة خيله، حتى مرض ومات. فوضعه المغاربة في تابوت أدخلوه في سور فاس قرب حي اليهود، حيث بقي إلى أن أرسل ملك آخر من ملوك فاس(87) رفاته إلى أصيلا، ونقل من هناك إلى لشبونة ودفن في الدير(88) الذي أقبر فيه ملوك البرتغال. وما زال يشاهد التابوت والكتابة على سور

(85) ادوارد.

(86) دم فرناند.

(87) مولاي الشيخ.

(88) هو دير معركة نوتردام دي بيلين.

فاس تحت عنوان «قبر الأمير المسيحي». وذهب منذ ذلك العهد الملك ألفونس شخصيا ليحاصر هذه المدينة(89)، حيث فقد عدة جنود سواء في البحر أو في الهجوم، وكذا في عملية عسكرية قام بها داخل البلاد، قتل أثناءها الكونت دي فيان، وبعد ذلك عاد بخفي حنين(90).

طنجة واحتلالها من قبل ملك البرتغال

عندما كان الملك ألفونس بأصيلا، كما ذكرنا ذلك عند وصف هذه المدينة، وعلم سكان طنجة أن المدن المسورة لم تدرج في المعاهدة التي أبرمها مع ملك فاس، خشوا أن تسول له نفسه الانتقام منهم، كما كان عازما على ذلك، على ما أصاب البرتغاليين بواسطتهم من الخسائر، والقتلى، والأسرى، فضلا عن هلاك الأمير الذي كان عمه، لاحظوا أن مولاي الشيخ، وهو أملهم الوحيد قد رجع الى حرب فاس، بحيث أصبحوا محرومين من أي سند، فعزموا على هجر المدينة وأخذوا كل ما أمكنهم أن يأخذوه وكسروا الباقي لئلا يستعمله العدو، ثم انسحبوا دون أن يقدموا على إضرام النار في المدينة، خوفا من أن ينكشف أمرهم. لكن الملك ألفونس بعد ما تأكد من عزمهم الذي لم يرد أن يثق به أولا، أرسل ابن درة، دي براكانس للاستيلاء عليها(91) ثم انتقل إليها بعد ذلك ليشاهد فتحه الجديد، وقد كان أكثر ارتياحا لو أحرزه بالسيف انتقاما لجميع الاهانات التي ذكرناها، لكن شاء الله أن يتحقق في لحظة واحدة لحسن طالع هذا الأمير ما لم يمكن تحقيقه طوال سنين وبذلك القدر من الكد والعناء، وأسند حكمها فورا إلى روي دي ميلو الذي أصبح منذئذ كونت دوليفينسا، وتلقب ملوك البرتغال من ذلك العهد ملوك ما دون البحر وما وراءه. وكتب ألفونس حتى الى البابا، والملوك المسيحيين، وكذا إلى جميع مدن مملكته بنبإ النصر الذي منحه الله، ثم عاد إلى أصيلا، ومنها أبحر إلى بلاد البرتغال حيث وصل بعد خمسة وثلاثين يوما من مغادرته إياها. ونظمت

(89) في ديسمبر 1463.

(90) في 20 يناير 1464..

(91) في 28 غشت 1471، بعد أربعة أيام من احتلال أصيلا.

مواكب بمناسبة هذا الغزو عبر الأندلس كلها ومملكة غرناطة في سائر أرجاء قشتالة والبرتغال.

حصار ملك فاس لطنجة
مع ذكر بعض خاصيات أصيلا

كان دم يوحنا دي منيسيس مهتما طوال إقامته بإفريقيا بشن الغارات على المغاربة، فأخذ منهم أسرى ومغانم كثيرة. وقد اشتبك أحيانا حتى مع علي ابن راشد والمنظري فهزمهما وكبدهما خسائر كبيرة في الأرواح، لكن عندما كان عائدا من بعض القرى التي نهبها قرب القصر الكبير، اعترض طريقه حاكم القصر في ألف ومائتي مقاتل بالرماح ليسترد منه الغنيمة، فهزمه يوحنا(92)، لكنه علم أن ملك فاس زاحف باثني عشر ألف فارس وعدد كثير من المشاة لاستطلاع أحوال طنجة والهجوم من هناك على أصيلا. ولما كان الجيش قريبا جدا من طنجة بحيث لم يستطع إشعار الحاكم(93) بذلك، فإنه أمر بإخراج طلقات قوية من المدفعية إعلانا بالخطر، وأمسك كلبة لأحد السكان كانت قد مكثت بأصيلا منذ بضعة أيام، وربط في عنقها بطاقة وجاء بها إلى الشاطىء وأخذ يطاردها بضربات سوط قوية في بداية الليل، بحيث إنها رجعت بسرعة إلى طنجة، وأخبر العامل بزحف ملك فاس في مطلع النهار، فخرج لحينه وتناوش طويلا مع طلائع الجيش. إن سكان الحدود بإفريقيا يتخذون خنادق أو حواجز حول مدنهم، حيث تسد المسالك بأخشاب ضخمة، حتى لا يمكن الوصول أفواجا الى أبوابهم وهناك تقيم الحامية عند إعلان الخطر، ومن هناك يبعدون فرسان الأعداء بطلقات البنادق والقذافات. لكن الحاكم عندما خرج من طنجة مع فرسانه، حوصر من طرف المغاربة بعد صمود دام ساعتين، قتل أثناءه ابنه مع ثمانية من الفرسان، وأصيب هو أيضا بطعنة رمح في وجهه مع عدد آخر من المقاتلين، وتبعه المغاربة الذين دخلوا مختلطين بهم من الأبواب بشدة قوية حتى أرغم على أن يكر عليهم ليمنعهم من الدخول إلى المدينة. فأوقفهم لحظة ببسالة ومؤازرة بعض أتباعه، لكن السرعة العظيمة جعلتهم لا

(92) سنة 1502 = 917 هـ.
(93) دم رودريك دي كاسترو.

يستطيعون إغلاق الباب، فاكتفوا بإغلاقه جزئيا، بحيث إنه عندما وصل العدو قام أحد رؤسائهم بضربة دبوس قوية في الوسط آملا أن يمر لكنه انسحب مع جميع الآخرين أمام استماتة الذين كانوا في الداخل، وتوجه ملك فاس إثر ذلك إلى أصيلا، حيث وصل بعد أربعة أيام. وكان الحاكم(94) على حذر فخرج للاستطلاع حتى وصل إلى الماء العذب مع عشرين فارسا، وقد أمر الذين كانوا في المدينة أن يمكثوا في المدينة القديمة(95) ليخرجوا لامداده عند الحاجة. ولما وصل إلى النهر، رأى البادية كلها مغطاة بالأعلام والرايات، فانسحب خطوة خطوة، متصديا ما أمكنه لطلائع الجيش الذين هجموا عليه وأخذوا بخناقه حتى اضطر إلى الرجوع بأربعة فرسان، ثم خرج نحو خمسين فارسا طردوا المغاربة من جديد إلى خندق كان تحت الحاجز المائي(96) فقتلوا وجرحوا منهم الكثير. لكن لمّا كان فرسان فاس يحملون من جميع الجوانب، رأى أهل المدينة أنه تباعد كثيرا، فخرجوا لانقاذه، إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك لأن المغاربة حطموا الحاجز(97) وقطعوا عليهم الطريق فاضطر الحاكم، وهو يظن أنه سيتبع ويريد تجاوز المكان، إلى الالتحاق بالمدينة، وقد قتل أو جرح الكثير من رجاله، ولم يصل إلى الأبواب إلا بمشقة. وبعد أن التحق هناك بقومه كر على الأعداء وطردهم ثانيا خارج الحاجز مكبدا إياهم خسائر كبيرة في الأرواح، ثم دخل المدينة ببعض الأسرى، وحدثت هناك مهزلة من طرف مغربي سمع أن ملك فاس ذهب ليحتل أصيلا، فوصل بعد المعركة وقد هدأ كل شيء، فظن أن المدينة احتُلت فاقتحمها، لكنه سرعان ما ندم على ذلك، إذ سُلب منه فرسه وسلاحه ولباسه، وعومل بالمجاملة التي تخص للأسرى.

كيف قتل المغاربة حاكمين لطنجة

منذ هذه الوقائع، قتل المغاربة للأسف في إحدي المعارك دم بيدرودي منيسيس حاكم طنجة، بينما كان يجمع جنوده وهو عائد إلى المدينة، فعين مكانه لويس دي لوريرو الذي كان حاكما لمازاكان، ولكنه بعدما كان قد أرسل كتيبة من مائة فارس ضد المغاربة، خرج في خمسين آخرين لتعزيزهم لدى عودتهم، فضل

(94) دم يوحنادي منيسيس
(95) بباب فاس.
(96) قريبا جدا من المدينة.
(97) هو الذي ذكره آنفا.

الطريق وصادف للأسف عاملي العرائش وتطوان(98) قادمين لشن غارات على طنجة في ستمائة فارس. ولما رأى نفسه محاصرا فجأة قال لفرسانه إنه يفضل أن يموت والسيف في يده على أن يهلك في السجن، ونصحهم بالاقتداء به، فقتلوا جميعا معه، وقطع المغاربة أيديهم اليمنى وحملوها إلى الشريف(99) الذي كان في مراكش. وهكذا مات هذا القائد الشجاع بعد ان كان سبب ذعر افريقيا. ولما حل لويس دي سيلفا محله، جاء إليه أحد أعيان بلاط الشريف(100) بثلاثمائة فارس كانوا كلهم أبناءه، وأحفاده، أو أبناء أحفاده، وعبر من هناك إلى البرتغال ملتمسا من الملك أن يساعده ضد الشريف. لكن جنوده الذين مكثوا بطنجة أقنعوا الحاكم ليقوم بعملية ضد المغاربة، فتوغل في البلاد في مائة فارس، وثلاثمائة من رماة البنادق، وأربعة وعشرين من أولئك الجنود. وعندما كان في موضع بكامل الاطمئنان هجم عليه نفس العاملين الذين هزما سلفه وقتلاه. وقتل أو أسر معظم المسيحيين الذين كانوا معه، ومن جملتهم ابن أخيه. ومات في القتال أربعة من المغاربة الأربعة والعشرين الذين تبعوه، وفر العشرون الآخرون مع نحو هذا العدد من المسيحيين. وجاء المنتصر وهو يشن الغارات حتى أبواب سبتة، دون أن يفقد أي رجل.

الفصل الرابع والخمسون
القصر الصغير(1)

مدينة صغيرة أسسها يعقوب المنصور على شاطىء المحيط(2)، على نفس المسافة تقريبا بين سبتة وطنجة، في أضيق مكان بالبوغاز، لا يبعد عن طريفة المقابلة له إلا بخمسة أميال. وكان هذا الأمير مغرما بالقتال (الجهاد) فكان يذهب كل سنة ليحارب في إسبانيا. وحيث إن السبيل إلى سبتة، التي كان يبحر منها عادة، لم يكن ملائما لمرور الجيش، فإنه شيد هذه المدينة في مكان أكثر ملاءمة لا يبعد عن ساحل إسبانيا إلا بثلاثة فراسخ في أوفق محل

(98) رحو بن تودة وحسان.
(99) عبد الله.
(100) هو الشيخ مومن الدريدي.

(1) أو قصر مصمودة.
(2) كذا. وهي طبعا في المضيق الذي يصل البحر المتوسط بالمحيط (مترجم).

بالمضيق يوجد فيه ميناء جيد المسفن. فكان يرسل من هناك جيشه وسفنه بأقل مشقة وخطر من سبتة، وسماها القصر الصغير، لأنه لم يشيد بها أولاً سوى سكن صغير بالنسبة للقصر الكبير وغيره. لكن سرعان ما بنى فيها عدة منازل ومساجد، وعمرها بكثير من التجار والصناع والبحارة. وزاد نموها منذ ذلك العهد. إلا أنه بسبب تجهيز السفن الحربية بها لغزو الشواطىء المسيحية لملاءمة الغابات المحيطة بها، والازعاج الكبير للسفن المارة عبر المضيق، هاجمها ألفونس ملك البرتغال بعدما احتل أصيلا، ومعه 17.000 محارب وكان على استعداد لغزو الأرض المقدسة بطلب من البابا الذي أعلن حربا صليبية(3)، لكنه عندما رأى العملية العسكرية ضائعة بسبب اختلاف الأمراء المسيحيين، وجه أسلحته ضد افريقيا حتى لا يعطل جيشا بهذا القدر من القوة، مع ما بذل من عناء ونفقة في تجهيزه. فأبحر ألفونسو مع أخيه دم هنري، وحفيد دم بيدري، وسار في طريق القصر الصغير بمائة وثمانين سفينة شراعية. ولما وصل إلى شاطىء طنجة، انتظر هناك مجيء بعض السفن يوما واحدا، ونظرا لعدم مساعدة الرياح أراد أن يغير خطته ويهاجم طنجة، لكنه توجه إلى القصر الصغير، لأن الأمير والقواد لم يتفقوا معه، فاحتلها، كما سنذكر ذلك فيما بعد. يُسمِّي بطليموس النهر الذي يصب في البحر قريبا من هنالك فالون، ويجعل مصبه في الدرجة السابعة طولا، والدرجة الخامسة والثلاثين وخمسين دقيقة عرضا.

احتلال القصر الصغير

حينما وصل الملك أمام المدينة، أمر بإعداد جميع الزوارق والقوارب للقيام بعملية النزول، وسرعان ما طلعوا على متنها، لكثرة السفن الصغيرة، ورغبة كل واحد في القتال. لكن النزول لم يتم بالسهولة المتوقعة، لأن خمسمائة فارس تصدوا له، مع عدد من المشاة، بحيث إنه قتل وجرح العديد من المسيحيين. لكن المغاربة تقهقروا في الأخير، والتحق بعضهم بالمدينة، والآخرون بالجبل. وعندما أرخى الليل سدوله، نقل الملك من الأسطول كل ما كان ضروريا لمهاجمة المدينة. إلا أن السكان لما رأوا أنفسهم معرضين للخطر، سواء أموالهم وأرواحهم وحريتهم، بدأوا يتحصنون بأحسن ما يمكن ويصلحون ثلماتهم. لكن المسيحيين لم يتركوا لهم الوقت الكافيء لذلك، لأنه عندما كان كل شيء جاهزا ومنظما تنظيما حسنا، أمر

(3) سنة 1458.

الملك بإعلان الهجوم وضرب الظواهر من جميع الجوانب، فتم ذلك بقوة شديدة، حتى إن المغاربة، وإن كانوا يدافعون عن أنفسهم دفاعا جيدا تحت وقاية المدفعية والاسهم النيرانية أرغموا على الانسحاب إلى المدينة، فتبعهم المسيحيون إلى الأبواب، وحاولوا عبثا أن يحطموها ويحرقوها، لأنها كانت مصفحة بصفائح من حديد ومحمية جيدا من أعلى، فاضطروا إلى الانسحاب تاركين بعض موتاهم في الميدان. وكان اغتياظ الملك كبيرا أمام صمود المحاصرين، والخسارة التي تكبدها، فأمر على الفور بتقريب عربات الوقاء النقالة لِنقب السور، وأمر الأمير دم هنري بأن ينصب السلالم للهجوم. فكانت المعركة حامية، والملك نفسه ينتقل في كل مكان مع حرسه لتشجيع رجاله وإعطاء الأوامر حتى لا ينقص شيء مما هو ضروري، بينما يقاوم المغاربة بشجاعة، ويسقطون المتسلقين في السلالم إلى الأسفل. واستمر الحال على ذلك بدون انقطاع الى منتصف الليل، مع خسائر كبيرة في الأرواح والجراح من كلا الجانبين. وعندئذ قام الأمير الذي كان مطاعا ومحنكا في الحرب، بتصويب مدفع كبير إلى أوْهَى مكان في السور، وبعد أن حطم طرفا منه بـالقصفة الأولى، أشار السكان الذين لحقهم التعب ويئسوا من أية نجدة، ولوحوا بقلنسوة من أعلى أحد البروج أنهم يريدون التفاوض. وعندما أمر الأمير بإيقاف القتال ليسمع ما يقولون، اقترحوا أن يسلموا المدينة غداة الغد، شريطة أن يؤمنوهم على أرواحهم وأمتعتهم، فأعطوا ما طلبوا على أن يردوا الأسرى المسيحيين، وأن يسلموا رهائن، فطلبوا إيقاف الهجوم، لينقلوا أمتعتهم الصغيرة، فلم يقبل منهم ذلك إلا بشرط أن يسلموا الرهائن في الحين، فقبلوا ذلك وقادهم الأمير إلى الملك الذي أذن له بالمفاوضة. فتوقفت المعركة بعد خسائر كبيرة في الأرواح من الطرفين(4)، وانسحب السكان يوم الغد إلى الجيل بنسائهم وأطفالهم وكل ما أمكنهم نقله من الامتعة دون أن يَمسوا بسوء. دخل الملك الى المدينة راجلا وسار في موكبه الى المسجد الذي حوله الى كنيسة باسم العذراء شاكرا الله بكل ضروري لحمايتها، وأسند حكمها إلى إبن كنت دي فيلا ريال(5)، قبل أن يتوجه إلى سبتة. لكن ملك فاس أتى لحصارها في شهر ديسمبر الموالي بجيش عرمرم ومعه أشجع قواد افريقيا كلها(6). وبعد بضعة أيام غادر الملك ألفونسو سبتة بأسطوله راجعا إلى البرتغال، دون أن يستطع إنزال الجنود إلى البر لانقاذ المدينة، لأن

(4) سنة 1458.

(5) دم إدوارد دي منيسيس.

(6) هو مولاي بويا.

الشاطئ كله كان محاطا بالمسلمين لكن الحامية دافعت عن نفسها بشدة، لدرجة أن المحاصرين اضطروا إلى الانسحاب بعد ذلك بقليل(7) ن أن ينجزوا أي عمل يذكر. ومع ذلك فإنهم عادوا إليها بعد ستة أشهر بجيش متركب من مائة ألف محارب، وكمية من المدفعية، وبعد أن أقاموا الحصار ثلاثة وخمسين يوما انسحبوا مثل المرة الأولى بنتائج قليلة وخسائر كثيرة، ثم أُخلي القصر الصغير منذئذ، كما أُخليت أصيلا، لقلة النتيجة وكثرة النفقة، ولم يُحتفظ إلا بسبتة وطنجة ومازيغن.

الفصل الخامس والخمسون
سبتة

سبتة من أقدم وأشهر مدن موريطانيا، تقع في شرقي القصر على مستوى الجزيرة الخضراء. كان الرومان يترددون عليها كثيرا، لموقعها في حلق المضيق، حيث لا يتجاوز عرضه فرسخين، بالاضافة إلى أن لها ميناء جيدا ملائما ترسو فيه سفنهم، ولا تبعد إسبانيا من هناك إلا بخمسة فراسخ(8) في أطول طريق. حتى يقال إنهم شيدوها وسموها مدينة الرومان ولو أن مؤرخا افريقيا شهيرا(9) يقول إنها أسست من طرف أحد أبناء نوح، بعد الطوفان بمائتين وثلاثين سنة. ويسميها آخرون السِّلسة، ويجعلها بطليموس في الدرجة السابعة والدقيقة الثلاثين طولا، والدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا. وبالتالي فإنها كانت دائما مدينة عظيمة، تتمتع في عهد الرومان بتقدير كبير، سواء من حيث عظمتها أو من حيث ثرواتها وما لها من مزايا أخرى، حتى أصبحت عاصمة موريطانيا الطنجية بأسرها. ولما فتحها القوط احتفظت بنفس الشهرة التي كانت لها، إلى أن سلمها ألكونت يوليان إلى العرب عقب انتصارهم، فزادوها شهرة، إذ يقيم بها أهم نبلائهم، مع عدد من التجار والصناع الذين كانوا يستعملون الذهب، والفضة، والنحاس، والصفر وغيرها من المعادن في صناعة متقنة، حتى إن مصنوعاتهم كانت تفوق مصنوعات دمشق، سواء من حيث الفن، أو من حيث المادة.

(7) في ثاني يناير.
(8) الفرسخ الاسباني : أربعة أميال.
(9) أبو العباس.

وفضلا عن ذلك، كانت تصنع فيها زرابي فاخرة، وجميع أنواع المنسوجات من الصوف والكتان، فكانت من أجود منسوجات ذلك العهد، وتتزود بها أقاليم افريقيا وأوربا بواسطة تجار كانوا يأتون إليها من كل جهة. ويقع على بعد فرسخ ونصف من هناك جبل أبينا[10] الذي يسميه العرب الكدية. وتوجد المدينة في مكان بارد طيب الهواء لدرجة أنها تعتبر أصح دار مقام في افريقيا كلها، الشيء الذى كان يجلب اليها سكانا أغنياء من جميع الجهات، حسب ما يقوله المؤرخون. ويوجد في إتجاه القصر الصغير واد جميل، يقال انه كان مليئا، في أيام إزدهاره، بعدد من الحيطان الكبيرة والبساتين والمنتزهات التي يروق منظرها جيدا، إذ لم تكن سوى أشجار مثمرة، وكروم معروشات وغير معروشات، ولذلك دُعي وادي الكروم. أما الجوانب الأخرى للمدينة فكلها وعرة لكنها قريبة جدا من إسبانيا بحيث إنه ترى منها الشموع الموقدة في مدينة جبل طارق. ويشاهد من أعلى أسوارها شاطىء الأندلس، مع جزء من مملكة غرناطة. يقول عبد الملك إن عبد المومن ملك مراكش حاصرها في بداية ملكه لوجود حرس مرابطي بها، ثم دمرها لأنها قاومته ونفى سكانها إلى أماكن شتى، ولم يقبل أن يعاد تعميرها. فبقيت لذلك خالية إلى عهد يعقوب المنصور الذي عمرها من جديد[11] وجعلها مدينة عظيمة، لأنها كانت محطة العبور إلى اسبانيا. غير أن أحد ملوك غرناطة[12] أرسل إليها بعد ذلك (فاراكس) عامل مالقة ليحاصرها، ولما حدث انشقاق في مملكة فاس[13] اقتحمها وتركها خالية بعد أن أخذ معه جميع سكانها، فلم تسترجع إطلاقا ازدهارها الأول، رغم أنها عمرت مرة أخرى منذ ذلك العهد. وأخيرا في دولة ملك آخر من ملوك فاس، وتحت حكم صالح بن صالح، غزاها يوحنا الأول، ملك البرتغال، عام ألف وأربعمائة وتسعة [14]، ولو أن العرب ينقصون سنتين من هذا التاريخ، ويزيد آخرون ست سنوات على هذا الحساب. لكن ينبغي أن نقول كيف غزاها هذا الأمير وما دفعه إلى القيام بهذه العملية.

(10) جبل الوهم.
(11) سنة 1303.
(12) هو محمد بن الأحمر.
(13) وذلك إثر وفاة سعيد، ثالث ملوك بني مرين.
(14) 818 هـ.

استلاب سبتة من المغاربة

كان لدم يوحنا ملك البرتغال خمسة أبناء(15)، وعندما أصبح الأكبرون منهم قادرين على حمل السلاح، أبى إلا أن يرسمهم فرسانا بيده، فبعد أن أعلن عقد جمع حافل بلشبونة، قال له أمين خزائنه، وقد اندهش من النفقات الباهضة، إن احتلال مدينة مغربية سيكلفه أقل من تلك النفقات وإنه لمن الامانة والشرف أن يرسمهم فرسانا بعد ذلك الاحتلال، فاستحسن الملك هذا الرأى هو وأهل مجلسه، وقر العزم على غزو سبتة، واتخاذ الاستعدادات الكافية لعملية حربية عظيمة كهذه. وأول ما قاموا به هو إرساء سفينتين حربيتين لاستطلاع المكان، بدعوى أنهما تحملان سفارة الى صقلية، مع إعطاء أمر للمشاهدين أن يحاولا الدخول إلى المدينة والى القصر، وأن يفحصا المواقع الداخلية والخارجية ليحملا الى الملك رواية مدققة. وقد تم ذلك بسهولة، لأن المغاربة سمحوا بالدخول للسفراء الذين أطلعوا الملك لدى عودتهما على كل شيء. ولازالة كل تشكك أعلن الملك الحرب ضد دوق دي بريطاني، بعد أن أسر إليه أنه لا ينوي مهاجمته، ولكن محاربة المسلمين، فحشد جيشا عرمرما(17) بلشبونة نشر فيها الطاعون وماتت به الملكة، وحدث أثناء جنازتها كسوف كلي للشمس وبعض الآيات المفزعة. لم يتوان الملك في الابحار بسرعة، والارساء في مكان بالغرب(18) مع ثلاثة من أبنائه، بينما مكث الآخران الصغيران مع أختهم التي أصبحت منذئذ دوقة بوركوني. وبينما هو في ذلك المكان، بعد أن استمع الى القداس، أعلن جهرا عن قصده، فاندهش له الجميع لأنهم كانوا يعتقدون أنهم زاحفون ضد دوق دي بروطاني، ثم أبحروا بابتهاج كبير، بعد طلوعهم في المراكب. ووصلوا بعد أيام قلائل إلى سبتة التي لم تكن تبعد من هناك إلا بخمسين فرسخا. وأرسوا بميناء بارباسوط الواقع الى جهة الغرب، حيث ثارت فيه عاصفة هوجاء عندما استدعي القواد لعقد مجلس، فاضطروا إلى امتطاء السفن والابحار الى الجزيرة الخضراء، وهناك تناولوا كل أنواع المرطبات. ونصح بعضهم الملك بالرجوع الى البرتغال، أو مهاجمة مكان اخر من بلاد البربر، بسبب الصعوبة التي قد تعترضه في احتلال هذا الموقع الذي هو في غاية المناعة

(15) هم : ادوارد، وبطرس، وهانري، ويوحنا، وفرناند.
(16) عبر عنهم كذلك بالكفار.
(17) من 50 ألف رجل.
(18) هو بُرّ الفرس.

ويحميه مثل هذا العدد من الرجال الذين بصروا بهم، فضلًا عن الذين يقبلون من الجبال والثغور البحرية. لكن ذلك الأمير الشجاع المتوكل على الله أبى أن يغير رأيه. وبعد أن هدأت العاصفة أبحر من جديد ليلًا، وحاذى سبتة عند فجر ليلة صعود العذراء، وأرسى سفنه من جهة جبل طارق. وكلما وصلت مراكب، كانت ترسى هناك وتخرج قوارب الانقاذ، فيركبون فيها وهم يتظاهرون بالنزول إلى الأرض من جهة القصر، حتى إذا هرع المغاربة إليه أمكنهم النزول بكل سهولة في الميناء. وقد حدث ذلك فعلا : لأنه بينما كان المغاربة يسرعون إلى القصر، طلع باقي جنود الأسطول إلى الزوارق والقوارب، وأخذوا في النزول بسرعة كبيرة.وقد ارتمى عدد من الجنود الشجعان حتى في الماء، ونزلوا أينما استطاعوا في البر والأسلحة بأيديهم، بالرغم على العدو وجميع الذين كانوا يسرعون لامداده حتى يمنعوا النزول. لكن الله شاء أن يقاتلوهم ويطاردوهم إلى أبواب المدينة، فدخلوا مختلطين بهم دون أن يستطيعوا إغلاقها. وحدثت إذ ذاك معركة شديدة في الساحات والأزقة حتى قرابة المساء، ولما رأى العامل أن المسيحيين يتقوون، والمغاربة يتخاذلون، انسحب إلى القصر، والسكان إلى بيت متهدم بجانب باب فاس، فتحصنوا به، لكن الملك وأبناءه ضيقوا عليهم الخناق، حتى استولوا على هذا وذاك. وقد قتل جل المغاربة، أو أخذوا أسرى باستثناء الذين فروا الى الجبل مع العامل. ونهبت الدور التي وجد فيها العشاء جاهزا. وحصلوا على غنيمة كبيرة دون أن يفقدوا أحداً إلا رجلا قتل برمية حجر وهو ذاهب لانقاذ الأمير دم هانري الذي كان يحارب المغاربة أمام باب منزل(19). يقول بعضهم إن الملك وأبناءه صاموا ذلك النهار على الخبز والماء، ولم يفطروا إلا بعد احتلال المدينة. وقد ترك الملك في سبتة كحاكم لها دم بيدرو دي منيسيس(20)، الذى خدمه خدمة جلى في هذه العملية العسكرية، ثم أبحر راجعا الى بلاده. وبقيت المدينة منذ ذلك العهد دائما تابعة لملك البرتغال، وما زالت كذلك حتى الآن.

يقول مؤرخو افريقيا إن أبا سعيد كان منهمكا في ملذاته وهو يعلم أن أسطول المسيحيين كان يبحر ضد سبتة، فلم يحاول إنقاذها، ولم يغتمَّ لاحتلالها.

(19) هذه المبالغة السافرة لا تحتاج الى تعليق. خصوصا وأن المعارك كانت ضارية ــ باعترافه ــ طوال النهار، خارج المدينة وداخلها (مترجم).

(20) الذي أصبح منذئذ كونت دي فيلاريال.

فصار مقيتا من أجل ذلك إلى حد أن رعاياه تآمروا ضده وأن وزيره[21] الذي كان قد أسبغ عليه نعمه وكان قويا جدا قتله مع أبنائه الستة. وتلت هذا الموت حروب طاحنة من أجل العرش بين سعيد ويعقوب، لم تترك وقتا لاسترجاع هذه المدينة، ولو أن أحد أبناء ملك غرناطة[22] ألحَّ كثيرا في ذلك، وحاصرها أخيرا بحرا وبرا، لكن بدون جدوى، لأن أحد أبناء ملك البرتغال هاجمه بجنوده وأرغمه على الرجوع إلى إسبانيا ملوما مدحورا[23]. وبعد أن بقي أهل فاس بدون ملك طوال ثماني سنوات، بايع الشعب بحماس أحد أبناء الراحل[24] من زوجة مسيحية، كانت قد أنقذته وفرت به إلى تونس، فتبوأ العرش لعدة سنوات، لكنه تجبر وانغمس في الفواحش، فتآمر الأعيان أيضا ضده، وطعنه أحد السكان بخنجر، كما ذكرنا في الفصل السابع والأربعين من هذا الكتاب[25].

تقدم حامية سبتة وموت الكونت ليناريس وابن أخيه

أتاحت الحروب الأهلية بفاس الفرصة للبرتغاليين ليستقروا في افريقيا، لكونهم غير منشغلين في مكان آخر. وشن دم بيدرو دي منيسيس عدة غارات على المغاربة، حتى وصل إلى أبواب تطوان وأفزع السكان لدرجة أن أكثرهم غِنىً غادروا بيوتهم ليقيموا في مكان آخر. وفر بعضهم إلى سبتة، ومن جملتهم أبناء لعلي برَّاش، وآخر من بيت الموحدين، فوعدوا ملك البرتغال، إذا أراد العبور الى افريقيا، أن يناصروه، ويجعلوا جميع هذه المناطق تحت حكمه. لكن شيئا من ذلك لم يتم، وصار ملك فاس يأمر من حين إلى آخر بشن غارات على سبتة، حتى يحتفظ بالثقة الموضوعة فيه ولا يظهر بمظهر إهمال رعاياه. وأخيرا أقبل اثنان من إخوان الملك[26] في عشرة آلاف فارس، وعدد من المشاة، بحرا وبرا، لنصب كمينين، بعد أن أبعدا زوارقهما من الشاطىء، حتى إذا خرج المسيحيون على الطلائع طوقوهم ومزقوهم كل ممزق. ولما هجم الحاكم البرتغالي على الطلائع بمائة وثلاثين فارسا، فصل منهم خمسة عشر للمطاردة، لكنهم بعدما اكتشفوا الكمين، انقلبوا مسرعين

(21) أبو بابا (كذا).
(22) مولاي .... بن أبي الحجاج الثالث عشر من ملوك غرناطة من دولة بني الأحمر.
(23) سنة 1419.
(24) عبد الحق.
(25) بصدد احتلال أصيلا.
(26) سنة 1514.

إلى عظيم جيشهم الذي أراد أن يقتدي بهم، بعد تأكده من عدد الأعداء، فضيّقوا عليه الخناق إلى ان دخل مائتان وخمسون فارسا مغربيا مختلطين معهم إلى المكان المسور المحيط بالساحة. وقتل منهم مائتان بعد أن أبلوا البلاء الحسن، ولم يمت ولو برتغالي واحد،[27] لكن جرح منهم ثلاثون. وفي هذه الأثناء وصل أخوا الملك مع باقي الجنود، وعدد كبير من الرواد لتمهيد الخندق، وإزالة السياج. وعندما اقتربوا من الحاكم، اضطر إلى الانسحاب في معظم الجيش المتراصّ نحو المدينة، بينما كان ستة وعشرون زورقا للأعداء تحاذي الشاطىء، وتنزل الجنود لقطع طريقه. لكن البرتغاليين داسوهم، وأرغموهم على حمل موتاهم في الزوارق، ومن بينهم بعض وجهاء فاس. ولما فشلت هذه الحركة هاجم المغاربة مغتاظين قطعان أصيلا، وأخذوا منها سبعمائة رأس تأسيا عن خسارتهم. لكنهم قتلوا منذئذ لويس دي سيلفا بطنجة، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على هذه المدينة، ثم شنوا غارات على سبتة التي خرج منها ابن الكونت دي ليناريس[28] لملاقاتهم بعد أن قدم أمامه خليفته في عشرين فارسا، وواجههم بسفينتين شراعيتين، أمرهما بمحاذاة الشاطىء. وحمل المغاربة بشدة على خليفته فقتلوه قبل أن يستطيع الالتحاق به. وبدأت السفينتان في إطلاق النار من بعض المدافع الصغيرة، لكنها لم تكن تصيب الأهداف، فأساءت إلى المسيحيين أكثر مما أساءت إلى المغاربة، وقُتل الكونت دى ليناريس على إثر موت خليفته. ثم هلك ابن أخيه[29] الذي أتى لنجدته، وأرسلت رؤوسهم مع بعض رؤوس رجالهم إلى الشريف، ولم ينج منهم أحد. وتوجد دائما في المدينة حامية قوية لكونها من أهم مدن الحدود التي يمكن أن تُهاجَم منها شواطىء إسبانيا.

(27) هكذا حتى في حالة الانهزام والفرار ! (مترجم).
(28) دم بيدري دي منيسيس
(29) أنطونيو دي نوروكرا، أو نورونيا.

الفصل السادس والخمسون

تطوان (30)

تقع هذه المدينة، التي أسسها أهل البلاد، على ضفة نهر قوس،(31) الذي ينحدر من الأطلس الكبير(32) ويصب في المحيط(33) على بعد سبعة فراسخ من سبتة، في اتجاه الشرق، في المكان المسمى مصب تطوان. تبعد تطوان بفرسخ واحد عن الشاطىء في عالية النهر، في سهل جميل، تكتنفه الحدائق. وقد احتلها القوط بعد الرومان، ثم العرب، الذين كانوا يجهزون فيها سفن القرصنة لغزو الشواطىء المسيحية(34). كانت آنذاك آهلة جدا بالسكان، لكنها دمرت من طرف أسطول قشتالة، وأسر جميع سكانها تقريبا، ثم بقيت خربة طوال تسعين سنة، حتى تسلمها المنظري، الذي عبر إلى إفريقيا عقب احتلال غرناطة، من ملك فاس، ليزعج منها المسيحيين. فعمرها من جديد، ورمم أسوارها، وشيد حصنا أحاطه بخندق جيد، كان يلتجىء إليه ويشن منه غارات على حدود سبتة والقصر وطنجة، بأربعمائة فارس جاؤوا معه من الأندلس، ومغاربة آخرين من هذه الجبال، وصار يهاجم الاسبانيين بحرا وبرا، إذ كانت له بعض السفن الصغيرة في النهر، يستعملها لاجتياح شواطىء إسبانيا بنجاح كبير، حتى إنه أخذ منهم ثلاثة آلاف أسير كان يرغمهم على أن يشتغلوا طوال النهار لبناء أسواره، ويسجنهم ليلا في زنزانات كبيرة مقيدين في الأصفاد. وخلف حفيدا لم يكن أقل منه شجاعة، ثم أعقابا أصبحوا كلهم أمراء تطوان، لكن كانت هناك فرقتان(35) في المدينة، طردت إحداهما الأخرى سنة ألف وخمسمائة وسبع وستين(36) إلا أن قائد المنفيين دخل المدينة في غياب الحاكم وحرضها على الثورة، بعد أن قتل جميع أتباع الفرقة المضادة.

(30) تعني تطوان باللغة الافريقية العين الحارية. بل العين هي تيط، ويجمع على تطاوين وقد ورد اسم هده المدينة عند مارمول «تطوان» وعند الوزان «تطاوين» (مترحم).

(31) نهر تطوان له أسماء كثيرة بحسب أجزائه دكر منها محمد داود عشرة ليس من بينها ما يشبه أن يكون «قوس». والأشهر : واد مرتيل. انظر م. داود تاريخ تطوان، 1 : 62، هامش 1. (مترحم).

(32) لاشك أن المراد حبال الريف. (مترجم).

(33) يعتبر المؤلف المضيق من المحيط كما رأينا (مترجم).

(34) سنة 1400.

(35) هما البوالس وبو حسان (؟)

(36) يوم القربان المقدس.

ولما وصل هذا النبأ إلى الشريف، أرسل إليها ألف فارس وألفين من المشاة، فدخلوا المدينة بهدوء وتمكنوا من الرئيس، فأرسلوه سجينا إلى فاس وطردوا باقي الفئة. ثم إن قائد الالف من الفرسان(37) مكث في المدينة وأرجع إلى مراكش قائد المشاة(37 م) ليحمل الخبر إلى الشريف الذي أصبح بهذه الوسيلة مالكا للمدينة.

ليست تطوان محصنة لا اصطناعيا ولا طبيعيا، وليس لها إلا أسوار منخفضة من طين، ومعظم خندقها مملوء بحيث يمكن ولوجها من جهتين(38) مشيا الى السور، وهي مشيدة على ربوة، وبجانبها حصن صغير(39) في الأعلى من جهة الشمال، لكن لا تحيط به سوى أسوار رديئة من طين. ويوجد خارج باب الحصن من المكان الذي ينزل الى الربض ركام فوق سطيح، عليه أربع من آلات الرمي المعروفة بالمنجنيق ومدفع، مع بعض القطع الحديدية الأخرى. وحول الحصن عشر قذافات ذات كلاليب(40) بين الشرفات تستعمل للتعليم أكثر منها للدفاع، لأنها غير مركبة كما يجب، ولا يوجد إلا عتاد حربي ردىء، علاوة على أنه قليل. لذلك فإن قوة المدينة تتكون من أربعمائة من أحسن الفرسان، وألف وخمسمائة راجل(41). وقد ازداد عددهم منذ ثورة الغرناطيين. وترسو فيها، إضافة إلى ذلك، عدة سفن حربية وأخرى شراعية لقراصنة الجزائر، يتزودون بالماء والخبز،ويلتحقون بخمسة عشر مركبا صغيرا في ملك السكان يغزون بها شواطىء البلاد المسيحية. وقد أثاروا منذ قليل سكان بعض مناطق غرناطة في تلك الجهة. وتلافيا لهذا الخطر، أمر فيليب الثاني(42) قائد أسطول قنصلية إشبيلية(43) الذي كان يخفر الشاطىء، بأن يأخذ معه أربع سفن من إسبانيا الى سفنه، ويذهب إلى مصب نهر تطوان، فيمنع أن يخرج منه أو يدخل إليه أي قرصان. فانطلق إلى هناك عند مطلع الفجر جاداً في السير حتى إنه عند الزوال كان قد أقحم في الجرف الرملي(44) بعض الزوارق المحملة بصخور ضخمة جاء بها من جبل طارق، تلك الزوارق التي كانت على سطح الماء عند الجزر، ثم اختفت تماما. وأغرق أيضا قريبا

(37) ابن خليفة.
(37م) الدكالي.
(38) من الباب الحديد، ومن باب المقابر.
(39) كاسطيل داديف.
(40) قطع صغيرة من المدفعية.
(41) قربيبيون أو قذافون.
(42) سنة 1564.
(43) هو ألفاري باصان.
(44) مصب النهر.

من هنالك سفينتين شراعيتين مثقلتين بالحجر، مما ظهر كافيا للحيلولة دون الدخول إلى النهر. وقد أنجز كل ذلك دون أن يستطيع السكان منعه، مع أن النزول تصدى له عدد من المشاة والفرسان كانوا قد أتوا مسرعين من جميع الجهات، وقتل جَنود من الجانبين. ذلك لأن المغاربة كانوا يحاربون وهم يائسون، وأزالوا السفينتين الشراعيتين فورا عقب ذهاب الاسبانيين. وبعد ذلك فتح التيار ممرا آخر قرب الزوارق من جهة الشمال، بحيث كانت تمر بسهولة سفينة ناقلة بالمجاديف من ضفة إلى أخرى.

هناك اثنان وعشرون فرسخا من تطوان إلى بادس غمارة، ويمتد هذا الاقليم (45) حتى مدينة ترغة، لكن لا توجد إطلاقا مدن أخرى غير التي ذكرناها. ولنتحدث الآن على الجبال.

الفصل السابع والخمسون
الجبال وسكانها
رهونة (46)

توجد في هذا الاقليم عدة جبال يسكنها البربر، وعدد مواطنهم الرئيسية ثمانية. ينتسبون إلى قبيلة غمارة، ويعيشون كغيرهم تقريبا، ماعدا أنهم يشربون الخمر ولو أنها محرمة في الدين الاسلامي. إنهم أقوياء يصبرون في مكابدة العمل، لكنهم فقراء بسبب إثقال كاهلكم بالضرائب، بحيث إن التعامل معهم سيء جدا. وهم أعداء للمسيحيين، يشكلون أفضل الجيوش التي كانت لملوك غرناطة في حروب اسبانيا. وأول جبل، حسب ترتيبنا(47)، هو جبل أرهون (رهونة) قرب ازاجن، طوله عشرة فراسخ من الشرق الى الغرب،وعرضه أربعة يستخرج سكانه الكثير من الزيت، والعسل، والخمر سواء منها البيضاء والصهباء، لكنهم لا يأكلون إلا الشعير لندَرة القمح عندهم. وأهم تجارتهم في االصابون، وهو سائل، لا يصنع غيره أطلاقا في افريقيا كلها. وتستعمل جميع المواد لمعاشهمً ولتأدية الضرائب إلى ملك فاس، إلا أنهم يحتفظون بالخمر لشربها طوال السنة. وهم تابعون لحاكم ازاجن الذي يُموِّل جنده من جبايا القبائل الخاضعة له، ويستعملها عند الحاجة، لأن

(45) المبط.
(46) في الأصل : ارهون أو أراهون.
(47) انطلاقا من الغرب إلى الشرق.

عددهم عشرة آلاف محارب، ولكن مهما كانوا مجدين في العمل، فانهم لا يستعملون إلا في خدمة المعسكر، إذ ليس لهم خيل ولا يملكون إلا القليل التافه من السلاح، بحيث إنهم يزودون بالسلاح عند الاحتياج إليهم، ويسترجع منهم عند انتهاء العملية العسكرية، لاسيما البنادق والقذافات.

الفصل الثامن والخمسون
بني زكّار الذين يسميهم بعضهم ـ خطأ ـ بني فنزكار

يبدأ هذا الجبل عند الجبل السابق، وطوله ثمانية فراسخ من الغرب إلى الشرق، وعرضه ثلاثة. سكانه أغنى من سكان الجبل السابق، ويوجد من بينهم عدد من دبّاغي الجلود ومن النساجين، فضلا عن أنهم يجنون عسلا كثيرا، ويبيعون كمية من الشمع كل يوم سبت، في سوق يقيمونه ويقصده تجار فاس وغيرها من المدن، ولاسيما المسيحيين الذين يتجرون في بلاد البربر، سواء لشراء الشمع أو الجلود. لا يحصد هؤلاء القوم إلا شعيرا رديئا، وقليلا من القمح، غير أنهم يملكون قطعانا وافرة، ويعيشون في سعة أكثر من سكان الجبل السابق، لأن ملوك فاس لا يزعجونهم مثل ما يزعجون الآخرين. إنهم يكوّنون خمسة عسر ألف محارب، وهم متعجرفون متوحشون سيئو الطباع، غالبا ما يقتتلون بسبب الغيرة، ويسمون بني زكّار وهم من غِمارة.

الفصل التاسع والخمسون
بني عروس

جبل قريب من القصر الكبير، طوله سبعة فراسخ من الشرق الى الغرب، وعرضه ثلاثة(48). كان السكان يؤدون الخراج الى ملك البرتغال عندما كان محتلا أصيلا، ويقطنه إذ ذاك قوم(49) شجعان من غمارة. تكثر في هذا الجبل جميع الأشياء، وكانت قصبته(50) بمثابة عاصمة، يقيم بها عدد من الأشراف، غير أنهم طغوا وتجبروا، فهاجر معظم السكان واستقروا في مكان آخر، بحيث إنه لم يبق إلا بعض المداشر في المرتفعات يقطنها برابرة، ولو أن بعض السكان رجع الى تلك

(48) عند الوزان : «يمتد على مسافة ثمانية أميال شمالا، وعشرين ميلا غربا، عرضه ستة أميال» (مترجم).
(49) بني عروس.
(50) بني محرز.

القصبة الكبيرة المذكورة منذ أن غادر البرتغاليون أصيلا. ومن ثم خرج العروسيون(51) الذين ساعدوا الشريف على فتح مملكة فاس، وهم أعيان البلاد. وهذا الجبل، الذي كان يسمى قديما (أبّطا ــ ديلفي) يجعله بطليموس في الدرجة السابعة والدقيقة الأربعين طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين والدقيقة الخمسين عرضا.

الفصل الستون(52)
جبل حبيب(53)

هو جبل في داخل البلاد، على بعد ثمانية فراسخ من طنجة من ناحية الجنوب. كان هنالك في القديم سبعة قصور يعيش سكانها على غرارالمتحضرين في المدينة باستقامة كبيرة، لأنه عندما احتل البرتغاليون طنجة، انتقل عدد كثير من سكانها ليقيموا هناك، غير أن الحامية المسيحية كانت تزعجهم، فكانوا يؤدون الخراج تارة وينسحبون أخرى، لأن حاكمي القصر الكبير وتطوان لم يستطيعا إغاثتهم، لبعدهم الشاسع عنهم. وهم أكثر اطمئنانا في الساعة الراهنة، لأن حامية طنجة لم تعد تجرؤ على الابتعاد بسبب قوة الشريف. يملكون كثيرا من قطعان الماشية، وكانوا ينتجون في القديم كمية من الشعير، والقمح، والشمع، والعسل والخمر، بحيث كان بإمكانهم أن يعيشوا مرتاحين لولا هذه الحامية. وبالتالي فإنهم ينتسبون إلى غمارة(54) ويسمى الجبل باسمهم.

الفصل الحادي والستون
بني حسان

جبل شاهق مستقيم جدا صعب المسالك، يجعل سكانه في مأمن دون تحصين آخر. وهم أكبر المحاربين في جميع هذه الجبال(55). يقول مؤرخو البلاد

(51) كانوا عمالا لازاجس والقصر الكبير، والعرائش.

(52) كتب في الأصل: «الفصل العاشر والخمسون» حسب التعبير القديم، وكذلك الفصول التالية، فأثبتنا المستعمل وتركنا المهمل (مترجم)

(53) كتب في الأصل «بني تليت أو حبيت» وأثبتنا ما عد الوزان حيث إن مارمول استقى منه أهم المعلومات ــ كعادته ــ (مترجم).

(54) يسمون بني ثليت.

(55) ينتسبون أيضا إلى غمارة ويحملون اسم جبلهم.

إنهم كانوا في القديم خاضعين للنبلاء، لكنهم لم يتحملوا طغيانهم فثاروا ضدهم، وعندما غلبوهم فرضوا عليهم الخراج. لكن أحد النبلاء الشبان[56] لم يصبر على هذا العار، فاجتاز الى اسبانيا مع آخرين، وبعد أن أدى خدمات جُلى لملك غرناطة ضد المسيحيين[57] عاد الى بلاد البربر وقد أصبح محاربا محنكا، فأقام بجبل شفشاون[58]، حيث التجأ الى بعض أصحابه، وكوّن هناك سِرباً من الفرسان قاوم به البرتغاليين على الحدود بشجاعة كبيرة، حتى إن ملك فاس عززه ببعض الجنود من الفرسان والمشاة، فحارب بهم القوم الذين استعملوا النبلاء، وبعد ان خضد شوكتهم بويع أميرا لشفشاون ثم استولى على جميع موارد ملك فاس وثار عليه. ولما جاء الملك لمحاربته بجيش عرمرم، استعطفه وطلب منه أن يبقيه على المنطقة التي استولى عليها في مقابل شبه اعتراف، فقبل الملك ذلك اعتبارا لنسبه الشريف وكونه من سلالة مؤسس فاس[59].

سكان هذا الجبل رجال حرب أشداء يفوق عددهم خمسة عشر ألف مقاتل، لذلك عبروا الى اسبانيا عدة مرات لقتال المسيحيين. يملكون عددا وافرا من القطعان، وكمية من العسل والشمع والجلود، لكن ليس لهم كثير من القمح ولا الشعير، لأن البلاد وعرة صعبة لا تصلح للزراعة.

الفصل الثاني والستون
أنجرة[60]

يبعد هذا الجبل عن القصر الكبير بفرسخين ونصف في اتجاه الجنوب، طوله ثلاثة فراسخ من الغرب الى الشرق، وعرضه فرسخ واحد. توجد في كل مكان منه حِراج وخشب صالح لصنع السفن : لذلك كان ملوك فاس في القديم يأمرون بصنع السفن الحربية وغيرها بالقصر الكبير. لكن سكان هذا الجبل التجأوا الى الجبال الأخرى المتعمقة أكثر داخل البلاد، عندما احتل البرتغاليون

(56) علي براش أو على بوراس.
كذا في الأصل، وهو تحريف برتغالي في النطق باسم علي بن راشد (مترجم).
(57) هذا هو الصواب. وانقلبت عبارة الحسن الوزان فصارت : «وعمل أجيرا في خدمة النصارى». وفاتنا التنبيه على ذلك هناك (مترجم).
(58) كتب في الأصل «شيشاون» (مترجم).
(59) ادريس.
(60) كتب في الأصل بالميم : أمجرة.

القصر الكبير ثم عادوا الى جبلهم عندما غادر البرتغاليون القصر، لأن الأرض جيدة تنتج الكثير من القمح والخمر، فضلا عن وفرة المراعي للماشية، لكنهم ليسوا فيها آمنين من حامية طنجة.

الفصل الثالث والستون
وَادْرَاس(61)

جبل شاهق بين سبتة وطنجة(62)، يسكنه قوم تميزوا في حروب اسبانيا، حيث كانوا يجندون ضد المسيحيين، فكانوا أفضل جنود ملوك غرناطة، ومحط الثقة الكبرى لديهم. وقد اعتادوا أن يتخذوا منهم حرسا قوامه خمسمائة رجل يقطنون في الزقاق الذي يسمى من أجلهم زقاق غمارة(63). يقول مؤرخوا افريقيا إن بهلولا الذي يشيد المغاربة بمآثره شعرا ونثرا، على غرار مآثر رونو وورولان، كان من هذه البلاد، وانه بعد أن أبلى البلاء الحسن في شتى الوقائع، مات في معركة طرطوشة،(64) وهو يقود جيش ملك مراكش.

الفصل الرابع والستون
بني كَرْفط(65)

جبل صغير قرب مدينة تطوان، لكنه آهل بالسكان، وهم محاربون أشداء كانوا دائما تابعين لأمراء هذه المدينة. وقد ضايقتهم حامية سبتة بعض الوقت، خاصة عند موت المنظري، بحيث وصلت حملاتها حتى أبواب تطوان، لذلك فإنهم معفون من الضرائب، وان كانوا يؤدون شيئا إلى عامل تطوان عن الأراضي التي يحرثونها والتي ليست من الجودة بمكان، لأن الأرض جدباء شيئا ما. يكثر فيها البقس الذي يشتريه أهل فاس وغيرها لصنع الأمشاط، وأدوات أخرى صغيرة.

هنا تنتهي مساكن هذا الاقليم : فلنتحدث الآن عن مساكن الريف، الذي هو الاقليم الخامس في مملكة فاس، ابتداء من جهة الغرب.

(61) في الأصل : واد ادريس وفي الهامش، أو وادريس أو كوادريس والصواب ما أثبتناه عن الوزان (مترجم).
(62) في كتاب الوزان : بين سبتة وتطوان (مترجم)
(63) في المكان الذي يسيرون فيه من الساحة إلى الحمراء
(64) سنة 1212 أو 1214 التي توافق، حسب العرب، العام الهجري 609
(65) كتب في الأصل . بني واد ـــ فلاح، وفي الهامش .أو بني كاد الفتوح. والتصحيح من كتاب الوزان، ص. 323. (مترجم).

الفصل الخامس والستون
إقليم الريف

يبتدىء هذا الاقليم عند منطقة تطوان غربا، ويمتد نحو الشرق إلى نهر النكور على طول سهل تنيف مساحته على خمسين فرسخا. يحده شمالا البحر المتوسط المواجه لغرب إسبانيا، ويمتد على مسافة خمسة وثلاثين فرسخا نحو الجنوب، إلى الجبال التي يحاذيها نهر أركيل (ورغة)على تخوم اقليم فاس. البلاد مليئة بشجر الزيتون وبالحدائق حيث تكثر الفواكه الطيبة، والسكان بربر يتباهون بالمروءة، ويملكون عددا كثيرا من الماعز، لكن المواشي الأخرى قليلة عندهم لأن البلاد غير صالحة لها. وهم قوم متوحشون غير ميسورين، يعيش جلهم في هذه الجبال داخل منازل من طين، مغطاة بأوراق الأشجارأو لحائها. وليس في الاقليم كله أكثر من ست مدن، والباقي انما هي قرى وقصبات مبعثرة هنا وهناك بين صخور وجبال شديدة البرودة الى درجة ان الرجال والنساء لهم أعناق ضخمة، بسبب برودة الماء. وبالتالي فإنهم يشبهون سكان الجبال السابقة في كل شيء، وجميعهم من قبيلة غمارة، احدى قبائل افريقيا الخمس الرئيسية.

الفصل السادس والستون
المدن
تَرْغَة

مدينة صغيرة يُعزى تأسيسها إلى القوط عندما كانوا يملكون البلاد. وتقع على شاطىء البحر المتوسط، على بعد سبعة فراسخ من تطوان في اتجاه الشرق، في سهل ممتد بين جبلين. تحيط بها أسوار قديمة، وتقوم في جهة البحر قصبة غير محصنة كما يجب، ولو انها مشيدة فوق صخرة. كانت في القديم آهلة بالسكان، وبقيت مدة من الزمن حرة بسبب الحروب.وعندما احتل ملك البرتغال سبتة[1] فر معظم السكان وأشرافهم إلى الجبال الأخرى، ولم يبق فيها إلا نحو ستمائة دار للصيادين، يملحون سمكهم ليبيعوه الى البغالين الذين يفدون من جميع جهات المنطقة وحتى من أبعد من ثلاثين فرسخا.

(1) سنة 1409.

وصيد السمك جيد في ترغة، بقال إ ها تستطيع أن تزود بالسمك نصف مملكة فاس. وتكتنف المدينة كلها غابات كبيرة كثيفة مليئة بالقرود، والجبال المجاورة وعرة باردة جدا ولو أن هناك مكانا صغيرا يزرع فيه الشعير، بحيث إن جميع القمح الذي يستهلك فيه ياتي من خارج، يحمله الجبليون وسكان الغرب[2] الذين ياتون لشراء السمك. هؤلاء القوم خشنون سكيرون، يدعون الشجاعة ويغادرون المدينة لأدنى تشكك في وجود بعض السفن المسيحية مُلتجئين الى الغابات[3]. وقد نهبت هذه المدينة سنة ألف وخمسمائة وثلاث وثلاثين من قبل سفن شراعية حربية للعجوز دم ألفاري باصان، لكن الشريف الحالي حصَّنها الآن خوفا من أن يستولي عليها الأتراك، وشيد في أعلى المدينة من ناحية الجنوب قصبة هي الآن محصنة، وأقام فيها جنودا وحاكما مع خمسين قطعة من المدفعية، وأربع آلات منجنيق، وستة وأربعين مدفعا صغيرا، أو بندقيات ذات كلابات. ليس فيها ميناء، إذ ليس الشاطىء كله إلا مرسى مكشوفا. كانت هذه المدينة تسمى تاغات في القديم، حسب بطليموس الذي يجعلها في الدرجة الثامنة والدقيقة العشرين طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين والدقيقة السادسة عرضا، لكن المغاربة أبدلوا الفتحة كسرة وسموها ترغة (كذا).

الفصل السابع والستون
بادس غمارة[4]، والقلغة المسماة صخرة بادس

مدينة تضم سبعمائة كانون، على شاطىء البحر المتوسط، في مستوى مالقة، التي تبعد عنها بأربعين فرسخا. ينسب بعضهم تأسيسها إلى القوط، وآخرون يَنسبون ذلك إلى أهل البلاد. تقع بين جبلين شاهقين قرب شِعْب كبير، يخترقه جدول يفيض. بماء المطر فيحسبه الرائي نهرا. ولا توجد إطلاقا مياه أخرى في

(2) من بلاد ناحية فاس
(3) هذا مخالف لما عند الحسن الوزان (ص325) من انهم شجعان حقا (مترجم).
(4) كتبت في الأصل فيليز غمارة، وفي الهامش: دائرة بادس

• تسمى أيضا بادس فاس تمييزا لها عن باديس الجزائر. انظر الصديق بن العربي، كتاب المغرب (طبعة بيروت 1984) ص 74.

• أما صخرة بادس، فكانت هناك في العصور الوسطى جزيرة تعرف بجزيرة مرسى بادس، لعلها التي بنيت في مكانها قلعة الصخرة (مترجم).

تلك النواحي، باستثناء بئر خارج المدينة بالقرب من ضريح ولي[5] يزار كثيرا، لكن شرب هذا الماء ليلا خطير، لأنه مليء بالعلق. وتوجد في بادس ساحة تحتوي على عدة دكاكين، ومسجد كبير محاط بجدران قديمة، مع قصبة هي جميلة أكثر منها حصينة. فيها قصر العامل، ولو أن هناك قصرا آخر في الخارج تكتنفه بساتين جميلة.

كان السكان يستغنون من شيئين طوال أيام ازدهارهم، بعضهم من السردين الذي كانوا يبيعونه الى البربر الآتين من جميع الجبال المجاورة، لكثرة السمك في هذا الشاطىء، والآخرون بواسطة الميناء الذي يسع ثلاثين مركبا صغيرا، إذ كانوا يجهزون فيه أنواعا من السفن الحربية يغزون بها شواطىء المسيحية، فيجتاحونها ويلحقون بها أضرارا كثيرة. وكانت الجبال المحيطة ببادس مساعدة على ذلك، لكثرة ما فيها من أشجار البلوط والفلين والأرز. بحيث إنها تحمل إلى أقاليم أخرى. والأرض جدباء لحد أنه لا يحصد بها الا قليل من شعير، وأقل منه قمحا، اذ ما هي إلا صخور، ولا يأكل السكان سوى الشعير. ينتسبون إلى قبيلة غمارة، ويعاقرون الخمر، إذ كان في بادس قديما أكثر من مائة منزل لليهود، تباع فيها أجود الخمور، وكان كل تسلية المدينة هو الخروج الى البحر في الزوارق لشرب الخمر وتناول الطعام. وتوجد على شاطىء البحر دار صناعة، كانت تصنع فيها عادة السفن التي يجهزها العامل والسكان. وتكمن قوة المدينة في جبليي المنطقة الذين هم كلهم شجعان يقاتلون إلى آخر نفس. لذلك كان سكان بادس يلتجئون إليهم بمجرد ما يبصرون أسطولا مسيحيا، ويجدون أنفسهم في مأمن أكثر من المدينة. وبادس أقرب ميناء في البحر المتوسط الى فاس، فلما وصل إليه[6] دم بيدري دي نافار، أمير البحر للملك الكاثوليكي، وهو يغزو شواطىء بلاد البربر ليضع حدا لغارات القراصنة، عزم على أن يحرمهم من هذا المأوى وذلك بتشييد قلعة[7] على صخرة مقابلة لبادس، على بعد مسافة سبعمائة قدم، يحيط بها البحر من جميع الجوانب على شكل جزيرة. ذلك أنها وعرة من كل جهة، فضلا عن ارتفاعها، ولا يمكن الصعود إليها إلا من ممرٍ ضيق، لا يكاد يستطيع أن يتسلقه الا رجل واحد، والميناء في أسفلها، لكن الصخرة محاطة من كل جهة بالمياه

(5) سيدي أبو عرة (كذا).
والصحيح انه أبو يعقوب البادسي المعراوي المتوفى عام 1333/734، انظر كتاب الحسن الوزان ص. 325، الهامش 129 (مترجم)

(6) سنة 1508

(7) بينون دي بادس

العميقة، حتى إنه ليمكن أن يقال ما هو إلا ميناء لمثل هذه المراكب. فبنى فوق قمة الصخرة، باذن من الملك، شبه برج بالجير والرمل، وبعد أن حصنه، ركز فوقه خمسة مدافع ضخمة، كما كانت تقام انذاك، وجعل فيها ثلاثين جنديا تحت قيادة فيلالوبوس، مزودين بالمؤن والذخيرة الحربية الضرورية. وأمر فورا بحفر خزان في منتصف المنحدر لجمع مياه المطر. ولما تحصن ما أمكنه التحصن أخذ يطلق النار على المنازل وأزقة المدينة، ان لم يرسلوا اليه ما طلبه. وعندما التمس أمير بادس[8] الاغاثة من ملك فاس ليخلصه من هذا الضيق، أرسل إليه ألفين من رماة البنادق المختلفة، حاصر بهم الصخرة، وأخذ يقصفها من جبلين مجاورين[9]، بقطع من المدفعية. لكن المحاصرين قاوموا جيدا فقتلوا أو جرحوا عددا كبيرا من المغاربة بطلقات المدافع والبنادق، حتى أرغموهم على رفع الحصار. وهكذا بقيت قلعة بادس للملك قشتالة طوال أربع عشرة سنة، بقيادة نفس الرئيس، لكن عندما مات قائد بادس، جعل ملك فاس مكانه ابن عمه مولاي محمد، الذي استولى على هذه القلعة خدعة، كما سنذكر ذلك.

استيلاء المغاربة على قلعة بادس

يروي شيوخ فاس وبادس أن الاسبانيين الذين في القلعة كانوا يسيطرون على المدينة سيطرة مطلقة، ويحدثون ضجة مروعة بقصف الدور والأزقة والمساجد بالمدافع إن لم يحمل إليهم على الفور ما كانوا يطلبون. فلم يكن السكان يفكرون إلا في وسائل التخلص من هذا الضيق، حتى يستطيعوا تجهيز السفن الحربية، وسحب سفن القراصنة الذين كانوا يشنون الغارات من جميع الجهات. لكن أمير بادس لجأ إلى الخُدعة علما منه أنه يستحيل أخذ القلعة عنوة : ولما كان قد أخبر بأن حاكم القلعة يحب المال حبا جما، فإنه أرسل إليه كيمياويين اقترحا عليه أن يصنعا له نقودا مزيفة تروج في المنطقة، شريطة أن ينصرف عنهما، فوافق على ذلك، بعد أن عاين التجربة، وجعلهما في مسكنه، في أخفى مكان بالبرج، حيث قضيا زمنا طويلا وهما يشتغلان، إلا أنهما كانا يترددان على بادس بدعوى ترويج نقودهما المزورة، فينقلان أخبار كل ما يجري فيها. وفي هذه الأثناء، اطلعا على غيرة

8) مولاي المنصور

9) القنديل وبابا.

الجنود الذي كان يعلم أو يشك في علاقة فيلّالوبوس بزوجته، فتقربا إليه بالمودة، وتآمروا جميعا على قتله، وأسروا بذلك إلى أمير بادس، لينجدهم في الوقت المناسب. وبينما كان فيلالوبوس منحنيا في إحدى شرفات البرج، عانقه أحد هذين المغربيين من خلف وطعنه الآخر بخنجر[10]، بينما كان الجندي يفتك بآخرين في الأسفل بباب الحجرة. ثم نزل المغربيان وأخرجا الباقين، وبعد أن أغلقا الباب استحوذا على البرج، وجميع المدفعية والذخرية الحربية التي كانت فيه. ثم أعطيا الاشارة إلى سكان بادس الذين أتوا مسرعين واستولوا على المكان، دون أن يستطيع المسيحيون منعهم من ذلك، لأن البرج، الذي هو القلعة الرئيسية، كان محتلا من طرفهم، وقُتل الاسبانيون عن آخرهم، ولم ينج منهم أحد. وعندما رأى أمير بادس أنه أصبح سيد القلعة، أقام فيها على الفور قائدا وجنودا، وشيد بعد ذلك برجا ثانيا في مكان منخفض قليلا عن الآخر، وحصَّن الباب بخندق كبير منحوت في الصخرة غير تارك سوى سبيل ضيق لمرور رجل واحد، وأقام عليه حراسة دقيقة خوفا من أن يقوم المسيحيون بمحاولات ضده.

محاولة مركيز دي مندخار استرجاع هذه القلعة

تأثر الاسبانيون جدا بفقدان هذه القلعة من أجل السهولة التي كان يتيحها للأعداء في استئناف غاراتهم على البلاد المسيحية. ورغم رغبة كل واحد في استرجاعها، لم ينجز أي شيء إلى أن أسَرَّ مدفعي مسيحي كان أسيرا هناك إلى مركيز دي مندخار[11]، بواسطة تاجر كان يتردد على بادس، أن يأتي ليلا ببعض السفن لمداهمة المعقل، واعدا بأن طلقات المدافع ستصوب إلى اعلى حتى لا ينزعج منها المهاجمون، بحيث يمكن الاستيلاء على القلعة تسلقا قبل أن تتلقى المدد من بادس. أخبر المركيز بذلك شارل الخامس وأمه الملكة التي كانت تحكم اسبانيا، وتلقى الأمر بإنجاز العملية. فجمع أكثر ما أمكنه من المراكب وأبحر من مالقة مع ما أخذ معه من رجال الساحل ومَن حشدهم من عدة جهات من الأندلس[12]، متبوعا بعدد كبير من النبلاء. وعندما وصل مساء وكان على مدى الرؤية من القلعة، رجع إلى البحر في انتظار الليل ليحاذي الشاطىء، كما اتفق مع المدفعي،

(10) في 10 ديسمبر 1522.

(11) حاكم غرناطة

(12) أوبيدة، وبياسة، وغرناطة، الخ ..

لكنه اكتُشف من أعلى البرج، فأوقدت النيران للاعلام به، الأمر الذي كان من أجله على وشك العدول عن العملية، لكن، بعد أن بين له النبلاء ما سليحقهم من عار، وأن القضية غير مؤكدة جيدا، اتجه نحو البر، وأرسى صباح الغد في الساعة الثامنة صباحا قرب برج يبعد عن القلعة بفرسخين برا، ولا يبعد عنها بحرا إلا بفرسخ واحد. ونظرا لتأكده من أن المدفعي سيصوب طلقاته عالية جدا، أنزل جنوده إلى البر، لكن المدفعي لم يستطع تنفيذ مخططه نهارا بمحضر المغاربة الذين ينظرون إليه، فقصف مؤخر السفينة التي كان فيها المركيز ومراكب أخرى، محدثا ضجة كبيرة إلى أن أمر المركيز بالرجوع الى البحر، مشيرا الى الذين نزلوا الى الأرض أن يطلعوا بسرعة الى السفن، وذلك ما لم يمكن تنفيذه في الحين، لأنهم كانوا قد تقدموا كثيرا. وبالعكس أخذوا يصيحون على أصحاب الأسطول أن ينزلوا بسرعة، لكن المركيز لم يرد أن يخاطر بنفسه، فبدأوا ينسحبون، عندما رأوا أنهم لن يغيثوهم قطعا، وقد داهمهم عدد كبير من الأعداء، حتى اضطروا إلى التقهقر، فاقتفى المغاربة أثرهم وقتلوا وأسروا كثيرا منهم. فان يوحنا هورتا دو دي مندوسة، وغرسية دي كسمان، وكونزالي دي مِدْران، وعددا من النبلاء الآخرين من ذوي الحيثيات لقوا حتفهم هناك، كما أسر فرانسيسكو فيرودوكو، وصانشو دي بّيادْمة، الذي كان يقود جنود موتْريل، ودم جيرونيمودي لاكويفا، ابن أمير أدْرادي، مع آخرين كثيرين أدوا فدية ضخمة. وعاد الباقي إلى مالقة بخيبة كبيرة، تاركين عدوهم يزهو بانتصاره، وبذلك بقيت القلعة بأيدي المغاربة إلى ان استولى عليها الأتراك، عندما احتل صالح رايس عامل الجزائر فاسا، وسلّمها إلى مولاي أبي حسون، أمير بادس، كما ذكرنا ذلك في تاريخ الشرفاء.

محاولة صانشي دي ليفي الإغارة على نفس المكان

لمّا كان حسن باشا، عامل الجزائر، قد انسحب من أمام وهران، ورفع الحصار على المرسى الكبير، كما سنذكر ذلك في مكان آخر. وكان فيليبّ الثاني قد جمع أساطيل إسبانيا وإيطاليا لانقاذ هذين الموقعين، وعلم أن القلعة ضعيفة، وأن حاكمها ذهب لشن غارات على البلاد المسيحية آخذا معه جميع الجنود. فإنه أمر فرانسيسكو دي مندوزا، قائد الأسطول الاسباني أن يهاجم القلعة بأسرع ما يمكن وأكثر ما يستطيع من السرية، حتى لا يدع الأسطول بدون فائدة، ويفرج هذا القلق عن الاسبان.

وعندما كتب إليه حاكم مليلية[13] يخبره بأن علجين مسلمين من بادس أتياه وعرضا عليه أن يسهلا له الدخول اليها، أمر المركيز بأن يبلغ مشروعه إلى هذا الحاكم، وأن يصحب معه هذين العلجين، ويستعمل القوة إذا لم تنجح الخدعة. ولما وصل هذا الأمر إلى المركيز وكان مصابا بالمرض الذي مات منه، فإنه عهد بتنفيذه إلى دم صانشي دي ليبفي، قائد أسطول نابل، بموافقة أهم الضباط، وذلك حتى لا تؤخر عملية بهذه الأهمية، مع أنه لم يكشف عن حقيقتها. وبعد أن قبل ليبفي المهمة، وأركب جميع الجنود[14]، غادر مرسى مالقة، وأرسى يوم الغد بجزيرة أربلان، على بعد ثلاثين فرسخا من هناك، حيث صرح للرؤساء بالمشروع، وعجل بإرسال سفينة حربية إلى عامل مليلية ليحمل اليه المسلمين. ويطلعه على ما كتبه إلى صاحب الجلالة. ولما وصل تبين إليه أن تقريرهما غير ثابت[15]، ورغم ذلك لم يتخلوا عن تنفيذ العملية وفق أمر الملك، وإرسال عامل مليلية معهما، على متن أسطول دم ألفاري باصّان، لمحاذاة رأس بابا ليلا. وهناك تسلم اليهم الجنود والأشياء الضرورية لتسلق القلعة. ولما نزلوا إلى البر، سلم دم ألفاري الى هذا العامل ثلاثين من النبلاء، فسار معهم ومع الجنود الذين أتى بهم من مدينته، بقيادة العلجين المسلمين، لكنه، بعد أن تقدم قليلا، رأى النهار يقترب، فعاد لذلك أو لسبب آخر دون أن ينجز أدنى شيء. إلا أن سيره لم يكن من الخفاء بمكان فاكتُشف من أعلى القلعة حيث دق جرسُ الانذار على الفور وأُطلق عيار مدفع لاشعار أهل بادس بحمل السلاح، فاضطر إلى الابحار من جديد. لكن دم صانشي دي ليبفي، الذي رأى فشل الحيلة، لجأ الى القوة، فتلقى طلقات مدفعية الحصن، لدى مروره قرب الصخرة، ونزل إلى برج القلعة. وكان أول من وطئت قدمه الأرض هم فرسان مالطة، مع جنود أسطول صافوْاوفلورانس، أي بمجموع خمسة آلاف رجل. وبعد أن صفوهم للقتال، توجهوا نحو بادس، لتسهيل عملية القلعة باحتلال هذا الموقع. فأخذ دم صانشي المقدمة، مع بعض النبلاء والضباط، محاولا استطلاع القلعة. وبينما كان الجيش يسير عبر مسالك وعرة صعبة، حمل المغاربة، الذين كانوا قد تجمعوا من الجبال، على فرقة من الجنود ترافق الطعام الذي كان خدام دم صانشي قد أخذوه من السفن ليحملوه إلى بادس، فهاجموهم فجأة بعنف شديد، ولو أن عددهم لم يبلغ الخمسين، إلى درجة أن الخفير المؤلف من

(13) بيدرو مايكاص.

(14) في 24 يوليور.

(15) كانا يقولان انهما يعرفان مكانا يمكن التسلق منه دون أن يشعر بذلك أحد.

أزيد من ثلاثمائة جندي لاذ بالفرار، فنُهبت جميع الأواني الفضية، وأُخذت المؤن، وقتل أو جرح بعض جنود وخدام دم صانشي، مع بعض جنود السفن الذين كانوا يحملون الغذاء على أكتافهم. وقد تم كل ذلك في وقت قصير، حتى إذا أسرعوا للانقاذ كان العدو قد انسحب. فتابعوا طريقهم الذي كان على مسافة فرسخين، ودخلوا المدينة فلم يجدوا فيها أحدا، لأن السكان كانوا قد انسحبوا عند رؤية الأسطول، والتحقوا بالجبال مع نسائهم وأولادهم وكل ما أمكنهم نقله. وليست هذه أول نكبة أصابتهم في هذه العملية. ذلك أن دم صانشي، وهو مقيم في المدينة مع جنوده، وقد قلت عنده المؤن والذخيرة الحربية التي استهلكت في المناوشات، أمر قائد[16] أسطول صافوا بالسير مع مائتين من جنوده، وسرية من الاسبان، كي يعززوا السفن التي تركها مكشوفة، آمرا إياهم أن يرسلوا إليه المؤن والعدد. فهاجم هذه الجماعة الصغيرة من الجنود وهي تسير في نظام حسن مغاربة هذه الجبال، واشتبكوا معهم في القتال من الساعة الثالثة مساء إلى الليل، دون أن تتكبد أية خيبة، لأنها كانت تسير في صفوف متراصة، وتقاوم جيدا، لكن لما أرخى الليل سدوله، وتضاعف الهجوم، مع صراخ البربر، والحجر المقذوف من أعلى الصخور، فزع الجنود وقتل منهم مائة وخمسون وجرح أزيد من ثمانين. وعندما بلغ الضجيج المعسكر، أتى إليه دم صانشي مع سائر جنوده، بحيث إن الأعداء لاذوا بالفرار، وهرب باقي المنهزمين حسب استطاعتهم بواسطة الزوارق والقوارب التي أرسلتها اليهم السفن الحربية. ولما عاد دم صانشي إلى بادس، بعد ثلاثة أيام، وقد تعرف على الصخرة من جهة البر[17]، إذ لم يمكن استطلاعها من الجهة الأخرى، قدَّر أن العملية مستحيلة، إضافة إلى أنهم كانوا بحاجة إلى عدد أكثر من الجنود، بسبب كثرة المغاربة الهارعين من جميع الجهات. فعزم على الانسحاب. وبعد أن أمر السفن الشراعية الحربية بمحاذاة الشاطىء ليتأتى إركاب الجنود، وإطلاق عيارات مدفعية لاقصاء الأعداء، انصرف مع غروب الشمس. وكانت الأمتعة تسير في الأمام، مخفورة بفرقتين من رماة البنادق، يتبعهما المشاة مرتبين ترتيب القتال. بينما بقي القائد في المؤخرة مع فرسان مالطا، وجنود فيلق صافوا، فسار على طول الشاطىء محاذيا الصخرة، وطلع إلى السفينة مع جميع جنوده في نظام محكم. وتوجه من هناك إلى مليلة لاستطلاع هذا المستنقع، لكنه عاد إلى مالقة التي انطلق

(16) كونت دي سوياسك

(17) في اتجاه المنار

منها، بسبب الرياح المعاكسة. وفي هذه الأثناء، رجع حاكم الصخرة إلى حصنه، وسكان بادس إلى ديارهم، ولم يدم فرحهم إلا قليلا، كما سنذكر ذلك فيما بعد.

انتزاع الصخرة من أيدي الأتراك على يد دم غرسية دي طوليدي

كان لاخفاق هذه العملية تأثير عميق في قشتالة، بحيث إن ملك إسبانيا، في السنة الموالية(18)، بعد أن جمع (حكام) الولايات في مونصون، بدعوة من ممثلي أراكون وبلنسية وقطلونية، عزم على أن يحاصر مرة ثانية هذا المكان الذي كان يستعمل كمجمع لكل أعراب بلاد البربر، ويزعج كثيرا التجارة. ومن جهة أخرى، أخبر بأن الأسطول البحري الذي كان الأتراك قد خصصوه لعملية وهران، والذي كان الملك اتخذ ضده استعدادات كبرى، لن يسير تلك السنة، فعين كقائد عام له دم غرسية دي طوليدي نائب ملك قطلونية، وأمره أن يجمع كل السفن الحربية بإيطاليا، بما فيها سفنه وسفن الملوك الآخرين، الذين راسلهم بهذا الصدد، وأن يُركبوا فيها خمس عشرة فرقة اسبانية من الفيالق القديمة، وثلاثة آلاف ألماني، كان كونت حنبال قد جاء بهم من بيي مونط، ليسير إلى بحار الغرب(19). وأمر بإعداد سفن اسبانيا في الجهة الأخرى، واستنفر ستة آلاف جندي من قشتالة، واستريمادور، والأندلس، وقام باستعدادات كبرى في المدفعية، والذخيرة الحربية، وكل ما هو لازم لهذه العملية. ولم يخف هذا الأمر فوصل الى علم الاتراك الذين لم يدروا أين كانت ستنزل هذه الصاعقة، فجهزوا جميع حصون الشاطىء، وعززوا حرس الصخرة بمائة تركي إضافة الى الخمسين الذين كانوا فيها. ثم إن قارا مصطفى، الذي كان حاكم الصخرة بعد أن زوّدها جيدا بالعدد والمؤن وأقام بها كتائب، عيّن أحد العلوج المسلمين(20) كان يضع فيه ثقة كبيرة، فسار الى مضيق جبل طارق في مركبين شراعيين يتسقط أخبار مخططنا. ولما اجتمعت كل الأساطيل الحربية في مالقة، أرسل دم غرسية دي طليدي أسطول البرتغال ومالقة لترسى قرب الصخرة مع الغليونة وكرافيلات البرتغال التي كانت في ماربيلا، ثم

(18) سنة 1564.

(19) 7 من نابل، و 14 من صقلية، ونفس العدد من بيي مونط.

(20) فيتيدا رايس

توجه[21] الى بلاد البربر مع باقي الأسطول. كان هناك سبع وسبعون سفينة ملكية[22] أي اثنتا عشرة من نابل بقيادة دم صانشي دي ليبفي، واثنتا عشرة لأندري دوري، واثنتا عشرة لألفاري بَصّان، والسبع التي تحرس المضيق، وواحدة للقس لوبيان، وأربع لرهبان إسبانيا، وعشر من صقلية بقيادة دم فادريك دي كرتخال، وخمس لمالطا، وست لفلورانسا، وأربع لصافوا، وأربع لمارك انطوان كولون، وثلاث للوميلينس جنوة، واثنتان لبندينال، وثمان للبرتغال كان دم سيبستيان قد أرسلها مع غليونته وأربع كرافيلات من أسطوله، وألف وخمسمائة جندي من بينهم ثلاثمائة من النبلاء جاءوا ليشاركوا في هذه العملية، مع الأمر أن ينفذوا كل ما سيطلبه منهم الملك فيليب. وكانت هناك بالاضافة الى ذلك خمسة عشر زورقا وسفينة نقل، محملة كلها بالعدد والمؤن، فكان الجيش في آخر غشت على مرأى من الصخرة. وعندما ابصر الأتراك هذا الجيش الجرار، عرفوا حينا مقصده، واستعدوا للدفاع. فبدأوا بإحراق ثلاث سفن كانوا قد أخذوها منذ قليل خوفا من أن يستعمل المسيحيون خشبها في العملية. وفي هذه الأثناء، أصدر دم غرسية أمرا إلى مارك سانتوريون بالتقدم مع أسطوله، وكذلك إلى الأمير دي ليفي بأسطوله، لاستطلاع الساحل مع برج القلعة، وبستيون كان المغاربة قد شيدوه على جانب البحر لينظروا هل هناك حامية، ومن أين يمكن مهاجمتها إذا ما استعدت للدفاع. وعندما رأى أصحاب الصخرة الأسطول يقترب، استعملوا المدفعية، فأرغمتهم على إرخاء القلوع، والتوجه إلى البرج. ولما رأى المغاربة الذين كانوا في القلعة أو بستيون البحرية الأسطول يقترب منهم، غادروه تاركين فيه أربع قطع من المدفعية، وفروا الى المدينة، ومن هناك الى الجبال، مع جميع السكان. وبما أن سفن الأسطول حاذت الشاطىء بدون مقاومة، أرست في الميناء حيث كان دم صانشي قد أقبل في السنة الماضية، وتوقف دم غرسية في نفس المكان، وهو يشير إلى الجنود أن يستعدوا، فألقى بالزوارق الصغيرة في الماء، جاعلا في كل زورق مدفعين صغيرين، وأنزل المشاة والأسلحة في أيديهم. وعند ذلك ظهر على الشاطىء بعض المغاربة، منهم مشاة وفرسان، منعوا من مناوشتهم تحت طائلة الموت حتى لا يتفرق الجنود. شرع الرواد أولا في تشييد معقل على الشاطىء وأحاطوه بخندق جيد، لخزن المؤن والعدد التي يريدون إنزالها، ثم نصبوا فيه أربع قطع من المدفعية، وحفروا بعض الآبار، حتى

(21) في 29 غشت.

(22) 90 في المجموع، دون غليونة البرتغال و 4 كرفيلات، و15 زورقا وهوركة واحدة

لا يبتعدوا في البحث عن الماء ويتعرضوا لخطر الأسر أو القتل. إن أمير سان ــ جورج، وفرانسيسكي دي مولينا الذي كان يقود المدفعية، اجتهدا في بناء المعقل الذي أنهي في ساعات قلائل، واذخرت حينا فيه المؤن والمدفعية والعدد. وبعد ذلك أُمِّن الشاطىء كله بالحرس، سواء في برج القلعة أو في أي مكان يستطيع الأعداء أن ينزلوا منه، واحتُلت تلال أعلى الجبال المحيطة ببعض فرق رماة البنادق، الذين منحوا الزاد لثلاثة أيام، حتى لا يتعبوا في المجيء لاخذه يوميا، أو في إرساله إليهم. وفي هذه الأثناء، ذهب دم غرسية، وشايين فيطيلو، وآخرون من الأمراء الحاضرين، على متن سفينة حربية لاستطلاع الصخرة، ومعاينة المكان الذي يمكن قصفه بمدفعية السفن. وفعل مثلهم دم ألفاري بَصّان، ونبلاء آخرون من جانبهم، وعادوا بعد أن لاحظوا جونا صغيرا ملائما لذلك. وفي يوم السبت ثاني شتنبر، عُقد مجلس تقرر فيه أن ينطلق الجيش بكامله إلى بادس، إذ بالاستيلاء على المدينة وقمة جبل مجاور،(23) يستطيعون بضمان أكثر أن يهاجموا المكان. وفي المساء أعطي الجنود ظروفا وسلالا فيها مؤن وذخيرة تكفي لبضعة أيام. وبعد أن تركوا حرسا قويا في الحصن وبرج القلعة، انصرفوا صباح الأحد، متوجهين مع باقي الجيش الى المدينة. كان هناك أربعة آلاف رجل من أجناس مختلفة وزعوا إلى ثلاثة فيالق، كان دم صانشي دي ليبفي يقود المقدمة مع الراهب يوحنا ديشي وجنود مالطة، وكان أخوه دم ألفونس يقود سرايا فوج نابلي، وأربعمائة جندي من أسطول دم ألفاري بصّان. وكان من بينهم عدة نبلاء ومتطوعين، وأربع قطع من المدفعية، يجرها الرواد بشيء من العناء، بسبب صعوبة المسالك، والى جانبهم فرقتان من فرسان الملك حاملي البنادق يسيرون في كل جهة، على طول الجبال والتلال(24). وتأتي بعد ذلك الأمتعة وهي محزومة كما ينبغي، يتلوها فرانسيسكي بارِّيطي، الذي كان قد قدم منذ اليوم السابق بالغليونة وكرافيلات البرتغال، وهو يسير المعركة التي كان فيها جنود البرتغاليين وأفواج لومباردي وصقلية، مع الجنود الذين استقروا باسبانيا، وفرقتين من جنود الملك أمروا بالانتشار عند الحاجة لحماية الأمتعة. وكانت فرقة الميسرة قد أبعدت قليلا لتلتحق بقمة الجبال والأماكن الخطيرة. وكان في هذا الفيلق النبلاء البرتغاليون الذين أتوا بأمر من أميرهم لأداء الخدمة بهذه المناسبة. وفي مؤخرة الجيش الكونت حنبال مع الجنود الألمانيين، وفرقتين من رماة

(23) حبل بابا.
(24) خوفا من أن يحتل العدو المرتفعات المجاورة.

البنادق الآخرين، إحداهما مكونة من جنود فوج لومباردي، بقيادة القبطان يوحنا ديسبوش، والثانية مكونة من البرتغاليين تحت إمرة يوحنا دي سيكيرا الضابط في الأسطول البرتغالي، وعلى رأسها بعض قطع المدفعية. وكان دم يوحنا دي فيلا رويل، برفقة الدركيين، لمدينة غرناطة[25] يطوفَ هنا وهناك للاستطلاع. وسار شايين فيتيلو الذي كان يقوم بمهمة رقيب المعسكر في المقدمة، مع بعض الدركيين والجنود المنقطعين، لاستطلاع المكان الذي يجب أن يقام فيه المعسكر. كان دم غرسية يتنقل في كل مكان، بصفته رئيسا حازما، مشجعا جنوده الذين اعتراهم بعض العياء، سواء من جراء صعوبة المسير أو من شدة الحر ونقصان الماء. وعندما وصلت مقدمة الجيش الى أعلى الجبل الذي يتحكم في بادس، قام الحاكم وبعض قادة البربر المجتمعين بهجوم عنيف، وقتلوا وجرحوا البعض، لكن رماة البنادق من الفرقتين، والجنود المنقطعين، حملوا عليهم وأرغموهم على الانسحاب. ولما اجتازت المقدمة بالأمتعة والجيش، حمل أزيد من ألفي مغربي مِن بينهم نحو مائة فارس وعدد من رماة البنادق على المؤخرة بشدة بالغة، حتى إنّ القائدين ديسبوش وسيكيرا اضطرا إلى الاسراع إليها برماتهما، كما أسرع المغاربة لامداد ذويهم، وسقط الكثير من الموتى والجرحى من الجانبين، واضطر المسيحيون إلى تصويب المدافع ضد عدوهم إلى أن ألجأوه إلى الانسجاب، وأخيرا وصل دم غرسية، وهو يتابع سيره بالجيش كله الى بادس، حيث كان شابان فيتيلو قد أعد المنازل دون أن يجد مقاومة، لأن السكان كانوا قد فروا إلى الجبال بأسرهم وما أمكنهم حمله. ولما أخذ الجيش مراكزه، قام دم غرسية بدورة حول الساحة من الداخل والخارج، مصحوبا ببعض النبلاء. وعندما علم أن بعض المغاربة التجأوا إلى بريج[26] في أعلى الجبل متصل بالمدينة بشقة جدار، أمر سرية بالذهاب إليهم لاخراجهم من هناك، فتَمَّ الأمر بسهولة. ونصبوا في الحين حرسا حول الساحة، وحفروا خندقا في أعلى الجبل المطل على الصخرة، حيث ركزت خمس قطع من المدفعية، وبعض الجنود لحراسة هذا المركز. فظلت الصخرة محاصرة من هناك، بحيث لا يمكن إمدادها من جهة البر، وكان المعسكر في مأمن من محاولة الأعداء. ثم أُعطي الأمر لِقَنْبَلَة الساحة، وأقيم حصن في المرسى الصغير الذي استطلعه القائدان على جانب الماء من جهة الغرب، وضع فيه استحكام بارز ونصبت فيه مدفعية غُطيت ببعض الأشجار

(25) كانوا يسمون «ليجيبي».

(26) يسمى رباطا، أو منسكا، من أجل ولي أقبر فيه، ويزوره كثيرا سكان هذه المناطق، ويقيمون فيه الصلاة كل يوم جمعة

المقطوعة. وفي هذه الأثناء، وبينما كان جانتان دوريا يعطي الأوامر لانزال المدفعية، قصف دم غرسية الصخرة من جهة البحر، بواسطة غليونة البرتغال وأسطول مالطة، كل منهما في مكانه. ووقع الرد على ذلك بقصف شديد من القلعة لكن دون كبير ضرر. وبمجرد ما أنزلت المدفعية إلى البر توقف الأسطول عن القصف وابتعد. ولما أنهيت عملية إقامة الاستحكام ركز فوقه ستة مدافع ضخمة لقصف أبراج الصخرة. وعندما تم كل شيء قام دم غرسية الذي كان يريد احتلال المركز بدون إراقة دم، فأنذر المحاصرين بواسطة القبطان اسبيجو، متعهدا بأن يدعهم يذهبون حيث شاءوا بأسلحتهم. فصعد وبيده راية بيضاء للأمان، لكن القائد(27) أجاب في عجرفة بأن القلعة بيد الله(28)، وأن الحامية لا تهاب المسيحيين، وعليه أن يعود بسرعة من حيث أتى إن لم يرد أن يطلق عليه النار. وعقب هذا الجواب أمر دم غرسية بإطلاق المدفعية بشدة بالغة إلى أن هدمت ثلاثمائة طلقة كل الجزء الذي كان يمكن مشاهدته من البرج والجدار، وحُطمت ثلاث قطع من المدفعية كانت فيه. وفي ذلك اليوم، قام ثلاثمائة مغربي، من بينهم بعض الفرسان، بهجوم مباغت على سرية(29) كانت تحرس في أعلى تل وأخرجوها، غير أنها أنقذت في الوقت المناسب من طرف مائة من رماة البنادق، الأمر الذي جعل المعركة أكثر ضراوة، ومات فيها تسعة مسيحيين فضلا عن خمسة وعشرين جريحا، لكن المغاربة هزموا في الأخير، ومات منهم ثلاثون، وجرح أكثر من مائة، وطلعوا إلى المرتفعات. ولما أقبل الليل أمر دم غرسية بنقل المدفعية من الاستحكام إلى فوق صخرة ملتصقة بمضيق القلعة، حيث كان الأتراك يسحبون مراكبهم، وذلك لتكون أكثر فعالية وقربا. فلم يتم ذلك دون كبير خطر على الرواد، لأن الأعداء انتبهوا إلى ذلك بسبب القرب، فقتلوا البعض منهم تحت نور القمر. لكنهم فقدوا الأمل في حماية الصخرة بنجاح عندما رأوا أن دفاعهم غير مُجد، وأن المسيحيين يتقدمون خطوة خطوة، فطلبوا من قائدهم أن ينقذهم قبل أن يمزقوا إربا إربا فحاول عبثا أن يطمئنهم. ولما رآهم مصرين على ذلك خرج معهم دون أن يفوه بشيء لمن كانوا يحرسون من جهة المدفعية، فانحدر إلى البحر وأخذ زورقا صغيرا كان قد أخفاه، وهو من زوارق أحد المراكب التي أحرقت، فركب متنه مع من استطاع أن يسعهم،

(27) فيتيد رايس.
(28) تحتمل عبارة القائد أيضا ان القلعة ملك للامير الكبير أو السلطان
(29) هي سرية فرانسيسكو دي مندوسة

حاملا معه ما أمكنه من الأسلحة والمعدات، بينما لم يستطع الباقون الصعود إلى الزورق فأخذوا يسبحون، بحيث إنه لم يبق في القلعة سوى ثلاثين رجلا. وقال الذين أسروا من بينهم فيما بعد إن ذلك القائد كان قد أوهمهم بأنه سيجمع الجبليين ليحملوا على معسكر المسيحيين، ثم يعود فورا. لكن، مِن بين الثلاثين الذين بقوا عندما رأوا أن وعوده كاذبة، ارتمى الذين كانوا يحسنون السباحة فورا في الماء، وعزم الآخرون، ولم يكن عددهم سوى ثلاثة عشر، على التفاوض ليلا قبل أن يكتشف ملجأ أصحابهم. لكن أحد العلوج المسلمين خرج وأخبر أندري دوري بذلك، فأرسله إلى دم غرسية. وليتأكد من حقيقة قوله، صعد مع بعضهم إلى الجدار، ولما أبصره الذين كانوا في الداخل، جعلوا راية في رأس شقة رمح. وإذ ذاك خرج مغربي اقترح تسليم الساحة شريطة أن يوفى لهم بما وعدوا به من قبل. فأرسل أندري دوري هذا المغربي إلى دم غرسية الذي أخبره بأن العلج قد أطلعه على وضعية القلعة، وألقى عليه القبض دون أن يلبي رغبته في أي شيء، وأرسل ضابطاً مع بعض الجنود للهجوم على القلعة، فصعدوا إلى الأعلى، وقبل طلوع النهار وقفوا أمام الباب، ففتحه الأتراك، ودخلوا مع أندري دوري. وأسر جميع الأتراك، ونهب الجنود عدة أثاث ومؤن كانت في البرج. وفي نفس اليوم(30) دخل دم غرسية إلى المركز مع جميع النبلاء، وعندما شاهد القلعة حمد الله على هذا الانتصار السعيد. وترك فيها حامية من ثلاثمائة إسباني مع عدد من المهندسين والبنائين والرواد ليعملوا في التحصينات، كما ترك عددا كبيرا من المدفعية، والعدد، والمؤن. وأسند حكمها إلى يوحنا بيريس دارنالطي، ثم عاد إلى المدينة وفتح فيها أبوابا في شتى الأماكن، وبعد ذلك أبحر مع سائر الجنود. إلا أن المغاربة الذين كانوا قد فروا إلى الجبال، حملوا على ثلاثمائة من الجنود أثناء انسحابهم، محدثين صراخا وجلبة، فهزموهم، لأنهم أكثر من ألفين، وقتلوا وجرحوا بعضهم، رغم أنهم قاوموا باستماتة، لكن دم بوبي دي فِيكوِيرُووَا أسرع إليهم بمائتي جندي وبعض المتطوعين، فردوهم على أعقابهم وسهلوا انسحاب الآخرين. وعندما أقبل حاكم بادس بمعظم الجيش ليساند رجاله، أشار دم لويس اوزوريو، رقيب المعسكر، الى دي لوبي بالانسحاب. غير أن بعض النبلاء الشبان(31) الذين كانوا

(30) 4 ستمبر

(31) هم دم يوحنا دي كرمان، اس مركير دارداليس، وكست دي سانكتيستيمان، ودم هرناندو هاريكر، ودم كرستوفال دي بيا فيديس، الخ.

معه ناشدوه ألّا يفعل شيئا من ذلك حتى لا تمنح هذه المزية للأعداء. فقاوموا المغاربة بعض الوقت، إلا أنهم انسحبوا وهم يناوشون عندما لاحظوا أن عددهم في تزايد مستمر. وفي هذه الأثناء أقبل دم غرسية مع المؤخرة، فأرسل دم دييكو دي كرودي مع مائتين من رماة البنادق ليحمي انسحابهم. ومن جهة أخرى، كان دم لويس اوزوريو قد أرسل منهم مائة لاغاثتهم مع راية دم لوبي. وبينما كانوا ينسحبون جميعا وهم يقاتلون، أقبل دم دييكو في الوقت المناسب، فتركهم يمرون وبقي مع بعض النبلاء وجنود المؤخرة، لكن مركيز دارداليس وكنت دي سانتيستيفان كانا يقاتلان بضراوة شديدة، حتي إن دم لويس أوزوريو، الذي ذهب لتخليصهما مع بعض جنود الملك، قتل للاسف بطلقة نارية، وانسحب الباقون وهم يقاتلون نحو الشاطىء، إلى أن وصلوا إلى جانب الماء. وقتل في ذلك النهار أربعون إسبانيا، فضلا عن عدد كبير من الجرحى، ومن بينهم بيدرودي كيفارا. وفقد المغاربة أكثر من ذلك العدد، والتحقوا ببادس، عندما رأوا أن جهودهم غير مجدية، وأنهم يُقصفون من البرج، وعاد دم غرسية إلى مالقة، حيث خصصت له استقبالات حارة، وحمد الله على هذا النصر. وبقيت هذه القلعة منذ ذلك العهد لملك اسبانيا يقيم فيها حامية قوية مع كمية من المدفعية والذخيرة الحربية.

الفصل الثامن والستون

يلّيش(32)

مدينة صغيرة واقعة على الساحل(33)، أسسها القوط ــ حسب ما يقال ــ على مسافة فرسخين من بادس في اتجاه الشرق. لها ميناء صغير تلتجىء اليه السفن الكبيرة الذاهبة الي بادس عندما يهيج البحر ولا يسكنها سوى صيادين يعيشون دائما على تخوّف من المسيحيين، ولا يكادون يكتشفون وجود باخرة في البحر الّا فروا إلى الجبل، أو إلى غابة قريبة مكسوة بالصنوبر العالي. هم تابعون لبادس، ويقيمون في أكواخ من الأغصان على جانب البحر، أو في منازل رديئة من طين، بحيث إن لمساكنهم شكلا مغايرا تماما لشكل المدينة ولو أنها تعتبر كذلك.

(32) كتبت في الأصل بالسين المهملة

(33) البحر المتوسط

الفصل التاسع والستون
تَغَسَّة

هذه مدينة صغيرة أخرى تضمُّ نحو ستمائة نسمة، أسسها الأفارقة القدامى بعيدة عن الشاطىء بنصف فرسخ على ضفة نهر تغسة الذي يجعل بطيموس مصبه في الدرجة الثامنة والدقيقة الثلاثين طولا وفي الدرجة الخامسة والثلاثين عرضا تحت اسم تالود. الأرض المحيطة بالمدينة وعرة كثيرة الصخور، بحيث إن السكان يحملون بحراً كل ما يحتاجون إليه. يتكسبون بصيد السمك وبعض الكروم الصغيرة والبساتين الواقعة على ضفة النهر. غداؤهم العادي خبز الشعير والسردين مع بعض البقول، لأنهم يفتقدون اللحم تماما. عوائدهم وتصرفاتهم خشنة، لذلك فهم أعداء ألداء للنصارى كسائر سكان الاقليم.

الفصل السبعون
جَبْهَة

مدينة صغيرة ذات أسوار متينة، أسسها الأفارقة القدامي مسامتة للشاطىء(34)، على مسافة ثمانية فراسخ من بادس في اتجاه الشرق. وهي خربة تماما، ولو أن بعض البربر يأوون إليها لوجود بعض البساتين والكروم، وفيها المياه المتدفقة من الغابات المجاورة، والجزء الباقي من البلاد كله جاف قاحل لا ينتج أي شيء من الحبوب. يقيمون هناك إذا كانت بعض الجنود تحرسهم، وإلا التجؤوا إلى الجبال، حيث يكونون آمنين أكثر مما يكونون عليه داخل الأسوار. وهناك رأس قريب جدا كان القدامى يسمونه رأس الزيتون، لكثرة الزيتون البري فيه. يجعله بطليموس في الدرجة التاسعة طولا والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا.

الفصل الواحد والسبعون
المزَمَّة(35)

مدينة قديمة أسسها الأفارقة على جبل شاهق يطل على الساحل(36)، يفصل بين إقليم الريف وإقليم كرت. تدل آثار المزمة على أنها كانت في القديم قوية وآهلة بالسكان، ويقول المؤرخون إنها كانت حاضرة أمراء البلاد إلى أن خربها

(34) بحر اسبانيا.

(35) في الأصل المحمة أو المزمة انظر الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص. 328، الهامش 130 (مترجم)

(36) بحر اسبانيا.

خليفة القيروان الشيعي(37) لامتناع حاكمها من الاعتراف به، فحز رأسه بعد احتلالها، وأرسله إلى القيروان على رأس رمح(38). وبقيت هكذا مدة خمس عشرة سنة، إلى أن رضي أن يعمرها من جديد بعض رعاياه، لكن ذلك لم يدم طويلا : لأن عبد الرحمن ثالث ملوك قرطبة، أرسل إلى حاكم المزمة بعد انصراف الخليفة منها يرغمه على الاعتراف به، إذ كان من الأهمية بمكان بالنسبة إليه اتخاذ هذا الميناء لعبور المحاربين إلى إسبانيا، نظراً لشجاعة هؤلاء القوم. وقد وعده أن يبقى من أجل ذلك سيداً على الاقليم كله، لكن الحاكم شكره على ما أراد أن يمنحه مما ليس له، وأجابه بأنه سيد المدينة، لأن الخليفة قد منحه إياها. فأرسل اليه عبد الرحمن الذي كان آنذاك في غاية القوة سواء في افريقيا أو في اسبانيا مَنْ أخذها منه عنوة، وحمل الحاكم إلى قرطبة حيث مات سجينا. ولم يعد تعميرها منذ ذلك العهد، لأن الأعراب لم يريدوا ذلك، حتى يتمتعوا في سلام بسهل جميل ممتد في أسفلها، طوله عشرة فراسخ وعرضه أربعة، حيث يجري نهر النكور الذي يحد هذا الاقليم. هؤلاء الأعراب تابعون لأمير بادس، وهم أغنياء بما يملكون من زروع ومواش. وعندما هاجم دم صانشي دي ليبفي صخرة بادس، تسربت بعض الفرق إلى هذا السهل لاختطاف بعض القطعان، فحمل عليهم المغاربة وقتلوا اثني عشر ومائة جندي.

يجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة التاسعة طولا، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة - السادسة والخمسين عرضا، تحت اسم أكراط. وليس بهذا الاقليم مدن أخرى، قديمة أو حديثة، لأن سائر المساكن الأخرى واقعة في جبال غمارة.

الفصل الثاني والسبعون

الجبال وما فيها من مساكن

بني وَرْيَاكَل(39)

هو جبل قريب من ترغة، طوله ثلاثة فراسخ وعرضه فرسخ ونصف، وهو مغروس بالكروم وشجر الزيتون. لكن لا ينتج إلا القليل من الشعير، وليس فيه

(37) الموحدون (كذا).

يقصد ولا شك عبيد الله المهدي الفاطمي (297 — 322 — 909 — 934) الذي قوي تدخله في المغرب الأقصى وصارع عليه طويلا كلًا من الأدارسة وأمويي الأندلس. انظر حسن. ح. ابراهيم، **تاريخ الدولة الفاطمية** ص 83 — 89 (مترجم).

(38) سنة 922

(39) يحمل السكان اسم الجبل، وهم من غمارة كسائر السكان الآخرين الذين سيذكرون فيما بعد، وذلك احتياطا للتكرار في كل مكان. هذا وقد كتب في الأصل بالنون — مصححا — (بني ورياكل) وسمى الحسن الوزان هذا الجبل «بني كرير» ص. 329. (مترجم)

ماشية، لذلك فإن السكان فقراء، ولو أنهم بالمقابل يشربون الخمر ويبيعونها بكثرة. إنهم قوم متعجرفون وغيورون جدا بسبب خلاعة النساء، مع أنهن غير نظيفات كأزواجهن. وشجر الأرز كثير هناك وفي سائر الجبال الأخرى بهذا الاقليم، وهو خشب عطر، صالح جدا لصنع السفن الكبيرة، لأنه صلب وخفيف، وتصنع منه أشياء جميلة يُعِزُّها سكان البلاد. وهذا الجبل هو أول جبل في الاقليم الغربي وملحقات ترغة، ويسميه بعضهم بني كَرير.

الفصل الثالث والسبعون
بني منصور

يقع هذا الجبل شرقي الجبل السابق، ويمتد في محاذاة الشاطىء على مسافة خمسة فراسخ، ولا يتجاوز عرضه فرسخين، وفيه غابات كبيرة مليئة بعدة عيون ثرة. وسكانه أقوياء رشيقون، لكنهم فقراء لا يقتاتون إلا بقليل من الشعير وشيء من الدخن والزيت، غير أنهم يشربون الخمر المستخرجة من بعض الكروم الواقعة على التلال،ويكسبون بعض الماعز. يقام في هذا الجبل سوق كل أسبوع، لا تباع فيه سوى الأطعمة، ويُكوِّن سكانه ثلاثة آلاف محارب، وهم تابعون لأمراء بادس، لكن ليس لهم سلاح غير السهام، والخناجر، والمقاليع. والحقيقة أنهم منذ أمد قريب أصبحت لهم بندقيات أو قذافات لا يحسنون استعمالها.

الفصل الرابع والسبعون
بَطُّويَة(40)

يقع هذا الجبل أيضا شرقيَّ الجبل السابق، وسكانه شجعان من فرقة غمارية تدعى بني بطوية. طوله خمسة فراسخ من الشرق الى الغرب، وعرضه ثلاثة من الجنوب إلى الشمال: وفي سفحه واد ينتج قمحا كثيرا، وكذلك التلال، لأن الجبل على وعورته كثير القمح والماشية، وفيه عدد من الكروم والبساتين. لذلك كان سكانه أغنى بربر الاقليم، علاوة على أنهم لا يؤدون إتاوة ولا ضريبة، رعيا لولي المكان المدفون قرب بئر خارج مدينة بادس، كما ذكرنا ذلك عند وصفها.

يسير هؤلاء القوم مجهزين تجهيزا جيدا، وهم محاربون حاذقون في استعمال الأسلحة، يملكون عددا من الخيول والبنادق والقذافات، لكنهم مع ذلك

(40) ويقال له أيضا بَطُّوية. وعند الحسن الوزان (ص 330) بَقُّوية، (مترجم)

متوحشون لدرجة أنهم ينهبون كل من يصادفون في طريقهم، ويكرهون المسيحيين كراهية شديدة، ويكونون أزيد من ألف محارب، يساوون فعلا ثلاثين ألفا في جبالهم. لكنهم غير صالحين في غيرها.

الفصل الخامس والسبعون
بني خالد(41)

هو جبل صغير في الطريق المؤدية من بادس إلى فاس، وسكانه تابعون لأمراء بادس. وهو شديد البرودة مكسوٌّ بغابة كثيفة من الشجر العالي فيها كثير من الأرز والعيون، لكن الأرض جدباء لا تنبت القمح إطلاقا. وهناك كروم يستخرج منها الخمر والزبيب. ويكوّن سكان هذا الجبل ثلاثة آلاف محارب، يسرقون في الطريق الكبرى، ليؤدوا ضرائبهم من شدة فقرهم.

الفصل السادس والسبعون
بني منصور، جبل آخر

يقع جنوبي جبل بطوية. طوله ثلاثة فراسخ من الشرق إلى الغرب، وعرضه يزيد قليلا على فرسخ واحد. يسكنه قوم أشداء شجعان، لكنهم كُسالى لا شغل لهم طول النهار سوى شرب الخمر، لذا فإن لهم قليلا من القمح وكثيرا من الخمر. وهم شرسون غيورون لدرجة أنهم يقتلون من أجل نسائهم اللواتي يسرن دائما وراء قطعانهن، وليست خلاعتهن بأقل من عربدة أزواجهن، حتى إن أهل فاس إذا أرادوا نعت امرأة بعدم العفة قالوا إن طبعها كطبع نساء بني منصور اللائي يَسِحْنَ بينما يعاقر أزواجهن الخمر. يخشى جيران بني منصور هؤلاء الرجال لعجرفتهم وحدة طبعهم، ويكوِّنون فعلا ثلاثة آلاف وخمسمائة محارب، لكنهم لا يحاربون إلّا راجلين.

الفصل السابع والسبعون
بني يوسف

يوجد جبل بني يوسف شرقيَّ الجبل السابق، طوله أربعة فراسخ من الشرق إلى الغرب، وعرضه ثلاثة. يسكنه قوم بؤساء حالتهم أسوأ من حالة سائر سكان

(41) في الأصل سي قيلب أو سي حيليب (مترجم)

الاقليم. ذلك لأن الأرض جدباء قاحلة لا تعطيهم إلا قليلا من الدخن، يطحنونه مع بزر العنب، فيجعلون منه خبزا أسود مثل الفحم، بحيث إنهم إذا أكلوا غيره اعتبروا ذلك طعاما شهيا لذيذا. يملكون شيئا من الماعز والأراضي الموروثة التي يسقونها من ماء العيون، فيقتاتون منها مع بعض البقول. كما أن لهم بعض الكروم النابتة بين الصخور، ولا يفوتهم، على ما هم فيه من بؤس، أن يؤدوا الخراج إلى أمراء بادس. ويكوِّنون أكثر من ثلاثة آلاف محارب، كلهم مشاة.

الفصل الثامن والسبعون
بني زروال

هذا الجبل أفضل من الجبال السابقة، ينتج كمية وافرة من العنب والزيتون، بحيث إن السكان أغنياء بما لهم من قمح وماشية لو أن أمراء شفشاون، الذين هم تابعون لهم، لا يثقلون كاهلهم بالضرائب. يقام في هذا الجبل كل أسبوع سوق للطعام يقصده الجبليون الآخرون. والسكان بسطاء منهمكون دائما في أعمالهم. يُكوِّنون ألفي محارب، من بينهم رماة البنادق وفرسان، وذلك منذ أن آلت شفشاون إلى علي بن راشد، إذ كانوا لا يعرفون ذلك من قبل.

الفصل التاسع والسبعون
بني رزين(42)

هذا الجبل بعيد عن الشاطىء(43)، ممتد نحو مدينة ترغة، وسكانه أغنياء متغطرسون لا يؤدون الضرائب سوى عشر قطعانهم وزروعهم. يستخرجون كمية من القمح والزيت والخمر، ويملكون عددا كبيرا من المواشي، ولا تزعجهم الحروب الأجنبية بسبب وعورة المسالك. إن أمراء بادس لمغتبطون بصداقة هؤلاء القوم، لأنهم شجعان يكوِّنون أزيد من أربعة آلاف محارب، مجهزين أحسن تجهيز، بأنواع البندقيات والقذافات. يتركون لزوجاتهم شؤون المنزل والحرث والرعي، ليتفرغوا للصيد بسبب كثرة طيور الغدران.

(42) في الأصل سي حسين أو سي رزين (مترجم)
(43) عند الوزان (ص 331) . يكاد يكون هذا الجبل ملاصقا للبحر المتوسط (مترجم).

الفصل الثمانون

(جبل) شفشاون[44] والمدينة التي تحمل نفس الاسم

هذا الجبل من ألطف جبال إفريقيا كلها، فيه مدينة صغيرة تحمل نفس الاسم، ويسكنها تجار وصناع موسرون، لكن الجبليين بربر من نفس قبيلة سائر برابرة الاقليم[45]. وقد شهر بعلي بن راشد الذي ملكه ببسالته، كما ملك الجبال المجاورة، وتلقب بملك وأمير شفشاون، لأنه كان يحمل إلى هذه المدينة جميع غنائمه، إذ كان في حرب دائمة مع البرتغاليين المقيمين في حصون الحدود، وأحرز عدة انتصارات، سواء في البر أو في البحر، برفقة المنظري أمير تطوان، وغيره من القواد الأبطال. وقد احتفظ بهذه الدويلة وبلقب ملكها منذ أن أقره فيها أبو سعيد[46] ملك فاس، إلى ان انتزعها عبد الله[47] من يد أحفاده، وأعطاها منذ أمد قريب لحفيد مومن العلج (كذا)، وهو الذي ما زال يحكمها باسم الشريف، وأُبعِد آل علي بن راشد إلى مراكش، حيث يعيشون عيشة الفقراء. أهل شفشاون رجال حرب، سواء منهم الراجلون أو الفرسان، يتباهون بالشجاعة. لذلك فإن علي ابن راشد قد أعفاهم من كل ضريبة، لكنهم اليوم يؤدونها. وهم مجهزون أحسن تجهيز. وتوجد حول المدينة عدة عيون، تسقى منها الأراضي التي تنتج كمية كبيرة من القمح، والشعير والقنب، والكتان. كما أن هناك عدة بساتين وحدائق للبقول والفواكه، وكثيرا من قطعان الماشية. ويكونون أزيد من خمسة آلاف محارب، من بينهم عدد من رماة مختلف البنادق، وبعض كتائب الفرسان، فضلا عن حامية الموقع المتركبة من ثلاثمائة فارس.

الفصل الواحد والثمانون

بني جْبارة

جبل وعرّ شاهق، واقع على الطريق المؤدية من تطوان إلى شفشاون، تنبع منه ومن الجبال المحيطة به عيون تكوّن نهرا يسمى «حْلَف وْكَوزْ» إذ لا بد من اجتيازه أكثر من أربعين مرة للمرور من مدينة الى أخرى. ويوجد عبر الجبل كله

(44) في الأصل : شيشوان أو شيشاون. والاسم الأول ورد كذلك عند الوزان وما أثبتناه هو المشهور المعروف حتى اليوم، انظر كتاب الوزان، ص. 331، والهامش 133 (مترجم).

(45) عمارة

(46) وهمٌ من المؤلف. لأن شفشاون لم تؤسس إلا بعد مقتل عبد الحق آخر ملوك بني مرين بنحو عشر سنين (مترجم)

(47) لعله يقصد عبد الله الغالب وليس هو الذي خلع آل راشد، بل أبوه محمد الشيخ (مترجم)

كثير من الكروم وأشجار التين، لكن لا يحصد فيه قمح ولا شعير. تشاهد قطعان من الماعز بين هذه النباتات الخلنجية وبقرات صغيرات لدرجة أنها تبدو كعِجْلات. يسكنه قوم يحملون نفس الاسم، وهم فقراء متكبرون، يؤدون الخراج إلى أمير شفشاون. ويكونون أزيد من ألفي محارب، من بينهم بعض رماة البنادق، لكن ليس فيهم فارس.

الفصل الثاني والثمانون
بني يَرْزُو

هذا الجبل ألطف من السابق، وكان يقطنه عدة أشخاص ذوي حسب ونسب قبل أن يسود علي ابن راشد، إذ كان فيه علماء في الشريعة الاسلامية، وجامعة تلقن فيها الآداب والعلوم مثلما هو الحال بفاس. لذلك كانوا معفين من الضرائب، وكان يفد إليها كثير من الناس قصد الدراسة، لكن طاغية استولى على الجبل، بمساعدة ملك فاس، فأغلق الجامعة، وباع كتبها التي يزيد ثمنها على أربعة آلاف مثقال. توجد في هذا الجبل عدة عيون، ماؤها بارد جدا، لكن لا يُحصد فيه إلا قليل من القمح. كما أن هناك أشجار الزيتون والكروم، وغابات كبيرة من الأشجار المثمرة، مع قطعان كثيرة من الماشية الكبيرة والصغيرة. السكان ألطف وأقل كبرياء من سكان الجبال الاخرى، ويكونون أزيد من خمسة آلاف محارب.

الفصل الثالث والثمانون
بني تِيزِيرَان(48)

هذا الجبل المتصل بالجبل السابق والآهل بقوم متوحشين، كان فيه قديما قصور ومدن تدل من خلال أنقاضها على أن مؤسسيها هم الرومان. وأولائك المساكين الذين قلنا إنهم يبحثون عن الكنوز بجبل تغات(48م) يأتون أيضا إلى هنا للبحث عنها، وقد حفروا في كل مكان تقريبا، ومع ذلك لم يساعدهم الحظ في هذا المكان أكثر من غيره. توجد به كروم كثيرة وغابات كبيرة من الأشجار المثمرة، وتنبع فيه عدة عيون، ماؤها بارد جدا. ولا يحصد فيه إلا قليل من الشعير،

(48) عند الوزان: تيررل (مترجم)

(48م) بإقليم فاس.

والماشية الكبيرة نادرة، لكن الماعز كثير، لأن البلاد مؤاتية له. السكان فقراء يؤدون الخراج إلى أمراء شفشاون، ويُكَوِّنون حوالي ألف محارب، لكنهم غير مجهزين كما ينبغي، وكلهم راجلون.

الفصل الرابع والثمانون
بني بوشيبت(49)

هذا الجبل في غاية البرودة والوعورة بحيث لا يزرع فيه قمح ولا تربى فيه ماشية، لكن هناك غابات جوز كبيرة تُموِّن منها مدينة فاس وسائر مدن المنطقة. السكان جِذْمٌ من غمارة، يُسمَّون بني شيبت، وهم أشرس سكان البلاد كلها. يلبسون مباشرة على جلدهم منسوجات من صوف على شكل معطف صغير، مع أحذية نصفية(50) في أرجلهم، وأشرطة من الصوف ملفوفة حول رؤوسهم يقاومون بها ثلوج هذه الجبال. أسلحتهم هي المقاليع والحراب، وطعامهم خبز الشعير والدبس، مع الفول وبعض السردين المملح، والثوم أو الثوم القصبي. وهم سكيرون يملكون كمية من الكروم تستخرج منها صهباء جيدة، ويصنعون كثيرا من الدبس، وأجود زبيب بإفريقيا كلها. يتباهون بالشجاعة، وهم أقوياء أشداء مجدون في العمل، يؤدون الخرج الى ملك فاس، ويُكوِّنون ثلاثة آلاف محارب، ليس من بينهم أي فارس، لكن فيهم عدد قليل من رماة البنادق.

الفصل الخامس والثمانون
بني وليد(51)

جبل شاهق وعر جدا يشِقُّ فيه السفر، وسكانه(52) أغنياء يرتدون لباسا حسنا، ولا يثقلون بالضرائب. فيه عدة كروم تنتج عنبا أسود ممتازا، يُجفف ويصنع منه الخمر أيضا، فضلا عن عدد كبير من الأشجار المثمرة(53). وقد منحهم ملك فاس هذا الامتياز، الذي يجدِّدونه كلما تغير ملك، هو أنه لا يمكن أخذُ أيِّ مجرم التجأ إليهم. ولا يريدون أن ينزعوا منهم هذا الحق، لأنه من صالحهم أن يُرضوهم.

(49) في الأصل : بني بوسيبت ـــ بالسين المهملة أو بالزاي ـــ وأثبتنا ما عند الوزان (مترجم)
(50) حذاء الفلاح
(51) الأصل : وليد.
(52) بني وليد.
(53) من زيتون، وتين، ولوز.

ذلك أنهم إذا ثاروا صعب عليهم جدا إخضاعهم بسبب وعورة مسالك جبلهم الذي يضم ستين قرية حسنة، ويكوِّنون أزيد من ستة آلاف محارب، وتنتج الأرض كل ما هو ضروري لاعالتها، دونما حاجة الى البحث عنه في مكان آخر. وإذا أصابهم سوء، وهم يتجرون بفاس أو بمكان آخر، فإنهم لا يضيعون وقتهم في المطالبة بحقوقهم ، وإنما يختطفون أحد أقارب مَن أساء إليهم، ولا يطلقون سراحه ما لم يُرضُوا. وإذا امتنعوا من الذهاب إلى فاس، لم يؤدوا أية ضريبة، ولا يؤدون سوى ثلاثة ريالات في السنة عن كل كانون.

الفصل السادس والثمانون
مرنيسة(54)

يتصل هذا الجبل بالجبل السابق، وسكانهما من نفس الجنس،(55) لكنهم لا يتفقون أبدا مع بعضهم البعض، لأن النساء، لأدنى معاملة سيئة يهربن من أحد الجبلين إلى الآخر، حيث يتزوجن من جديد، فيتسبب ذلك في الغيرة والنكاية بينهم. ويتحاربون لاسترجاعهن. وإذا تصالحوا أحيانا اشترط في ذلك أن يفارق الزوج الجديد زوجته، أو يسدد مصاريف الزفاف التي هي مرتفعة عند المغاربة. ويقوم بعض الفقهاء بتسوية القضية، لكنهم يحرصون أكثر على أن يستغنوا من أن يحافظوا على الحق. هذا الشعب غني بالمواشي والكروم التي تنتج عنبا أسود، تعصر منه الخمر، ويصنع منه الزبيب والدبس. كما أن لهم العديد من شجر التين والزيتون الذي يعطي كَمية من الفاكهة والزيت، يحملونها إلى فاس أو إلى مكان آخر لبيعها ولا يؤدون كبير خراج، ويكوِّنون فعلا خمسة آلاف محارب مسلحين على طريقة البلاد، لكن ليس لهم فرسان، وفيهم قليل من رماة البنادق.

الفصل السابع والثمانون
آيشْتُوم(56)

جبل شاهق بارد تنبع فيه عدة عيون، ومنحدره مكسو بشجر التين، ينتج أجود تين البلاد كلها، وفي أسفل السهل حدائق تحمل دوما فواكه(57) جميلة ممتازة،

(54) في الأصل · نتي مرا أو مريرة، وأثبتنا ما عند الوزان (مترجم).

(55) عمارة

(56) في الأصل آكستان. انظر كتاب الوزان، ص. 334 والهامش 138 (مترجم).

(57) من تفاح، واجاص، وسفرجل، وخوخ، الخ...

وتوجد بين الكروم أشجار الزيتون التي تعطي الكثير من الزيت. وحيث إن السكان لا يؤدون إلى ملك فاس إلا شبه اعتراف، فإنهم أغنياء، لهم قصبة كبيرة مفتوحة تماما، يقيم فيها عدة صناع وتجار يتجرون بفاس فيأتون منها بالكتان، والصوف، والقماش، وما ينقصهم من أشياء أخرى. ويكوّنون ثلاثة آلاف محارب مجهزين أحسن تجهيز، من بينهم بعض رماة البنادق، إذ هناك العديد من النبلاء والتجار الأغنياء.

الفصل الثامن والثمانون
بني يَدْرْ(58)

جبل كبير يضم أكثر من خمسين قرية وستة آلاف محارب، كلهم مشاة، لكن السكان فقراء ولصوص كبار يسلبون المارة، وهم في خصام دائم مع جيرانهم بسبب لصوصيتهم. كانوا محررين في القديم، لكن أمراء بادس الذين غضبوا من سوء سلوكهم، أخضعوهم بمساعدة ملوك فاس، وألزموهم بأداء الخراج(59). لهم كثير من الكروم التي تعطي عنبا أسود تعصر منه الخمر، ويصنع منه الزبيب، لكن ليس لهم قمح ولا شعير بسبب وعورة الجبل، وإنما لهم عدد قليل من المواشي.

الفصل التاسع والثمانون
لُوكَايْ(60)

جبل وعر شاهق، فيه عدة كروم تعصر منها خمر وردية، ويستخرج منها الزبيب. كما أن هناك بساتين كبيرة لأشجار التين والزيتون وغيرها تعطي كمية من الزيت والفواكه الممتازة كالتي في أوربا، مع الليمون الحامض والحلو والرمان. السكان أغنياء أثرياء يدعون الشرف أكثر من سائر سكان الاقليم، لكونهم معفين من الخراج، ولو أنهم لا يبعدون عن فاس إلا باثني عشر فرسخا، وذلك بسبب صعوبة مسالك جبلهم وكثرة عددهم. ومن جهة أخرى لا يمكن تجويعهم لوجود كل ما هو ضروري عندهم : يحصدون كثيرا من الشعير والدخن، ويملكون كمية من الماشية الكبيرة والصغيرة. ويجيرون عندهم مجرمي مدينة فاس إن لم يتعلق الأمر

(58) في الأصل : بني يدي

(59) سنة 1510

(60) كتب في الاصل : الكاى. انظر كتاب الوزان، ص 335. الهامش 139

بسرقة أو زنى، لأنهم غيورون جدا على نسائهم وأموالهم. وهم الآن تابعون أو بالأحرى متحالفون مع الشريف الذي يعاملهم معاملة حسنة جدا لوجود كثير من الشرفاء بينهم، ولأنهم يكوِّنون أزيد من مائة ألف محارب، من جملتهم عدد من رماة البنادق والفرسان.

الفصل التسعون
بني وَرْزوال أو بني زَرْوال

هي ثلاثة جبال لا تكوِّن إلا كتلة واحدة تشكل الحدود بينها وبين الجبلين السابقين الذين يفصلهما عنها نهران صغيران ينبعان منها. سكان هذا الجبل أحرار شجعان، إلَّا أنهم لا يتمتعون بحرية الآخرين، لأن أمراء بادس يزعجونهم ويلزمونهم بأداء الخراج. هناك عدد من الكروم وأشجار الزيتون والتين الطيب الكثير الثمار، مع كمية وافرة من الكتان الذي يصنع منه القماش ومن الشعير والدخن. وفيه أزيد من مائة وعشرين قرية تضم كل منها ما بين مائة ومائتي كانون. وفي المكان الأكثر خصبا مدينة مسورة آهلة بالسكان تكتنفها غابات كثيرة وأشجار ذات ثمار جيدة[62] تباع في فاس وغيرها، لأنها أجود من التي بفاس نفسها. في هذه المدينة أكثر من مائة دار للتجار والصناع اليهود، لكن السكان متغطرسون بحيث يقتتلون لأدنى سبب. ويكوِّنون أكثر من خمسة وعشرين ألف محارب، من بينهم بعض رماة البنادق والفرسان، وهم في حرب دائمة مع جيرانهم. ولمّا كانت بلادهم غير محصنة، وبها عدة مسالك، فإنهم يعرضون أنفسهم طوعا لخدمة أمراء بادس وملوك فاس إذا ما احتاجوهم. وفي أعلى الجبل[63] فوهة يخرج منها لهب عظيم من الكبريت، مثل فوهة ليباري أو صقلية، وتقول العامة إنها فم جهنم. طول هذه الجبال الثلاثة مجتمعة عشرة فراسخ وعرضها ثلاثة[64] ويؤدي سكانها أكثر من خمسة وعشرين ألف أوقية سنويا إلى ملك فاس. وتقام في المدينة سوق كبيرة، يقصدها جميع الجبليين.

(62) من حوخ، وسفرجل، وتفاح، وإجاص، الخ...

(63) عند الوزان، ص 337 «وتوجد بهذا الجبل في بطن واد فرجة تشبه باب كهف يخرج منها لهب عظيم » والملاحظ أن الوزان شاهد ذلك بنفسه (مترجم)

(64) من الشرق الى الغرب.

الفصل الواحد والتسعون
بني ورياكَل أو بني ورياجل(65)

جبل كبير مجاور للجبال السابقة، يضم أكثر من سبعين قرية، يسكنها قوم شجعان في غاية الرشاقة، إذ من هناك يأتي أكبر المجرمين والفجار في بلاد البربر كلها. ويكوِّنون حقا اثني عشر ألف محارب، كلهم مشاة، ومن بينهم بعض رماة البنادق المختلفة. تمتد في سفح هذا الجبل سهول شاسعة إلى إقليم فاس، ويسقيها نهر اركَيل الذي هو سبب خصبها، بحيث يستخرج منها الكثير من القمح، والشعير والزيت والكتان، وبذلك يكون السكان في غاية الغنى لو لم يثقل أمراء بادس وملوك فاس كاهلهم بهذا القدر من الضرائب التي تكون دائما متأخرة، لأن البلاد ليست محصنة، فيضطرون إلى تحمل الارهاق، ويتخاصمون دوما مع جيرانهم من أجل الأراضي التي يزرعونها.

الفصل الثاني والتسعون
بني حامد أو بني أحمد

هذا الجبل وعر غير مستو، طوله ستة فراسخ من الشرق الى الغرب وعرضه فرسخان، ومع ذلك فإنه مكسو بالكروم وأشجار الزيتون والتين، وبغابات كبيرة من الأشجار المثمرة، لكن لا يحصد فيه القمح البتة. وماء العيون مرٌّ عكِر، ولو/أن التراب كلون الجير. السكان سكيرون، يطبخون الخمر لحفظها، بحيث تصبر لمدة خمس عشرة أو عشرين سنة. يصنعون منها قدرا كبيرا، وكذلك الدبس، بحيث تبقى لديهم طوال السنة، ويبيعون منها إلى جيرانهم الذين ياتون كل أسبوع الى سوق للطعام تقام هناك، ويقصدها تجار فاس ليشتروا الدبس، والزبيب، والتين، والزيت.

يكوِّن سكان هذا الجبل أربعة آلاف محارب، كلهم مشاة، وَهم فقراء مفسدون متعجرفون حتى إنهم يتشاجرون دوما مع جيرانهم . لكن ملوك فاس من جهة وأمراء بادس من جهة أخرى يضايقونهم بكيفية تجعلهم بؤساء، لا يستطيعون تحرير أنفسهم بسبب ضعفهم، بالاضافة إلى أنهم في خصام دائم فيما بينهم من أجل مختلف المسائل الموجودة هناك على الدوام.

(65) انظر كتاب الحسن الوزان، ص. 337، الهامش 141، (مترجم)

الفصل الثالث والتسعون
بني جَنْفَن أو بني زَنْطَن

جبل صغير طوله ثلاثة فراسخ ونصف وعرضه يزيد قليلا عن فرسخ، يفصله عن الجبل السابق جدول كبير، ينبع من العيون المجاورة. فيه عدة كروم يصنع منها الزبيب وتعصر الخمر، لذا فإن السكان سكيرون. لا يحصدون القمح إطلاقا، لأن التربة غير صالحة، لكنَّ لهم قطعاناكبيرة من الماعز الذي هو سندهم الأساسي، إضافة إلى أن الجبل مغطى بالحدائق. إنهم فقراء، لكنهم شجعان غالبون، يتحاربون دائمامع الجبليين الآخرين، ويكوِّنون ثلاثة آلاف محارب، كلهم مشاة، ويؤدون الخراج إلى أمراء بادس وملوك فاس.

الفصل الرابع والتسعون
بني مَزْكَلْدَة

هذا الجبل كبير مجاور للجبل السابق ولنهر أرجيل، تحيط به من كل جهة مساحات شاسعة من شجر الزيتون تعطي الكثير من الزيت. يتجر السكان بالصابون الذي يبيعونه بفاس وغيرها، وهم في حرب دائمة مع الأعراب الذين يجوبون البوادي المجاورة، ويكوِّنون أكثر من أثني عشر ألف محارب، من بينهم بعض رماة مختلف البنادق. وكان يدرس عندهم قديما علم السحر علانية، واعتاد الفقهاء والطلبة إفساد الكروم وحصائد جيرانهم بسحرهم، لكن الشريف محمدا حرَّم هذا العلم، مع أنه ما زال يلقن سريا، وزاد في الضرائب التي كانت قليلة جدا، لأن السكان كانوا يعولون الفقهاء والطلبة.

يذهب أعراب هذه البوادي إلى بادس عندما يلوح أسطول مسيحي في الساحل، وكذلك بعض بربر الجبال. يشربون كلهم الخمر، ولا يفوت فقهاءهم الذين يحرمونها أن يشربونها أيضا سرا إلى حد العربدة.

الفصل الخامس والتسعون
بني وَمُود

يقع هذا الجبل بالضبط في المكان الذي يلتقي فيه هذا الاقليم بإقليم فاس، ولا يفصله عنه سوى النهر. وهناك خمسٌ وعشرون قرية آهلة بالسكان الذين يؤدون

كل عام أزيد من ستة آلاف مثقال إلى الملك. ورغم قلة العيون، فإنه توجد على التلال كمية من الكروم وأشجار الزيتون. يُحصد فيه القمح، ويربى عدد كبير من الماشية الكبيرة والصغيرة. تجارتهم الأساسية هي الصابون. ونظرا لقرب مدينة فاس، إذ لا تبعد إلا بثلاثة فراسخ، فإن السكان أغنياء، لأنهم يذهبون إليها لبيع بضائعهم كل أسبوع. وبالتالي فإن الأرض خصبة ولو لم تسق، لدرجة أنه لا توجد قطعة من الأرض لا تزرع. والسكان متحضرون أكثر من سكان الجبال الأخرى، ويكوِّنون أربعة آلاف محارب من بينهم بعض الفرسان. وأخيرا فإن جميع سكان هذه الجبال من قبيلة غمارة، وكل واحد منهم يحمل اسم المكان الذي يقطنه، ويتشابهون في اللباس، والعوائد، والدين، وبخاصة في الحقد الذي يكنونه للمسيحيين. ولا يوجد جبل آخر في هذا الاقليم يستحق الذكر. ولنتحدث الآن عن إقليم كَرْت الذي هو سادس أقاليم مملكة فاس، إبتداء من الغرب.

الفصل السادس والتسعون

إقليم كَرْتْ (1)

هذا الإقليم الذي هو سادس أقاليم فاس، يحده غربا إقليم الريف ونهر ملولو(2) الذي ينحدر من الأطلس الكبير بين تازا ودبدو، ثم يسير ليصب في نهر ملوية، ويحده شرقا مملكة تلمسان ونفس النهر الفاصل بين هذه المملكة ومملكة فاس، وبالتالي بين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية، ويحده شمالا البحر المتوسط، وجنوبا قسم من جبال تقع في المفازات المتاخمة لنوميديا. ويَنتهي كذلك في هذا المكان إلى نهر ملوية، ممتدا أحيانا نحو الغرب إلى جبال الحوز (3)، ومنحدرا دائما على وادي نكور حتى البحر. بحيث إنه يشمل جميع الساحل الواقع بين هذا النهر وملوية الذي يصب في البحر قرب مدينة غساسة.

هذه البلاد كلها وعرة جافة، تشبه صحراء ليبيا الداخلية. ويقسم المؤلفون الأفارقة هذا الإقليم إلى ثلاثة أقسام: قسم يشمل المدن وضواحيها، وقسم يشمل

(1) ويكتب أيضا بالطاء : كرط (مترجم)

(2) هو كذلك (ملولو) عند الحسن الوزان (ص 340) وصحح هناك بأن الحد هو نهر نكور، (الهامش 144) (مترجم).

(3) كتب في الأصل كور «يعني المرتفعات الجبلية شرق تازا» ـــ كتاب الوزان، ص. 340. الهامش 146 ـــ (مترجم).

الجبال التي يسكنها برابرة في غاية الشجاعة(4)، وقسم ثالث يشمل المفازات. تقع المدن على الساحل، وهي قليلة العدد، والجبال كثيرة السكان بينما تبدأ المفازات عند ساحل البحر، وتمتد نحو الجنوب إلى المفازات التي تحد إقليم الحوز. ويحد هذه المفازات من جهة الغرب الجبال السالفة الذكر، ومن الشرق، حيث تمتد على مسافة أكثر من ستة عشر فرسخا، نهر ملوية. طولها من الشمال إلى الجنوب عشرة فراسخ، لكن يوجد بها قليل من الماء في كل مكان، وخاصة في اتجاه البحر، علاوة على نهر ملوية، وكلها مليئة بالحيات والوحوش المفترسة، الشيء الذي لم يمنع البلاد من أن تكون كثيرة السكان. وفي الصيف يتنقل أعراب كثيرون على طول النهر، وكذلك جماعات كثيرة من البربر الأفارقة(5) الشجعان الذين يملكون كمية من الخيل والإبل، وعددا كثيرا من الماشية الكبيرة والصغيرة. وهم في نزاع مستمر مع الأعراب بخصوص امتلاك السهول. وسنشرع في وصف البلاد مبتدئين بوصف المدن، وعددها أربع.

الفصل السابع والتسعون

مليليــة

التي يسميها الأفارقة كرت ــ مليلة

مدينة أزلية يسميها بطليموس روسدير، ويجعلها في الدرجة العاشرة والدقيقة العاشرة طولا، والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة الخامسة والأربعين عرضا. أسسها الأفارقة في داخل خليج، يبعد رأسه الذي يسميه البحارة رأس أنطريفولكوص، بخمسة وعشرين فرسخا(6) عن (طرف القصيص) الواقع على شاطىء مملكة غرناطة، على مسافة فرسخين من موطريل. تقع مليلية في سهل، ويشرف عليها جبل من جهة الغرب. كانت في القديم في غاية الغنى والعمران حتى إن مؤرخي البلاد يقولون إنها كانت تضم أكثر من عشرة آلاف منزل، وإنها كانت فيما مضى عاصمة الإقليم، ودار مقام حاكم المنطقة. ضواحيها شاسعة جدا تكنّ مناجم عظيمة من حديد كانوا يتجرون به كثيرا. كما كان فيها كمية من العسل والشمع، ومنه سميت المدينة، لأن معنى مليلية المعسولة بلغة البلاد(7).

(4) هم أولاد بطوية.

(5) من بطالسة

(6) عرض البحر في هذا المكان عند الوزان (ص 341) مائة ميل (مترجم)

(7) تبع في هذا ما عند الحسن الوزان. وقد صحح هناك في الهامش 148، ص 341 (مترجم).

وكان اللؤلؤ أيضا يستخرج من الخليج، وما زال فيه حتى الآن قليل منه. وبالإمكان أن يوجد أكثر لو تعاطى المسيحيون المقيمون هناك صيد الصدف الذي يحمله. لقد جعل الرومان من مليلية مدينة جميلة شهيرة، عندما كانوا يملكون موريطانيا الطنجية. ثم استولى عليها القوط منذ ذلك العهد، إلى أن جاء العرب فدخلوها أثناء فتوح أفريقيا، وجعلوها أكثر شهرة بما جلبوا إليها من أعداد كثيرة من التجار والصناع الذين استقروا فيها. بعد مدة طويلة، حاصرها خليفة القيروان الشيعي، ودخلها صلحا[8]، وترك فيها حامية من الجند. ومنذ ذلك العهد اشتغل سكان مليلية بالملاحة، وأخذوا يغيرون على الشواطىء المسيحية بالسفن الحربية المختلفة. لذلك أرسل الملكان الكاثوليكيان إليها جيشا[9] بقيادة دوق مدينة سيدونية. ولما علم السكان بهذا النبأ استنجدوا بملك فاس الذي بعث إليهم بخمسمائة رجل للحراسة، لأنه كان مشتغلا في حرب أخرى، فلم يستطع أن يحضر بنفسه. غير أن السكان انسحبوا إلى الجبال علماً منهم أن هذا الإمداد قليل تافه، فقام الجنود بإضرام النار في المنازل، بعد أن ثقبوا الأسوار في شتى الأماكن، ليمنعوا المسيحيين من الإقامة فيها. ثم عادوا إلى فاس. ووصل دوق المدينة في هذه الأثناء فأمر باصلاح الثُّلم، وبعد أن حصن المدينة في نطاق أصغر، شيد فيها قلعة جهزها بكل ما يلزم لحراستها. وبقيت منذ ذلك التاريخ، تحت تصرف هذه الأسرة إلى أن سلمتها في أيامنا هذه إلى الملك.

توجد في جهة الشرق من مليلية بحيرة[10] تزيد دائرتها على سبعة فراسخ، ويمكنها أن تسع ألف سفينة بدون خطر، وتقترب من المدينة إلى مسافة نه ف فرسخ. وقبل ثماني عشرة سنة أحدث فيها مدخل إلى البحر، على بعد خمسة فراسخ من مليلية، في سفح صخرة تكون ممرا مرتفعا يصل عرضه في بعض الأماكن إلى مسافة رمية قذافة. وعند الجزر تستطيع السفن أن تدخل إلى البحيرة واحدة تلو الأخرى على طول الصخرة. لكن يجب أن يكون الربان ماهراً حتى يتجنب الرأس. وعند المد، تتكون أجراف رملية من ناحية الغرب، فتسمح بالدخول لعـدد من السفن المجتمعة، وعندما تهب الريح بقوة من جهة الشرق أو الشمال، يرتفع البحر على الرصيف، فتتجمع المياه في بعض الأماكن في المجوفات

(8) سنة 922

(9)سنة 1496.

(10) هي المسماة اليوم «البحر الصغير»

الموجودة بأعلى الصخرة التي كانت تستعمل كملاحات، يأتي إليها مغاربة المنطقة عندما كانت المدينة بأيديهم ليأخذوا منها الملح. لكن المسيحيين يتمتعون الآن بهذه الفائدة، ولا يستطيع المغاربة أن يأخذوا منه إلا بحد السلاح، أو بإذن من الحاكم. تقع هذه الملاحات على بعد أربعة فراسخ من المدينة في اتجاه الشرق، لكن يوجد على بعد نصف فرسخ من البحيرة حصن منيع[11] قد ركز فيه الشريف الحالي ثلاثة أو أربعة آلاف من رماة البنادق للحفاظ على أمن الأعراب الذين يرعون مواشيهم على طول البحيرة، ضد قرصنة المسيحيين والأتراك الذين يختبئون هناك. ذلك كل ما أمكن أن يقال باختصار عن هذه المدينة، وسنتحدث الآن عن أهم ما جرى بين المسيحيين والمغاربة.

انتصار أحد حكام مليلية على المغاربة

كان الفونس دُورِّيا، حاكم هذه المدينة، يتحارب في غالب الأحيان مع مغاربة المدن والجبال المجاورة،[12] وتغلب عليهم عدة مرات حتى إنهم لم يعودوا يجسرون على لقائه ما لم يكونوا أقوى منه بكثير. وذات يوم، عندما علم أنهم يتجمعون ليشنوا غارة على ولايته، وأنهم بدون قائد ولا كثير من الفرسان، ذهب ينتظرهم في خمسة وعشرين فارسا، ومائة وخمسين من رماة البنادق، ولما رأى أنهم يغطون البادية بكثرتهم، أمر كل فارس أن يردف معه راميا، ثم هاجمهم هجوما عاما، فأطلقوا النار من بعيد دون أن يصيبوا أحدا، لأنهم كانوا يرمون عاليا جدا، بالإضافة إلى أنه تراجع قليلا في مجال ضيق ليتعرض لطلقاتهم، كأنه لائذ بالفرار، ثم أنزل الخمسة والعشرين راميا إلى الأرض، وتجاوز إلى ما وراء ذلك، ولما أطلق هؤلاء نيران بنادقهم، وأقبل الأعداء في اضطراب، ظانين أنه هارب، كرَّ عليهم بفرسانه ومعظم الرماة، حتى لاذوا بالفرار. فقتل منهم أكثر من مائتين، وجرح ما يزيد عن ذلك وأسر خمسة وعشرين شخصا. وفي ذلك اليوم خرق فارس إسباني[13] بطعنة رمح ترس فارس مغربي في مكان الحلقة والوُسَيْدة لامسا ذراعه، ثم خرق كمه الزردي في مكانين، واخترق جسمه فأرداه قتيلا. وقد حوصر الحاكم من جهته في مضيق من طرف المغاربة الذين قتلوا فرسه وأسقطوه وبقيت ساقه محبوسة من تحته. وتلقى ضربات رمح في ترسه وسلاحه، وهو على هذه الحال،

(11) هو زنكراد.
(12) هي تروطة، ومزاية، وبني بطوية.
(13) هو بارطيليمي دي سوطو.

لكنه أنقذ في الوقت المناسب من طرف المشاة، وعاد إلى المدينة دون أن يفقدوا ولو رجلا واحداً. وفي الحين أرسل المغاربة يطلبون الإذن لدفن موتاهم، فمنحهم ذلك.

انتصــار آخــر

وبعد ما تولى بيدرو فنكَاص القرطبي حكم هذه المدينة، دارت بين الحامية والمغاربة معارك شتى، قتل وأسر فيها عدد كبير من هؤلاء. وكان اذ ذاك بتازوطا حاكم(14) من أشجع الناس، فكان غالبا ما يشن الغارات على ولاية دي فنكَاص، مصحوبا بعدد وافر من الفرسان والمشاة. وذات يوم، انطلقت الحامية ضدهم، كعادتهم، فاشتبك الحاكمان معا، وعندما التحما ليُسقط أحدهما الآخر عن المطية، أقبل فارس اسباني(15) على المغربي جِناباً، وطعنه برمحه فأرداه قتيلا. فانهزم المغاربة على الفور، واقتفى الاسبانيون أثرهم، فقتلوا العديد منهم، ومن جملتهم بعض الأعيان الذين جاؤوا مع هذا العامل.

ومنذ ذلك العهد، قام أحد المرابطين(16) في هذه الجبال ممن يُكن له هؤلاء البرابرة إجلالًا كبيرا، فأغراهم(17) بأنه سيسحر المسيحيين ومدفعيتهم، حتى إنهم سيحتلون المدينة دون خطر، فجمعهم على هذا الأمل، وتوجه نحو مليلية. وقد أُخبر الحاكم بذلك من طرف مغربي كان يتجسس له، فتأهب لملاقاتهم أحسن تأهب ممكن نظراً لضيق الوقت الذي عنده. وفي هذه الأثناء حضروا في الساعةالمعينة، وعلى رأسهم المرابط ومن معه من الأعيان وهم يذكرون الله تعالى. أخذوا طريق أحد أبواب المدينة القديمة، وقد ترك مفتوحا عمدا، لكن أُقيم فوقه خمسة عشر جنديا في برج، ومعهم براميل البارود وكمية من المتفجرات والأسهم النارية. ولما لم ير المغاربة أحداً ظنوا أن كلام المرابط صحيح، فتقدم منهم نحو مائة وخمسين ودخلوا من الباب الآخر، فشاهدوا به جنودا مسلحين، وحملوا عليهم متوهمين أنهم مسحورون. لكنهم قاوموهم فجأة حتى إنهم حين أرادوا الخروج من حيث دخلوا كان جنود البرج قطعوا عليهم الطريق فهاجموهم بأسهمهم النارية وقتلوا جلهم. فهرب المرابط بعد أن أصيب بثلاثة جراح(18)، وهو يصيح قائلا: إن

(14) هو بوعلو.
(15) هو جبل بديس.
(16) هو الشيخ محمد الكزناني.
(17) سنة 1563.
(18) كان قد دخل من باب أبعد من هناك.

المدينة كانت ستحتل بدون خطر لو أن المغاربة لم يهاجموا المسيحيين الذين كانوا مسحورين في الباب الآخر. وكان يفتخر بأنه أصيب في رأسه بعدة طلقات نارية، لم تسبب له أي أذى، حتى إنه أقنع مرة أخرى هؤلاء البرابرة بالرجوع إلى المدينة. ولما وصل هذا النبأ أشاع الحاكم بأن المسيحيين قد سُحروا فعلا، وأنهم لم يكونوا يفكرون في استعمال مدفعيتهم لولا أن العدو أيقظهم. وحتى يعرب عن مزيد من الخوف كتب إلى عامل مغربي من أصحابه يطلب منه أن يصرف المرابط عما عزم عليه في مقابل مال كثير. ومر أكثر من شهر في هذه المفاوضات، قام خلاله بتعديل طفيف لسور المدينة القديمة، ونصب بابا محرفا في مدخل البرج حتى لا يتمكن الداخلون إليه من الخروج. ثم وارى جميع جنوده في البروج، والحصن والوُهَيد، وفي الأماكن الأخرى الضرورية، في الساعة التي أخبر بها، ومنع تحت طائلة الموت إطلاق النار أو البروز بدون إذنه. وفي هذه الأثناء أقبل المرابط في أزيد من خمسة وعشرين ألف رجل، كان قد أتى بهم من جميع الجهات[19] فزحفوا بنفس الثبات كالمرة الأولى، وهم يذكرون الله كذلك، ولما وجدوا باب المدينة القديمة مفتوحا دخلوا أفواجا. فأمر الحاكم حينا بإغلاق المُحَرب وقد دخل منهم أكثر من ستمائة، فأمر بإطلاق النار، وأخرج مائة وخمسين جنديا من باب خفيّ ليدوروا خلف السور ولا يتركوا أحدا يهرب. وقتل منهم أكثر من مائة وأسر أزيد من أربعمائة. وعندما رأى الآخرون أن الباب مغلق، وسمعوا دوي المدفعية والبندقيات، لاذوا بالفرار، ولم يظهر للمرابط أثر منذ ذلك الوقت خوفا من أن ينزلوا به عقاب خديعته[20]

الفصل الثامن والتسعون

غِسَاسَه

تقع هذه المدينة على بعد سبعة فراسخ من المدينة السابقة بحرا، وعلى بعد فرسخين فقط براً. أسسها أهل البلاد على رأس يحمل اسمها، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثالثة عشرة والدقيقة الثلاثين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضا، وتسمى ميتاكونيت. تقع مدينة غساسة

(19) كبني بطوية، وقلعة كرناية، وبني رنيتن، وبني وليد، وبني مصور

(20) أورد هذه القصة بأوسع مما هنا حسن العكيكي في رسالته الجامعية **قلعية ومشكل الوجود الاسباني بمليلية**، ص. 169 وما بعدها، (مترجم).

بعيدة عن البحر بأقل من فرسح قليلا، وعلى رمية حجر من نهر مُلُكان الذي يسميه بطليموس مُلُكات. كانت سفن البندقية تأتي إلى هذا الميناء، وهو مناسب إلى حد ما، وينشط فيه التجار كثيرا، بحيث إن ملك فاس كان يستفيد كثيرا من دخل الحمرك. وحيث إن هذا الملك كان منهمكا في حرب[21] ضد أحد أقاربه، فإن الملكين الكاثوليكيين أرسلا إلى غساسة دوق المدبنة، فتمكن منها بعد أن احتل مليلية، لأن السكان حين بئسوا من النجدة لم يجرؤوا على انتظار مجيئه، فالتجؤوا إلى فاس أو غيرها من الأماكن. وحصَّن الدوق القصر وترك فيه حامية، وبقي في كفالته إلى سنة ألف وخمسمائة وأربع وثلاثين، حيث إن الحاكم[22] الذي عين هناك مع أربعين جنديا قد أساء إلى ثلاثة مسيحيين، فتفاوضوا مع عامل تزوطة، وبعد أن اغتالوا الحاكم في سريره ليلا، سلموا القلعة إلى المغاربة، دون أن يطلع الجنود الآخرون على شيء من ذلك. فقُتلوا كلهم أو أُسروا، باستثناء واحد منهم ارتمى إلى أسفل السور وذهب ليخبر أصحاب مليلية عوما في البحر.

بادر حاكم مليلية بإرسال سفينة شراعية إليها وأخريين من نوع الكرافيل بعد أن شحنها كلها بالجنود. وعندما شاهدهم المغاربة قادمين أخذوا ملابس وأسلحة الذين قتلوهم، وجاؤوا إليهم والبنادق القاذفة على أكتافهم، فظنوا أنهم من جنودنا وأن المدينة لم تؤخذ، فنزلوا إلى الأرض وقُتلوا أو أُسروا عن آخرهم. وقد قصّ عليَّ أحدُ هؤلاء الخونة بنفسه هذه الحكاية بفاس، حيث كان في حالة يرثى لها، يبغضه الجميع ويموت جوعا. وقد أسلم وسُمِّي سليمان.

خربت الآن هذه المدينة ودُمرت ولم يبق إلا القصر، وهو حصين مشيد على صخرة لا يمكن نسفها باللغم. وعندما يأتي مغاربة المنطقة ليحرثوا الأراضي المجاورة، يجعلون فيها حرسا، ليكتشفوا إن كان لا يوجد هناك كمين نصبه المسيحيون، لأنهم غالبا ما يأتون من مليلية وشاطىء اسبانيا ليأخذوا هناك بعض الأسرى. ولما سألت لماذا لم يُعد ملوك فاس بناء هذه المدينة، قيل لي بأن السكان لن يكونوا في أمان بسبب جوار مليلية، وإنهم إذا أقاموا بها حامية فإن المصاريف تكون أكثر من المداخيل.

(21) أي حرب تلمسان.
(22) هو لويس دي تشابيس.

الفصل التاسع والتسعون

تزوطـــة

مدينة صغيرة في داخل البلاد مشيدة على رأس صخرة، بعيدةٍ عن مليلية بثلاثة فراسخ وعن غساسة بخمسة فراسخ. يقول المؤلفون الأفارقة إنها أسست منذ أمد قريب من طرف بني مرين قبل أن يصبحوا ملوك فاس، وإنهم كانوا يخزنون فيها حبوبهم وأمتعتهم، عندما كانوا يرعون مواشيهم عبر مفازات كرت التي لم يكن فيها آنذاك أحد من الأعراب، فكانت قلعتهم الرئيسية، لكنهم عندما عظم شأنهم بانحلال أمر الموحدين، استقروا بفاس وغيرها من المدن المهمة، وتركوا هذه إلى برير[23] كانوا حلفاءهم ومن نفس القبيلة[24]. ولا يمكن الصعود إلى تزوطة إلّا بالدوران في مسلك صعب، وليس في داخلها بئر ولا عين، ولكن صهريج كبير يمتلىء بمياه المطر التي تسيل إليه عبر ميزابات. وقد دمرها ابن ثاني ملوك بني مرين[25] بسبب ثورة العامل، وبقيت خالية من السكان إلى احتلال مليلية، حيث إن أحد الغرناطيين الفارين إلى افريقيا، بعد أن طلبها من ملك فاس، عمَّرها من جديد ببعض الاندلسيين، وأخذ يشنُّ منها غارات على مسيحي غساسة ومليلية. ويقيم بها الشريف[26] الحالي عاملا تحت إمرته ستون فارسا وثلاثمائة من رماة البنادق القذافة، وهم آخذون حِذْرَهم باستمرار، إد لو استولى عليها الترك لملكوا الاقليم، لأنهم يرغبون فيها كثيرا، نظرا لملاءمتها لمملكة تلمسان، ولتلك البحيرة الكبيرة التي لا تبعد عنها إلا بثلاثة فراسخ، بحيث إن هذه المدينة الآن هي عاصمة إقليم كَرتْ.

الفصل المائـــة

أمَجّــاوْ[27]

مدينة صغيرة على بعد فرسخين من البحر، وأربعة فراسخ من المدينة السابقة، شيَّدها أهل البلاد على جبل شاهق يمتد عند قدمه سهل جميل ذو غلة وافرة، وحولها تلال مليئة بمناجم الحديد، وعدة قرى ومداشر يقطنها العمال الذين

(23) المطالسة.
(24) من بين زناتة.
(25) هو يوسف بن يعقوب.
(26) هو عبد الله.
(27) كتب في الأصل محيو.

يشتغلون هناك، وسكانها رجال حرب يفتخرون ويتباهون بالنبل والمروءة. المدينة حصينة بالطبيعة وبعمل الانسان، وكانت كسابقتها بأيدي بني مرين، إلى أن قام شاب أهلي من سلالة الموحدين، ابن حائك فقير، وقد اغتاظ من دناءة حاله، فانخرط في سلك جند بادس، وأصبح بكفايته الحربية قائدا لثلاثمائة فارس أخذ يشن بهم الغارات على أراضي غساسة ومليلية. فاكتسب بذلك شهرة حتى إنه حرض هذة المدينة على الثورة. ولمَّا رأى أنه لم يُجاز عن خدماته، قام باحتلال القصر بمساعدة عدد من الجبليين وأعراب كَرت. ولما دخلها مع خمسين فارسا من أصحابه أرسل أمير بادس لمحاربته ثلاثمائة فارس وألفا من رماة البنادق فهزمهم، وبعد أن سلح رجاله من أسلابهم أصبح قويا للدرجة أن ملك فا س الذي كان منشغلا في جهة أخرى، تفاوض معه وأقره على هذه الولاية، وأقطعه قرى وموارد للقيام بنفقة أربعمائة فاس، حتى يكون حاجزا ضد غارات المسيحيين وعاش هكذا إلى أن وافته المنية، وكان جنده أجود جنود البلاد. وخلفه الآن أحد أحفاده في الحكم، لكنه ليس مثله تماما، إذ يسيطر الشريف الحالي على جميع عماله.

الفصل الواحد بعد المائة

مساكن الجبال

كبدانة(28)

جبل كبير يطل من جهة على نهر مُلُكان، حيث يشكل شبه رأس ويسميه المسيحيون في هذا المكان جبل الدَّرق، أو الترس، ومن الجهة الأخرى المطلة على البحر يساند جبل قرمون، حيث كانت مدينة مشوشة(29) العتيقة، التي تبدو مبانيها كأنها من صنع الرومان. وقد خربها خليفة القيروان الشيعي، ولم ترم منذ ذلك العهد، ويقطن بعض البربر في أعلاها بمكان يدعى مشوشة الجديدة.

يمتد هذا الجبل من غساسة نحو الشرق إلى نهر ملوية، ومن البحر إلى مفازات كرت. يقول المؤرخون ان سكانها في القديم كانوا أغنياء شجعانا، وتجارتها رابحة. يوجد فيها الشعير والعسل بكثرة، وكذا الماشية الكبيرة والصغيرة. لكن

(28) كتب في الأصل بما يشبه «مكيوان» وهي عند الحسن الوزان : جبل كبدانة. وتتطابق معلومات الوزان مع ما نقله مارمول هنا ـــ كعادته ـــ باستثناء السطور الأربعة الأولى، والسطرين الأخيرين (مترجم)

(29) علق حسن الفكيكي في رسالته **قلعية** (ص. 14) على انه «لا يمكن مقاربة هذا الاسم الا بمروحة، لكن هذا لا تدل عليه الآثار» (مترجم).

أهلها اضطروا إلى مغادرتها ليقيموا في مكان آخر من شدة ما عانوا من المسيحيين على إثر احتلال مليلية، لأن تباعد القرى لم يمكنهم من إغاثة بعضهم بعضا. ثم عادوا إليها بعد استرجاع غساسة من يد المسيحيين، لكنهم ليسوا مرتاحين كذي قبل. ويسمّون بني سعيد وهم تابعون لتزوطة يؤدون الاتاوة إلى عاملها إسهاماً في نفقة الفرسان حماة الاقليم.

الفصل الثاني بعد المائة
بني سعيد

جبل كبير جدا، يمتد الى مدينة غساسة، ويتاخم إقليم الريف، حيث يفصل بينه وبين اقليم كرت نهر نكور. وهو منقسم إلى ثلاثة فروع : بني سعيد، وبني منصور، وبني وليد، وكلهم أغنياء أبطال من قبيلة غمارة. تنتج الأرض كثيرا من الشعير، وهي في غاية الصلاحية للماشية بسبب مراعي الأودية. كما أن في الجبل مناجم الحديد، وتنبع منه عدة عيون، وللذين يشتغلون فيه مصاهرهم ودورهم القريبة. يقصد الناس هذا الجبل من فاس لشراء حديد المحاريث(30)، وأدوات أخرى للحرث، وكور حديدية أيضا، إذ لا يسبك الحديد قضبانا في تلك البلاد مثلما يفعل في أوربا. وليس لديهم فولاذ، بل يستوردونه من مكان آخر.

في هذا الجبل قصر يسمى القلعة، وهو حصن البلاد. يخضع السكان لملك فاس، ويؤدون له الخراج، وان كان عددهم يفوق ثمانية آلاف محارب، منهم أكثر من خمسمائة من رماة البنادق المختلفة، مع بعض الفرسان، فإنهم غير قادرين على الحفاظ على حريتهم، لأن البلاد ليست قوية، وكانوا في حالة رعب دائم عندما سقطت غساسة في يد المسيحيين، لكنهم لم يتخلوا عن موطنهم.

الفصل الثالث بعد المائة
أَزْغَنْغَنْ

يمتد هذا الجبل من غساسة جنوبا، الى مفازات كَرت، وهو كثير العسل والشعير والماشية. يتجر فيه جميع أعراب الصحراء وبربرها أكثر من أي مكان آخر، لأنهم يفعلون ذلك بسهولة. وأكثر سكان الجبل أغنياء، لكن منطقتي الشمال

(30) وما إلى ذلك من السكات الحديدية، والمعارف، والمعاول، الخ

والغرب خلتا عندما كانت غساسة بأيدي المسيحيين، ثم أعيد تعميرهما بعد ذلك. يخضع السكان لملك فاس، ويكوِّنون أربعة آلاف محارب، من بينهم عدد من الفرسان ورماة البنادق، يقدمون الخدمة لعامل تازوطة إذا ما احتاج اليهم. ويسمى هؤلاء القوم بني منصور.

الفصل الرابع بعد المائة
بني تُوزِينْ[31]

يتماس هذا الجبل بالسابق من جهة الجنوب، ويمتد من صحراء كرت الى نهر نكور عبر مسافة تزيد على أربعة فراسخ. السكان أغنياء شجعان، ولهم من جهة سهول كبيرة، يجنون منها كمية من الشعير، ويربُّون المواشي ولا يؤدون شيئا عن الأراضي التي يحرثونها، لأنهم أكثر بسالة ولهم عدد من الفرسان أكثر مما عند عمال تزوطة وبادس وأجاو ثلاثتهم مجتمعين. إنهم يحبون جدا سكان هذه المدينة الأخيرة، لأنهم ساعدوا على ثورة ذلك الشاب الموحدي الذي تحدثنا عنها آنفا. وعندما كان بنو مرين ملوكا بفاس عاملوهم معاملة حسنة، لأنهم مثلهم من زناتة. وكانت أم سعيد، ثالث ملوك فاس من هذه الدولة، من هذا الجبل ابنة أحد النبلاء المرموقين فيه. إن الشريف الحالي يوليهم اهتماما كبيرا، ويتركهم أحرارا، لأنه محتاج إليهم في حروب تلمسان.

الفصل الخامس بعد المائة
وَرْدَان، في نفس الاقليم

يتماس هذا الجبل والسابق من جهة الشمال، ويمتد مسافة أربعة فراسخ على طول شاطىء البحر المتوسط، وثلاثة فراسخ نحو نهر النكور. والسكان أيضاً من زناتة، وهم قوم أغنياء شجعان أمجاد. يقيمون سوقا كل يوم سبت قرب نهر صغير، يفد إليه تجار فاس مع بربر الجبال وأعراب الصحراء لشراء الشمع، والزيت، والجلود وما يلزم الخيل من عدد وجهاز. لا يملك هؤلاء البربر كروما مطلقا، ولا يشربون الخمر كما يفعل أهل الريف، ولا يؤدون الخراج، وانما يقدِّمون في كل سنة هدية إلى ملك فاس، نقودا وخيلا أو عبيدا، محتفظين هكذا بحريتهم. وكانوا فيما مضى

(31) كتب في الأصل : «توزين أو ويزنة».

خاضعين لأمراء بادس، لكن فقيها شهيرا منهم قام بمحاولات مع ملك فاس إلى أن أدمجهم في مملكته مقابل هذه الهدية التي يمكن أن تتجاوز قيمتها ما قد يؤدونه كإتاوة. لكن هذه الهدية حرة ومنوطة بالشكل الذي يشاءون أن يقدموها عليه. يكوّنون سبعة آلاف محارب، من بينهم أكثر من خمسمائة فارس، وعدد من رماة البنادق، كلهم في نظام حسن. ولا توجد مساكن هامة أخرى بهذا الاقليم. لقد تحدثنا أولا عن المفازات، فلْنتحدث الآن عن الاقليم السابع والأخير لمملكة فاس.

الفصل السادس بعد المائة
إقليم الحوز[32]

هذا آخر أقاليم مملكة فاس، يقع في أقصى الشرق، ويشمل عدداً من البلدان يفوق ما يشمله إقليمان من أكبر الأقاليم الأخرى. ولعل اسمه آتٍ من ذلك[33]. طوله ثمانون فرسخا من نهر تِكريكرة الى نهر زا، ويحاذى[34] جميع جبال الأطلس الكبير الممتدة بين هذين النهرين، مع قسم كبير من سهول نوميديا، والجبال المحاذية لليبيا الداخلية. يقول مؤرخو إفريقيا إن أول أمير[35] لدولة بني مرين قسم أقاليم مملكة فاس عشرة أقسام، كما فعل قبله أول ملك لفاس[36] وإنه جعل منها ثلاثة في هذا الاقليم أعطاها إلى ثلاثة فروع من المرينيين المتحالفين معه، الذين أسسوا منذ ذلك العهد مدينة دبدو، ورفعوا من شأن تازا، وقاوموا الترك وسلطة الشرفاء. حقا إنهم تحالفوا منذ قليل أو بالأحرى خضعوا لملك فاس، الذي أولاهم اهتماما كبيرا، لأنهم نبلاء شجعان دافعوا دائما عن الاقليم ضد أمراء تلمسان. وهذه المنطقة كلها واقعة بين الجبال، ولا تمتد أصلا الى البحر، وإن قال بعضهم إن المحيط كان يغطي في غابر الأزمان كل إقليم أزغار، وإن المراكب كانت تصل حتى مدينة تازا. جميع جبال هذا الاقليم يسكنها زناتة، وهم في حرب دائمة مع أتراك تلمسان. وهناك عدة مدن وقرى.

(32) كتب في الأصل بما يشبه «كوزت» (مترجم).
(33) معنى الحوز «الكثير» بلغة البلاد (؟)
(34) في الأصل : «ويضم» وهو في الواقع يسامت ويحاذي (مترجم).
(35) هو عبد الحق
(36) هو ادريس.

الفصل السابع بعد المائة

المدن

تَوْرِيرْتْ

مدينة عتيقة بناها الأفارقة القدامى في أعلى جبل على ضفاف نهر زا. تحيط بها عدة أراضي غنية بالقمح والماشية، وتفضي من كل الجهات الى مفازات وعرة قاحلة. ذلك أن مفازة كَرت تحدها شمالا، والظهرة جنوبا، وأنكَاد شرقا وغربا ممتدة إلى مملكة تلمسان، ومفازة تفراطة المنتهية كذلك الى مدينة تازا.

كانت توريرت في القديم من أهم مدن موريطانيا، وكان أميرها يجبي الخراج من جميع أعراب هذه المفازات وبربرها. وكان بها عدة مساجد وقصور كلها مشيدة بالحجر المنحوت. وهي مسورة بأسوار متينة، لكنها تضررت كثيرا منذ أن تولى المرينيون الحكم، بحروب تلمسان، وذلك بسبب مطامع شتى لهؤلاء الأمراء الذين أرادوا إخضاعها ليستحوذوا على الأعراب الموجودين بينهم. أقام بها الشريف الحالي حامية من الفرسان والمشاة خوفا من أن يحتلها الأتراك، وجعل المدفعية في القصر : لكنها ليست آهلة كذي قبل، لأن السكان ذهبوا ليقيموا بتازا وغيرها من الأماكن ابتعادا من الحدود.

الفصل الثامن بعد المائة

هدّاجيّة

مدينة كبيرة أسسها الأفارقة القدامى في جزيرة يُكوِّنها نهران(37)يلتقيان بعد ذلك، وهي محاطة بأسوار متينة مزينة ببروج، وكانت في القديم عامرة آهلة ببربر من قبيلة زناتة، لكن العرب المسلمين عندما فتحوا أقاليم الغرب وانتشروا عبر الصحاري، أساءوا إلى السكان كثيرا. كما كان هؤلاء أيضا مضايقين من قبل جيوش فاس وتلمسان، حتى إنهم غادروا المدينة إلى مكان آخر، حيث إن جميع منازلها خربت، ولم يبق سوى الأسوار، وأما الحقول فإنها في ملك الأعراب.

(37) هما نهر ملول ونهر ملوية.

الفصل التاسع بعدالمائة

كَرْسِيف[38]

مدينة صغيرة قرب نهر ملوية على بعد خمسة فراسخ من توريرت. أسسها الأفارقة القدامى من جذم بني مرين ليتخذوها مخزنا لحبوبهم وحصنا لهم عندما كانوا يقيمون في الصحاري. ولذا فإنها مشيدة على صخرة. وقد تركوها لذويهم منذ أن تولوا الحكم، ولما ثار السكان في عهد خامس ملوكهم[39]، أخذها هذا الأمير عنوة، واستولى على كل شيء، وخربها وهدم أجزاء من السور في أماكن مختلفة. وبعد ذلك سكنها قوم فقراء، لأنه توجد عند قدم المدينة أراض صالحة للزراعة، وبعض البساتين المليئة بكروم معروشات وغير معروشات، وبالفواكه والثمار التي يولونها إهتماما كبيرا في هذه المفازات. ولذا فإن السكان لا يقومون بتجارة أخرى، ويخزنون حبوب حماتهم الأعراب في مطامير، إذ لا يوجد بالمدينة أي منزل له سقف، وما هي إلا اصطبلات حقيرة مغطاة بالتبن والعروش وفوقها التراب. وكرسيف مثبتة في خرائط ليبيا لبطليموس في الدرجة الحادية عشرة طولا، والثانية والثلاثين وأربعين دقيقة عرضا، تحت إسم كَلافة.

الفصل العاشر بعد المائة

دَبْدُو

مدينة كبيرة على منحدر جبل شاهق، وعلى بعد عشرين فرسخا من مليلية في اتجاه الجنوب، أسسها أحد أمراء بني مرين عندما حكموا موريطانيا الطنجية. وتوجد في الأعلى عدة عيون تنحدر إلى المدينة. وهي تبدو من بعيد كأنها في سفح الجبل، ولو أنها تبعد عنه بأزيد من فرسخ، ويصعد إليها بالدوران في مسلك وعر صعب. كل الأراضي جدباء غير منتجة، ما عدا على ضفة النهر، حيث توجد بعض البساتين والحدائق. يملك السكان أراضيهم في الأعلى، لكنهم لا يستخرجون من القمح إلا ما يكفي لأربعة أشهر في السنة، ويكتالون القمح والشعير من تازا.

كانت هذه المدينة في الأصل حصنا لبني مرين، إذ أن عبد الحق لما فرق أقاليم مملكة فاس ــ كما أسلفنا ــ منح هذه المنطقة إلى بعض أقاربه[40]، الذين

(38) كَرسيس أو كَلافة

(39) أبو هارون (يعني يعقوب المنصور).

(40) بني ورطيناس. (كذا) ولعل الصواب ما عند الوزان · بني ورتاجن (مترجم).

شيدوا هذه المدينة لخزن حبوبهم، لكنها نمت منذئذ إلى أن أصبحت اليوم إحدى مدن افريقيا الممتازة. ولما حل الوطاسيون محل بني مرين، أراد أعراب المنطقة أن يخربوها ويطردوا منها السكان لكن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم بشجاعة بفضل بسالة قائدهم(41) الذي تفاوض معهم منذ ذلك العهد وبقي أميرا على دبدو، حيث عاش عدة سنين. وخلفه ابنه أحمد، الذي كان بطلا شجاعا، فاحتفظ بهذه الامارة الى مماته، وخلفه ابنه محمد الذي كان أيضا من أكبر شجعان زمانه. وقد تمكّن في حياة أبيه من السيطرة على عدة مدن في منحدر جبل الأطلس المطل على نوميديا، كان قد استولى عليها عدد من الخواص عند انحطاط الدولة. فزيَّنها هذا الأخير بعدة مبان، وأقام بها تجارة كبيرة بفضل ما كان يعامل به الأجانب من ملاطفة ومساعدة، فسارت بذكره الركبان في كل مكان، ولُقب ملك دبدو. وقد أراد أن يستولي على تازا بطلب من بعض رعاياه، لكن أول ملوك بني وطاس(42) علم بذلك فحاصر دبدبو، وعندما أراد الصعود إليها تظاهر السكان بالفرار، وكان عددهم يربو على ستة آلاف، فتركوه يتسلق قسما من الطريق، ثم انْهَالُوا عليه برمي الحجر والحراب بشدة إلى درجة أنه لم يستطع تحمل هذه العاصفة، فلاذ أصحابه بالفرار وقلب بعضهم بعضا في المضايق، وقتل منهم أهل دبدو ما يزيد على ثلاثة آلاف دون من سقطو أو تدحرجوا عبر هذه الصخور. ولم يمنعه ذلك من متابعة خطئه، فأحضر ثلاثمائة من رماة البنادق القديمة(43) وخمسمائة من رماة القذافات للامداد، فتقدموا خطوة خطوة، مصممين على عدم ترك المدينة ما لم تُحتل. ولما رأى محمد أنه غير قادر على مقاومة قوة بهذا القدر لجأ إلى الحيلة التالية : تظاهر بأنه مبعوث جاء من عند أمير دبدو ودخل إلى رواق الملك وسلَّمه رسالته. وبعد أن أمر الملك كاتبه بقراءتها واطلع على فحواها، أجاب : «قل لأميرك إن الأولى له والأحسن أن يستسلم دون أن يحاول مقاومة غير مجدية، فرد عليه قائلا إن ذلك هو رأيه، وهل سيعفو عنه الملك إذا أتى وارتمى بين رجليه، ولما أجاب الملك بنعم، وبأنه سيحسن إليه، بعدما اعترف بمروءته، طلب منه أن يؤكد ذلك بأداء اليمين أمام أكابر معسكره. وعندئذ ارتمى بين رجليه وقال له وعيناه مغرورقتان بالدموع إن مَن يمثل أمامه هو الذي أساء إليه : فانهضه الملك وعانقه ولاطفه ورافقه إلى

(41) هو موسى بن حمو.

(42) سعيد أو مولاي الشيخ (كذا)

والصواب أنه محمد الشيخ بن أبي زكرياء (مترجم).

(43) عند الوزان 800 بدل 300.

المدينة، حيث زوج ابنتيه بابني محمد، وجعل الامارة له ولبنيه من بعده، ثم عاد إلى فاس البعيدة من هناك بخمسة وعشرين فرسخا. ومند ذلك التاريخ تلقب أمراء دبدو بلقب الملوك(44). ومع ذلك فمنذ إقامة دولة الشرفاء أصبح أمراء دبدو كأنهم خاضعون لهم، واضطروا إلى خدمتهم في حروبهم إلى أن مات مولاي أحمد أمير دبدو بفاس(45)، فاستولى الشريف الحالي على إمارته، ونصب بها عاملا وجنودا للدفاع عن المنطقة ضد الأتراك. وعلاوة على ذلك ظل يرسل كل ثلاثة أشهر إلى الحصن خمسين راميا من حرسه الخاص.

الفصل الحادي عشر بعد المائة
تازا(46) (أو تيزا باللغة الافريقية)

مدينة كبيرة(47) فيها عدد من الأعيان لأنها عاصمة الاقليم. لذا فأسوارها متينة محصنة ببروج، وهي في سهل خصيب يكثر فيه القمح والماشية. بعيدة بستة عشر فرسخا من فاس، وباثني عشر من دبدو، وبخمسة وعشرين من مليلية، عبر مفازة كرت، وبفرسخين من جبل مطغرة، حيث يقطن قوم شجعان من زناتة، حاربوا كثيرا ملك فاس. وفي تازا ما ينيف على خمسة آلاف دار مسكونة لكنها ليست سوى منازل حقيرة من طين، ماعدا المدارس والمساجد المشيدة بالحجر المنحوت.

يخترق المدينة نهر ينحدر من جبل مطغرة، بحيث إن البربر يحولون مجراه إذا كان لهم نزاع من السكان، فيكون هؤلاء مرغمين على أن يسالموهم على الدوام، وأن يقفوا بجانبهم. يتعاطى تجار فاس، وتلمسان وغيرهما تجارة كبرى في هذه المدينة. وهي تزود بالقمح جميع سكان السهول والجبال المجاورة، على مسافة تفوق ثلاثين فرسخا. أزقتها وساحاتها منظمة كما هو الحال بفاس، ويوجد في وسطها جامع أكبر من جامع فاس وثلاثة مدارس. معظم السكان أغنياء، يدعون المروءة. وفي الأودية الصغيرة المحيطة بها عدة بساتين تسقى بمياه العيون المنحدرة من الجبال، وتُعْطي ثمارا أجود من ثمار فاس. كما أن فيها كروما كبيرة في حدور الجبال يصنع

(44) كان ذلك سنة 904/1490 هـ.
(45) سنة 1563.
(46) كتبت في الأصل بكسر التاء وزيادة الراء في الأخير «تيزار» (مترجم).
(47) أسسها الأفارقة القدامى.

منها اليهود أحسن خمر في موريطانيا كلها. ذلك لأن فيها جالية يهودية تنيف مساكنها على خمسمائة دار. وبالقرب منها قلعة جميلة فيها قصر الأمير(48). ومنذ أن وزع أول ملوك بني مرين هذا الاقليم بين أقاربه، كانت مدينة تازا دائما من نصيب ثاني أبناء ملك فاس إقطاعا له يتخذها دار مُقامة لطيفة شتاءً وصيفاً، ويمكن أن تكون إقامةً للملك لشدة صحة هوائها وخصب أرضها. من أجل ذلك كان ملوك بني مرين يقضون فيها أكبر قسط من الصيف، بسبب البرودة والظلال، فضلا عن وجودها في الطريق الكبير المؤدي من فاس الى تلمسان، وعلى حدود إمارة كانت تثير فيهم الغيرة.

يقيم فيها الشريف (اليوم) حامية بسبب الأعراب الذين ياتون إليها كل سنة من صحاري نوميديا لشراء القمح أو استبداله بالتمر، فيزعجون السكان كثيرا، إضافة إلى أنه من الخطر أن يحتلها الأتراك وهي واقعة في طريق فاس. وفي تازا انتظر الشريف محمد (الشيخ) أبا حسون (الوطاسي) وصالح رايس، عندما علم أنهما يستعدان لمهاجمته، ومن هناك تراجع، كما ذكرنا في تاريخ الشرفاء. ويجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة التاسعة طولا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين وعشر دقائق عرضا تحت اسم طيفور.

الفصل الثاني عشر بعد المائة

صفرو(49)

مدينة صغيرة تضم أكثر من خمسمائة نسمة، وتحيط بها أسوار عالية عتيقة، وهي مشيدة على ربوة تبعد عن فاس بخمسة فراسخ، عند قدم أحد جبال الأطلس الكبير الذي يدعى أيضا صفرو. يحاذيها نهران من كلا الجانبين، وتقع في ممر الجبال الى نوميديا. ومن أجل ذلك أسسها الأفارقة القدامى لأمن هذا الممر، وتمتد على طول هذين النهرين مسافةً تنيف على فرسخين مكسوة بالأشجار المثمرة، من زيتون وكروم. وسائر البلاد المحيط بها أراض خفيفة رملية تنتج القمح والقنب والشعير، لكن قمحها قليل. المدينة غنية بالزيت التي تروجها بفاس وفي بعض قرى الجبل التابعة لها. وكانت صفرو في دولة مولاي محمد(50)، ملك فاس،

(48) هو عبد الحق.

(49) خالف مارمول هنا التسلسل المتبع من طرف الحسن الوزان، فأخر الكلام على جبال منطقة تازا الى ما بعد ذكر المدن (مترجم).

(50) يقصد محمد البرتغالي الوطاسي (مترجم).

تابعة لأحد إخوة هذا الأمير، لكنها خلت من السكان بسبب تعسفهم، ثم عمرها من جديد فيما بعد مسلمو إسبانيا والبربر، وآلت الى الشريف. وفي وسطها جامع جميل، يخترقه جدول ماء، وفي بابه سقاية كبيرة قديمة البناء. والغابات المحيطة بالمدينة مليئة بالاسد، لكنها لا تؤذي أحدا، وتفر حينما يتراءى لها إنسان

الفصل الثالث عشر بعدالمائة
مَزْدَغَة

مدينة كبيرة(51)، ذات أسوار جميلة عتيقة لكن ليس فيها سوى دور حقيرة، وإن كانت كل الأفنية تحتوي على أحواض وسقايات، لذلك فإن تأسيسها قديم، وهي في سفح جبل الأطلس، على بعد ثلاثة فراسخ من السابقة في اتجاه الغرب. السكان فقراء، وجلهم فخارون، يبيعون أوانيهم في فاس البعيدة من هناك بأربعة فراسخ في اتجاه الشمال. وهم دائما وسخون ملطخون بالزيت التي يتجرون بها، ومن جهة أخرى فإن كاهلهم مثقل بالضرائب، لدرجة أنهم يعيشون في بؤس.

تنتج المنطقة كثيراً من الشعير، والقنب والكتان، وقليلاً من القمح. وهناك بساتين كبيرة مسورة من الزيتون، وأشجار مثمرة أخرى من جميع الأصناف. وفي الأماكن غير المزروعة غابات كبيرة عالية مليئة بالأسد. يجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة العاشرة وعشر دقائق طولا، والثالثة والثلاثين عرضا، ويسمسها ملوكات، كما يسمسها بلين موليليكة.

الفصل الرابع عشر بعد المائة
بني بهلول(52)

هذه المدينة بعيدة عن فاس بأربعة فراسخ(53)، على منحدر أحد جبال الأطلس الكبير. أسسها الأفارقة القدامى لتأمين ممرات نوميديا. يسميها بطليموس سَنْتَة، ويجعلها في الدرجة التاسعة وثلاثين دقيقة طولا، والثانية والثلاثين وخمسين دقيقة عرضا. وهي محصنة بأسوار قديمة، لكن السكان في درجة من الفقر بحيث

(51) هي عند الوزان : صفرة (مترجم).

(52) عند الوزان : البهاليل. وهو الشائع حتى الآن (مترجم).

(53) لعل هذا تصحيف، والأصل 24 فرسخا. والمسافة عند الوزان . نحو 72 ميلا (مترجم).

إنهم يكسبون قوتهم بحمل الحطب الى فاس من الغابات المجاورة الواقعة في الجهة الجنوبية، لأن في الأماكن الأخرى حدائق كبيرة مسورة من بساتين وأشجار الزيتون، وأرض صالحة للشعير، والقنب، والكتان، لكن لا قمح هناك بتاتا، لأن البلاد لا تصلح له.

الفصل الخامس عشر بعد المائة
عين الجنون، أو عين الأصنام

مدينة كبيرة عتيقة، أسسها أهل البلاد في سهل بين جبال الأطلس الكبير، على الطريق المؤدية من صفرو إلى نوميديا. يقول المؤلفون الأفارقة إنه كان هناك معبد كبير يجتمع فيه الوثنيون في بعض الأوقات، رجالا ونساء عند مجيء الليل، وبعد أن يقدموا القرابين المعتادة، يطفئون القناديل ويختلطون عفويا إلى الصباح، فيعود كل واحد الى منزله. ومنذ خروجهم من ثَمَّ يحرم على النساء أن يضطجعن مع أزواجهن ما لم يعرف حملهن، وكان هؤلاء الأطفال الذين يأتين بهم يُعدُّون لخدمة المعبد. لكن خلفاء[54] محمد دمروا هذه المدينة رأسا على عقب لدى دخولهم الى موريطانيا، واستولوا على سكانها. ولم يبق إلا سقاية كانت في باب المعبد ــ حسبما يقال ــ وتُكوِّن الآن بحيرة كبيرة مستديرة، تخرج منها جداول تُمِدُّ بدورها جداول أخرى في الشعاب، وتسمى اليوم عين الأصنام.

الفصل السادس عشر بعد المائة
مهدية

توجد هذه المدينة بين جبال الأطلس الكبير، على قمة جبل أردن، في وسط غابة من الأشجار المثمرة، تسقيها عدة عيون. ويرجع تأسيسها إلى إفريقي من هذا الجبل يسمى المهدي، اشتهر كثيرا في موريطانيا، كإمام كبير للملة المحمدية. وقد استولى على هذا الاقليم وعدة أقاليم أخرى عند انحطاط إمارة مغراوة من قبيلة زناتة، وتولى أحفاده الحكم بعده إلى عهد المرابطين. لكن عليّ بن يوسف، ملك لمتونة، أسر السكان بعد أن أخذ هذه المدينة عنوة، وخربها تخريبا تاما[55] غير تارك سوى الجامع، نظرا لجماله وعظمته. ثم أعاد بناءها أحد ملوك

(54) هم العرب المسلمون.
(55) سنة 515/1.113 هـ.

الموحدين(56) بعد مدة طويلة، لكن ليس كذي قبل، إذ لم يُعد إقامة الأسوار، ولم يسكنها سوى مزارعين وعاملين في الحقول، يحرثون بعض الأراضي المجاورة فيستخرجون منها الشعير والكتان والقنب، ولهم بساتين مسورة من شجر الزيتون والأشجار المثمرة التي يسقونها بماء هذه العيون، لكنهم فقراء مثقلون بالضرائب من طرف ملوك فاس الذين هم خاضعون لهم.

الفصل السابع عشر بعد المائة
أمّ جْنِيبَة

مدينة أسسها الأفارقة القدامى على بعد أربعة فراسخ من تَزْرَغَة إلى جهة الجنوب، وذلك لتأمين الطريق المؤدية من فاس إلى نوميديا. وكانت في القديم في غاية الغنى بسبب تجارة النوميديين، لكن الأعراب خربوها لينتفعوا باطمئنان من مواردها، والسكان الباقون فيها ليسوا إلا عبيدا لهم. ويعتقد الناس عامة أن ربوة غير بعيدة عن المدينة مَنْ طَلع اليها ولم يسر فيها وهو يرقص باستمرار تعرَّض للحمى بحيث إن جميع المارين بها يُشاهَدون وهم يرقصون ويقفزون، مثلما يفعل في «البّوى» أولئك الذين هم شديدو الهياج.

الفصل الثامن عشر بعد المائة
كَرْسَلْوِين

توجد في سفح الجبال التي ذكرناها آنفا مدينة في جهة الجنوب، أسسها الأفارقة القدامى على ضفة نهر زيز. وقد خربها الموحدون عندما أزاحوا المرابطين عن الحكم، ثم أعاد بناءها بنو مرين، فعمروها من جديد وزينوها بمبان ممتازة، لكنها انحطت بعد ذلك العهد شئيا فشيئا، حتى لم يبق منها إلّا الأسوار التي هي متينة تشاهد من بعيد، لأنها غير قديمة، وكذا بعض المنازل الحقيرة القليلة السكان، ذلك لأنه بعدما أصبحت البلاد بدون ملك بعض الوقت على إثر وفاة آخر بني مرين(57)، خربها الأعراب الذين كانت لهم بمثابة لجام. فلم يسكنها بعد ذلك سوى أناس مساكين، يملكون القليل من الماشية، ويفلحون بعض الأراضي في جهة الشمال، بينما الباقي ما هو إلا صخور وأراض قاحلة. وتوجد على ضفتي النهر عدة

(56) هو أبو محمد عبد المومن بن علي، أمير المومنين.
(57) هو عبد الحق.

طاحونات وبساتين. يكثر فيه صيد السمك، حتى إنهم يجففونه ويحفظونه طوال السنة. وقد حاصر مغراوة القدامى من قبيلة زناتة هذه المدينة، وبعد أن احتلوها حصنوها لحماية الممر من لمتونة، لكن ذلك كان عبثا، لأنهم دخلوا من جانب آخر،[58] وخلعوهم. وفي سنة ألف وخمسمائة وأربع وثلاثين انتزع الشريف[59] هذه المدينة من ملك فاس الذي استرجعها فيما بعد، ثم احتلها الشريف مرة ثانية وأقام فيها حامية ما تزال موجودة في دولة الأمير الحالي[60].

الفصل التاسع عشر بعد المائة
الجبال ومساكنها
زيز

هي سلسلة من خمسة عشر جبلا باردة وعرة، سميت باسم نهر زيز[61] الذي يخرج منها، وتحاذي إقليم فاس من جهة جبل الأطلس. تبتدىء في جهة الغرب بإقليم تادلا من مملكة مراكش، حيث يفصلها جبل دادس عن إقليم فاس، وتمتد حتى تخوم مسطاسة. ويحدها جنوبا إقليم سجلماسة[62] وشمالا سهول أدَخْسان وتِكَريكَرة، بحيث إن طولها خمسة وثلاثون فرسخا من الشرق الى الغرب، وعرضها أربعة عشر. سكانها زناتة، وهم شجعان متوحشون، يتحملون البرد لدرجة أنهم ولو كانوا في ثلوج وجليد بهذا القدر لا يرتدون ملابس أكثر دفئا من البربر الآخرين اللهم إلا أنهم يلبسون نعالا من جلد، ويلفون خرقا حول سيقانهم، مشدودة بحبال، لكنهم يمشون مكشوفي الرأسٍ طوال السنة. وهم لصوص كبار، يتحاربون دوما مع الأعراب الذين يسلبونهم ليلا قطعانهم في السهل. لذلك فإن مَن صادفوه منهم يؤدي عن الجميع، ثم يمزَّق حينا إرباً إرباً. جبالهم كلها مكسوة بالكلأ، لكن الأشجار فيها قليلة، والحيات كثيرة، حتى إنها تزحف في الديار كالكلاب والقطط، وتقترب عند تناول الطعام منتظرة أن يرمى لها بشيء منه، ولا تؤذي إن لم تُهاجَم. وهناك عدة قرى، مساكنها مصنوعة من خشب أو من حيطان مملطة بالطين والجبس ومسقفة بالتبن، لكن الأغنياء منهم لهم أكواخ من

(58) من أغمات
(59) مولاي أحمد
(60) ابن أخيه عبد الله.
(61) من المحتمل أكثر أن يكون هذا النهر هو الذي أطلق عليه اسم هذه الجبال لأنه يخرج منها.
(62) اقليم نوميديا.

حصير الأسل. ويربون كمية من الماشية الصغيرة، ويتجرون في فاس وسجلماسة بالصوف والسمن، وحتى بالحمير والبغال، إلا أنهم لا يذهبون إلى هذه المدينة الأخيرة ما لم يتراجع الأعراب إلى الصحاري، لأنهم قد يفتكون بهم. ويقدمون أحيانا خيامهم وقطعانهم، متربصين بهم لدى مرورهم لينتقموا مهم لأجل سرقاتهم. وهم غلاظ شداد بحيث لا يطلبون ولا يمنحون الحياة في المعركة، يقذفون بالحراب التي هم متمكنون منها تمكّنهم من القذافات، ويحصلون على نفس النتيجة، بالاضافة إلى آن لهم بعض البنادق. ويُكوِّنون ما يزيد على ثلاثة آلاف محارب، كلهم مشاة، ويغلبون دائما الأعراب في الجبال، كما أن هؤلاء يغلبونهم في السهل بسبب فرسانهم، لكن التجارة ترغمهم أحيانا على إبرام هدنة. إن جميع القوافل التي تمر بهذه الجبال تؤدي لهم الخراج عن كل حِمْلِ بَعير، وكلُّ مَن مر بدون جواز نُهب، ولو أنهم أصبحوا منذ زمن قليل خاضعين للشريف. إن اثنين(63) من هذه الجبال يكنان مناجم الفضة لكنهم قليلا ما ينتفعون بها، وما زالت تُشاهد فيها آثار مدينة(64)، جدرانُها من الخشب المملط بالجبص، وسكانها من المساكين.

الفصل العشرون والمائة
بني مْرَاسَن(65)

جبل شاهق شديد البرودة، سكانه بربر، يعيشون في أكواخ من عروش الأشجار، أو تحت حصر من الأسل منصوبة على أوتاد، لذلك فليس لهم مسكن قار، ولا يقيمون في مكان إلا بقدر ما يوجد فيه الكلأ لمواشيهم. يملكون مرابط كبيرة للحمير والابل، ويُنزون الخيل على الأُتُن فتنتج بغالا يبيعونها بفاس، ولهم منها عدد كثير. وهم أغنياء لا يؤدون الخراج لأي أحد، ونظرا لوعورة مسالك جبلهم، فإنهم يعيشون فيه بأمان لكن لا يفوتهم أن يقدِّموا كل عام هدية إلى ملك فاس، اعتباراً لاتجارهم مع رعاياه، ونظرا لأنهم شجعان، فإنهم يخدمونه أحيانا في حروبه. ويكونون أزيد من أربعة آلاف محارب في نظام حسن، ومن بينهم رماة لمختلف البنادق. يسيرون كلهم مجتمعين أعرابا وبربرا. لا يستعملون الخيل إطلاقا بسبب وعورة الجبل، ولو أن جلهم يملكونها. لا قضاة عندهم ولا فقهاء بل يعيشون مثل الوحوش بين هذه الصخور.

6) عدن وأركَابو
6) هي قلعة ابن طوية.
6) كتبت في الأصل : مارسيان.

الفصل الواحد والعشرون والمائة
مسطاسة(66)

طول جذا الجبل نحو عشرة فراسخ وعرضه أربعة، وهو أدفأ من السابق، يتاخم من جهة الغرب منطقة أَدَخْسان التي تمتد من هذا الجانب حتى إقليم تامسنا. البلاد صعبة وعرة، يسكنها بربر من نفس قبيلة بني بريزان (كذا) لكنهم أكثر غنى لامتلاكهم كمية من الخيل والبغال. وعلاوة على ذلك، فإنهم أكثر نبلاً، يرتدون ملابس مثل مُتْرفي المدن، لأن جلهم فقهاء، يحسنون كتابة اللغة العربية ويشتغلون بنسخ الكتب، لأن المغاربة ليست لهم مطبعة أصلا. يحملون هذه الكتب إلى فاس لبيعها، ويقدِّرهم الملك كثيراً فلا يستخلص منهم إلا مداخيل يسيرة. ويكونون ثمانية آلاف محارب من بينهم خمسمائة فارس وعدد من رماة النبال ومختلف البنادق.

الفصل الثاني والعشرون بعد المائة
خَنْكُ الغِرْبان، حيث توجد مدينة تَزَرْغَة(67)

هذا الجبل، الذي يعني اسمه ممر الغربان، لكثرة ما يوجد منها ومن طيور أبي زريق فيه، وهو من ملحقات الأطلس الكبير، قريب من جبل مائة بير. إنه شاهق جدا مكسو بغابات عظيمة مليئة بالسباع، يجعله البرد غير صالح للسكن، خاصة في فصل الشتاء، وان كان على المحجة الكبيرة المؤدية من فاس إلى نوميديا. تهبّ فيه أحيانا ريح شمالية بقوة كبيرة فتغطي المارة بالثلج، لكن الرعاة يسوقون إليه قطعانهم في الصيف ببعض الأماكن، وخاصة منهم أعراب بني حسن، من أجل برودة المياه والغابات، ولو أنه يجب الاحتراس فيه دائما من السباع، والتراجع منه قبل شهر شتنبر خوفا من الثلوج.

وهناك عين ينبع منها نهر صغير، يسيل ليصب في نهر سبو، وعلى ضفتيه مدينة حصينة(68) قد شيدت من طرف الأفارقة القدامى لتحمي هذا الممر حسب قول أهل البلاد. تقع في واد صغير، ويسكنها قوم متوحشون يعيشون مثل الحيوانات بدون نظام ولا انتظام، يستخرجون الشعير من بعض الأراضي المجاورة،

(66) كتب في الأصل مسطالسة (مترجم).
(67) في الأصل : تغارة.
(68) هي تَزَرْغَة.

ولهم حدائق مسورة تحتوي على شجر الخوخ. كانت هذه المدينة مثل قلعة الأعراب(69) التي ذكرناها، يخزنون فيها حبوبهم عند ذهابهم إلى الصحاري، لكن ملك فاس يسيطر الآن عليها. وهناك أيضا مدينة أخرى(70) أسسها الأفارقة القدامى على نهر صغير يمر في سفح هذا الجبل، لكن لا يقيم فيها سوى فقراء البلاد الذين يحرثون بعض الأراضي، فيستخرجون منها الشعير ويخضعون للأعراب(71).

الفصل الثالث والعشرون والمائة

مائة بير

هذا الجبل جزء من الأطلس الكبير، ما زالت تلوح في قمته آثار مبان عظيمة يبدو أنها من صنع الرومان، وقريبا جدا من هناك توجد بئر شديدة العمق، يأتي إليها رعاع فاس بحثا عن الكنوز مثل الأماكن الأخرى التي تحدثنا عنها، وينزلون فيها بالحبال وبأيديهم مشاعل مغلقة باحكام. وفي البئر عدة طبقات، يمرون من إحداها إلى الأخرى. ويوجد في الطبق الأخير مكان فسيح منحوت في الصخر بالمعول ومسدود من كل جهة بجدار سميك، وفيه أربعة مداخل منخفضة جدا تفضي إلى أماكن أخرى صغيرة، فيها آبار مياهها جارية، لكن في هذا التجويف دوائر ومنعطفات كثيرة لدرجة أنه هلك فيها العديد منهم من شدة البرد، بالاضافة إلى أن سربا كبيرا من الخفاش لا يزال يحوم حولهم حتى تنطفىء الشموع، فلا يعرفون حينئذ أين هم، ولا يستطيعون الاهتداء إلى المكان الذي دخلوا منه. وقبل هذا بزمن يسير، ضلّ أحد هؤلاء الباحثين عن الكنوز في هذا الجُب، وبعد ذهاب وإياب كثير من مكان إلى مكان، صادف واحداً من تلك الحيوانات التي تسمى بالضبع، يظهر أنها كانت وضعت أولادها فيه، فاقتفى أثرها خطوة خطوة حتى وصلت إلى شق صخرة قائمة في غابة كثيفة عند قدم جبل، ولما اكتشفت هذه الفتحة، سارع إليها كثيرون قصد التنقيب فيها، حتى امتلا الكل بالماء، من شدة الخنادق التي حفرت، ومن أجل ذلك سمي هذا الجبل بمائة بير، ولا يوجد فيه أي سكن.

(69) بني حسن.
(70) هي تزرجيل (كذا).
(71) أولاد حسين

الفصل الرابع والعشرون والمائة
أَزْغَارْ إيكْمَـارَنْ(72)

تمتدُّ بين جبال الأطلس الكبير سهول فسيحة تحيط بها غابات من أشجار البلوط والمرَّان وغيرها، مليئة بمراع خصبة للماشية، لكن لا بد من الاحتراس جيدا من السباع وحَبْسِ الماشية ليلا في زرائب كبيرة مغلقة بالشوك. يسمِّي بعضهم هذه الأماكن سهول أُنْزار، وآخرون يدعونها سهول جوفت أو موسان، لكن الاسم الأكثر تداولا هو الذي أثبتناه في عنوان هذا الفصل.

الفصل الخامس والعشرون والمائة
سَهْب المَرْجـة أو منجـار

توجد هذه السهول كذلك بين جبال الأطلس الكبير، وتمتد من الشرق إلى الغرب على طول أربعة عشر فرسخا وعرض عشرة. جميع التلال المحيطة بها مليئة بغابات صغيرة كثيفة تتزود منها مدينة فاس بالحطب والفحم، وهذه السهول مكسوة بالأردواز الأسود الصقيل الذي لا ينبت حتى الكلأ. لا يوجد سكن هناك أصلًا وإنما توجد بعض الأكواخ المتكونة من عروش الأشجار للحطابين والفحامين.

الفصل السادس والعشرون والمائة
أَزْكَـانْ

هذا الجبل شاهق بارد لحد أنه لا يُسْكَن منه إلا الجانب المطل على بلاد فاس. يحده جبل سيليلكو شرقا، وجبل صفرو غربا، وجنوبا الجبال المطلة على نهر ملوية، وشمالا سهول فاس. طول هذا الجبل أربعة عشر فرسخا من الشرق إلى الغرب، وعرضه خمسة. وتوجد عدة عيون في الحي المأهول، ومناطق مكسوة بأشجار الزيتون، والحدائق والكروم. السهل ممتاز جدا، يقيم فيه السكان أكبر قسم من فصل الشتاء، ويستخرجون منه كمية من القمح والشعير والكتان والقنب، ومنذ زمن قليل غرس فيه الأندلسيون النازحون من إسبانيا حدائق من شجر التوت لتربية دود القز. وماء العيون المتفجرة من هذه الصخور بارد، لدرجة أن الأجانب

(72) في الأصل: همران دازاغار.

يحْذرون من شربه ما لم يَطُل، لأنه يسبب ضروبا من المغص تقتل الانسان في ظرف ثلاث أو أربع ساعات. والسكان بربر يعيش بينهم بعض مسلمي غرناطة. وهم شجعان يكوّنون أزيد من ستة آلاف محارب، من بينهم بعض الفرسان ورماة البنادق المختلفة. وهم خاضعون لملك فاس وللمحقات تازا.

الفصل السابع والعشرون والمائة

بني يازْغَــة

هذا الجبل ألطف من الحبال السابقة، يسكنه قوم أغنياء محترمون، يعيشون عيشة المدن، وهم جنود ممتازون. تمتد في كل جهات الجبل أراض خصبة تنبت القمح والكروم والزيتون، وترعى فيها قطعان من الماشية الكبيرة والصغيرة. صوفها في غاية الرقة والنعومة بحيث تصنع منه النساء معاطف فاخرة وأكسية رفيعة كأنها من حرير. هؤلاء البربر(73) خاضعون لملك فاس الذي كان يخصص ضرائبهم لعامل قصر المدينة القديمة التي كانت تتطلب منه خمسة عشر ألف مثقال (بستول) من الربع، وعندما فتح الشريف فاسا للمرة الأخيرة امتنعوا من الدخول في طاعته فأرسل إليهم ستة الاف مقاتل من بينهم ألفان من رماة البنادق، لكنهم دافعوا عن أنفسهم جيدا حتى ردوهم على أعقابهم إلى فاس، بعد أن قتلوا منهم أكثر من ألف، من بينهم عم وأخ لقائد الجيش. أراد الشريف الحالي(74) أن يثأر لهذا العار بقوات عظيمة(75) لكن الفقهاء تدخلوا وحصلو على موافقة اليازغيين أن يؤدوا سنويا عن كل كانون ست أواق من الفضة الخالصة.

يمر بالقرب من هذا الحبل نهر سبو بين صخرتين ضيقتين مرتفعتين جدا حتى إنهم يستعملون الحيلة التالية لعبوره. فقد أثبتت في الصخرتين ركيزتان غليظتان في كلا الجانبين، فيهما بَكرتان كبيرتان يمر خلالهما حبل غليظ من الأسل يدور مرتين، وأوثق في أحد الجانبين سلة كبيرة من الأسل كذلك تسع أكثر من عشرة أشخاص، فإذا أرادوا العبور طلعوا فيها وسحبوا إلى الضفة الأخرى بواسطة الحبل الثاني. وقد اتّفق مرة أن انهار قاع السلة فسقطوا في النهر من علو يزيد على ألف وخمسمائة ذراع(76) وفي النهاية نجا الذين تشبثوا بالحبال بمشقة عظيمة،

(73) الزناتيون الصنهاجيون (كذا)
(74) مولاي عبد الله (الغالب).
(75) عام 1960.
(76) يظهر أن هنا خطأً في الأرقام، لأن الارتفاع عند الحسن الوزان المنقول عنه (ص 361) 150 ذراعا (مترجم).

وهلك الآخرون قبل أن يسقطوا في الماء. يضم هذا الجبل ثمانية وثلاثين قرية آهلة بالسكان، ويكوِّنون ستة آلاف محارب، من بينهم بعض الفرسان.

الفصل الثامن والعشرون والمائة

سِيلِيـلْكُـو

جبل شاهق بارد، فيه غابات من الأشجار الشائكة(77) ، وهي غليظة عالية، وفيه عيون كبيرة تكوِّن بعض الأنهار، ويسيل ماء إحدى هذه العيون بسرعة بين صخرتين، حتى إنهم شاهدوه وهو يدحرج من منبعه حجرة تزن مائة رطل ويجرفها كأنها نبتة تبن. ومن هذه العيون ينبع سبو أكبر نهر في موريطانيا كلها.

هذا الجبل مُجدب لا يستخرج منه أي نوع من الحبوب، وسكانه بربر من صنهاجة، كل ما يملكون نعاج وماعز. لذلك فإنهم لا يقيمون بتاتا في ديار، ولكن في أكواخ من قصب، مغطاة بعروش الأشجار، ويرحلون من مكان إلى آخر بحثا عن الكلإ، ويقيمون في فصل الشتاء بالسهول عندما يذهب الأعراب إلى الصحاري لوجود حرارة أكثر لأبلهم. هذا الجبل مليء بالأسود والقرود والخنازير الوحشية، والسكان تابعون لملك فاس، وهم قوم بدائيون يتحملون أعباء الضرائب بصبر. رأيت بعض المؤلفين العرب يسمون الجبل الذي ينبع منه سبو كَيافة، ويقولون إن هناك العيون الرئيسية لهذا النهر، وكذا في جبل زرهون.

الفصل التاسع والعشرون والمائة

بني يَسْتِيتَـنْ(78)

سكان هذا الجبل خاضعون لأمراء دبدو، ولا يستخرجون سوى الدخن الذي يقتاتون به. أعلى الجبل كله جاف مجدب، لكن توجد في المنحدر معادن حديد يستثمرونها، لذلك فإن جلهم حدادون، غير أنهم فقراء لدرجة أنهم لا يُروِّجون إلا عملة حديدية، والحلقاتُ والأقراط والأساور للنساء من نفس المعدن. وفي سفح هذا الجبل بساتين كبيرة مليئة بالتين والنخيل والكروم، ويكثر فيه الخوخ حتى إنهم يحتفظون به جافا طوال السنة، ولا يمنع ذلك من أن يكونوا أفقر سكان الإقليم. يسيرون عراة حفاة، ومنازلهم عبارة عن أكواخ مغطاة بحصر صغيرة من

(77) عند الوزان (ص 360) أشجار الصنوبر (مترجم).
(78) كتب في الأصل بما يشبه بني يشتيتن.

الأسل، ومنه يصنعون حتى الأحذية التي يربطونها بأغصان الصفصاف اللينة، ولباس النساء أسوأ من لباس الرجال، يَسِرْنَ بدون أحذية عبر الأدغال، ويحملن الحطب على ظهورهن. ولا يوجد في الجبل كله تاجر ولا أحد يحسن القراءة. يعيشون كالوحوش، ويؤدون الإتاوة إلى أمراء دبدو، ولو أنهم تابعون لتازا.

الفصل الثلاثون والمائة

بُويَبْـلَان(79)

يُكوِّن هذا الجبل جزءاً من جبال تازا، وهو شاهق بارد جدا، طوله عشرون فرسخا وعرضه خمسة فراسخ، بعيدٌ عن المدينة بثمانية عشر فرسخا جنوبا. يَحُدُّه شرقا جبال دبدو، وغرباً جبال بني يازغة، وتكون قمة هذه الجبال مكسوة بالثلوج طوال السنة. كان يقطنه قوم أغنياء محاربون محتفظون بحريتهم، لكن لصوصيتهم وطغيانهم أثارت حقد جيرانهم عليهم، فتحالفوا جميعا ودخلوا عنوة إلى هذا الجبل، فأحرقوا وقتلوا كل شيء فيه ولم يعمر بعد ذلك قط. ولم يبق فيه سوى ساكنة صغيرة في القمة وسط الثلوج، لم تشارك بتاتا في سرقاتهم فتركوا لأنهم كانوا يعيشون كنساك(80) وما زال الباقون منهم يعيشون عيشة راضية ولا يسيؤون إلى أحد، بحيث إن كل الناس يحترمونهم، حتى ملك فاس يساعدهم، لأنه يتخرج منهم فقهاء ماهرون.

الفصل الواحد والثلاثون والمائة

بني وَرْطْـنَـاج

جبل شاهق مكسوّ بغابة مليئة بالمستنقعات والصخور الوعرة، لا يخلو من أراض صالحة للحرث والرعي، مع كمية من الكرم والزيتون وبساتين جميلة مليئة بالليمون الحامض والحلو، والسفرجل وسائر أنواع الفواكه الجيدة. كما أن هناك عددا كثيرا من الماشية الصغيرة، أما الماشية الكبيرة فلا يناسبها المكان بسبب وعورة الجبل . السكان برير من قبيلة زناتة، وهم متحضرون محترمون، يرتدون لباسا كلباس الحضريين، ويعيشون في خمس وثلاثين قرية كبيرة. ويكوِّنون خمسة آلاف محارب مجهزين تجهيزا حسنا، من بينهم عدد قليل من الفرسان، لأن الجبل كثير

(79) في الأصل ما يشبه : حيوبلاين، انظر كتاب الوزان، ص 358 والهامش 159.
(80) فقهاء

الحجارة. وقد خرج بنو مرين من هذا الجبل، لذلك فإن سكانه يُعتبرون أشرف قبيل زناتة، وكانوا دائما محترمين معفين من كل التكاليف، وهم الآن خاضعون للشريف[81] .

الفصل الثاني والثلاثون بعد المائة

البرانس

جبل كثير الحجارة، لكنه أقل وعورة من الجبال السالفة. وهو على بُعد خمسة فراسخ من تازا إلى جهة الشمال. تستخرج منه كمية من القمح، وفيه عدد من أشجار الزيتون والكروم التي يصنع منها الزبيب، وتوجد فيه بساتين كثيرة تسقى من ماء العيون المنحدرة من الجبل. يملك زناتة وهوارة الذين يسكنونه كمية من الخيل والبنادق، وهم معفون من كل ضريبة. بِيضُ البشرة، ولباسهم أحسن من لباس سائر الجبليين. نسائهم جميلات ناعمات، يتحلين بعدة حُلِي من الذهب والفضة كالحضريات. لكن الرجال جريئون متغطرسون يجيرون المجرمين الذين يحتمون بهم من البلدان الأخرى، وهم على أهبة للقيام بكل مغامرة والقتل من أجل الغيرة. وقد استجلبهم الشريف الحالي[81] وجعلهم من شيعته ليستعملهم عند الاقتضاء ضد الأتراك، لأنهم جنود ممتازون. ويكوِّنون ستة آلاف محارب مجهزين أحسن تجهيز. ولهم ما يربو على خمسة وثلاثين مركزاً سكنيا عامراً، وهم ملحقون بتازا.

الفصل الثالث والثلاثون والمائة

مكاصة[82]

هو جبل من نفس الملحقة كالجبال السابقة في الارتفاع والوعورة وفيه غابات كثيفة عالية الأشجار. سكان هذا الجبل هم أيضا من زناتة، يتمتعون بالحرية بفضل شجاعتهم، ويتحاربون دائما مع ملوك فاس ولا يؤدون لهم أية إتاوة. يوجد القليل من الأراضي الصالحة للحرث على الجبل، لكن فيه الكثير من شجر الزيتون والكرم، وبعض الأراضي التي تسقى بواسطة قنوات وتنتج كمية وافرة من الكتان، بحيث إن جلهم نساجون. هذا الجبل أكثر برودة من غيره في نفس المنطقة،

(81) عبد الله (الغالب).
(82) في الأصل منشاصة (مترجم)

وبَشَرَةُ سكانه أكثر بياضا. وقد منحهم ملوك فاس حرمة فلا يمكن أخذ مجرم احتمي بهم. وهناك أربعون قرية كبيرة آهلة بالسكان، لكنها غير مسوّرة. ويكوِّنون سبعة آلاف محارب، من بينهم بعض رماة البنادق والفرسان. وهم في سلم مع الشريف الحالي دون أن يؤدوا إليه إتاوة ولا أن يقبلوا أية حامية.

الفصل الرابع والثلاثون والمائة

بني جبارة(83)

جبل شاهق وعر جدا كسابقه، يقطنه قوم من خيار زناتة يحتفظون باستقلالهم عن جميع ملوك أفريقيا، ولو أن جبلهم لا يمتد سوى خمسة فراسخ طولا وثلاثة عرضا، فإنه كثير السكان صعب المسالك جدا. لا يتجرون في السهل، ويشنقون متى عثر عليهم فيه بأمر من ملك فاس وأمير تزارون (كذا) لذلك فإنهم مقيمون دوماً في جبلهم، حيث يملكون كمية من القمح والقطعان، مع كثير من الكروم والبساتين وأشجار الزيتون، وعدد من العيون. وبذلك يعيشون أحرارا، ويمكن أن يُحاصَروا عشر سنوات دون أن يخشوا الموت جوعا. عندهم عينان تكوِّنان نهرين يصبان في وادي سبو. لم يستطع الشريف(84) أن يخضعهم بتاتا: ثم تحالف معهم اليوم الشريف الحالي، لكنهم لا يؤدون إليه أية إتاوة، ولو أنهم غير معفين من واجب يقبضه من سوق تقام في السهل، لأنه يترك لهم حرية الاتجار مع سكان المنطقة. يكوِّنون سبعة آلاف محارب راجل مجهز على نمط البلاد أحسن تجهيز، ويملكون بندقيات قديمة وقذافات. وليس لهم حصن ولا أي موضع مسور، لكن الأماكن كلها مكسوة بغابات وأشجار، تكثر فيها الأسود وطيور الغدران. وهم تابعون لإمارة تازا.

الفصل الاخير

مطغرة

هذه الجبال شاهقة وعرة بحيث لا يمكن الصعود إليها إلاعبر مسالك خَطَّتها أقدام المارة في حرج شديد ، ومضايق الصخور في غاية الصعوبة بحيث يستطيع رجل واحد مسلّح بالحجر فقط أن يمنع عشرة آلاف من المرور. تبعد بفرسخين

(83) هو عند الوزان : جبل غياثة (مترجم)
(84) محمد (الشيخ).

عن تازا، ويسكنها بربر من قبيلة زناتة. إنها بلاد الغابات والأدغال، تكثر فيها الأسود، وفي أعلاها عدة عيون. وهناك كثير من الأراضي الصالحة للحرث تسقى بالسواقي، وتستخرج منها كمية من القمح والكتان. علاوة على عدد من شجر الزيتون والكروم، وكثير من قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة. يُستخرج من الداخل ومن أشد هذه الجبال وعورة مقادير من القمح، والزيت، والكتان والعنب والفواكه تكفي للمؤونة، ويبقى منه أيضا ما يباع لسكان المنطقة. لذا فإن أهل هذه الجبال أمجاد غيورون على حريتهم، لا يؤدون أية إتاوة لملوك فاس، ولا لعمال تازا، غير أن كل دار تعطيهم إذا كانوا مجموعين قدرا معينا من الزبيب كل سنة تذهب امرأة لاستلامه، لأنهم لا يقبلون أن يصعد إليهم أي أجنبي حتى لا يطلع على الممرات والمسالك. ويكادون يكونون دائما في حرب مع ملوك فاس، فيقطعون الماء فوراً عن تازا بتحويل مجرى النهر، ويُحدثون أضرارا جسيمة في السهل، لأن عددهم يفوق خمسة عشر ألف مسلح، ومهارتهم كبيرة في القتال بالجبال، بحيث إن فئة قليلة منهم تهزم الكثير من أهل فاس.

كان سعيد في حرب دائمة تقريبا معهم، وذهب ليهاجمهم(85) في خمسين ألف رجل، ولكن عندما عسكر عند قدم الجبال، في انتظار تسلقها يوم الغد، هاجموه ليلا بشدة قوية، وقتلوا من جنده ثلاثة آلاف، وهزموا الباقي. بعد ذلك صعدوا إلى أعلى الجبل ومزقوا إرباً إرباً وزير دولة كانوا قد أسروه، وَرموا به إلى الأسفل قطعة قطعة، دون أن يقبلوا التفاوض مع هذا الأمير ما دام حيا، وتفاوضوا مع ابنه(86) على أن يدفعوا إليه سلة كبيرة من العنب عن كل كانون. لكن الشريف محمداً(87) لما رأى امتناعهم عن الاعتراف به، أرسل لمحاربتهم جميع الأتراك والإسلاميين من رجال حرسه، بقيادة فارسي(88) مع عدد من مغاربة فاس، وتازا، والأماكن المجاورة. وما كاد يصل حتى أمر رجاله بالصعود إلى الجبل، وتركهم البربر يفعلون إلى أن وصلوا إلى تل صغير. ولما أراد أن يعسكر عند المساء، ليرتاح جنوده، انقضوا عليهم من كل جهة ودحرجوا قطعا كبيرة من الصخور، حتى أحدثوا ممراً لهم عبر كتيبة الأتراك على إثر هجمات عديدة، فهزموهم وكسر رأس الفارسي برمية من حجر. ولم يقبلوا منذئذ أن يعترفوا بالشريف، لكن الشريف

(85) سنة 1490.
(86) مولاي محمد.
(87) سنة 1546.
(88) ماريان

الحالي(89) عاملهم بلين إلى أن تحالفوا معه، دون أن يرغموا مع ذلك على أن يعطوه شيئا إلا عن طيب خاطر. توجد في هذه الجبال خمسون قرية كبيرة، لكن ليس فيها قلعة ولا أي مكان محصن. تلك هي كل مساكن مملكة فاس، وبالتالي موريطانيا الطنجية. وسنتحدث الآن عن موريطانيا القيصرية التي هي مملكة تلمسان.

-انتهى الكتاب الرابع -

(89) مولاي عبد الله..

الكتاب الخامس

مملكة تلمســان
والأشياء البارزة التي حدثت فيها

الفصل الأول
حدود هذه المملكة

إن مملكة تلمسان هي ثالثة ممالك بلاد البربر، وقد سماها القدامى موريطانيا القيصرية. يحدها غرباً مملكة فاس، إذ يفصل بينهما نهران، أحدهما يسمى زيز، وينبع من جبال زناكَة، وبعد مروره بالقرب من مدينة كرسيلوين، وعبر إمارات كنانة (كذا)، ومطغرة والرتب، يذهب إلى سجلماسة، ومن هناك إلى الصحاري حيث يتحول إلى بحيرة. ويسمى النهر الآخر ملوية، وينحدر من الأطلس الكبير، وبعد مسيله نحو الشمال، يذهب ليصب في البحر المتوسط قرب مدينة أون (كذا). يحد هذه المملكة شرقاً الإقليم الذي يسمى خصوصاً افريقية، وتمتد على طول الساحل من مصب هذا النهر الأخير إلى مصب نهر آخر يفصل هذه الإمارة عن جيجل، وهي آخر مدينة بحرية الإقليم بجاية[1] وكول التي هي أول مدينة طويلة ضيقة، إذ يزيد طولها على مائة وخمسين فرسخا من الشرق إلى الغرب، ولا يجاوز عرضها عشرين فرسخا في بعض الأماكن من جبل الأطلس إلى البحر، غير أنه يبلغ في أماكن أخرى خمسين فرسخا وتمتد إلى نوميديا. تتميز هناك أربعة أقاليم. أولها وأهمها الذي يحمل اسم المملكة، ويحمل الثاني اسم تَنَس، والثالث اسم الجزائر، وهو موريطانيا القيصرية بالضبط، والأخير اسم بجاية التي يجعلها بعضهم في مملكة تونس. كانت هذه الأقاليم دائماتحت رحمة أعراب الصحاري وملوك تونس وفاس، وهي الآن تقريبا في يد الأتراك، كما سنعلم ذلك من خلال هذا التاريخ.

الفصل الثاني
صفة البلاد

جل الأرض هنا جافة محدبة جبلية. وتحيط بمدينة تلمسان أراض شاسعة مَحْلَة،لكن التي توجد شمالا بين المدينة والبحر غنية بالقمح والمراعي تنتج فواكه كثيرة. وهناك عدد كبير من شجعان الأعراب يسمون ظرفاء مليانة، وهم منقسمون إلى خمس قبائل[2] يخضع لهم البربر. توجد عدة جبال في جهة الغرب

(1) سوفجمار، أمراكا قديما.

(2) هم أولاد عبد الله، وأولاد موسى، وأولاد هسيكس، وأولاد سليمان، وأولاد عمرو.

بجميع الأقاليم الأربعة، وهذه الجبال كثيرة الحبوب والقطعان، آهلة بأقوام شجعان. المدن قليلة في هذه المملكة، لقلة الأراضي الجيدة، لكن ما يوجد منها حسن الموقع وعيشة سكانه مشرفة. يتعاملون معاملة حسنة وفق عادة البلاد، ويتجرون كثيرا سواء في غينيا أو في نوميديا أو غيرهما. أعراب الصحاري كثيرون ولا يكترثون إلا قليلا جدا بملوك تلمسان، لأنهم يتراجعون كلما أرادوا إلى صحاري نوميديا حيث لا يمكن متابعتهم، لذلك فإنهم غير تابعين لأحد في الغالب، ويتقاضون من الملوك رواتب ليحافظوا على أمن البلاد، وإذا شاؤوا ثاروا وانضموا إلى من يؤدي لهم أحسن ثمن. سكان الجبال من بربر زناتة، وهوارة، وصنهاجة، وزواغة، وكلهم شجعان، سلاحهم ولباسهم ومعاملاتهم أحسن مما عند سكان موريطانيا الطنجية، واستعمالهم للبندقيات القديمة أكثر، وليست لهم عداوة كبيرة ضد المسيحيين، لأنهم يتجرون معهم أكثر، وليسوا عنيدين ولا حقودين بقدر ما هم عليه أهل مملكة مراكش.

الفصل الثالث

أنكَـاد(3)

أرض فسيحة خالية يابسة لا شجر فيها ولا ماء، خاصة في الطريق المؤدية من تلمسان إلى فاس. وهي أوغل قسم بهذا الاقليم في الغرب، يبلغ طوله ثمانية وعشرين فرسخا وعرضه ثمانية عشر فرسخا، وتكثر فيه طيور الغدران. وهناك العديد من الأعراب المتنقلين المتسكعين، مهنتهم السلب والنهب في المسالك الكبرى، ومن أجل ذلك يلزم (المسافر) أن يؤدي مبلغا من المال لأول رئيس جماعة يصادفه فيسلم إليه راية صغيرة على رأس رمح، حتى لا ينهب عبر منطقته كلها، ويفعل نفس الشيء لدى الوصول إلى آخر، فيتم المرور بدون خطر. وقد اعتاد ملوك تلمسان، للحفاظ على أمن المسالك، أن يستأجروا بعض الأعراب بحيث يمكن المرور مدة الصيف كله بأمان. لكنهم يضطرون في فصل الشتاء، إلى سوق قطعانهم إلى نوميديا والتقاط التمر في الصحراء، فيبقى الآخرون الذين يعيشون في المفازة يتنقلون في كل مكان كما يشاؤون، بحيث يكون من الخطر اجتياز هذه

(3) يسير مارمول هنا ــ كعادته في معظم الكتاب ــ على ما عند الحسن الوزان حذو النعل بالنعل، وقد نبهنا هناك (2 : 11 هامش 9) على ان في المناطق التي ذكرها في قسم تلمسان وراء ملوية شرقا وشمالا مدنا وقرى وصحاري مغربية وبينا سبب هذا الخلط (مترجم).

المنطقة في فصل الشتاء، وازداد ذلك الآن أكثر فأكثر، لأن الأعراب كانوا دائما ثائرين منذ أن أقام الأتراك بالبلاد.

يخترق نهر ملوية هذه المفازة، ويقيم على ضفتيه باستمرار ثلاث سلالات(4) من الأعراب الأشداء الأقوياء، يتحاربون دائما من أجل حزازات قديمة. يتنقل هؤلاء بحرية، ولا يعترفون بأحد أو يؤدون أية إتاوة. وتوجد على ضفتي هذا النهر عدة سباع تفترس الناس والحيوانات. تنتج المنطقة قليلا من القمح، لكن الأعراب يقتاتون جل السنة بالتمر واللبن واللحم، لأن لهم كمية من الابل والماشية، إضافة إلى أنهم يحصدون الشعير.

الفصل الرابع
تمزيز دكّت(5)

قصر في أعلى صخرة على الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان، بين صحراء أنكّاد وإقليم هذه المدينة. يقول المؤرخون إنه أسس من طرف سكان البلاد لحماية هذه المدينة. ويمر في السفح نهر(6) ينحدر من جبل الاطلس، ويصب في نهر أرشكَول. البلاد المحيطة صالحة جدا للقمح، وفيها مراع كبيرة يجوب فيها أعراب كثيرون. كان ملوك تلمسان يقيمون حرسا قويا بهذه المدينة نظراً لأهميتها، لكن الأعراب استحوذوا عليها عند مجيء الأتراك وتركوها مدة طويلة خالية من السكان، لا يستعملونها إلا لخزن حبوبهم عند ذهابهم إلى الصحراء، ثم حصنها الأتراك منذ ذلك العهد وأقاموا بها حامية.

الفصل الخامس
إيسْلِي(7)

حصن تحيط به الأسوار في سهل ويقع مثل السابق بين مفازة أنكّاد وإقليم تلمسان. يؤكد المؤرخون أنه من تأسيس الأفارقة القدامى، ليكون بمثابة حدود لهذه المملكة. كان آهلا جدا بالسكان في دولة بني عبد الواد الذين كانوا يقيمون

(4) هم أولاد طلحة، وأولاد حراش، وأولاد منصور.
(5) في الأصل : تنزيكرت، انظر كتاب الحسن الوزان، 2 : 11، الهامش 10 (مترجم).
(6) هو تافنة.
(7) في الأصل : ريزل أو إيزلي، انظر عن هذا الموقع كتاب الحسن الوزان، 2 : 12، الهامش 11 (مترجم).

به حامية قوية ضد أعراب الصحراء، لكن الأمير المريني يوسف خربه، وبقي خاليا مدة طويلة إلى أن جاء بعض النساك وسكنوا فيه. ذلك لأن ملوك تلمسان والأعراب أنفسهم يعاملون هذه المدينة معاملة حسنة، ولا يلزمونها بأداء أي شيء اعتباراً لهؤلاء السكان الجدد، لكن المعيشة فيها لا تخلو من أن تكون ضَنْكاً بسبب مَحْلِ المنطقة: فالديار فيها ليست مبنية إلا بالطين، ومغطاة بالتبن أو بعروش الأشجار. تنبع بالقرب من المدينة عين جارية تروي الأراضي المجاورة، ولولا ذلك ما أنتجت أي ثمر لشدة الحرارة. يقول بعضهم إن هذه المدينة من تأسيس الرومان. ويظهر ذلك من أسوارها المبنية بالحجر المنحوت، وهي شاهقة وأحسن صنعا من أسوار أهل البلاد. كانت تدعى قديما جيفا، ويجعلها بطليموس في الدرجة الرابعة عشرة وثلاثين دقيقة طولا، والدرجة الثانية والثلاثين وثلاثين دقيقة عرضا.

الفصل السادس

وجـدة

مدينة قديمة أسسها أهل البلاد في سهل جميل على بعد أربعة عشر فرسخا من البحر في اتجاه الجنوب، وعلى نفس البعد من تلمسان. تحادي في هذين الجانبين غربا مفازة أنكاد، وتكثر في الاقليم الحبوب والمراعي. والمدينة كلها محاطة بالبساتين والحدائق التي تسقى بجداول تتكون من عين كبيرة في أسفل المدينة، تخترقها ثم تسيل نحو البساتين، ومنها إلى نهر ملوية لتصب فيه. تحيط بوجدة أسوار عالية مشيدة على طراز أهل البلاد. أما المساجد والمنازل فمبنية بالطوب الموثق بالجير، ويروي مؤرخوهم أنها كانت في القديم مدينة مكونة من خمسة آلاف نسمة، وخربها أحد ملوك فاس[8] من بني مرين أثناء حربه ضد ملك تلمسان، لأنهاامتنعت عليه، ثم أعيد تعميرها بعد ذلك[9]. ولما احتل عروج مدينة تلمسان أرسل الاسكندر إلى وجدة لأنها امتنعت من الاعتراف به. وعندما بلغ إلى المدينة خبر مجيئه كسروا قنطرة كانت فوق النهر[10] ، معتقدين أن ذلك كان كافيا لحمايتهم. لكنه أمر بقطع عدد من أشجار الزيتون، وهي كثيرة في هذه الجهات، واتخذ منها قنطرة بعد أنْ ضمَّ بعضها إلى بعض، ثم عبرها هو وجنوده واحتل المدينة

(8) يوسف.
(9) سنة 1515.
(10) ملويــة

وساق منها عدة أسرى إلى تلمسان. وقد عَمَّرها بعد ذلك زهاء ألفين وخمسمائة من البربر، وما بقي منها ظل كله ساحات أو منتزهات. ويُقض مضاجعَ سكان وجدة الأتراكُ وأعراب الصحراء أحيانا. وفيهاأجمل البغلات في افريقيا كلها، ومنها تساق إلى تلمسان وغيرها قصد بيعها. زي السكان كزي البربر، لكنهم أنظف من الجبليين، ولهجتهم لهجة البلاد، لكنهم يسرعون في كلامهم حتى لا يكاد يفهمهم غيرهم. يجعل بطليموس هذه المدينة في الدرجة الثانية عشرة طولاً، والثالثة والثلاثين عرضا، ويسميها لانكَار.

الفصل السابع
نَدْرومَة

مدينة قديمة أسسها الرومان في سهل فسيح على بعد فرسخين ونصف فرسخ من جبل الأطلس، وأربعة فراسخ من البحر. موقعها شبيه بموقع رومة، ومنها اتخذت اسمها(11). يقول بطليموس الجديد إنها سليمة القديمة، ويجعلها في الدرجة الثانية عشرة وعشر دقائق طولاً، والثالثة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا. وما زالت أسوار ندرومة قائمة، وهي مبنية بالطوب الغليظ الموثق بالجير، على نمط الرومان، وقد خربت الدور أثناء الحروب التي دارت بين ملوك تلمسان وملوك تونس وفاس، وما بقي منها الآن مبني على الشكل المحلي. وما زالت تشاهد خارج الاسوار آثار مبان واسعة للرومان، فيها لوحات كبيرة، وأعمدة من المرمر مع أضرحة من الحجر نقشت عليها كتابات لاتينية. وفي الجبال المجاورة أشجار تدعى الخروب، ثمارها حلوة لدرجة أن السكان يصنعون منها عسلا يأكلونه طوال السنة مع اللحوم. ومن المؤلم أن تشاهد مدينة بهذا القدر من الجمال واقعة في أجمل مكان بأفريقيا، وفي بلد في غاية الروعة، وهي في حالة من التخريب بحيث يخيل لمن دخل إليها أنها فناء للدواجن، لشدة رداءة مساكنها. يحصد السكان كمية من القمح والشعير، ويملكون عدداً كبيراً من القطعان، ويصنعون أجمل ما في بلاد البربر كلها من أقمشة القطن. جلهم تجار، يتجرون في الجزائر وتلمسان، ويقدمون بعض الهدايا الى الملك من أجل حرية هذه التجارة، وان كانوا يستطيعون أن يتخلوا عنها، لأنهم

(11) انظر كتاب الحسن الوزان، 2 :14، الهامش 14 (مترجم)
(12) بناتها هم الأفارقة عند الحسن الوزان (2 : 14).

يصادقون زناتة الجبل الذين هم أشجع الناس جميعا في أفريقيا، ويكونون خمسة وعشرين ألف محارب مجهزين أحسن تجهيز، ويملك جلهم بنادق قديمة.

الفصل الثامن
تَبَخْرِيت

مدينة أسسها الرومان، وكأنها قلعة عند قدم صخور كبيرة وعرة، تفضي إلى مدينة هنين على شاطىء البحر. سكانها فقراء، لا يقتاتون إلا الشعير والدخن، ولهم بعض الكتان يصنعون منه قماشا غليظا. يقطن هذه الجبال برابرة كانوا يعيشون في خوف دائم عندما احتل الاسبانيون هنين، لكنهم أصبحوا أكثر راحة منذ أن غادروها. في أسوار المدينة ثلم كبيرة في شتى المواضع، لذلك لا يرغب الناس كثيرا في الاقامة بها.

الفصل التاسع
هُنين(13)

مدينة واقعة على الشاطىء في مستوى المرية، شرقي المدينة السابقة. أسسها الأفارقة القدامى، وكان لها أسوار متينة، وميناء صغير محصن من كلا الجانبين ببرجين قويين. كانت المساجد فيها حسنة البناء، والدور آهلة بالتجار والصناع، إذ كانت سفن البندقية تنحدر إليها كل سنة عند ذهابها إلى تلمسان، خاصة منذ أن احتل الكردينال خيمينيس وهران والمرسى الكبير، فكان تجار تلمسان يذهبون اليها ليتعاملوا مع تجار البندقية، فكانت لذلك آهلة بالسكان. تصنع فيها أقمشة جميلة وأنسجة أخرى من القطن. وفضلا عن ذلك هنالك بقع مختلفة من شجر الزيتون، وحدائق وأراض صالحة للحرث، سواء حوالي المدينة أو على طول نهر بجانبها. وبالرغم على أنها بدأت تخلو من السكان عند احتلال وهران، فإن ملك تلمسان أرسل إليها حامية لتأمين التجارة، وكانت تصبح في حالة حسنة جدا لولا أن طمع السكان تسبب في تلفها، لأنهم لم يكتفوا بتجارتهم، بل آووا القراصنة وخرجوا معهم لشن الغارات على شواطىء إسبانيا، فاضطر شارل الخامس إلى أن يبعث إليها دُم الفاري بسّان، قائد أسطوله، الذي أخذها وأقام بها حامية بعد أن

(13) في الأصل : هون. وعلق عليها في الهامش بان، الأفارقة يدعونها دائرة هنين (مترجم).

نهبها[14]، لكن الأمبراطور أمر بتدميرها لتلافي النفقات، وذهب إليها قائد الأسطول نفسه لتحطيم الأسوار والبروج وحرق الديار وتخريبها، فلم يُعد ترميمها منذئذ. يحرث الأرض بربر من جبل مجاور[15]، ما زالت توجد فيه معادن كثيرة للحديد والفولاذ. يسمي بطليموس رأس هذا الجبل «الرأس الكبير»، ويجعله في الدرجة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة طولا، والخامسة والثلاثين عرضا : ويسمى الآن «رأس هنين».

الفصل العاشر
أرشكول[16]

مدينة قديمة تشاهد اليوم آثارها على الشاطىء، شرقي المدينة التي تحدثنا عنها آنفا. يجعلها بطليموس في الدرجة الثانية عشرة طولا والرابعة والثلاثين وأربعين دقيقة عرضا، ويسميها سيكًا كولونيا. وهنا نهر يحمل نفس الاسم ويصب قريبا منها، يسمى الآن تفتين أو نهر أرشكُول. هذه المدينة عريقة في القدم بحيث لا يعرف مؤسسها، لكننا نعلم أنها كانت عاصمة الاقليم ومملكة تلمسان كلها، ومن الأكيد أنها سيرتة القديمة ذات الشهرة الكبيرة في التاريخ الروماني، لاسيما أنها تكاد تكون في مستوى قرطاجنة التي انطلق منها سيبيون ليصل إليها في ظرف ليلة واحدة، حسب قول تيت ليف.

كانت أرشكَول مشيدة فوق صخرة عالية يُحيط بها البحر من كل جانب، وليس لها سوى ممر صغير من جهة اليابسة في مسلك يدور حول الصخرة. وكانت هناك في القديم تجارة كبيرة، وخاصة في دولة المولى ادريس وأعقابه الذين سادوا مدة تنيف على مائة سنة : لكنها خُربت وجُعل عاليها سافلها مع عدة مندن أخرى من طرف خليفة القيروان الشيعي، لأجل الحقد الذي كان يكنه لهذه الأسرة، كما مُزق السكان شر ممزق. وهكذا فإنها بقيت مأوى للوحوش أكثر من مائة وعشرين سنة، إلى أن عبر المنصور (بن أبي عامر) الشجاع إلى افريقيا : فبعد أن فتح هذه الامارة أعاد المدينة إلى حالها وأقام بها حامية، لوقوعها في مكان ملائم لمرور الجيوش، وظل يرعاها إلى أن قتل في معركة قلعة النسور سنة تسعمائة وخمس وتسعين. ولما أخذت شوكة بني عبد الرحمن (الأمويين) تضعف باستمرار منذ ذلك العهد، بدأ

(14) سنة 1533.
(15) ترارة.
(16) في الأصل : أرسكول، بالسين المهملة (مترجم).

المرابطون يرتقون في افريقيا ثم في اسبانيا، وبعد ان استولى أحد ملوكهم[17] على هذه المدينة عنوة بعد حصار طويل، قبض على جميع من كان فيها من المحاربين، وهدم جوانب من السور. ثم إن الموحدبن أعادوها إلى حالتها الأولى، فجاء المرينيون وخربوها كما هي عليه الآن. وقد التجأ السكان إلى تلمسان التي نمت بأنقاضها، إذ لم يكن فيها قبل ذلك إلا شيء قليل.

الفصل الحادي عشر
تلمسان عاصمة الاقليم

إن هذه المدينة التي يسميها القدامى تيميسي، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثالثة عشرة وخمسين دقيقة طولا، والثالثة والثلاثين وعشر دقائق عرضا، كبيرة جدا، وتسمى تلمسان[18] بلغة البلاد. تقع على بعد سبعة فراسخ من البحر المتوسط في جهة الجنوب. ويرجع تأسيسها إلى مغراوة من قبيلة زناتة، لكنها لم تكن إذ ذاك إلا مدينة صغيرة بمثابة قلعة ضد أفارقة الصحاري، ثم اتسعت بعد ذلك بأنقاض أرشكول، وأخذت تشتهر باستمرار بسبب إقامة ملوك تلمسان فيها واتخاذها عاصمة لهم، نظرا لموقعها الحسن في سهل جميل. وقد نظمت ساحاتها وأزقتها على نسق جميل جدا، ودكاكين صناعها وتجارها مرتبة على غرار ما هو بفاس، لكن الدور ليست مبنية بنفس القدر من الجودة ولا النفقات. ويوجد عبر المدينة كلها عدد كثير من المساجد الفخمة ذات الموارد الكبيرة، وهي مجهزة بجميع ما يلزم، علاوة على خمس مدارس رئيسية مزخرفة من إنشاء بعض ملوك زناتة، ولها دخل للانفاق على عدد من الطلبة الذين يقيمون بها، ويدرسون على أساتيذ جميع العلوم الطبيعية والأشياء المتعلقة بدينهم. كما توجد بالمدينة عدة حمامات، لكنها غير مجهزة بوسائل الراحة مثلما هي عليه حمامات فاس، ولا بنفس القدر من الماء.أضف إلى هذا فنادق عديدة على طراز البلاد، يقيم في أهمها التجار الحاصلون على جواز الاتجار. إن الحي الأكثر سكانا هو الذي يقيم فيه اليهود الذين كانوا في القديم أغنياء مترفين، لكنهم نهبوا مرة من طرف بربروس، ومرة أخرى من طرف الكونت دالكاوديت. فبقوا فقراء، وان كان الاتراك والأهالي يعاملونهم

(17) يوسف اللمتوني.

(18) يسميها مارمول دائما برطانتة . ترمسان (مترجم)

أحسن مما يعامل الشريف يهود فاس، ويَسمحون لهم بالاشتغال بأشياء أكثر مما يسمح لهم به في فاس.

المدينة مزدانة بعدة سقايات تستمد ماءها من عين واحدة[19] مجلوب من نوميديا عبر قنوات تحت الأرض على مسافة تنيف على ثلاثين فرسخا. وقد أعطى ملوك تلمسان دائما الأمر بعدم الكشف عن هذه القنوات خوفا من تحويلها إذا ما حوصرت المدينة. لكنه حدث في زمن غير بعيد أن أعرابيا كان مضطجعا في إحدى الطاحونات[20] الموجودة وراء جبل قرب المدينة في ناحية الجنوب، وقال للطحان وهو يشرب الماء، إنه يعرف جيدا من أين يأتي وإنه يميزه بطعمه. ولما علم الملك بهذا الخبر، أمر بقذف جرة زيت في العين، وشوهدت وهي تخرج من الطاحونات في المكان الذي كان يظن أنه العين، الأمر الذي أكد مقالة الأعرابي.

أسوار المدينة جميلة شاهقة محصنة تحصينا جيدا ببروج، لها خمسة أبواب رئيسية، في كل واحد منها مراكز حراسة ودور لمزارعي المداخل. ويوجد خارج المدينة في ناحية الجنوب قصر الملك، وهو مشيد على شكل حصن يشتمل على مختلف الأقسام الرئيسية للمنزل بحدائقها وسقاياتها، ولهذا القصر بابان: أحدهما[21] للخروج إلى البادية، والآخر[22] للدخول إلى المدينة، حيث يقيم قائد الحرس الملكي على الدوام. وتحيط بالمدينة بساتين جميلة ومنتزهات يتوجه إليها، أيام السلم، الموسرون من السكان ليقيموا فيها صيفا، لأنها فضلا عن كونها أماكن شيقة تضمّ عيونا جارية بمياه باردة. أضف إلى هذا مناطق كبيرة من الحدائق وأشجار الزيتون، تستخرج منها كميات من الزيت، والجوز وجميع أنواع الفواكه مثلما هو الحال بأوربا، وكروم كبيرة تحمل عنبا حلوا لذيذ الطعم جدا، يجفف في الشمس ويحفظ السنة كلها. وتوجد على بعد فرسخ من المدينة عدة طاحونات للحبوب على ضفة النهر[23] وفي مكان أبعد الطاحونات[24] التي ذكرناها آنفا.

تساس هذه المدينة مثلما تساس مدينة فاس، فهناك قضاة، وشرطة، وعدول، ومحامون ووكلاء بالنسبة للقضايا المدنية والجنائية التي يقضى فيها حسب

(19) تسمى فوارة.
(20) يسمى المكان الموجودة فيه هذه الطاحونات «قلعة».
(21) يسمى باب الجياد.
(22) يسمى باب العدير.
(23) نهر صفصف.
(24) وهي طاحونات القلعة.

قانون فاس، كما أن هناك عدة أساتذة في مختلف المدارس، يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجّرون من أوقاف هذه المؤسسات.

السكان منقسمون إلى ثلاث طوائف : طائفة التجار، وطائفة الصناع، وطائفة النبلاء التي تضم الصناع(24م) والمحاربين : الأولون أناس طيبون، أوفياء في تجاراتهم، معتزون بالنظام والحضارة وحسن التدبير، مهذّبون مع الأجانب. وأهم تجارتهم في غينيا، حيث يحملون بضائعهم كل سنة، وياتون منها بالتبر، والعنبر، والمسك، وسنور الزباد، ورقيق السود، وأشياء أخرى من بضائع البلد. ويتجرون بالتبادل محققين كثيرا من الربح حتى لتكفي رحلتان أو ثلاث ليستغنى التاجر، الأمر الذي يحملهم على أن يخترقوا رمال ليبيا متعرضين لأخطار عدة. والصناع أناس بسطاء لطفاء، يعتزون بأنهم يعملون بأدب ويصنعون أشياء متقنة. يعملون هناك أقمصة، وزرابي فاخرة، ومعاطف صغيرة وكبيرة رفيعة جدا حتى إنه يوجد منها ما لا يزن حتى عشر أواقٍ، فضلا عن طقوم فاخرة للخيل مع ركابات جميلة، ولُجُم، ومهاميز، وأجود ما يصنع من رؤوس اللجم في افريقيا. يعيش العمال عيشة راضية من كسبهم قوتا وتسلية.

اما النبلاء والمحاربون فيعتزون كثيرا بما لهم من وجاهة وشجاعة لأنهم هم الذين يرافقون الملك : لذلك فإن لهم عدة امتيازات واعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راضية. يقسم الملك بين العمال وأهم القواد جميع رعاياه ومدنه كولايات، ويوليهم المهام الرئيسية في قصره وبلاطه. ذلك هو النظام الذي كان يتبعه ملوك تلمسان، والذي لا يعمل به الأتراك الآن، لأن الحاكم الذي يرسله عامل الجزائر إلى منطقة ليس له جهاز ملكي، وبما أنه عديم الثقة بالسكان، فكل حرسه من الترك والاسلاميين بحيث إنهم مستبعدون أكثر مما كانوا عليه سابقا.

لباس التلمسانيين أكثر أناقة مما هو عليه الحال بفاس، وهو من نسيج الصوف والكتان والحرير، إنهم محترمون أكثر وحديثهم أمتع. النساء جميلات وزيهن كزي نساء مراكش. ومنذ قليل أخذ العسكريون والصناع يرتدون لباسا على نمط الأتراك افتخارا، لكن العرب ينفرون منه. تنظم الأعياد، والأعراس، والفرش والولائم على نحو

(24م) هكذا بالأصل. ولعل كلمة الصناع أقحمت أو حلّت — خطأ — محل كلمة النبلاء. كما يفهم من السياق التالي (مترجم).

ما يوجد بفاس، ولو أنها بتلمسان أقل بهجة وأناقة مما هي عليه بفاس. كان ملوك تلمسان فيما مضى يعيشون بأبهة كبيرة، وكانوا أقدم وأعظم الأمراء بافريقيا، لا يظهرون إلا يوم الجمعة للتوجه إلى الجامع، ولا يستقبلون سوى أعضاء مجلسهم وضباط بلاطهم الذين تمر جميع القضايا بأيديهم. وكانت أهم وظائف الدولة هي وظيفة المزوار، الذي كان كنائب ملك أو قائد عام يُجنِّد الجنود ويؤدي لهم الأجور، ويعفيهم عند الاقتضاء، ويمنح وظائف بلاط الملك، وكان يعتبر كأنه الأمير نفسه. وكان الشخص الثاني هو المستشار، أو كاتب الدولة المؤمن على الخاتم الذي يصرف الشؤون مع الملك. والثالث هو الخازن العام، أو ناظر المالية المكلف بجميع الموارد وبيت المال. وبتوكيل موقع من جلالة الملك كان الخازن يمد أمين الصندوق أو الأمين العام الذي هو رابع كبار رجال الدولة بكل ما يلزم للنفقة، سواء العادية أو الاستثنائية. وكان خامس الضباط هو عامل القصر الملكي، المكلف بحراسة الملك، ثم كبير حملة السلاح والمكلفين بالخدم المسلحين، والابل والأخبية، وما شابهها من الأعمال التي يلزم القيام بها بصفة شخصية. كان تحت أوامر هؤلاء القوم ضباط وما يتبعهم من كتائب الفرسان فكانوا يتصرفون بأبهة، ويعتزون بما يملكون من طقوم فاخرة لخيولهم. وعندما كان ملك تلمسان يمتطي صهوة جواده، لم يكن احتفاله لذلك بقدر احتفال ملوك فاس، إذ لم يكن لديه سوى ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس لحرسه العادي. وإذا كان ركوبه للقيام بعملية عسكرية، دعا رؤساء الأعراب والجماعات البربرية، وبعض المرافقين من السكان، ولا ينفق على الجنود إلا ما دامت الحرب. لذلك فإنه لا يصحب معه كثيرا من العربات والأخبية عندما يسير عبر البادية، لأنه يعتبر نفسه كمجرد قائد، فهؤلاء الأمراء كانوا فقراء، لا تكفي موارد ثلاث سنوات لسنة واحدة من الحرب، ولهذا كانوا يسكون عملة من الذهب الردىء، لا تزن سوى ريال وربع[25]. وحتى إذا راجت بين هؤلاء السكان، لم تكن تزن سوى تسع ريالات ونصف ذهبا (كذا). كما أنهم كانوا يزيفون العملة الفضية، ويخلطونها بالنحاس. وكانوا أيضا يقبضون مكوسا كبيرة من التجار، وإتاوات ضخمة من السكان، وهو محرم في دينهم. ذلك لأن الخلفاء الأولين لم يقتطعوا لرعاياهم سوى اثنين ونصف في المائة من جميع البضائع، أو المال الناتج عنها، وعشرة في المائة إن كانوا يهودا أو نصارى. لكن ذلك لم يعد معمولا به، إذ يزعم الأمراء أنهم فقراء، وأنهم في حاجة إلى المساعدة

(25) في الأصل : خمسة أرباع الريال.

للمحافظة على الجهاد ضد المسيحيين، الأمر الذي يسمح لهم بجباية الضرائب وواجبات الجمرك في الدخول والخروج، إلى غير ذلك من التكاليف المالية. كان لهم مركز جمرك بوهران تستخلص فيه هذه الواجبات، لأن سفن البندقية كانت ترسو فيها كل سنة قصد الاتجار، ولم يكن إيراد الأمير آنذاك سوى ستمائة ألف ريال، يخصص نصفه لنفقة الجنود، والنصف الآخر لنفقة قصره، ويُدَّخر الباقي لضروريات الحرب. وقد تكاثر الايراد جدا منذ ذلك العهد، لأنه بالرغم على فقدان جمرك وهران، فإن جمرك الجزائر قد تضاعف حتى إنه لَيَفُوقُ إيراد الدولة بكاملها. ولا تملك افريقيا ولا أوربا أبوابا غنية كبابي الجزائر، باب البحر وباب البر، لأن الميناء يكون عادة غاصا بالسفن المسيحية التي يسوقها القراصنة محملة بالناس والبضائع. وتدخل من باب البر باستمرار أعداد كثيرة من الجمال المحملة بكل ما هو نفيس في بلاد البربر، ونوميديا، وليبيا وبلاد السوس، وإيراد هذا الباب وحده يساوي ما يزيد على مليون (مثقال) من الذهب في السنة.

يقول أحد المؤلفين إن مدينة تلمسان أصبحت، في عهد أبي تاشفين، من العظمة بمكان، حتى إنها كانت تضم ستة عشر ألف دار مسكونة وتقام فيها أغنى تجارة بافريقيا. وحاصرها إذاك ثاني ملوك بني مرين(26) الذي شيد في معسكره مدينة لأمنه وسكناه، لأن الحصار دام سبع سنوات، وضيّق الخناق عليها، حتى إن السكان كانوا يقتاتون بجذور الأشجار وأوراقها. ونظرا لهذه الحالة ناشدوا أميرهم(27) أن يستسلم في مقابل شروط مشرفة. لكنه عزم على شن المعركة، مؤثرا الموت على أن يضع نفسه بين أيدي أعدائه. وفي الليلة التي كان يستعد فيها للقتال، قتل الأمير(28) المحاصِر له في مضجعه من طرف مغربي(29). وإثر ذلك تفرق جميع رجاله، فخرج إليهم المحاصَرون وقتلوا منهم عددا كبيرا، ونهبوا معسكرهم. واستمر أعقاب الأمير المقتول في محاربة ملوك تلمسان من أجل الاستيلاء على هذه الامارة. فحاصر رابع ملوكهم(30) هذه المدينة مدة سنتين

(26) هو يوسف.
(27) أبا تاشفين.
(28) يوسف.
(29) الفتريان
كذا في هامش الأصل الفرنسي، ولعله تحريف لكلمة «الفتيان» لأن الذين تولوا قتل الملك كانوا فتيانه وخصيانه. (مترجم).
(30) أبو الحسن.

ونصف. وشيد مثل الآخر مدينة على بعد نصف فرسخ من هناك في جهة الغرب، اتخذها مأمنا له يقيم فيها. وفي الأخير استولى على المدينة عنوة، فقتل جميع من كان فيها من المحاربين وقطع رأس الملك ورمى بجثته في مزبلة. ولما استولى بنو مرين على هذه الامارة، أو على أكبر قسم منها، كانت لهم حرب دائمة مع أمراء هذه الدولة الذين التجأوا إلى نوميديا ثم عادوا منها عند انحطاط الأمبراطورية المرينية. ومنذ رجوعهم الى الحكم، زادوا في إثراء عاصمتهم بتجارات جديدة، بحيث إنها كادت تسترجع ازدهارها الأول، لولا أنها تضررت من حرب مستمرة أهلية أو خارجية.

تحقيقات مختلفة عن مملكة تلمسان وأصل ملوكها

تملَّك هذه الامارة، بعد الرومان، أمراء أجانب مختلفون، فكانت فيما قبلُ بيد بني عبد الواد، وهم فرع من زناتة الآتين من مغراوة، الذين سادوا افريقيا كلها. فطردهم الرومان واسترجعوا الأمبراطورية منذ ذلك العهد بمساعدة القوط الذين كانوا يؤدون لهم بعض الخراج، إلى أن فتح المسلمون افريقيا، لأن جميع أقاليمها على إثر فتح اسبانيا أصبحت خاضعة لخلفاء الجزيرة العربية[31] ثم بدأ الأفارقة المغاوير الذين التجأوا إلى صحاري ليبيا يقتربون عندما ضعفت قوة العرب بسبب اختلافهم، لأن بني عبد الواد الذين كانوا يتحينون الفرصة رجعوا إلى مملكة تلمسان ، فاقتُبلوا فيها برضى، وحكموها أكثر من ثلاثمائة سنة إلى أن أخضعهم المرابطون والموحدون الذين كانوا يطردونهم تارة، ويكتفون بأن يؤدوا لهم الخراج تارة أخرى، إلى أن ثار يغمراسين بن زيان عند انحلال امبراطورية الموحدين، فأورث المملكةَ أعقابَه باسم بني زيان، واتخذ هذا اللقب جميع خلفائه من بعده تاركين نسبة بني عبد الواد. وبعد ذلك دارت حروب طاحنة بين هؤلاء الملوك وملوك فاس الذين استولوا على هذه الامارة، وأسروا عددا من ملوكها وطردوا آخرين أو زجوا بهم في السجن. بل حتى ملوك تونس خلعوا بعض ملوك بني زيان. لكن هذه الدولة الزيانية، رغم كل ذلك، استعادت دائما سلطتها وحكمت أزيد من مائة وعشرين سنة دون أن يكدر الأجانب صفوها ما عدا أحد ملوك تونس[31م] وابنه[32] اللذين

(31) بل فتح العرب افريقيا قبل الأندلس بثلاثين سنة كما هو معروف (مترجم).
(31م) هو أبو فارس.
(32) عثمان.

ألزماهم بأداء الخراج، وأخيرا بربروس الذي استولى على تلمسان، حيث كانوا يحكمون خلفا عن سلف منذ مائة وثمانين سنة، ولو أنهم لم يكونا أقوياء كذي قبل. حقا إن بعض ملوك تلمسان حاربوا المسيحيين، عند انحطاط الدولة المرينية، ووسّعوا نفوذهم عدة مرات. ولما احتل الكاردينال خيمينيس وهران، خضع أحد(33) أمراء هذا البيت إلى ملك اسبانيا، لينجده ضد ابن أخيه(34)، فقبضه وسجنه إلى أن أفرج عنه بربروس. وسنتحدث الآن عن هذا الغاصب، والأشياء التي حدثت منذئذ، قبل أن نتعرض للوصف الخاص بهذه الامارة.

بربروس، وكيف استولى على الجزائر

كان عرّوج الملقب بربروس بسبب لحيته الشقراء صقليا، ولو أن بعضهم يزعم أنه ينتمي إلى جزيرة ليسبوص. كان أبوه مسيحيا أصلا ثم اعتنق الاسلام واشتغل بالقرصنة في بحار الشرق مدة طويلة، وكانت أمه على ما يقال إسبانية من مدينة مارشينة بالأندلس، اختطفها هذا القرصان في البحر. كان لبربروس أخ يدعى خير الدين، فخلفه واتخذ اسمه وتاجه، وانتشرت سمعته منذ ذلك العهد في الأرض. وأخيرا فإن الأخوين معا كانا شجاعين بطلين، أديا خدمات لبايزيد في حروبه ضد سليم. ثم إنهما أرسلا في دولة سليمان من طرف الأسكندر، وهو إسلامي كورسيكي، ليؤديا رواتب حامية قورون ومودون، فجهزا بذلك المال سفينة شراعية وفرقاطة، وقاما بالقرصنة في الأرخبيل ملحقين أضرارا جسيمة بالأتراك والمغاربة والمسيحيين. وفي هذه الأثناء استوليا على سفينة قرصان صقلي من ستة عشر جَنحا، فتركا الفرقاطة وجهزا هذه السفينة وجعلا يجتاحان بها وبالسفينة الشراعية شواطىء إيطاليا التي كانت آنذاك سالمة من القراصنة. وبعد أن غنما بعض السفن والفرقاطات، وحصلا على عدد كبير من العبيد، صادفا سفينتين عظيمتين للبابا، فاكتشفهما القائدان وتعقبهما أحد القائدين دون أن ينتظر الآخر. لكن بربروس عندما رأى سفينة واحدة رجع فورا لمهاجمتها بسفينتيه اللتين كانتا مجهزتين أحسن تجهيز، وبعد معركة طويلة اضطر إلى الاستسلام، ووضَعه الربان(35) في سفينته ليصفده بالحديد. لكن عندما جعله في الممر مع الآخرين، خاطب بربروس

(33) أبو حمُّ عبد الله
(34) هو أبو ريان.
(35) بول فيكتور.

أصحابه بلغته طالبا منهم أن يفعلوا مثله. فاستل خنجرا كان قد أخفاه وقتل الحارس ثم قفز فوق مؤخرة السفينة وأخذ أحد السيوف التي كانت في مستودع الأسلحة الواقع تحت سطح السفينة، وأعطى السيوف الأخرى لرفاقه، فأخذوا يقاتلون المسيحيين بشجاعة نادرة. وفي الحين أسرع إليهم الأتراك والمغاربة، وشاركوا في المعركة بما عثروا عليه من أسلحة، وبالعصي التي تدعم الاخبية، فقضوا على المسيحيين الباقين في السفينة في وقت وجيز، لأن غالبهم كانوا قد عبروا إلى سفنهم لينهبوها، فألقوا بعضهم في البحر، وقتلوا الآخرين، وأسروا الربان. ثم إنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل أصلحوا السفينة بنفس السرعة التي استولوا بها عليها، وفكوا الأسرى وسلموا اليهم أسلحة المسيحيين، وانتظروا السفينة الأخرى فهاجموها واستولوا عليها بسهولة لأنها لم تكن مستعدة للقتال ولم يخامرها أي شك. وبهاتين السفينتين أبحر الأخوان بربروس إلى تونس(36)، وهما يجرران الأسرى ويأسران الأحرار، وبعد أن باعا غنيمتهما، اقتسما ما حصلا عليه من مال. تلك هي بداية هذين القرصانين الشهيرين اللذين انضم إليهما عدد آخر من القراصنة عندما بلغتهم أصداؤهما. فعينوا بربروس قائدا لهم، واجتازوا إلى بحار الشمال، فألحقوا أضرارا جسيمة بالمسيحية. وفي أيام فرديناند الذي حكم قشتالة بعد موت إيزابيلا، كان بربروس على رأس ست وعشرين سفينة تركية أو مغربية، ياتي بها من موانىء بلاد البربر لاجتياح شواطىء اسبانيا. وأخيرا عندما شجعته انتصاراته، عزم على امتلاك ميناء يكون فيه آمنا، فوقع اختياره على بجاية التى كانت بأيدي المسيحيين، فهاجمها برا وبحرا(37)بجيش من أصدقائه الأعراب والبربر. لم يحالفه النجاح في هذه العملية، لأن الحامية الاسبانية دافعت عن نفسها ببسالة، وبعد شن غارات متعددة طارت ذراعه بطاقة مدفع، فاضطر إلى رفع الحصار والانسحاب، وحمل منذ ذلك العهد ذراعا ويدا من فضة إلى أن مات. وكان حاكم هذه المدينة إذاك إفيريقيا يدعى سالما، يملكها بمساعدة أعراب، ولا يعترف كثيرا بملك تلمسان ولو أن المدينة لم تكن محصنة. ولما علم في هذه الأثناء بأن بربروس أراد أن يقتله جزاء على الملجأ الذي وفّره له، هرب مع أعضاء فئته إلى بلاد متجّه ونزل عند بعض الأعراب من أصدقائه(38) كانوا أشداء أقوياء. فستر بربروس خطته، وكتب إليه أنه

(36) كان ملكها هو محمد في ذلك الوقت.

(37) في سنة 1514

(38) كانوا يسمون صقالبة

يستغرب من القرار الذي اتخذه، طالبا منه أن يرجع إلى غزو بحار المسيحيين، لأنه لا يعرف ماذا سيحدث له، ويكون مرتاحا إذا تركه آمنا في إمارته جزاءً على ما أسداه إليه من جميل. وأكد له أنه سينمي سلطته، وأنه لم يجيء من بحار الشمال، ليحارب المسلمين، بل المسيحيين، لرغبته في انتزاع بعض الأماكن منهم. وأرسل فقيها يحمل هذه الرسالة الى سالم، ليقنعه بأنه لن يخشى أي شيء مِن قِبله. فأعاده إلى الجزائر، وما أن وصلها حتى أمر بربروس بشنقه وتعليقه في باب المدينة(39) بقماش عماته. ثم احتل الحصن على الفور، واستولى على المدينة باسم الخليفة الكبير.(40).

حصار الجزائر من طرف ديگودي فيرا وانهزامه

يتخوف ملوك افريقيا كثيرا من الالتجاء إلى الأمراء المسيحيين ليمدوهم في حروبهم ضد المسلمين، لأنهم يصيرون بذلك مكروهين من رعاياهم ويتيحون الفرص للمشوشين في العمل على اغتيالهم، وإحداث إنقلابات. وقد اغتنم بربروس هذه الفرصة لينتزع مملكة تلمسان من أبي حمو الذي كان يقدم للملك الكاثوليكي(41)شبه اعتراف وخضوع في مقابل مساعدة جنود اسبانيا إياه ضد ابن أخيه(42)، فكان رعاياه يكرهونه لذلك ولاسيما الفقهاء الذين كانوا يتمنون أن يعتلي العرش ابن أخيه الذي زج به في السجن. واعتبارا لما كان يمتاز به بربروس من انتصارات على المسيحيين، فإنهم سُرُّوا لكونه أصبح مسيطراً على الجزائر دونأن يتطاول إلى أبعد منها، وتمنوا أن يروه بتلمسان ليطلق سراح الأمير الشاب. فاضطر أبو حمو من أجل هذا إلى أن يلتمس من الكاردينال خيمينيس(43) حاكم إسبانيا آنذاك، أن يجند أسطولا ضد بربروس، واعدا إياه بأنه حينما تهاجم الجزائر سيرسل جنوده برا لاحتلال البلاد المجاورة والحيلولة دون وصول الامداد أثناء الحصار. وبيَّن له أن حرمان بربروس من هذا الملجأ سوف يؤمن شواطىء اسبانيا ضد القراصنة، وأنه يفضل أن يتمكن المسيحيون الذين كانوا يحتلون وهران والمرسى الكبير وميناء بادس من هذه المنطقة بدلا من القراصنة الذين يريدون خلق التشويش في كل

(39) باب عزو.

(40) سنة 1515.

(41) فيردناند.

(42) أبو رياد.

(43) كارديال طليطلة.

مكان. فأرسل إليها الكاردينال، وهو يقدر مدى فائدة هذا الغزو بالنسبة للمسيحية، أسطولا يضم عشرة آلاف محارب، بقيادة دييكَو دي فيرا. لكن هذه الاستعدادات لم يمكن أن تتم بسرية حتى لا يطلع عليها بربروس. فتأهب لملاقاته جيدا وأدخل إلى مدينته أزيد من ثلاثين ألفا من الأعراب والبربر، سواء من الفرسان أو الراجلين. ولما أقبل دييكَودي فيرا، وأنزل نحو سبعة آلاف جندي، تصدى له بربروس من جهة، بينما هجم عليه الأعراب والبربر من الجهة الأخرى، فهزمه وقتل أو أسر معظم رجاله، وطارد الباقي إلى سفنهم. ولم تنته المصيبة عند هذا الحد، لأنهم ما أن ركبوا سفنهم حتى شتت الزوبعة الأسطول كله. وفقدت بعض السفن، بحيث إنهم بدلا من أن يحطوا من قدر بربروس، كما كان في نيتهم، رفعوه إلى أعلى من ذلك، كما سنرى فيما بعد.

احتلال بربروس لتلمسان

أكسب انهزام الجيش الاسباني بربروس شهرة كبيرة، فطمح إلى أكثر من ذلك وكتب إلى أهل تلمسان ــ الذين كان يعرف نواياهم ــ قائلا : انه يستغرب من كونهم مسلمين خاضعين لأمير(44) تابع للمسيحيين يستغلهم لبسط استبداده. ويعرض نفسه لارجاع الحرية لأميرهم الشرعي(45) وإعادة تنصيبه على العرش. لكنه كان ينوي أن يستولي على هذه الامارة تحت هذا الشعار. فأجابوه بأنه يمكنه التأكد من مساعدة السكان، وأن ليس عليه إلا أن يزحف للقيام بعملية بهذا القدر من المشروعية. فلما وصله هذ الجواب تأهب للحرب، وترك بعض الأتراك في الجزائر بقيادة أخيه، وتوجه إلى تلمسان(46) يساعده ذلك الكورسيكي(47) الذي ذكرناه آنفا وكان يتبعه دائما. وانضم إليه في طريقه عدد من الأعراب والبربر بقصد طرد العم وتمكين ابن أخيه من الملك. وعندما وصل أمام المدينة أغلق السكان الذين لم يكونوا مطلعين على المشروع الأبواب وحملوا السلاح، ولاسيما رجال الحاشية، وأتباع الملك(48). لكن الآخرين الذين استقدموه أسرعوا في الحين وأثاروا الشعب باسم الأمير الشاب(49) الذي يسعون في تخليصه،

(44) أبو حمو.
(45) أبو زيان.
(46) سنة 1516.
(47) الاسكندر.
(48) أبو حمو.
(49) أبو زيان.

وأدخلوا بربروس الى المدينة بعد أن طالبوه بأن يحلف بالقرآن أنه لن يضرّ ولن يسمح بأن يلحق أي ضرر بأهل المدينة، وأنه سيطلق سراح الأمير الشاب ويعيدإليه تاجه. وفي أثناء ذلك كان الملك قد فر من باب سري في قصره متجه إلى الجبل، وسار إلى نوميديا معه نساؤه وأطفاله وكل ما لديه من نفيس الأشياء، مصحوبا بمن أرادوا أن يتبعوه. وبعد أن تمكن بربروس من المدينة أفرج حينا عن الأمير الشاب الذي كان مسجونا في القلعة. وبعد بضعة أيام تظاهر بالذهاب إلى الأمير ليودعه ويعود إلى الجزائر، لكنه قبض عليه وعلقه في نفس اليوم مع أبنائه السبعة على أعمدة الرواق، حيث شنقوا بقماش عماماتهم. ولم يكتف بهذا، بل أعطى أوامره بإحضار كل من يمكن العثور عليه من هذه الأسرة، ورمى هو نفسه بهم في غدير حيث غرقوا، وهو مغتبط بحالتهم المفجعة. ثم تخلص من أهم أنصار الأمير الشاب الذين استقدموه مخافة أن يتآمروا ضده، وأعلن نفسه ملكا لتلمسان تحت سلطة الخليفة الكبير (العثماني). ثم ذهب يستولي على باقي المدن، وتفرغ لذلك بعض الوقت إلى أن طُرد من تلمسان، وقتله مارتين أركوط.

احتلال القلعة ومجيء جيش لمساعدة الأمير المخلوع

بعد ان استولى بربروس على تلمسان وارتكب فيها الأعمال الوحشية التي ذكرناها، أرسل صديقه الكورسيكي(50) مع خمسمائة من الأتراك بعدد من الأعراب والبربر الموالين له لقتال الآخرين الذين ثاروا عندما وصلهم خبر استبداده. وقد أحدث هذا الكورسيكي أضرارا كبيرة، لدرجة أن أهل تلمسان ندموا على إدخال قوم بهذا القدر من القساوة والوحشية إلى مدينتهم، وتحالف الذين استقدموهم مع غيرهم من السكان لطردهم، واستقدام الأمير المعزول(50م) لكن مؤامرتهم أكتشفت بالاضافة إلى ضعفهم، فقتل العديد من المتآمرين. وفي هذه الأثناء كان الأمير الذي أفلت من يد أعدائه قد التجأ مع بعض أنصاره إلى هران، فأشعر حاكمها دييكو دي قرطبة فورا شارل الخامس الذي لم يكن بعد امبراطورا، مبينا له أن هذا الأمير كان تابعا لأبيه(51)، وأنه يلتمس إمداده ضد الأتراك الذين غصبوه إمارته. فأمر شارل الخامس بأن يُمَدَّ بألفي رجل مع بعض

(50) الاسكندر.
(50م) أبو حمو.
(51) دم فرديناند.

الفرسان الذين كانوا بوهران، على أن يأخذوا رهائن من أبناء وإخوان قواد الأعراب الذين اتبعوه. ثم إن حاكم وهران عهد بقيادة جميع هؤلاء الجنود إلى مارتين أركوط، من مواليد قرطبة، وأمره بما كان عليه أن يقوم به. وانضم إليه عدد من الأعراب والأفارقة أنصار الأمير(51م) وأجمعوا على مهاجمة الحصن الذي التجأ إليه خمسمائة تركي بقيادة الكورسيكي(52) الآنف الذكر. وهو حصن هام، بين الجزائر وتلمسان، كان لا بد من الاستيلاء عليه للحيلولة دون إمداد الجزائر. وبالتالي فإنهم كانوا يعتبرون أن بربروس إذا خرج للنجدة أعطى الفرصة لأهل تلمسان ليثوروا في غيبته، وأنه إن لم يجيء فهم متيقنون من احتلال الحصن. وعندما وصل الجيش متقدما قام بحصار الحصن من كل الجهات، وبعد توزيع المعسكرات، حصنوا بالخنادق والحظائر الأماكن التي قد يخرج منها العدو لشن الغارات. فدافع الأتراك عن أنفسهم بشجاعة، مبعدين المغاربة والمسيحيين عن أسوارهم بطلقات البندقيات. وفي ذات ليلة، كان المعسكر قد أضنته سهرات مستمرة، فحملوا عند الفجر على ثلاثمائة إسباني كانوا يحرسون قرب عين، ففاجؤوهم وذبحوهم دون أن يفلت أحد منهم. وبعد ذلك بقليل شنوا غارة أخرى على نفس المعسكر، لكنهم وجدوا الجنود محترسين فدحروا بعد أن لحقت بهم خسارة وأصيب الكورسيكي في ساقه بطلقة من بندقية. وفي هذه الأثناء جاء معظم المغاربة الذين كانوا في خدمة بربروس إلى المعسكر يستسلمون، فاضطرت الحامية إلى تسليم الحصن شريطة أن تتمكن من الانسحاب حيث شاءت، لكنهم لم يوف لهم بالوعد لأنهم عندما كانوا خارجين عرف أحد أبناء قواد الأعراب الكورسيكي بترس كان قد نزعه لأبيه واغتصب نساءه، فانتزعه من يديه، وبمساعدة ثلاثين من إخوته الذين أسرعوا إليه مزقوا الأتراك كل ممزق، ولم ينج منهم سوى ستة عشر لثموا ركابات الملك والقائد الاسباني. ودخل المسيحيون فورا إلى المدينة، ونهبوها ثم سلموها للأمير(53) الذي أقام بها حامية، وعادوا إلى وهران ليزحفوا من ثم إلى تلمسان.

احتلال تلمسان وموت بربروس

وبعد العودة إلى وهران، أبحر القائد الاسباني مع نفس الجيش، ونزل في أرشكول التي جاء إليها معظم جنود الملك برا. فزحف في أحسن نظام نحو

(51م) أبو حمو.
(52) الاسكندر.
(53) أبو حمو.

تلمسان التي لا تبعد من هناك إلا بسبعة فراسخ، دون أن يعترضه أحد في الطريق، نظرا للكراهية التي يكنها الناس للأتراك. وحينما وصلوا إلى المدينة فتح السكان الأبواب لعاهلهم[54]، وتحصن بربروس في القصر، حيث حوصر. فدافع عن نفسه بشجاعة وقام بشن غارات ناجحة، حتى اضطر إلى التفكير في الانسحاب بسبب انعدام المؤن، والفرار مع الأتراك عبر ممر كان قد حفره تحت الأرض ــ أو من باب سري حسب قول بعضهم ــ حاملا معه كل ما استطاع من ذهب وفضة. لكنه اكتشف وتبعه المسيحيون، فكان ينثر لهم من وقت لآخر شيئا من الذهب والفضة ليوقفهم أثناء مسيره. كانت هذه الحيلة بدون جدوى، لأن القائد الاسباني[55] الذي اقتفى أثره بنفسه أدركه قرب ربوة حيث تمركز جيدا عند أنقاض معقل قديم، كانت المعركة دامية، وتطلبت هزيمة هذا الجبار الذي قُتل هو وجميع رجاله من القائد الاسباني ثمنا غاليا. ورجع من هناك إلى تلمسان حيث استقبل بهتافات كبيرة، لكونه خلص البلاد من هذا الوباء، وأرسل إلى عامل وهران رأس بربروس مع السترة التي كانت عليه من قطيفة حمراء مطرزة بالذهب، فأهداها هذا الحاكم إلى أحد أديرة قرطبة[56] حيث دفن، وصنعت منها غفارة ما زالت تسمى بربروس. ثم ان الأمير المسلم خرج من وهران ليتسلم التاج واقتبل في تلمسان بحفاوة. فجازى جميع الضباط والجنود بسخاء كبير، وعرض نفسه كتابع دائم لملك إسبانيا، يرسل إليه كل سنة اثني عشر ألف قطعة ذهبية (بستول)، واثني عشر فرسا وستة صقور إناث، فوفى بذلك إلى أن مات.

وعقب هذا الانتصار عاد مارتين داركوط إلى وهران، وأبحر على متن أسطول إسبانيا الذي وجد بالمرسى الكبير. ولما بلغ أتراك الجزائر نبأ هذا الموت، نصبوا خير الدين مكان أخيه. فاتخذ اسمه وهو الذي أحرز انتصارات عظيمة على المسيحيين المغاربة برا وبحرا، وأصبح منذئذ أمير البحر وملك تونس في دولة سليمان (القانوني). فحصن مدينة الجزائر، وانتزع صخرة بادس من يد المسيحيين، وبنى رصيفا كبيرا في البحر لحماية سفنه. واستولى بعد ذلك على عدة حصون، واستحوذ أخيرا على مملكة تلمسان. ولما تحطمت أساطيل اسبانيا، جعل من مدينة

(54) ابو حمو.
(55) مارتين اركوط.
(56) يسمى دير سان جيروم.

الجزائر مدينة غنية بغنائم المسيحيين، وشهيرة بعدد لا يحصى من أسرى النصارى الذين يحملون إليها كل يوم.

هزيمة أوكَودي مونكاضي قرب الجزائر

عندما وصل مارتين داركَوط إلى وهران، وجد بميناء المرسى الكبير دم أوكَودي مونكاضي وهو يبحر ضد هذه المدينة مع الأسطول الاسباني، لأن أبا حمو وعامل تلمسان كانا قد عزما على محاصرتها برا، ليخرجا هؤلاء القراصنة الذين كانوا يزعجون مملكة تلمسان من مخبئهم ويحدثون خللا كبيرا في شاطىء إسبانيا. كان مونكاضي على رأس عدد من الكتائب القوية، وقبل خروجه من الميناء قرر مع القواد أن يختطفوا الماشية في سهول سفين، وهي مجموعة سكنية كبيرة قرب وهران، توجد فيها عدة دواوير للأعراب والبربر. فتوجهوا نحو ازريو القديمة لمغالطة جواسيس المغاربة الذين كانوا على أبواب وهران، ثم عادوا فورا إلى هذه المساكن في منتصف الليل، لكنهم لم يستطيعوا الوصول قبل طلوع الشمس ، لأن دليلهم قادهم إلى مسيل ضيق عانوا الكثير للخروج منه. فحملوا على خمس وثلاثين قرية لأعراب كانوا في تلك الأكواخ. ففاجؤوهم، لأن فرسانهم كانوا قد ذهبوا بعيدا نحو ارزيو، واختطفوا خمسة عشر ألف رأس من الماشية الكبيرة والصغيرة التي كانت في الجبال المجاورة، ولم يأسروا سوى مائة وستين من هؤلاء البرابرة الذين قد لاذوا بالفرار، وعادوا إلى وهران بهذه الغنائم. وفي نفس الوقت، فإن الجنود الذين ركبوا السفن وصلوا بسبب الريح المواتية الي شاطىء الجزائر، حيث نزلوا غربي نهر مطافوس، ثم زحفوا في أحسن نظام توّاً إلى المدينة التي لم يكن فيها بربروس في مأمن تام، لأنه لم يكن معه من الأتراك إلا القليل، ولاحتراسه من المغاربة، خاصة إذا قدم عامل تَنَس برّا، كما كان الخبر شائعا. ولما رأى أن سكان الجزائر كانوا يخفون مالهم ومجوهراتهم، وبعضهم يُبعدون نساءهم وأولادهم، منع الناس من الخروج تحت طائلة الموت، آخذا على عاتقه أن يحميهم هو ورجاله. وفي هذه الأثناء وصل أنصاره من الأعراب والبربر فناوشوا المسيحيين بعض الوقت ووقعت خسائر محدودة في الطرفين. ولما رأى مونكاضي أن أي إمداد لم يصله من تلمسان ولا تونس، وأن عدد الأعداء يتزايد كل يوم، خشي أن تكون هناك خديعة وأطلع جميع رجاله إلى السفن ليلا. غير أنه بلغه يوم الغد خبر من عامل تنس، يفيده أن عددا كبيرا من الجنود آت لاغاثته. فأخره ذلك خمسة أيام أخرى، ولما انتهت

ورأى أن جنوده غير كافين لمهاجمة المدينة وحماية المعسكر، أمر بالتزود بالماء استعدادا للرحيل. لكن في العشي عندما أشرفت الشمس على الغروب، هبت ريح شرقية بقوة شديدة حتى إن جميع الفلك الصغيرة وبعض السفن الكبيرة تحطمت على الشاطىء، بينما انطلق الباقي في عرض البحر ونجا بمشقة كبيرة. وكان من جملة السفن التي غرقت سفينة كان على متنها قسم من جنود كتيبة نابلي وعدد من النبلاء والضباط، لأنها كانت ضخمة جدا ومحملة بكثير من المدفعية والذخائر الحربية والمؤن. فدافعوا عن أنفسهم بشجاعة ضد المغاربة، وكانوا سينجون كلهم لو انتظروا يومين، لأن السفن رجعت بعد الزوبعة لالتقاط بقايا الغرقى. لكن بربروس خرج قبل ذلك من المدينة، وأوفد إليهم مغربيا يحمل راية السلام، واعدا إياهم بأنه سيطلق سراحهم ويعطيهم سفنا تنقلهم إلى إسبانيا، شريطة أن يسلموا له الأسلحة والمدفعية. فقبلوا ولو أنه كانت لهم القوة الكافية للتصدي لهم بعض الوقت في السفينة. وبمجرد ما نزلوا إلى البر، همَّ الأعراب بالسطو عليهم، لكن بربروس أرسل مائتين من الأتراك لمرافقتهم، ولما مثلوا بين يديه، سأل الضباط عما إذا كان على النبلاء أن يفوا بوعدهم في الحرب، فقالوا : نعم، فقال : «إن مارتين داركوط وعد الأتراك الذين كانوا في القلعة أن يتركهم يذهبون إلى حال سبيلهم ثم قتلهم عن آخرهم، لذلك سأثار بكم منه، لكنني لن أقتلكم، مكتفيا بالاحتفاظ بكم كعبيد». وقد أكسب هذا الانتصار بربروس الخير والشهرة. حدث ذلك سنة ألف وخمسمائة وسبع عشرة، حين قُتل مارتين أركوط مع أخيه في حصار تلمسان.

المَدد الذي أرسل إلى ملك تلمسان

إن ملك تلمسان[57] الذي أعاده الاسبانيون إلى عرشه أدى طوال حياته ما وعد به ملك قشتالة من إتاوة. وبعد موته نقض أخوه عبد الله العهد رافضا أن يؤدي أي شيء، وذلك بضغط من بعض الفقهاء ومن بربروس الذي أمَّن له حماية الخليفة الأعظم (العثماني) فعاش هكذا وحكم بضع سنين، لكنه لما مات لم يخلفه ابنه البكر كما كان المعتاد، وإنما نصب بربروس مكانه الابن الأصغر[58] الذي كان إذ ذاك بالجزائر، حتى يفتح بذلك مجال التدخل في شؤون البلاد. فلجأ الابن الأكبر عبد الله الى الأمبراطور شارل الخامس ليسترجع ملكه، ملتزما بأن يكون تابعا له

(57) أبو حمو.
(58) أحمد بوريان.

بنفس شروط جده(59) فأمر شارل الخامس كونت دالكودتيبي حاكم وهران، أن يمده بستمائة جندي إسباني يصحبونه إلى تلمسان. وانطلق هذا الجند من وهران بقيادة ألفونس مارتينيس، مع أربعمائة فارس مغربي كانوا إلى جانب عبد الله، وأربع قطع من المدفعية، آملا أن ينضم إلى جنوده أثناء المسير أنصار آخرون، إلا أن الأخ الأصغر الذي كان يحكم بعث مزواره(60) الذي كان عاملا لبني عرَّاش، لمنع الأعراب والبربر من إمداد أخيه. فعمل ذلك جاهدا حتى لم يلتحق به إلا القليل. وعندما وصل الاسبانيون إلى نهر زيز، الذي يخترق بلاد سيرت ويقع على بعد ستة فراسخ من وهران، ورأوا أن الامداد المنتظر لم يات منه شيء اقترح بعضهم على مارتينيس ألا يصرف النظر عن توقع خديعة محتملة، لكنه أجاب بأن قومه لا يُوَلُّون الأدبار أبدا. فتابع سيره ووصل إلى نهر سنان، حيث تحصن لقضاء الليل. ويوم الغد وصل إلى تبده(61) والحامات التي تحمل اسم هذا النهر وتبعد عن تلمسان بخمسة فراسخ دون أن يلتحق به في الطريق ولو مغربي واحد، لأن المزوار كان يحول دون ذلك، وعندما علم بوصول الاسبانيين إلى هناك، أرسل الأعراب وأهل المدينة ليناوشوهم. فأقبل جمهور غفير من المغاربة، اضطر مارتينيس من أجله إلى أن يلتجيء إلى بعض الخرائب ليحتمي من الفرسان. ثم إن المغاربة الذين كانوا معه لم يرتاحوا لكونهم حُبسوا، فجعلوا يفرون شيئا فشيئا، وكان انهزامهم يكون لفائدة الاسبانيين لو أراد قائدهم أن يلتجؤوا الى تبدة التي كانت في ملك عبد الله، ريثما يصل المدد من وهران. ذلك لأنها مدينة محصنة بالأسوار، وفيها ما يكفي من الزاد إذا ما تأخر المدد بضعة أيام، لكنه لم يقبل أية نصيحة وركب رأسه، فأرسل يهوديا يطلب من المزوار أن يُخلي له الممر. ولما تحقق المغربي من ضعف مارتينيس جاء فورا إلى تبدة مع جميع الأعراب والبربر بدعوى التفاوض، وبينما كانوا يتفاوضون دخل المغاربة جماعة إلى تحصينات المسيحيين، فقبضوهم أو قتلوهم جميعا، ثم سحبوا المدفعية. وهلك هناك القبطان بالبووا مع جميع جنده الذين لم يرضوا بالاستسلام وحاربوا بشجاعة حتى الموت. وأخذ مارتينيس إلى تلمسان مع ثلاثة عشر أسيرا فقط. وأخيرا لم ينج من مجموع الاسبانيين سوى عشرين انسحبوا قبل مجيء المزوار، بقيادة بعض الأدلاء وعادوا إلى وهران.

(59) أبو حمو.
(60) المنصور.
(61) أو اشت.

احتلال تلمسان وإرجاع عبد الله على يد الكونت دالكوديتي

بعد هذه الهزيمة، ذهب عبد الله مرة ثانية عند الامبراطور راغبا في أن يُمده بقوات أكثر عددا ليرجع إلى تلمسان. فحصل على مراده بواسطة الكونت دالكوديتي، الذي أمره الامبراطور بأن يقوم شخصيا بهذه العملية وأن يسلم المدينة بعد احتلالها إلى عبد الله الذي أصبح من أتباعه. وبعد أن جمع كمية من الذخيرة والمؤن وسائر الأشياء الضرورية، وحشر عددا كبيرا من مشاة الأندلس وفرسانها، انطلق من وهران(62) في تسعة آلاف راجل وأربعمائة فارس، مصحوبا بأبنائه الثلاثة(63) وتوجه إلى تلمسان. حشد أحمد بوزيان من جهته أنصاره من الأعراب والبربر، وأرسلهم مع جنود المدينة ليشنوا الغارة ضد الكونت بقيادة صهره المزوار، الذي عسكر لهذا الغرض على بعد فرسخين من هناك. ولما كان الكونت على مرأى من الأعداء كوّن مجموعتين من مشاته تضم كل واحدة منهما أربعة آلاف رجل، إحداهما في الأمام، والأخرى في الخلف، والأمتعة في الوسط. وأضاف الفرسان إلى أحد الجناحين مع بعض المتطوعين، وبجانب الكتائب فرقتان من الفرسان الملكيين رماة البنادق، تضم كل واحدة خمسمائة رجل، على مسافة قريبة من الكتائب. وانتظر الكونت الأعداء في هذا النظام وأعطى أوامره لجميع الجنود ألا يبرحوا صفوفهم تحت طائلة القتل. فأقبل المزوار مع جميع رجاله مجتمعين على عادة المغاربة، ولما دنا من العدو، هجم على الكونت من جميع الجهات بقصد تشتيت جنوده، لكنهم صمدوا للصدمة بشجاعة، وأبعدوا الأعداء، بطلقات متكررة، وقتلوا العديد منهم. وساروا طوال ذلك العشي وهم يحاربون، إلى أن وصلوا إلى حصن مشيد من حزم الأغصان ومتارس كبيرة، وضع فيه المزوار الماء والمؤن لاراحة جنده. وكان الكونت يعاقب بصرامة من أراد التشتت، فلم يجرؤ أحد على أن يبرح صفه. وبعد أن احتل المسيحيون الحصن، قضوا فيه الليل، وفي صباح لغد زحف الجيش في أحسن نظام إلى أبواب تلمسان، فعلموا أن الملك غادرها، بعد أن سمم الآبار، وخرج منها كذلك معظم جنوده لِيَنْضَمُّوا إلى عدوه. إذ ذاك دخلوا إلى المدينة فنهبوها من أقصاها إلى أقصاها، وهم يقتلون أو يأسرون كل من يصادفونه فيها. فأقام عبد الله في الحصن، وليتمركز أحسن تزوج بنات أهم القواد

(62) سنة 1544.

(63) هم : دم الونصو، ودم مارتين، ودم فرانسيسكو.

والعمال، وبخاصة ابنة إسلامي(64) من بيسكاي كان في غاية الغنى والشجاعة، وقد انضمَّ إليه مع العديد من جنوده، وبقي الاسبانيون هناك أربعين يوما، شنوا خلالها عدة غارات على البلاد وعادوا بكمية من القطعان والغنائم، لكنهم فقدوا أزيد من ألف جندي. وذات يوم هاجم المغاربة سريتين كانتا تحرسان في الطاحونات(65)، فقتلوا أكثر من مائتي رجل وغنموا الرايات فحملوها وساروا بها في كل مكان، ليرغموا أهل المنطقة على حمل السلاح. ولما بلغ الكونت أن العدو(66) قد حشد بربر الجبال وأعراب الصحاري، وأنه يطلب المدد من الجزائر، عزم على الانصراف بعد أن نفذ أوامر مولاه وسلم المدينة والقصر الى عبد الله ، وفعلا توجه فورا إلى وهران بتسع قطع حربية كان قد أخرجها من مستودع أسلحة الملك، من بينها أربع كانت قد أخذت من الاسبانيين أثناء هزيمتهم الأخيرة. ولم يستطع أن يخرج بنفس السهولة التي دخل بها، إذ وجد نفسه محاطا بما يزيد عن مائة ألف مغربي حملوا على مؤخرة جيشه بعد أن تركوه يمر، فدارت المعركة حتى الساعة الواحدة ليلا، مع خسائر كبيرة للأعداء. وأخيرا أرغمت الطلقات المتكررة للمدفعية والبندقيات المغاربة على الانسحاب، وتابع الجيش سيره، فوصل إلى وهران، حيث اقتُبل بابتهاج كبير.

الأحداث التي وقعت منذ ذلك العهد في تلمسان إلى أن استولى عليها الأتراك

بعد ذلك بقليل، حشد الملك المخلوع(67) أعراب الصحاري وبربر بني عراش وتوجه نحو تلمسان، فخرج عبد الله لملاقاته وحاربه وهزمه شر هزيمة. لكن عندما أراد الدخول إلى المدينة أغلق السكان الأبواب في وجهه، إذ كانوا مستائين من نهب المدينة وما قام به الاسبانيون من تعسفات في البلاد كلها، قائلين إنهم لن يقبلوا كملك رجلا يسلم شعبه إلى أعدائه. فاقترب من الأسوار محاولا تهدئتهم، ولما رأى أنهم تصامموا عنه. وأن رجاله أنفسهم أخذوا يتخلون عنه توجه إلى الصحراء مع ستين فارسا، ليؤثر على أعراب حزبه إذا ما استطاع ذلك، وهم

(64) حسان.
(65) تسمى القلعة.
(66) احمد.
(67) احمد.

الذين قتلوه غيلة فيما بعد. وما أن انسحب حتى أرسل السكان إلى أخيه(68) ليعود، وكان قد التجأ الى حصن مجاور، فأقبل مسرعا، واقتُبل بحفاوة كبيرة. وقد استولى أتراك الجزائر على هذه الامارة منذئذ، واضطر الملك أن يطلب المدد من الأمبراطور. وفي سنة ألف وخمسمائة وست وأربعين، أخذ المزوار معه ابنيه كرهينين إلى وهران، حيث أبرمت المعاهدة مع الكونت دالكوديتي. ثم جاز هذا الكونت إلىَ اسبانيا وجنَّد الفي رجل بالأندلس بأمر من الأمبراطور ليقودهم إلى تلمسان. فركب البحْرَ مع النصف وترك النصف الآخر في مالقة، لينقلهم على ثلاث سفن متعددة السطوح، وبعض الغليونات. ولما وصل الكونت إلى وهران استنفر فيها ثمانمائة رجل من الفرسان والمشاة، وضمهم إلى الألف الذين كانوا معه، فقصد حصنا(69) للأحلاف، حيث قبض على أكثر من مائتين من السكان وجدهم منحرفين لأنهم بصفتهم حلفاء تزودوا بالسلاح في وهران ليتصلوا للأتراك، لكنهم اقتبلوهم بالمدينة وثاروا معهم، بعد أن أعطوهم الأسلحة التي كانوا قد أرادوها. وعندما عاد الكونت إلى وهران، أمر بشنق ثلاثة من الأعيان، واتخذ الباقين كعبيد، فأمنت البلاد بذلك فترة من الزمان. وخرج من وهران فيما بعد، وعسكر على بعد نصف فرسخ منها فقط مع جميع الجنود، وعشر قطع من المدفعية. وفي يوم الغد توجه إلى أكويبل، وهي مدينة خربة، ولما اقترب منها جاءه عدد من المغاربة الحلفاء يعرضون عليه الخدمة : كانوا يفدون أسراً أو مجموعات أسر، كما هي عادتهم، كل واحدة بحسب رتبتها. وعند إقبال الأولى، كان الأكابر يعانقون الكونت ويتحدثون معه، وبعد القيام بمناورات فروسية، يتركون الآخرين يتقدمون ويحيون الكونت بدورهم. وقد جاء ما يزيد عن خمسين أسرة أو سلالة من بينها مائة فارس، دون المشاة، وأقلها عددا كانت تنيف على الخمسين، كلهم بالرماح والتروس، وخيولهم مسرجة بفخامة(70). فسار الكونت هكذا قرابة ثلاثة فراسخ حتى وصل إلى المكان الذي يوجد فيه المزوار عم الملك وصهره، الذي حضر من أجله لطرد الأتراك من إمارته المغتصبة. وكانت معه خمسة آلاف فارس أرادوا أن يهنئوا الكونت بسلامة الوصول فشخَّصوا أمامه معركة كانوا قد انتصروا فيها منذ قليل ضد الأتراك الذين قدموا لتعزيز تلمسان، وقد دارت كما يلي : كان نحو ثلاثمائة من رماة البنادق

(68) احمد.
(69) كاناسطيل.
(70) أو مزينة فقط بعدة زخارف.

الأتراك يسيرون في السهل، إذا بأعرابي(71) من بين أعدائهم طلب من رفاقه أن يهاجموهم على أن يحمل هو الأول عليهم، ولما امتنعوا من القيام بأي شيء، وضع حبلا في عنقه، وحلف ألا ينزعه ما لم يهزمهم. وعندما تحقق أن كل ذلك غير مجد، وأنه لا يستطيع التغلب على تخوفهم، اختطف ستا من أجمل فتيات دواويرهم، فوضعهن على إبل وساقهن نحو الترك، ثم قال : «سأرى الآن هل الشباب العاشق يرضى أن يترك ما هو أعز عنده بين أيدي القراصنة». وبعد أن حركهم من هذا الجانب، ساق إلى الأمام قطيعا من الجمال العارية، من بين الجمال التي يروّضونها لتصدم جماعة الأعداء بقصد تشتيتهم، فجعلوا يقاتلون بشدة قوية حتى كان يخال أنهم لم يكسروا كتيبة فحسب بل حطموا جدارا. وعندما أطلق الأتراك عليهم النيران لابعادهم، انقض عليهم الأعراب وكسروهم، بحيث إنهم هزموهم بالسيوف. وقد شخص المغاربة هذه المعركة أمام الكونت بأكثر من خمسة عشر سربا من خمسمائة بعير، كل واحد منها تتقدمه اثنتا عشرة امرأة راكبات فوق اثني عشر بعيرا، ويصحبهن بدورهن أجمل من في عائلتهن. فيقتربن من الكونت ويقلن له : «مرحبا بمصلح الامارة، وحامي اليتامى، الفارس البطل المحترم الذي يُتحدث عنه كثيرا، أترضون يا سيدي أن يكون غيركم سيدا للبلاد التي أنتم فيها ؟» ويخاطبنه بعبارات مجاملة أخرى باللغة العربية، كان يفسرها له مترجم شيئا فشيئا، وكان المغاربة في كل مرة يهتفون بصرخات عالية من الابتهاج. ثم جاء المزوار، فعانق الكونت، وبعد محادثة قصيرة عاد إلى ذويه، وأمر رماته الخمسة آلاف بالقيام بمناوشات دامت طويلا دون أن يكدره أحد من هذا العدد الكبير. وأقام الكونت معسكره في مدينة اكويبل، ونصب خباءه قرب عين تنبع من جبل مجاور، وتدفق الماء بغزارة. ومكث هناك ثلاثة أيام في انتظار سفن إسبانيا التي تقل على متنها الألف رجل الذين تركهم بمالقة، وعندما أرى أنهم لن ياتوا، وأن الوقت يضيع، توجه نحو تلمسان، وتوقف كذلك عشرة ايام في إحدى المدن ينتظرهم. وأثناء تلك المدة كان الجنود يتدربون جيدا على القفز، والمصارعة، والعدو راجلين وراكبين على الخيل، وقذف القضيب الحديدي، وما أشبه ذلك من التمارين الرياضية، بعضهم ضد البعض. وقد صارع مسيحي مغربيا، وضمه بشدة إلى أن سال الدم من فمه بغزارة، لكن المغربي أسقطه تحته بشغربية فتفوق عليه ووضع

(71) جيرّف (كذا).

ركبته على معدته، وتابع المسيحيون والمغاربة سيرهم معا، فوصلوا إلى زاوية[72] أقبر فيها مرابط ذو احترام كبير، ومكثوا هنالك ستة عشر يوما، حتى بلغهم أن الجنود المنتظرين يوجدون على بعد أربعة فراسخ من هناك[73]، ولم يستطيعوا النزول بسبب الريح المعاكسة. وفي الحين أخذ الكونت معه نصف الجنود،وتوجه إليهم ثم عاد بهم إلى المعسكر قبل أن يتابع سيره.ولدى وصوله إلى أنقاض سنان بلغه أن حاكم الجزائر[74] مقبل في ألف ومائتي تركي لفتح تلمسان أو لمحاربته، فاضطر إلى الرجوع على أعقابه لملاقاته. ولكي يطمئن على نفسه ألزم جميع القواد المغاربة بأداء اليمين على أن يخدموه بوفاء، وألا يخذلوه حتى يعيد الملك[75] إلى عرشه، فتم ذلك على هذه الحال : علقوا مصحفا من القرآن في عمامة أمسكها فارسان من كلا الجانبين، رافعين ذراعيهما إلى السماء، فمر جميع القواد والأعيان المغاربة من تحتها، واعدين بإنجاز كل ما يريده الكونت، وهم يضعون أيديهم على الكتاب ثم يخفضونها، ودام هذا الحفل طوال العشية. وكان أهل تلمسان قد أخبروا المزوار بأنهم سيطردون الأتراك شريطة ألا يصحبوا معهم الاسبانيين، وأنهم سيسلمون قواتهم لمن شاؤوا. لكنه أجابهم بأن الذين خدعوا أميرهم لا يستحقون الحياة، وأنه يصحب معه الاسبانيين ليذبحهم.

ولنرجع إلى تاريخنا. فعندما كان الكونت زاحفا لملاقاة عامل الجزائر، وصل إلى نهر زيز، فأخذوا يتسلون بالصيد والتداريب العسكرية مع المغاربة، وانطلق من هناك إلى أربعاء مليانة ليقضي بها الليل، وفي ثالث يوم إلى أكَويل، ثم عبر نهر فريلت، وعسكر على بعد فرسخ ونصف من الأتراك، ظانا أنهم أبعد من ذلك. وما إن علم هؤلاء به حتى توجهوا من جديد نحو الجزائر، فأوفد عاملها ضابطا[76] ومرابطا من جملة أصحابه كان يتمتع بتقدير كبير، طالبا من المزوار أن يسمح للحامية التركية في تلمسان بالخروج، وأن يمدها بخفير متعهدا بأن يسلم إليه المدينة. فوافق المزوار على ذلك، وبعد تحرير بنود المعاهدة،أقبلت حامية تلمسان إلى معسكره. فاستأذن بعض الاسبانيين الكونت لمشاهدته، وسرهم أن حضروا جنازة ذلك الأعرابي الذي ذكرنا آنفا، والذي هاجم الأتراك ببسالة نادرة ومات بضربة

(72) رابطة زيز.
(73) في رأس فيجل.
(74) حسن أغا.
(75) مولاي احمد.
(76) هو جعفر.

أصيب بها في المعركة. وقد جرى الحفل كما يلي : كانت مغربية واقفة، وأمامها طبول كبيرة غير مُدَوْزنة، وهي تضربها بقوة كبيرة وبجانبها أربع فتيات. وبعيدا من هناك عدد كبير منهن في ذهاب وجيئة نحو الطبول، ويدرن أحيانا حولها. كانت الأولى تغني ما توقعه على الطبول، وترد عليها الأربع الأخريات، ثم جميعهن، وشَعَرهن مشعث، وهن يصرخن بأعلى أصواتهن، ويخدشن وجوههنّ بعنف شديد لدرجة أن الدم يسيل إلى الأرض، فيقبضن قبضات من التراب ويرمين بها على وجوههن، فيختلط ذلك التراب بالدم والعرق، حتى يعدن بالأحرى أشبه بالجنيات منهن بالنساء. فعلن ذلك طوال النهار إلى أن سقطن على الأرض بعد أن خارت قواهن. هذه العادة جارية عند الأعراب عندما يموت أمير أو شخصية مرموقة، وتدوم أحيانا ثلاثة أشهر، وأحيانا أخرى سنة وأكثر، حسب عظمة الشخص الهالك. ويروين في هذه الأناشيد الجنائزية كل ما فعله الراحل منذ طفولته، دون أن يغفلن أدنى شيء.

ولنعد إلى حديثنا. عندما رأى الاسبانيون الذين ذهبوا قصد التسلية إلى معسكر المغاربة أن الأتراك رفعوا رايتهم، وهم يرون أنها يجب أن تطوى أمام راية الأمبراطور أخبروا الكونت بذلك، فأرسل هذا الأخير غداة الغد جنودا ليعترضوا طريقهم ويحطموا رايتهم. فاشتكى الأتراك من ذلك لأنه عنف، وطلبوا أن يحضر المزوار الذي همس في أذن سوطو قائد الاسبان بأنها راية ملك تلمسان يبعث بها إلى صاحب الجزائر. لكن القائد أجاب بأن التركي الذي يحملها يجب عليه أن يسقطها ويطويها أمام راية الأمبراطور. فتناولها المزوار ليفعل ذلك، لكن سوطو لم يقتنع بذلك قائلا إن ذلك راجع للتركي نفسه الذي عليه أن ينزعها من العصا. وأخيرا اضطر التركي إلى الامتثال، على مضض كبير، وعاد سوطو إلى المعسكر مع أربعة جنود فقط كان قد صحبهم معه. وعندما رأى الكونت أن الأتراك خرجوا من تلمسان التي كانت سبب مجيئه عزم على مهاجمة مستغانم، لكن المزوار رفض الذهاب معه، لأن وجوده بتلمسان في هذا الظرف كان ضروريا، فصرفه قائلا إنه يستغني عن خدمته، وأنه سيحتل مستغانم وحده وبدون إعانته، وافترقا على هذه الحال. لكن الكونت كان قد ذهب قبل ذلك مع بعض الجنود إلى وهران التي لا تبعد من هناك إلا بسبعة فراسخ، وحمل منها بعض قطع المدفعية، بحيث إنه زحف فورا ضد مستغانم، وكل قطعة من المدفعية تجرها أربع بغلات مصطفات إثنتين إثنتين. وانطلاقا من نهر فريلت حيث كان معسكرا، وصل في أول يوم إلى نهر سقناقي، وما وراءه إلى واد هبرة، ونهر قسناق، ثم إلى

مجموعة سكنية فيها بعض الآبار، وهو يدور في مسافة تزيد على خمسة فراسخ ليعسكر في نفس المكان الذي كان فيه الأتراك عندما احتلوا هذه المدينة. فقضى اليوم الواحد والعشرين من شهر غشت بمزغران، حيث ارتاح الجنود في حدائق مليئة بجميع أصناف الفواكه، ووصل الجيش في نفس اليوم إلى مستغانم، فعسكروا على ربوة أطلقت منها في الحين أزيد من مائة طلقة مدفعية ضد المدينة. لم يكن عند الأتراك سوى مدفعين صغيرين، فككا على الفور. ورغم ذلك أمر الكونت بان يطوف أهل وهران حول المدينة لاستطلاع أحسن، وقتل اثنان بسبب غارة، وجرح خمسة وعلموا في الغد من مغاربة أسروا أنها أغنى مدينة في بلاد البربر، لأنهم جلبوا إليها جميع ثروات البلاد المجاورة، وأن الأتراك خزنوا فيها كل غنائم المملكة، وأن عددهم لا يعدو اثنين وأربعين رجلا يرغمون سكان المدينة على الدفاع عن أنفسهم ولو أنهم أكثر من اثني عشر ألفا، ويمنعونهم من الاستسلام إلى الاسبانيين. ولما وصل هذا الخبر إلى الكونت أمر بقصف المدينة طوال ثلاثة أيام وحين رأى امتناعهم القاطع من المفاوضات، حمل مدفعيته، وعسكر في جانب آخر بدا له أضعف ومن الأسهل أن يشن منه الهجوم. وفي هذه الأثناء، بدأ البارود ينقص، بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يزودوا به الجنود، وأن يتابعوا القصف. فأرسل سفينة شراعية إلى وهران لم تعد إلا بعد يومين، الأمر الذي أتاح الفرصة لعدد من الأتراك أن يحتلوا المدينة. كانوا هم رجال الحامية الذين خرجوا منذ قليل من تلمسان، وأخذوا هذه الطريق لما علموا أن الاسبانيين زاحفون ضد مستغانم، ومعهم أكثر من خمسة وعشرين ألف مغربي، سواء منهم الراجلون والفرسان. ولما أحدث المدفع ثلمة مناسبة (في السور) أمر الكونت بأن يصعد اليها خمسة عشر لواء، غير تارك سوى ثلاثة لحراسة المعسكر. فطلع الجنود بشجاعة إلى الثلمة، حيث تصدى لهم الأتراك بعزيمة قوية، بحيث كان يبدو أن واحدا منهم كاف لحمايتها، وما أن كان يسقط منها واحد حتى يخلفه آخر. فصعد أربعون إسبانيا الى الثلمة، وركزوا خمس رايات فوق السور لكنها انتزعت بمجرد ما وصلوا إليه. ودام القتال أزيد من ساعة، وقتل الكثير من الطرفين، ولكن من جانب المسيحيين أكثر، لأنهم كانوا يحاربون مكشوفين، فتقهقروا في اضطراب، واقتفى أثرهم الأتراك والمغاربة إلى معسكرهم وهلك مائتا مسيحي في هذا اللقاء، وجرح عدد أكبر(77). فجمع الكونت أكثر ما أمكنه من الرجال، وكر على الأتراك وطردهم من المعسكر.

(77) 250 جريح.

فنصحه بعضهم أن يفسد المدفعية، ويعرقب الخيول، ثم ينسحب ليلا على متن سفن كانت راسية هناك، لكنه أجاب بأنه يفضل الموت على أن يتبع نصيحة بهذا القدر من الجبن. وبالغ المجهود حتى كانوا عند بزوغ النهار قرب البحر مع جميع الجنود والأمتعة. وأفسدوا مدفعا واحدا فقط كان مفككا. وطلع جميع الجرحى، وكل من لم يكن قادراً على القتال ليلا إلى إحدى السفن الشراعية، إلا أن خائنين أخبرا مستغانم بالتقهقر، منذ الشروع فيه، فخرج الأتراك صباحاً في أحسن نظام، متبوعين بأكثر من خمسة عشر ألفاً من المغاربة الراجلين، وثلاثة آلاف فارس، عازمين على القتال. وقد اعترى الخوف والفزع الجنود، حتى إنهم فكروا في الفرار أكثر من القتال. لكن ابن الكونت(78) الذي أصبح منذئذ مركيز دي كورطيس، أخذ حربة بيده، وبفضل عزيمته التي كانت أقوى من العار، أدار رؤوس بعض الجنود الذين كانوا قد دخلوا في الماء، وأخذ يصفهم للقتال. ومن جهة أخرى، فإن لويس دي رويدة، قائد الفرسان الشجاع لما رأى أن الأعداء أتوا مسرعين لينقضوا على المسيحيين، ضم إليه نحو ستين فارسا، ثم استغاث بسان جاك ولي اسبانيا، وحمل في قلب المعركة حيث كان الأتراك، وأرغمهم على الفرار. وعندما شاهد المشاة ذلك تبعه فوج مؤلف من خمسمائة جندي، فحمل على الأعداء وكسرهم وأرغمهم على العودة بسرعة أكثر من التي أقبلوا بها. ولما تراجع المغاربة، جمع الكونت جنوده بقدر ما استطاع، وسار في طريق وهران عند العشي دون أن يهاجمه أحد في باقي النهار، بحيث إن جنوده قطعوا ليلا ستة فراسخ. وفي يوم الغد صادف بعض الأتراك والمغاربة عند عبور نهر، لكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوه من العبور، فوصل في ذلك اليوم إلى أرزيو، حيث شاهد أطلال هذه المدينة الشهيرة. وفي يوم الغد وصل إلى وهران التي كان قد غادرها قبل سبعة وخمسين يوما. وقد مكث مولاي أحمد ملكا بتلمسان وحكم في أمان إلى أن مات، محافظا دائما على الصداقة مع حسن أغا حاكم الجزائر، ثم مع صالح رايس الذي خلفه. وبعد موته نصب مكانه أخوه مولاى حسن، من طرف صالح رايس، الذي كان يكن له مودة كبيرة، شريطة أن يسلم له حصون الامارة. لكن مولاي حسن ندم على ذلك بعد أربع سنوات، بسبب فظاظة الأتراك، وتعاهد مع الكونت دالكوديت لطردهم، غير أن الأتراك حين علموا بذلك أثاروا ضده الأعراب والسكان، وأرغموه على الفرار مع حاشيته وأسرته إلى وهران، حيث

(78) دم مارتين دي قرطبة.

هلك بالطاعون بعد ثلاث سنوات، وهو يحاول أن يسترجع ملكه، وترك ابنا عمره ست سنوات تنصر وسمي دم كارلوس، وقد منحه فيليب الثاني فيما بعد إقطاعا بقشتالة. ومنذ ذلك العهد، حين استولى الشريف محمد على مملكة فاس، أرسل ابنيه(79) لاحتلال تلمسان، لكن الأتراك طردوهما، وقتلوا في إحدى المعارك ابنا آخر(80) للشريف، وقد جرح مولاي عبد الله، وهو الحاكم الحالي. وأخيرا بقيت هذه الامارة بين أيدي الأتراك الذين ما يزالون يملكونها أو معظمها على الأقل حتى اليوم.

(79) مولاي احمد الحران، ومولاي عبد الله.
(80) مولاي عبد القادر.

الفصل الثاني عشر
• العُبَّاد

هذه المدينة بمثابة ربض لتلمسان، ولا تبعد عنها إلا بنصف فرسخ من جهة الجنوب. وموقعها فوق جبل. يذكر المؤرخون أن الرومان هم بُناتها. وإسمها عندهم ايمينياريا. وموقعها عند بطليموس على اثنتي عشرة درجة وخمسين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا. فيها ضريح مشهور يقال إن مرابطا(1) يحظى بتعظيم كبير مدفون فيه. قبره في المسجد الاعظم، والنزول اليه بدرجات. وعلى مقربة من هذا المسجد توجد مدرسة ومستشفى يقصدهما المعوزون من الغرباء. وكلاهما من بناء رابع خلفاء فاس(2) ذلك ما يشاهد مكتوبا بخط مزخرف على لوحة من مرمر فوق الباب الرئيس. لا تختلف أحوال سكان العباد عن أحوال أهل تلمسان في عوائدهم ومعاشهم. يتعاملون مع أهل الجبل ويحترف عدد منهم الصباغة وغيرها من الأمور المعتبرة.

الفصل الثالث عشر
تفسرة

مدينة كبيرة بناها سكان البلد الأصليون حسبما يذكره بعض الكتاب. تقع في السهل على بعد خمسة فراسخ من تلمسان من جهة الشرق، وكانت تدعى قديما تسله. وهي عند بطليموس على ثلاث عشرة درجة وعشرين دقيقة طولا ،على ثلاث وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا. يكاد كل سكانها يشتغلون بالحدادة، ويتوفرون على عدد من المناجم يستخرجون منها مادة عملهم. وفي الأراضي المجاورة لها يصلح القمح وتجود المراعي، ولكن معظم تجارة أهلها في الحديد الذي يحمل قصد البيع الى تلمسان وغيرها. تحيط بها أسوار عالية منيعة. ولا زائد فيها على ما ذكرته مما يستحق أن يشار إليه.

1) سيدي بومدين
2) أبو الحسن

الفصل الرابع عشر

بنـي راشـد

إقليم أو إمارة خاصة تمتد طولا على مسافة سبعة عشر فرسخا وعرضا على تسعة فراسخ. وطرفها الجنوبي سهل وشمالها تلال يصلح بها الزرع وتجود المراعي. سكانها بربر من قبيلة مقاطع من سلالة بني راشد. وهم على فرقتين، أهل الجبال ويسكنون القرى(3) ويشتغلون بزراعة الحقول والكروم، أما غيرهم فيجوبون الآفاق كما يفعل الأعراب، وهؤلاء أعظم غنى وشهرة وأكثر خيلا وجمالا. وفي هذا الأقليم ثلاث مدن رئيسية وهي بنو راشد التي تسمت باسمها الامارة وهي عاصمتها ويزيد سكانها على الألف وهي أقدم المدن الثلاث، يسكنها عدد من أشراف الناس وأثريائهم وإن كانت غير محصنة بسور. وهي عند بطليموس تسمى فيلبورك؛ وقد جعلها على اثنتي عشرة درجة وأربعين دقيقة طولا وعلى اثنتين وثلاثين درجة عرضا. أما المدينة الثانية فهي القلعة، وهي أكثر امتناعاً من سابقتها. بنيت على سفح تل بين جبلين عاليين. تحيط بها أسوار ذات أبراج على هيئة القلاع الحصينة. يسكنها تجار وصناع مياسير. فهي التي استولى عليها مارتين دراكوط لما زحف ضد أبي حمو، وهنالك قتل العرب هذا القائد الكورسيكي(4) الذي استسلم لهم. كانت تسمى ألطاو في القديم. جعل بطليموس موقعها على اثنتي عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا وعلى إحدى وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا. أما المدينة الثالثة فتدعى معسكر وهى عبارة عن قرية كبرى بها قلعة بدأ بناءها المنصور وأتمه الأتراك، إذ كان من العادة أن يقام بها عامل وفرقة من الفرسان. ويتوفر فيها الفرسان على ثلاث قطع من المدفعية وعلى عدد من المقاتلين تحت إمرة قائد يعينه حاكم مدينة الجزائر من أجل كبح جماح الأعراب العائثين في تلك الجهات ممن لا يسلمون القياد. وتنعقد في هذه المدينة سوق يوم الاثنين يقصدها البربر والأعراب لبيع ماشيتهم وزرعهم وغلاتهم من الزبيب والعسل والشمع والزيت وما شابه ذلك. ويأتي إليها التجار من تلمسان وغيرها بالمنسوجات والبرانس والعباءات والسروج المضربة ذات المهامز والأعنة وغيرها من عدة الفرس وكثير من البضائع الأخرى التي يتزود بها أهل تلك النواحي. ويظن البعض انها نفس المدينة التي سبق أن تحدثنا عنها في الفصل السابق يسميها بطليموس فيلبورك. ومهما يكن الأمر فإن

3) وأماكن معلقة

4) إسكندر

سكانها ميسورون، ويجبي منها أمراء تلمسان ألف بيسطلوليس في العام، ويستنفرون منها عشرين ألف مقاتل عند الاقتضاء. ما بين فارس وراجل، وكلهم من الرجال الأشداء في الحرب المتوفرين على عدة جيدة. وهي اليوم تحت إمرة الترك كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

الفصل الخامس عشر

. تسلة

مدينة قديمة بناها سكان البلد الأصليون في سهل فسيح عرضه سبعة فراسخ. وهي على ستة فراسخ من وهران. حربها رابع خلفاء بني مرين(5) عند قتاله لأهل تلمسان، ولم تعمر بعد ذلك. يعيش البربر المالكون لهذه المناطق متنقلين بخيامهم كما يفعل العرب، وأرضهم خصبة بحيث تستطيع أن تمد مدينة تلمسان بالقمح والشعير إذا ما زرعت بأكملها دون مشقة لأنها لا تتكون الا من الخيام. لم يبق من هذه المدينة سوى حصن به نطفية تتجمع بها مياه الأمطار. ولكن المسلمين لا يجرؤون على سكنى هذا الحصن خوفا من المسيحيين. وقد وصل ابن الشريف(6) الى هذه الناحية عندما استولى على تلمسان. وكان يقوم انطلاقا من هذا الموقع بغارات كل يوم على أراضي وهران. كانت تسلة تسمى قديما أريان، وهي التي جعل بطليموس موقعها عند ثلاث عشرة درجة وعشرين دقيقة طولا وثلاثين درجة وخمسين دقيقة عرضا.

الفصل السادس عشر

. أغبال

مدينة قديمة ترى أنقاضها بين تسلة ووهران. كانت لها أسوار جيدة ربما كانت من بناء الرومان. وكانت في القديم كثيرة السكان. وعلى بعد أربعة فراسخ منها يمر نهر سيرات الذي يسمى باسم المنطقة التي ترتوي من مياهه. ويتكون من نهرين(7)ينبع أحدهما من جبال بني راشد قرب مدينة معسكر وينبع الآخر من الأطلس الكبير ويلتقيان في هذا البسيط حيث يسميه العرب باسم آخر(8) بينما

5) أبو الحسن
6) محمد الحران
7) واد زيز
8) غمارة

يسمى فى المجرى الأسفل بنهر سيرات نسبة الى هذا السهل الذي ينتقل فيه أعراب(9) أشداء من أشراف مليانة(10) يفرضون المغارم على برابرة هذه الجهات. تخريب هذه المدينة على يد ملك من ملوك فاس ولم تعمر بعد ذلك، وما تزال جدرانها قائمة. والأراضي المجاورة في ملك من ذكرتهم من الأعراب، وهم أغنياء بأراضيهم ومواشيهم ولا يتنقلون الا وهم مسلحون، خوفا من حامية وهران التي لا تبعد سوى بأربعة فراسخ. كانت تسمى في القديم بمدية النصر (فيكتوار) وهي حسب قول بطليموس عند أربع عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا وعند اثنتين وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضا..

الفصل السابع عشر

• البطحاء

مدينة عتيقة بناها سكان البلاد الأصليون في بسيط جميل على ثلاثة فراسخ من وهران داخل البلاد. خربها الزناتيون من قبيلة مغراوة وهم بنو عمومة أمراء تلمسان، موطنهم في جبال ونشريس. كانت لهم حروب سابقة مع أبي تاشفين، وقد قاموا لحساب الملك يوسف المريني باحتلال جزء كبير من مملكة تلمسان وخربوا جميع المدن التي لم يستطيعوا الاحتفاظ بها بما فيها مدينة البطحاء التي لم تعمر بعد ذلك. ولكن أحد المرابطين(11) جاء إلى هذه المنطقة واستقربها وزرعها نظرا لخصوبتها وجودة مرعاها. وقد جاء الناس ليستقروا في حماية هذا الرجل الذي كان يحظى بتوقير ملوك فاس واحترام الأعراب على السواء، ولكنهم لم يعيدوا عمارة المدينة. ما زالت أنقاضها شاهدة على عظمتها. وهي تقع على ضفة نهر(12) في مكان مشرف على حقول فيحاء، بطل حرثها حتى صارت كالغابة. ومنذ أن استقر هذا المرابط بهذه السهول صارت تسمى بلاد سنا، وكذلك يسمى النهر الى غاية اتصاله بالساورة. كانت البطحاء تعرف قديما باسم بونوبور، وجعلها بطليموس عند أربع عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا وعند اثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا.

9) اولاد سليمان وأولاد موسى وأولاد هاجر وأولاد عبد الله

10) أبو الخمس

11) سيدي سياء

12) وادي مينا

الفصل الثامن عشر

المرسى الكبير

بناها الرومان على هيئة قلعة محصنة على ساحل البحر المتوسط على فرسخ واحد من وهران من جهة الغرب. مرساها أجمل من مراسي إفريقيا وأعظمها. يتسع لعدد كبير من القوادس والسفن، لا تناله الرياح والعواصف من أي جهة من الجهات. كانت ترسو به كل عام السفن الضخمة القادمة من البندقية وغيرها من بلاد أوربا حاملة البضائع التي تنقل بعد ذلك على قوارب الى وهران حيث تنفق تجارتها. والظاهر أن هذه المدينة لم تشيد إلا لحراسة هذا المرسى الكبير. وهي عند بطليموس على اثنتي عشرة درجة وأربعين دقيقة طولا وعلى أربع وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا. وهي على صخرة يتعذر تحطيمها، يحيط بها جبل عال شديد الانحدار والوعورة بحيث لا يمكن الارتقاء منه الى المدينة إلا بصعوبة شديدة ما عدا من طريق وهران حيث ممر ضيق غير مستو يسمى الكرسي. أما من جهة الشمال حيث تضربها أمواج البحر، فيوجد برجان مربعان يدعمان المرسى، وعلى بعد امتداد السور السميك المبني بالطابية نجد برجا مستديرا يسمى بالناقوس. ومن ينطلق منه ليدور حول المدينة يجد رصيفا. وقبل نهايته يوجد في ركن جداري السور برج مربع آخر يعمد كل هذه الجهة، كما يوجد برج ثان في الركن الآخر الذي بعد هذا، وذلك في أسفل باب المدينة في المكان الذي يعرف بالبحر الهائج. أما مدخل المدينة فيحميه برجان مربعان كبيران بهما سكنى العامل. وعلى الداخل إلى المدينة أن يجتاز ثلاثة أبواب. ويحمي المدينة حصن من جهة البحر، ويخترق جداره شق قديم، ولهذا الحصن أربعة أبراج مربعة تتكسر عليها أمواج البحر. ولم تمض سوى مدة يسيرة من وقوعها تحت حكم مارتين القرطبي وهو كونت ألكاودبت، حتى شرع في بناء حصن في هذه الجهة فوق جبل عال على بعد ستمائة خطوة من المدينة من ناحية الغرب. ولم يكن قد كمل عندما جاء الأتراك يهاجمون المدينة كما سنرى فيما بعد. ولما صارت هذه المدينة بأيدي المسلمين عام ألف وخمسمائة وواحد أعطى دُم مانويل ملك البرتغال الأمر لقواد أسطول بعث به إلى المشرق لحساب البنادقة، وذلك بقصد اقتحام هذه المدينة وأخذها في طريقهم وإقامة حامية فيها. ولما وصل الأسطول إلى تلك المدينة عاكسته الرياح ومرت عليه ثلاثة أيام وسفنه تدور حول نفسها قبل أن ترسو. وكان السكان قد تمكنوا في هذه المدة من اكتشاف الخطر القادم إليهم واستقدموا من وهران ثلاثمائة فارس وعددا

من المشاة بقصد الدفاع عن المدينة. ولم يتزحزح المسلمون عن مواقعهم إلى أن نزل البرتغاليون، ولما رأوا أنهم قد ابتعدوا عن الشاطىء وأن بعضهم قد صعدوا فوق الجبل ليتعرفوا على المدينة خرجوا إليهم جملة واحدة وأحاطوا بهم وأوقعوا بهم الهزيمة. وكان منهم عدد من القتلى والأسرى. وتمكن بعضهم من الفرار، واقلعوا توا بسفنهم تاركين المسلمين فرحين بنصرهم.

الدون دييكَو القرطبي يهاجم المسلمين

وفي عام ألف وخمسمائة وستة، وذلك بعد مرور خمس سنين على هزيمة البرتغاليين، قام الدون دييكَو القرطبي عامل الدونزيليين بمهاجمة المرسى الكبير بواسطة أسطول شارك فيه عدد من النبلاء. وقد حاصر المدينة وقاتلها بشدة، ودافع المسلمون عنها وردوا عن النصارى بمدفع من الحديد. ولكن هؤلاء سددوا في اتجاهه مدفعا آخر أصابه في الصميم وحطمه وقتل المدفعي المكلف به. وأدى ذلك بالمسلمين الى قبول الاستسلام فخرجوا بنسائهم وأولادهم تاركين المدينة مفتوحة للمسيحيين. ولما انتصب الغالب عاملا على المدينة بلغه بواسطة جواسيسه أن عددا من الأعراب نازلون ببسيط(13) لا يبعد سوى بفرسخين اثنين، وأطمعه غزوهم في غنيمة عظيمة. وأخرج اليهم ليلا بمجموع عساكره بعد ان ترك حامية كافية في المدينة. وقد فوجىء العرب بالانقضاض عليهم واقتحام خيامهم واسر عدد من رجالهم وغنم متاعهم، ولكن القدر حكم عليه بأن يؤدي ثمن هذا النصر بهزيمة كبرى. وذلك أن رجاله أرادوا في طريق عودتهم أن يتحرشوا بأهل وهران. فخرج اليهم حماتها وعددهم ثمانمائة من الرماة، ولما رأوا النصارى مثقلين بغنائمهم هاجموهم من كل جهة واضطروهم الى الاعتصام بتل هنالك وناجزوهم في قتال سالت فيه كثير من الدماء. وقاتل دُم دييكَو شخصيا الى ان قتل جواده وكاد يهلك لولا ان تداركه أحد غلمانه بفرسه وذاق الموت في مكانه. كانت هزيمة فظيعة مات فيها عدد من النبلاء، وقد استعاد المسلمون كل ما سلب منهم ورجعوا منتصرين إلى وهران. وأما العامل دييكَو فقد وصل الى المرسى الكبير في حالة سيئة، وبعد أن ترك مارتين داركَوت نائبا عنه في حكم المدينة جاز الى إسبانيا، ثم عاد منها الى عمالته.

13) مرسى حريش

الفصل التاسع عشر

وهــران

مدينة قديمة بناها السكان الأصليون على الساحل، تفصلها مسافة فرسخ واحد عن المرسى الكبير جهة الغرب. كانت تسمى على عهد الرومان أونيكاكولونيا. ويسميها البعض باسم آخر. تقع على اثنتي عشرة درجة وثلاثين دقيقة في خطوط الطول وعلى أربع وثلاثين درجة من خطوط العرض، وعلى بعد عشرين فرسخا من تلمسان. كانت من أغنى مدن موريطانيا القيصرية. كانت بها التجارات الواسعة والمساجد والمدارس والمستشفيات ومحلات النزول والدور المعتبرة. كل مرافقها رائقة البناء وأزقتها وساحاتها جيدة الترتيب. لا تبعد عن البحر إلا بقدر مرمى الحجر، نصفها من السهل ونصفها على جبل وعر. توجد قلعة حصينة فوق الجبل، وتوجد قلعة أخرى أقدم منها ذات حواجز موازية للسور الذي دعمه النصارى بأبراج وخنادق عميقة محاذية لأساساته. وعلى الضفة الأخرى لنهر يبعد بحوالى ألف خطوة يوجد حصن(14) آخر فوق جبل يشرف على المدينة، وبإمكان الناظر من أعلاه أن يستكشف الوادي كله الى منبع النهر. ولهذا الحصن خندقان عميقان، وسور الخندقين مبلط تبليطا جيدا يتسع لأن تسير عليه عربات المدافع. وباني هذا الحصن هو الدون بيدري دي نابارو عندما تم له غزو المدينة. للمدينة بابان اثنان : باب تلمسان في جهة الجنوب وباب قسطيلية في جهة الشرق. لا تحيط الخنادق بأسوارها من جميع الجهات لأنها واقعة على منحدر. كان سكانها فيما مضى من الزراع والرعاة والتجار وكان بها كثير من النساجين، ولما كانت أرضها لا تصلح فيها الحنطة فإنها تتلقى كميات وافرة من قمح المناطق المجاورة(15) ومدينة وهران معدودة على الدوام في مملكة تلمسان، وقد ظلت حرة مدة حروب فاس، كان بها لأمير تلمسان قائمون على الجمارك يحصلون الرسوم، ولكن لم يكن بها عامل من لدن هذا الأمير مما جعل سكانها يعينون كل عام أحد أعيانهم ينظر في خصوماتهم ويحكم في جرائمهم، وهذه كانت الحال عندما وقع غزوها.

وكان هذا الرخاء الذي عرفته وكذا جودة الميناء المجاور من العوامل التي أغرت بعض السكان بتجهيز غزوات بحرية ضد سواحل البلاد النصرانية ولاسيما

14) رجل القفار

15) مليانة وسفينة وأكويل

سواحل بلاد الأندلس والمدن المجاورة، وهذا ما استدعى القيام بعملية المرسى الكبير ثم عملية غزو وهران التي سنقوم بوصفها.

كيف هاجم الكاردينال خيمينيث وهران

بعد مرور ثلاثة أعوام على أخذ المرسى الكبير توجه الكاردينال خيمينيث أسقف طليطلة لغزو وهران بجيش بحري عظيم يقوده اللون بيدري دي نابار، وكان في هذا الجيش عدد من نبلاء قشتالة. واقتحم هذا الجيش مدينة المرسى الكبير عام ألف وخمسمائة وتسعة، وهو العام التاسع لحكم جان تحت وصاية والده المالك فردينانلو بعد وفاة صهره[16] وهو ابن الامبراطور ماكسيميليان. وكانت عملية الغزو أسهل مما كان متوقعا. ذلك لأن غامل المرسى الكبير كان قد اتفق مع يهودي[17] ومسلمين[18] وكانوا قائمين على تحصيل واجبات الأبواب لحساب أمير تلمسان، على أن يسلموا له المدينة في موعد مضروب. وبينما كانوا يدبرون ذلك الاتفاق إذ وصل الجيش، وكان لكثرة عدده قد وصل الى البر في غير ترتيب. وتقدم الى وهران على الطريق الجبلية. ولما رأى المسلمون نزول تلك الحشود الكثيرة خرجوا دفعة واحدة لقتالهم، ولم يخلفوا داخل المدينة سوى عدد قليل من الناس. وعندئذ سنحت الفرصة للمتآمرين فغلقوا الأبواب ونصبوا على أحد الأبراج صليبا أحمر كان عامل المرسى الكبير قد أرسله إليهم خفية ليتخذوه شارة يستحثون بها النصارى إذا وصلوا أمام المدينة. وكان العامل المذكور قد أزعج قاربا من المرسى الكبير ليحمل إليه مفاتيح وهران والأعلام بنجاح خطة تسليمها. وقد بادر الكاردينال بقيادة عدد من الجنود ومعهم السلالم لتسلق أسوار المدينة من الطرف الآخر بينما كان سكانها المسلمون يوجلون خارجها. ودخلها النصارى بدون مقاومة كبيرة، وهاجموا المسلمين من الخلف وهم يقاتلون النصارى فكانت مذبحة عظيمة في المسلمين. ونجا منهم من نجا، ففروا متشتتين في الحقول بعد أن رأوا سقوط مدينتهم وهزيمة جيوشهم، تاركين النساء والأطفال والمتاع لمشيئة أعدائهم. وهكذا تم أخذ هذه المدينة، وإن كان بعض المسلمين قد صمدوا خمسة أيام في دار الفقيه، وكانت محاذية للجامع، ولكنهم في النهاية لم يستطيعوا النجاة من الفتك

16) فيليب

17) اشتورة

18) عيسى العُتيبي واس قانش

أو الأسر. ولم يهلك من النصارى سوى ثلاثين من الرجال وفيهم كونت ألتمير الذي قتل، أسفا، على يد أحد رجاله، وكان يتقدمه حاملا فوق كتفه بارودة ملفوفة. وكان عدد من قتلوا أو أسروا من المسلمين في هذا القتال أربعة آلاف. وبعد هذا النصر عاد الكاردينال إلى إسبانيا تاركا الدون دييكو القرطبي عاملا على وهران ومعه حامية جيدة. وكان المالك فرناند يرغب في أن يدفع بفتوحاته في هذه الجهات إلى أبعد حد ممكن لولا أن صرفته عن ذلك حروب البابا(19) مع مالك فرنسا والبنادقة. وكان أمير(20) تلمسان يؤدي له المغرم، ووعده أحد الزعماء(21) الأفارقة بدفع المغرم ويتسلم مدن ساحلية من مملكة فاس إذا هو أعانه على غزو المملكة المذكورة. وما أن أعد العدة لهذا الأمر حتى وصلته رسالة من البابا يحثه على إنجاده كما أنجده الامبراطور(22) وأمراء مسيحيون آخرون. كان ذلك سببا في عدم مواصلة تلك المساعي، ولم يتمكن من استئنافها بسبب ما حدث من الفتن بين المسيحيين بعد معركة رافين. ومات وهو ينوي تحقيق غرض نبيل دون أن يتمكن من إنجازه.

استيلاء الأتراك على وهران

وبعد أن استعاد صالح رايس مدينة تلمسان وهزم ثلاثة من أبناء(23) الشريف غزا مدينة فاس ونصب لملكها من شاء، وأدركه العجب بكثرة انتصاراته بعد أن صار واليا على مدينة الجزائر فتطلع الى فتح مدينة وهران. ذلك ما حمله على أن يبعث ولده(24) محملا بالهدايا إلى السلطان الأعظم(25) طالبا منه إمداده ببعض السفن الحربية (القاليرات). وفي تلك الأثناء خرج بقصد غزو بجاية كما سنذكر ذلك في موضعه. وقد رحب الملك الأعظم بابن والي الجزائر وبعث معه بأربعين سفينة كانت عند ذاك بالأرخبيل. وبلغ الخبر الى الوالي في طريق عودته من غزو بجاية. فذهب لتوه إلى عنابة ليكون هنالك في الانتظار، وعندما وصل إلى

19) جول الثاني
20) بوحمو
21) علي براز
22) مكسيمليان
23) عبد القادر وعبد الله وعبد الرحمان
24) حسن باشي
25) سليمان

رأس متفوس أخذه مرض الطاعون واعترته حماه مما جعله يرجع إلى مدينة الجزائر حيث مات بعد ذلك بثلاثة أيام. وقبل أن يلفظ أنفاسه عين عاملا أحد الاسلاميين،(26) كان أسيراً عنده، ولكن حسان قورش الذي كان قائد القلعة قد استبد بالحكم إلى أن أقره عليه السلطان الأعظم. وعندما وصلت السفن جمع حسان كل سفنه وانطلق قاصدا غزو وهران، فحاصرها من جهة البحر ومن جهة البر بثلاثة آلاف من الأتراك وأربعة عشر ألفا من مسلمي مدينة الجزائر وولايتها وبما يزيد عن ثلاثين ألفا ما بين عرب وبربر جاءوا معززين جيوشه. وبوصول أخبار هده الحشود الى عامل وهران(27) قام بتطيير الاعلام الى الملكة يان وكان لها الأمر في غياب زوجها(28) طالبا منها أن ترسل الجنود والعدة والأقوات، ثم قام بترتيب متطلبات الدفاع وعين لكل مكان رباطه تربصا بالأعداء. ونصب آلتين للمدفع إحداهما مصوبة الى جهة باب تلمسان والأخرى على سفح الجبل مصوبة في اتجاه ركن السور حيث يلتقي جدار القلعة بجدار المدينة. ولما بلغ حسن الى برج الصالحين الواقع خارج المدينة بقصد التحكم في العين التي تأتي منها المياه الى وهران وتمكن بذلك من تشديد الخناق على هذه المدينة وصله أمر السلطان الأعظم بإعادة السفن، إذ احتاج اليها لمواجهة أندريا دوريا الذي كان بعيث فسادا في كل جهات الأرخبيل. وكان قد نشأ خلاف بين رؤساء العساكر حول الهجوم، وأدى ذلك كله إلى رفع الحصار وعودة العساكر إلى السفن، وتربب عن هده العملية هلاك بعض الرجال وضياع بعض قطع المدفعية بسبب الانزعاج أمام القوات المرابطة في وهران.

كيف هجم حاكم وهران على مستغانم
وكيف هلك في الهجوم

ولما انسحب الأتراك، جاز عامل وهران الى إسبانيا، وذهب الى بلد الوليد حيث حظي باستقبال أفراد البلاط، وبعد أن قبل يدي الملكة بان التي كانت تحكم قشتالة حينئذ، طلب من مجلس الحرب أن يمده بستة آلاف محارب يغزو بهم مستغانم لأن أخذها يسهل الاستيلاء على مدينة الجزائر، وكان الشريف وعرب

26) يحيى
27) مارتين القرطبي
28) د. فيليب

مليانة قد وعدوا أهلها بالامداد بالحراس والأقوات. وكان من دعائم المشروع الذي اقترحه حاكم وهران ما كان بين المسلمين الأفارقة والأتراك من عداوة، وقد وافقه عليه رئيس(29) مجلس الحرب وماركي أندوجار بينما عارضه الأعضاء الآخرون محتجين بما هو مرجح من كون الشريف والأعراب لم يعطوا وعدا قاطعا بمساندة الغزو، فلن يلبثوا أن يتراجعوا، وأن الأتراك سيحبطون كل تآمر باستعمال الفقهاء، وسيعملون ما في وسعهم لإثارة الناس بقصد منع العرب من الوفاء بوعدهم، يضاف الى ذلك أنهم إذا ما سمعوا بخبر نزول جيش النصارى سيدفعون بكل قواتهم في مستغانم ويزعجون للحاق بها ما لديهم من قوات مدينة الجزائر وتلمسان بحيث تتعذر مواجهتها. ومع ذلك فقد أعطى العامل ما طلب في نهاية الأمر فاستطاع أن يعبيء عددا من الناس فأقلع من مالقا ومعه عدد من نبلاء الأندلس ومملكة غرناطة. كان خروجه من وهران يوم السادس والعشرين من شهر غشت ومعه ستة آلاف وخمسمائة من نخبة الرجال وعدد من آلات المدافع تجرها العساكر. وتوجه على طريق الملاحات وعلى امتداد ساقية تَرْهال متظاهرا بأنه قاصد سهول سيرات. وفي اليوم الرابع انحرف متجها إلى بادية قيقناق فوصل الى مزغران حيث دخل في مناوشة كبيرة مع المسلمين في تلك الجهة، وتمكن من هزمهم، فوالت عساكره طريقها حتى وصلوا أمام أسوار مستغانم حيث قتلوا ما يزيد على ثلاثمائة من الأتراك والمسلمين المغاربة. وبعد هذا الانتصار أباح الكونت مزغران لجنوده الذين لم يحملوا معهم الأقوات، إذ كان من المنتظر أن تصلهم عن طريق البحر، ولكن سكان مزغران كانوا قد فروا إلى المدينة وحملوا معهم كل ما في البوادي من خيرات، فما أن علموا برجوع الكونت بجنوده حتى ساورهم الشك حول مقاصده، ولذلك دخلوا مستغانم بقصد الاحتماء بأسوارها ومعهم أمتعتهم وسلاحهم، وكانوا قد أعلموا حاكم مدينة الجزائر(30) طالبين منه إنجادهم. وبينما كان الجنود فارغي الأيدي من الأقوات مترقبين وصول السفن التي كانت تحملها اليهم، إذا بهم يشاهدون مرور أربع سفن ملكية نصرانية وقد جرتها أسيرة خمسة مراكب صغيرة في ملك مدينة الجزار. وكان ذلك نتيجة واقعة تسعة، إذ أن تلك السفن التركية كانت راجعة بعد نهب مدينة أندلسية صغيرة(31) فلقيت القواديس

29) حوان الفيكّي
30) حسان باشا ابن باربروس
31) سان مستيل

النصرانية في طريقها إلى مستغانم فاستولت عليها بما فيها من عدة وأقوات. ومن جهة أخرى قام عامل(32) تلمسان بإصدار أوامره الصارمة بألا يحمل عربي أقوانا الى معسكر النصارى. وكان ذلك بمثابة ضربة قاسية للأسبان. وقد جمع القائد مجلس الحرب على عجل، وكان من رأي بعض أعضائه الرجوع الى وهران والعسكرة عند أسوارهاللتربص بالأعداء والتمكن من قضاء الحوائج الضرورية، بيما يقوم الجنود ببعض عمليات القرصنة للترويح عن أنفسهم. أما الاخرون فكان من رأيهم التعجيل بقتال مستغانم والاستيلاء على ما فيها من الأقوات التي تكفي حاجة الجند في انتظار وصول إمدادات وهران. وكان القائد من الشجاعة بحيث تحمس لهذا الرأي الأخير. ولما تبين ان كرات المنجنيق غير متوفرة أمر بإقلاع باب مدينة مزغران ونفذ ذلك جنود ماهرون في البناء، وصنعوا منها ثلاث عشرة كرة صالحة لمنجنيق كان الجنود يجرونه، وفي الغد أمر فرسان وهران بحمل تلك الكرات على قرابس سروج خيلهم وحمل ما توفر من البارود واتجه نحو مستغانم بصحبة مجموع الجنود وخرج من كان داخل المدينة من الأتراك ومسلمي المغرب لمواجهة طليعة جيش النصارى، وما لبثوا أن اضطروا الى التراجع، واستمر الجنود في تقدمهم، وتسلق بعضهم فوق الجدار، وكان من بين المهاجمين حامل الراية. ويقال ان المدينة كانت على وشك الاستسلام ذلك اليوم لولا أن القائد أمر بالانسحاب حتى يتسنى له معاقبة حامل الراية لأنه هاجم دون أن يصدر إليه أمر بذلك. ولما وصلت جميع الكتائب وعسكرت أمام المدينة أمر القائد بأن يقام حاجز من أغصان أشجار التين والعنب المجاورة اتقاء لهجمات فرسان العدو. وأثناء تلك الليلة قام الجنود بحفر خندق محيط بمحالهم ونصبوا آليتين للمدافع لضرب الحصن من جهته الجنوبية. وفي الغد وجهت سبع ضربات أو ثمان الى ركنين من أركان سور الحصن، ولم يكن لها تأثير كبير لأن آلات القذف أعلى مما ينبغي بحيث كانت تمر فوق السور وتسقط في البحر. وفي ذات اليوم أمر القائد(33) بعض مساعديه من رؤساء المشاة(34) بمهاجمة ربض محاذ لأسوار المدينة لأن الأتراك كانوا يقتلون انطلاقا منه عددا من الأشخاص بواسطة بنادقهم. وقد استولى النصارى على ذلك الربض بعد استماتة مشهودة للأعداء، وقد كانوا ينتقلون من دار إلى دار

32) أولج علي المراشي

33) كونت القاوديت

34) الدون ديكو دي كابرا وفراسيسكو دي فيرا وجوان دي ألبير وفيرناندو دي سيسا

عن طريق ثقوب يحدثوها في الجدران. كما أحدثوا ثقوبا ليضربوا منها. وبعد أن تم للقائد(35) الاستيلاء على الربض ترك فيه ست كتائب. وفي صباح الغد كان يرتب هجوما جديدا عندما بلغه الخبر بأن أتراك مدينة الجزائر قادمون لإنجاد المدينة وهم يستحثون الخطى، وهم على وشك الوصول وقد شوهدت في كتائبهم أعلام حمراء متعددة علامة على أن عامل(36) مدينة الجزائر كان بشخصه في ذلك الزحف. ولكن الكونت لم يصدق تلك الحقيقة واستبعد أن يكون تقدم الأتراك على تلك الهيئة، وظن أن تلك الحشود مكونة من سكان تلك الجهات وإنما رفعوا الأعلام عن قصد حتى ينخدع النصارى ويفكوا عنهم الحصار. وهكذا أمر ولده(37) بأن يذهب بصحبة بعض الرجال حتى يقترب من أولئك المتقدمين ويكشف حقيقتهم ولما وقف الولد على حقيقة الأمر عاد أدراجه الى والده وطلب منه أن يمده بأربعة آلاف من الرجال لكي يهاجمهم ليلا، أملا في هزمهم، وقد استبد بهم التعب، وبذلك يتسنى له الاستيلاء على أقواتهم وعدتهم لأن كتائب النصارى كانت في حاجة إليها ولا تنتظر الحصول عليها من جهة أخرى، وبعد ذلك ستتمكن من العودة الى إقامة الحصار. ولم يقتنع القائد بأن تلك الخطة أنجع خطة في قتال الأعداء. ولكن ولده ومعه بعض الضباط أصروا على أنهم سيقومون بالزحف في غد ذلك اليوم إذا هم لم يتلقوا الأمر بالهجوم. وأجابهم بأن ذلك لن يتأتى لهم. ولم يحدث أحدا بما بيته من تدبير، ذلك أنه أعطى في تلك الليلة نفسها لكل صاحب بندقية باعين من الفتائل ورطلا من البارود، وبعد منتصف الليل رحل بجيشه سرا واتجه الى مزغران عاجلا حتى إنه ترك عددا من الجنود الجرحى أو المرضى في الاخصاص، وما لبثت صيحاتهم أن ارتفعت لأن الأتراك ومسلمي البلد قد خرجوا اليهم وأجهزوا عليهم. ولم يتمكن من قطع المسافة في المدة التي قدرها لأن عجلة أحد المدافع قد عطبت واضطر الجيش الى التوقف الى قرب الإصباح لأن القائد رفض التخلي عن تلك القطعة الحربية وإن كان بعض الضباط قد نصحوه بدفنها في الرمال والجواز بالجنود فوقها حتى تنطمس كل المعالم التي قد تؤدي بالأعداء إلى إكتشافها. ولو كان استمع الى تلك النصيحة لوصل الجيش الى مزغران في الوقت المناسب ولكانت الأمور قد جرت على غير الكيفية التي وقعت عليها بسبب التأخر في الطريق. فما أن رحل الاسبانيون حتى بادر سكان

(35)
36) حسن باشا
37) اللون مارتين القرطبي

المدينة الى إعلام حسن باشا الذي تعقبهم دن توقف وأدرك مؤخرتهم عند بداية النهار على مقربة من مزغران. وقد خشي الجنرال من استيلاء الأتراك على منبع قريب من المدينة هو المصدر الوحيد لماء المدينة، ولذلك أصدر أمره للجنود بالاستيلاء عليه وبإقامة بعض الحاميات في المدينة. ولما وصل الجنود الى قريب من المنبع تسابقوا في غير انضباط لأوامر ضباطهم لأن العطش قد استبد بهم، وفي تلك الحال من التشتت جاءهم الأتراك مهاجمين من ناحية وجاء العرب من ناحية أخرى فصاروا في غاية الارتباك وأفلت الزمام من يد قائدهم الذي كان في المقدمة بحيث لم يستطع أن يوقفه، كما لم يستطع ابنه الذي كان في الخلف أن يمسكهم لكي يقلب وجهتهم ويرتدوا لمواجهة العدو، وساروا على ما هم عليه من الفوضى إلى قريب من مزغران، وكان الأتراك والعرب لا يكفون عن تقتيلهم وضربهم. وفي تلك الأثناء وصل الأتراك الذين جاءوا على متن سفن صغيرة(38) فنزلوا الى البر، ووصل الذين قدموا من تلمسان فهاجموا جيوش النصارى من جميع الجهات وهم مرتبكون لا يقدرون على المقاومة بسبب ما نالهم من الجوع والعطش والاعياء. واستمر الأمر كذلك الى آخر النهار، فكان مما زاد في تعاسة النصارى أن اشتعلت النار في ما تبقى من براميل البارود واحترق بتلك النار أكثر من خمسمائة جندي كانوا حراسا بقرب الأسوار. وعندما شاهد القائد ما آلت اليه الأمور حيث إن الجنود يجرون وسط المدينة فزعين على غير هدى ولا ينضبطون في صفوف صالحة لترتيب القتال، أراد أن يقوم بهجمة قوية على العدو لكي يتمكن من إبعاده وكسب الوقت اللازم لتنظيم جيوشه. وحرض فرسه بكل ما يملك منطلقا في اتجاه العدو وهو ينادي : بالقديس جاك النصر لنا. فعل ذلك مرتين أو ثلاثا دون أن يتبعه أحد. بل إن الجنود لم يفتأوا يتدافعون برعونة للاحتماء داخل المدينة. وعندئذ دخل القائد الى القلعة من باب سرية عازما على إخراجهم وسوقهم الى القتال، ولكنه لم يقدر على اختراق الحشد المندفع فرارا الى الداخل، بل إن فرسه قد حرن به وثار ملقيا بركابه من فوق ردفه فداسه جمهور الجنود الذي كان مهتما بخلاصه أكثر من إهتمامه بواجبه، وذلك فرارا أمام الأتراك الذين يطاردونه، وحيث إنه متقدم في السن فسرعان ما اختنقت أنفاسه ومات مداسا بأقدام جنوده، وكانت كارثة ضاعت فيها هذه المدينة من النصارى بعد أن هلك منهم ذلك العدد الكبير من الرجال. وقام الفارون الذين دخلوا المدينة بدفن جثته في المسجد، ولم يمض سوى وقت وجيز

38) تحت قيادة أولج علي الفتاسي

حتى استولى الأتراك على المدينة وقبضوا على ولده الذي حاول أن يدافع عن نفسه، كما قبضوا على جميع الجنود الذين لاذوا بها. وفي تلك الليلة نفسها قام حسان باشا بوضع الحراس على الأبواب حتى يمنعوا العرب من الدخول الى المدينة بقصد قتل النصارى الذين استسلموا. ولكن رؤساءهم جاءوا في الغد يطلبون نصيبهم من الأسرى جزاء على ما واجهوا من المخاطر ولأنهم إنما ناصروه على حساب النصارى. وأمر بأن يسلم اليهم ثمانمائة من النصارى، ولما تمكنوا منهم قتلوهم طعنا بالمزارق. وبعد ذلك أمر الباشا بأن يقع البحث عن قائد جيش النصارى، ولما أخبر بأنه مات ودفن بالمسجد أمر بالنبش عليه لكي ينظره إعجابا بشجاعته، ثم سلم جثته لولده مقابل ألفي دوقا، وأقيمت له جنازة في وهران. وعاد الباشا منتصرا إلى مدينة الجزائر واستقبله أهلها بحفاوة كبرى.

هجوم حاكم الجزائر على وهران وعلى المرسى الكبير

بعد الاستيلاء على مزغران رأى عامل مدينة الجزائر أن الفرصة سانحة لغزو وهران التي طالما تشوق الى فتحها، فجعل يعد ما يلزم للحصار من علة ويصلح السفن، وأمر من كان إلى نظره من العمال بأن يكونوا على أهبة الزحف. وعندما تم كل شيء على ما يرام كتب الى صاحب كوكو(39) وصاحب جبل بني عباس بأن يقدما عليه بعساكرهما فواعده بذلك على شرط أن لا يكون الزحف ض الشريف(40) كما هو شائع في مدينة الجزائر. ومن جهة أخرى أصدر الباشا أمره ا عامل تلمسان بأن يقيم رجاله في حراسة ممر سيرت لكي يمنع الأعراب من إيصا الأقوات الى وهران، ثم أمر أمير البحر(41) أن يتوجه بأسطوله بعد حمل المدافع والذخائر والأقوات الى مرسى أرزيو حيث سيجد هنالك أمرا بما يتوجب عليه أن يفعله، وبعد أن نصب عاملا(42) على مدينة الجزائر غادرها في الخامس عشر من شهر ماي عام ألف وخمسمائة وثلاثة وستين قاصدا مدينة مستغانم، وهنالك انضم اليه ستة آلاف من رجال زواوة بعث بهم لتعزيز صفوفه صاحب بني عباس

39) ابن القاضي
40) عبد الله
41) قورس نار
42) علي الشتيوي

وانضم اليه مثل ذلك العدد ممن أرسلهم صاحب كوكو مع ولده كما انضم اليه عدد من العرب والبربر، وتوجه الى مزغران ومنها الى ممر سيرت الذي كان يحرسه صاحب تلمسان. وبعد ان اجتمعت له كل الحشود هنالك مر الى آبار دييكو بيريز، ومنها أرسل فرسانه منطلقة الى إن بلغت أبواب وهران وقصده أن يتأكد من جرأة حاميتها على الخروج للمناوشة. كان عاملها حينئذ الدون الفونسو القرطبي كنت الكاوديت، وكان قد خلف أباه(43) في تلك العمالة، وقد حظر الخروج من المدينة مما حمل العدو على الانسحاب والنزول على بعد فرسخ من وهران في مكان لا توجد به آبار. ومن هنالك كان حسين باشا يرسل كل يوم رجاله لشن الغارات، وكان حاكم وهران مشغولا عن ردهم بإقامة التحصينات. ومع ذلك فقد أرسل على عجل غنصالو هيرنانديز الى إسبانيا ليخبر بمجيء الأتراك ويلتمس من الملك فيليب التعجيل بإرسال ما هم بأمس الحاجة اليه من الأقوات وعدة القتال. وفي تلك الأثناء أبلغ الباشا لقواده الكبار خبر ما هو عازم عليه، واستقر رأيهم على أن يبدأوا بالهجوم على المرسى الكبير حتى يكون ملجأ للأسطول عند الاقتضاء سيما وأن التغلب على هذه المدينة كان أيسر في نظرهم من التغلب على وهران حيث كان الكونت متربصا لهم بجيشه البحري. وفي نفس اليوم قام الباشا باستطلاع لمدينة وهران من جهة الجبل وبمعيته مهندس وعدد مر الضباط، ودخل هنالك في مناوشات مع النصارى دامت عدة ساعات، ولم يحل ، لك دون قيام الأعداء باستطلاع أحوال المدينة من هذه الجهة. وبعد ذلك انسحبوا وقاموا باستطلاع أحوال المرسى الكبير وحصن القديس ميشيل الذي كان الكونت قد بناه للدفاع عنها. وذهب الباشا ليعسكر على مقربة من المنبع الأعلى الأقرب من وهران ر بعيد عن حصن الصلحاء وظل ينتظر هنالك وصول سفنه الحربية ولكنه كان ـعرضا للقصف انطلاقا من المدينة. وكان الجنود الذين أقامهم الكونت هنالك يسددون ضرباتهم لكل من ابتعد عن المعسكر، فغضب الباشا وأمر بالهجوم، وكان الجنود النصارى قادرين على مدافعة الهجوم لولا أن أحد الخونة خرج قاصدا الباشا ورجع موعدا بأنه سيخلي سبيل الجنود لكي يلتحقوا بوهران بأسلحتهم إذا ما سلموا إليه المدينة. وهكذا استسلموا على أساس ذلك الاتفاق. وتأثر الكونت لضياع تلك المدينة تأثرا عميقا، وطير الاعلام الى إسبانيا يستعجل النجدة، ولكن النجدة لم تصل اليه بالسرعة المطلوبة لأن السفن لم تكن متوفرة حيث إن سفن

43) الدون مارتين

إسبانيا قد ضاعت منذ وقت قريب، وكان القائد(44) قد غرق وغرق معه عدد من جنوده في طريقه لتدارك الموقف في افريقيا. ولم يكن في وسع المحاصرين، والحالة هذه. سوى انتظار سفن إيطاليا وسفن أخرى كان تجهيزها جاريا في برشلونة. وفي تلك الأثناء أعطى الأمر للدون ألبار باسان لكي يجهز أربعا من السفن السريعة كانت تابعة له، وكان يتعهدها صاحب الدير والقناصل، وأمر بأن يحملها بأكثر ما يمكن من الأقوات ويحاول إيصالها الى وهران. كما أعطى الأمر للقس لوبيان لكي يبحر بسفينته ومعه أربعمائة من جنود قارطاخنة ويحاول إيصالهم إلى المدينة، وأمر المتعهدين في مالقا وقارطاخنة بأن يرسلوا في قوارب وسفن صغيرة أكثر ما يمكن من الأقوات والذخائر. وتم تنفيذ تلك الأوامر بسرعة فائقة. أما الباشا فقد قرر بعد استيلائه على برج الصالحين أن يهاجم حصن القديس ميشيل الذي يتحكم في مدينة المرسى الكبير. ودفع بعدد من جنوده لحصار المدينة وعسكر بالباقين وراء تل(45) يحميه من الضرب إنطلاقا من المدينة، وعمر أبراج روي دياز. وبعد ذلك أرسل بعض الأتراك بقصد استطلاع الخندق المحيط بالمدينة، وأرسل مرتدا الى النصارى يقول لهم إنهم يستطيعون الخروج أحرارا من المدينة بأسلحتهم وأمتعتهم وأنه سيمدهم بسفن تنقلهم الى إسبانيا إذا هم فضلوا الجلاء. ولكن ضباط النصارى سددوا ضرباتهم نحو ذلك المرتد الذي جاء بذلك الاقتراح. وغضب الباشا لذلك التصرف ولم ينتظر وصول المدافع، بل أمر بالشروع في ردم الخندق بحزم من الأغصان وأمر بالهجوم معتقدا أنه سيأخذ الحصن على الفور. ولكن آمال الأتراك سرعان ما خابت، حيث قتل منهم عدد كبير بضربات المدفع وبنادق النار وألقيت الشهب على حزم الأغصان التي وضعها الأتراك على الخندق لكي يمروا عليها، وتسبب ذلك في تصاعد دخان كثيف تعذرت معه الرؤية، ولم تتوقف المعركة مع ذلك، بل استمرت الى أن قام الباشا يسحب جنوده لكي يعوضهم بجنود آخرين وقاتلوا بضراوة وأرغموا النصارى الذين كانوا يقاتلون تحت الأسوار على التراجع إلى داخل المدينة. ونصب الأتراك السلاليم ظانين أنهم قادرون على اقتحام المدينة على الفور. وبعد صراع عنيد من الطرفين رد الأعداء على أعقابهم بفضل شجاعة المدافعين. وفي تلك الأثناء بعث الدون مارتان القرطبي، وكان في مدينة المرسى الكبير، بنجدة إلى من بداخل

44) الدون خوان دي ميندوسا

45) كوردو

الحصن قوامها أربعمائة من الجنود، واستؤنف القتال بضراوة، ولم يتوقف إلا عند الساعة الثانية ليلا. ولما رأى الأعداء أن محاولاتهم غير مجدية سحبوا رجالهم بعد أن خلفوا في الميدان عامل قسطنطينة وأزيد من خمسمائة من الجنود الانكشارية أو الأتراك الشجعان بينما لم تفقد الحامية سوى عشرين من القتلى ومثل ذلك العدد من الجرحى. وقرر الباشا عندئذ أن ينتظر وصول المدفعية، وأمر قائد(46) أسطوله بأن يبذل ما في وسعه لكي يلحق بمدينة المرسى الكبير، حتى ولو أدى الأمر الى خسارة بعض السفن لأن وصوله كان ضرورة قصوى. وفي ذات الوقت بعث بأحد المرتدين(47) ليستطلع أمر المعتصمين بالحصن من النصارى ظانا أن الحصار سيرعبهم. وعندما وصل ومعه علم أبيض لطلب الأمان التمس أن يكلم اللون مارتان القرطبي وكانت تجمعه به مودة عندما كان اللون أسيرا بمدينة الجزائر. وحمل من المدينة الى الحصن ليتحدث اليه. وبعد لقاء بينهما رده اللون مارتان وأمره أن يقول لحسين باشا إنه إن كان يسعى لأخذ تلك المدينة لحساب أميره فإنه من جهته مطالب بالدفاع عنها، وفيما عدا ذلك فهو على استعداد لأية خدمة أخرى يطلبها منه. وفي تلك الأثناء تقدم جيش البحر التابع لمدينة الجزائر، وكان قوامه ستا وعشرين سفينة وقادوسين سريعين وسفينتين أخريين من عمل فرنسا. وكانت كلها محملة بالذخائر والآلات. دخل في يومه الأول بالمكان الذي يدعى بالمياه، وهنالك أفرغت السفن حمولتها من الذخائر وعم أهل المعسكر بسبب ذلك فزع عظيم، ولم يلبثوا أن حاصروا مدينة المرسى الكبير برا وبحرا. وأمر الباشا بأن توضع القواديس الحربية في حراسة المرسى وفرضتها حتى لا تتسرب اليها أية سفينة من سفن النصارى. وبعد ذلك نصب سرية مدفعية في أعلى تل من جهة البر. وبدأ يوم الرابع من شهر ماي في ضرب الحصن بواسطة مدفعين كبيرين وبعض القطع الصغيرة. ولما رأى انعدام جدوى تلك الوسائل دعم مدفعيته بأربعة مدافع كبرى استطاع بها في غد ذلك اليوم أن يدمر كامل الجدار الأوسط للسور. وبذلك تمكن من إعطاء إشارة الهجوم في ذلك المساء ولكن رجاله واجهوا مقاومة مستبسلة وإن كان المحاصرون الذين يقاتلون بلدون تغطية .يعانون معاناة أعنف وأقوى من ضربات المدفعية التى كانت تنهال عليهم من الخلف. ومن جهة أخرى كان اللون مارتين يضرب بمدافع المرسى الكبير في الجهة التي كان فيها الأعداء

46) قورش بار

47) مصطفى

بدون غطية، وكانت النتيجة هي استمرار المعركة إلى أن أظلم الليل حيث انسحب الأتراك وقد لحقت بهم بعض الخسائر. وفي تلك الليلة نفسها أرسل الدون مارتان خمسة وعشرين من رجاله مزودين ببعض القنابل والحراقيات لكي يلتحقوا بالحصن، ووقع الشروع في إصلاح الثلمات حتى يتأتى الدفاع بأحسن ما يمكن في يوم الغد. وقام الباشا بمعاودة الهجوم في بداية الصباح، وفي وقت قصير تمكن من تحطيم التحصينات الجديدة التي أقامها جنود النصارى. وبعد ذلك هاجم من المكان نفسه واحتدم القتال إلى حد كبير، واضطر من هم بالداخل الى إظهار كل ما يملكون من قوة، وشاء الله أن يستبسلوا في القتال حتى اضطر الأعداء الى الانسحاب بعد ان تكبدوا خسارة عظمى. وعاد الباشا إلى الضرب بالمدفع لتوسيع ثلمة السور، وبعد ذلك بحوالي ساعة ونصف هاجم من جديد ووجد مقاومة لا تقل عما وجده من قبل. وانسحب الأتراك في مثل حال انسحابهم السابق. وأدى الغضب بالباشا الى الضرب قصد الهجوم، وواجههم النصارى بالنار والحديد حتى أجبروهم على الانسحاب بأسرع ما يمكن تاركين الخندق وقد امتلأ بجثث الأتراك والمغاربة المسلمين. ولم يفت كل ذلك من عزيمة الباشا، وأيقن أن المحاصرين قد تعبوا في القتال إلى حد يجعلهم غير قادرين على الاستمرار في المقاومة، ولذلك أمر بأن يباشر الضرب بالمدفع في نفس ذلك اليوم. وأمر بأن يباشر الهجوم الخامس والشمس مائلة إلى الغروب. ومع ذلك لم يكن حظه أسعد من ذي قبل، ذلك لأن الجنود والضباط قد استبسلوا في الدفاع وظل الخندق مكتظا بالقتلى. وفقد المحاصرون أكثر من ثلاثين جنديا. وأصيب منهم زهاء الخمسين بجروح. وأرسل عامل وهران استجابة لطلب الدون مارتان سفينة صغيرة وبضعة قوارب وعلى متنها قبطان(49) ومائة وثلاثون من الجنود، وتمكن لحسن الحظ من الوصول الى المرسى الكبير لأن العاصفة كانت قد أبعدت سفن العدو. وما أن وصلوا حتى قام الدون مارتان بإرسال رجال يخففون عمن بداخل الحصن، وشرع بواسطة هذه النجدة في إصلاح الثلم في جدران الحصن. وفي يوم الاثنين الذي هو السابع من شهر ماي عزم الباشا على أن يشارك بنفسه في الهجوم. وبعد أن أمر باستعمال جميع مدافعه لتحطيم حواجز الدفاع انطلقت عساكره دفعة واحدة في هجوم عارم وهم يصرخون بأصوات عالية. وتبين أن الامدادات وصلت إلى النصارى في الوقت المناسب ولذلك كانت المعركة عنيدة حامية الوطيس. وكانت

(49) بيدرو دي ميلدوسا

الثلم في الجدران كبيرة تتسع لدخول الفرس. وقد تسلق اليها عدد من أفراد العدو. ولكن الاسبان قاتلوا كالأسود، وقد انكشفوا من خلال الثلم وهم يجهزون على كل من يحاول التسرب منها، يطيحون بالسلاليم التي ينصبها العدو في الأماكن التي فيها ثلم مرتفعة، ويلقون بالقنابل والحراقيات وبراميل القير، يحرقون بها المهاجمين. وبينما هم كذلك إذ استطاع بعض الجنود من الترك أن يتقدم ويرفع علم الباشا فوق السور، ولم يزد على ذلك لأنه قتل في الحين، واضطر الأعداء الى التراجع تاركين من القتلى عددا من شجعانهم الانكشارية المشارقة الذين أرادوا الظهور أمام قائدهم. وسرعان ما استأنفت المدفعية ضرباتها بأمر من الباشا ظنا منه أن المحاصرين قد استبد بهم التعب ولم يعودوا قادرين على تحمل أي حهوم. وقد أعاد الكرة عليهم من جهة الجنوب بضراوة وحماسة، حتى إن بعض الأتراك والانكاشريين صعدوا فوق السور ومن ورائهم ثلة من الجنود وهم يصرخون، ونصبوا فوق السور علمين من أعلامهم، ولكنهم تعرضوا للضرب الشديد من المحاصرين الذين ضاعفوا من قوتهم حتى إنهم استطاعوا بضربات السيوف والحجارة والرماح والاطبار قتل أكثر من ألف من الأتراك والمغاربة وجرحوا منهم عددا كبيرا كذلك. وفي نفس الوقت قتل بضربات مدافع القصر الكبير اثنان من كبار القواد وهما بجانب الباشا الذي كان يحرض جنوده ويحمسهم بوجوده. وقد جرح هو بحجارتطم بالأرض وارتد الى وجهه. ولكن تلك الاصابة قد شجعته بدل أن تثبط عزيمته، فكان أن تقدم بالمهاجمين نحو مكان الخرق الواقع بالسور وهيج حماسة رجاله في الهجوم، ولكن استماتة المحاصرين جعلت أعداءهم يرتدون عن السور والخندق ويلوذون بملاجئهم، وفي أثناء الليل لم يزد عدد الامداد من جنود وهران عن خمسين جنديا لأن التعب قد بلغ غايته من الجميع. ولما رأى المحاصرون أنهم لن يتمكنوا من الدفاع عن ذلك الموقع إلى النهاية وأن الوهن قد بدأ يتسرب اليهم سيما بعد تكاثر جرحاهم قرروا الانسحاب، ومن أجل ذلك أرسل قواد العساكر ثمانية من الجنود الى اللدون مارتين لكي يلتمسوا منه إخراج بعض الكتائب لتساعد على حمايتهم عند الانسحاب، ولكن الباشا أراد منعهم من ذلك ووضع الحرس في طريقهم وكان أن قتل أربعة من اولئك الجنود وأسر ثلاثة واستطاع ثامنهم أن يتسرب من بين صخور الشاطىء ووصل الى البحر واجتاز سابحا الى المرسى الكبير وقام بمهمته. وعلى إثر ذلك أرسل اللدون مارتين قائده فيرناند كاركام وبمعيته مائة من الفرسان لكي يساعد على انسحاب الحامية من الحصن. وكانت قد بدأت في الخروج والنزول من جهة الجبل تاركة الجرحى بداخل الحصن، وقد اعترضها جنود

العدو وخلصها منهم القائد فيرناند، وتمكن من الجواز الى الحصن وإخراج الجرحى وقدمهم أمامه وقاتل الى ان تمكن من الوصول الى المدينة تحت غطاء ضربات المدافع، ولم يفقد من جنوده سوى ضابطين وعشرة أو اثنى عشر من الجنود. ولما أخلى النصارى الحصن إستولى عليه الأتراك معتقدين أن أمورهم على ما يرام. وقاموا بنصب مدفعين ومدفع ثالث محنش على سفح الجبل، وشرعوا من هنالك في ضرب المدينة ما بين الشعب وبرج الغدر لأنها الجهة الضعيفة التحصين. أما الدون مارتين فقد قام بتوزيع المحلات على القواد والجنود وعين لكل واحد مهامه ومجاله ووجد في تعداد الكتائب أربعمائة وخمسين من المقاتلين، ثم أمر بإقامة أسوار وأبراج في الممرات وفي أماكن أخرى تقتضي ذلك، ونصب المدافع بحيث يستطيع إحكام ضرب العدو، وسار في كل أمره سيرة القائد الماهر النبيه. وقد استمر الأتراك في الضرب بالمدافع، ولما كانت ضرباتها من بعيد قليلة الجدوى فقد عملوا الى نصب ستة مدافع أخرى على بعد حوالي ثلاثمائة قدم فوق ربوة أخذوا يسددون منها لضرب السور ما بين برج الغدر والشعاب، وبينما هم كذلك كانت مدافع المدينة ترد عليهم بضرباتها وتقتل عددا من المشغلين للمدافع التركية ومن المعتصمين بالخنادق ومن الموجودين في المعسكر، واستطاعت أن تحطم مدفعين من مدافع العدو. ومن جهة أخرى كان الأتراك يزحفون نحو المدينة بواسطة الخنادق، وقد توصلوا الى نصب مدفعية ثالثة مركبة من ثلاث قطع يريدون بها إحداث ثلمة في السور من هذه الجهة وتحطيم آليات الدفاع. وما لبثوا أن أقاموا بطارية رابعة من أربع قطع يضربون بها من جهة البحر بقصد تحطيم الجدار الواقع بين البرجين، ثم مدفعية خامسة لتحقيق نفس الغرض من جهة البر وقد تمكنوا بواسطة هذه الأدوات المدفعية من أن يحطموا في مدة يومين شطر الجدار الواقع بين الشعب وبين برج الغدر حتى صار بإمكان الفارس أن يدخل منه، كما حطموا الجدار الواقع بين البرجين. وعندئذ أرسل الباشا من قبله من يقف على تلك الثلم المحدثة في الأسوار وينذر الحامية التي بالداخل بوجوب تسليم الحصن على أن يعاملوا معاملة لينة. ولكن أفرادها أجابوا بالرفض مظهرين تعجبهم من كون الباشا يتردد في الهجوم بعد أن أحدث من التغرات في السور مما يسمح له بذلك. ولما رأى الباشا أن الأمل في التوصل الى إتفاق، جمع رؤساء عساكره وأمرهم بالهجوم في غد ذلك اليوم وأرسل كل واحد منهم الى محلته لكي يأخذ ما يجب من الاستعداد. وفي صباح يوم الهجوم استعمل الأتراك مجموع قطع مدفعيتهم حتى يتمكنوا تحت غطاء دخانها من الزحف نحو الثلم الواقعة في السور دون أن يتعرضوا لخسارة

كبرى. وفي البداية تقدم اثنا عشر ألفا من عساكر مسلمي افريقيا ما بين عرب وبربر لكي تفرغ فيهم نيران مدافع النصارى وبنادقهم. وبعد ذلك دخل المعركة عساكر الانكشارية والأتراك ومن انحاش اليهم من النصارى المرتدين. وفي الأخير خرج الباشا ومعه معظم جيوش مدينة الجزائر وكذا حرسه الخاص وكلهم قصدوا الثلمة الواقعة بين الشعاب وبرج الغدر. أما من جهة البحر الهائج فقد زحف الأتراك وأهل قسطنطينة وعنابة وتنس ومستغانم ومعهم عدد من العرب يحملون السلاليم لأن الثغرة في هذه الجهة كانت على قدر من العلو، أما غير هؤلاء من العساكر فقد وقفوا على استعداد لخوض المعركة متأهبين للالتحاق بالمكان الذي يدعون إليه، وعندما اقترب الأعداء من السور حمي وطيس المعركة وصمد الجانبان، وبادر القادمون من جهة البحر الى تركيب السلاليم، ثم شرعوا في تسلقها بشجاعة حتى توصلوا الى وضع علم فوق السور. ولكن المحاصرين أسرعوا اليهم وقلبوا السلاليم الى الأسفل وقتلوا عددا من المقتحمين وجرحوا آخرين وانتزعوا ذلك العلم المنصوب وقتلوا التركي الذي كان يحمله. وكان الباشا يجدد رجاله باستمرار ويلحق بواسطة المدافع أضرارا بالغة بتحصينات العلو. وكان المحاصرون يستعملون أنواعا من نيران المفرقعات والحراقيات لقتل الأتراك ومسلمي المغرب الذين يحاولون التسلق حتى امتلأت الثغرات بجثث القتلى. ودام الهجوم أكثر من أربع ساعات، وتوغل الأعداء الى حصن الجنويين، ولكن إعصارا عنيفا منعهم من التقدم الى أبعد من ذلك، بل اضطرهم الى الانسحاب الى خنادقهم وكانت غير مأمونة بسبب ما انحدر اليها من سيول الأمطار من الجبال. وفي هذا اليوم مات محمد شيبالي والي القلعة ومامي الرايس الذي أصله من نابولي مع عدد من رؤساء الخمسمائة من عساكر الأتراك الذين من بينهم عدد من الانكشارية والمشارقة والبربر وبعض من العساكر الشجعان، كما جرح منهم عدد آخر. ولما انسحب الأعداء التحق بهم جذاف إحدى القوارب وأعرب للأتراك أنه يريد أن يكون منهم وأخبر الباشا بأن المحاصرين يتحصنون من الجهة التي سددت اليها المدافع ولا يتيسر الاستيلاء على الحصن ما لم تحول المدافع الى جهة أخرى، وبين له جهة الضعف التي يتعين ضربها لأنها الجهة التي يتخوف النصارى من أن يهاجموا منها، ونبهه هذا المرتد من جهة أخرى الى ما يتعين من الاحتراس من جهة وهران لأن النصارى يتلقون منها كل ليلة الرجال والعدة، وعندما يتعذر مرور الزوارق يأتي رجل سابحا وهو حامل رسائل في وسط قصب مجوف مغطاة بالشمع وبتلك الوسلة لا ينقطع الاتصال بين الكونت وبين الدون مارتين. وبهذا الصدد أمر الباشا قواربه بالاستيلاء على

صخرة واقعة بين المرسى الكبير وبين وهران وجعل بها حراسة من ثلاثمائة من الأتراك يتعرضون بالأسر أو القتل لكل من رام المرور برا أو بحرا، ونصب مدافع في اتجاه الشعاب عند الموقع الذي عين له. وكان الكونت من جهته على علم بكل شيء. فقد كان في جيش العدو عدد من المرتدين، وكان من بينهم من لا يرضى بمصائب النصارى فلا يتردد في إيصال الخبر الى وهران بما يجري عند الأتراك. وقد وقع أحدهم في قبضة الأتراك المتربصين فوق الصخرة وجيء به الى الباشا فتولى قتله بضربة سهم. ولما تم نصب المدافع من جديد يوم التاسع والعشرين من مايو وجه الأتراك ضرباتهم الى الشعاب بواسطة ثماني قطع مدفعية. وفي أثناء ذلك اليوم وخلال غده الى غاية الساعة الثالثة بعد الظهر تمكن الدون مارتين من إقامة حاجز من الداخل يتكون من البطاريتين، ثم تحصن ببعض الخنادق والمتارس ونصب فيها منجنيقين وبعض قطع المدفعية ووقف والسيف في يده ينتظر بداية الهجوم، ولكن الهجوم لم يقع، إذ حدث أن مدفعيا من الأتراك نسي سدادة من الكتان اليابس في فوهة مدفع فاشتعلت في الهواء عند الضرب به ووقعت على قاعدة المدافع وعلى ركائزها وأحرقتها وامتدت النار الى الخنادق، وكانت كلها من الأغصان ومن أشياء يابسة أخرى، ولم يستطع الأتراك إطفاءها. ولما رأى الباشا أن النصارى قد تمكنوا من تجديد تحصيناتهم في هذه المدة أمر بالشروع في الضرب بالمدافع. وفي ذلك اليوم وصلت الى وهران تحت ضباب كثيف فرقاطتان كان في إحداهما كاتب(50) العامل وكانت الثانية محملة بالذخائر المجلوبة من مالقة. وجاء مع الفرقاطتين الخبر بأن السفن الحربية تتأهب للالتحاق بأسرع ما يمكن لنجدة ذلك الحصن المحاصر، ولما وصل الخبر الى العامل أسرع بإعلام أخيه بواسطة رجل جاز اليه سابحا بالليل، وتلقى الجميع تلك البشرى بابتهاج عظيم، وبلغ الخبر الى الباشا هو أيضا، جاءت به سفينة كانت تقوم بالمطاردة في سواحل إسبانيا، فتأهب للقيام بمجهود أخير، ولمّ لذلك جميع عساكره الموجودين عند أسوار وهران. وما أن رفع الحصار حتى خرج العامل وتعقب العدو ببعض الفرسان والمشاة بقصد التعرف على الوجهة التي يقصدونها، ولما رأوا أنهم ذاهبون للالتحاق بإخوانهم الذين يحاصرون المرسى الكبير توقف بعض الوقت عندما رأى القلعة وقد رفعت أعلامها لتشجيع المحاصرين، وانطلق من هنالك قاصدا إطفاء النار التي أشعلها الأتراك في برج القديس ثم عاد الى وهران. ولما اجتمعت عساكر الأتراك اختلف قوادهم.

50) نوفلو كارسيا

وكان منهم من رأى أن يرجعوا قبل أن يدركهم الجيش البحري القادم من إسبانيا وأن يرجئوا فتح المدينة الى وقت مناسب. ولكن أصحاب هذا الرأي لم يثنوا الباشا عن عزمه، فهيأ جيوشه استعدادا للهجوم، وجعل في مقدمتها العساكرَ التي جاءت من وهران. ووقع القتال من جهة برج الغدر ومن جهة البحر. وسرعان ما تم تجهيز ثمان عشرة سفينة طويلة ركبها ألفان من المشارقة الحاملين للبنادق وتوجهوا بقصد الهجوم على هذه الجهة. ودافع عنها من كانوا مكلفين بحراستها من عساكر النصارى واستبسلوا في القتال واستطاعوا بواسطة المدفعية والبنادق إلحاق أضرار بمن كان على متن السفن من المهاجرين. ولكن المشارقة استطاعوا بمشقة أن ينزلوا الى البر، ثم تقدموا نحو الأسوار عازمين على نصب سلاليمهم، وفي الجهة الأخرى قام الجنود من أهل البلد بالضرب الكثيف بالمدافع ثم تبعهم الأتراكُ والانكَشارية، ولم يفلحوا كما كانوا يتوقعون بل اضطروا الى الانسحاب بعد معركة دامت خمس ساعات فقدوا فيها صناديد جيش مدينة الجزائر وعددا من الجنود الأخرين. وقد حقق النصارى أعمالا بطولية في ذلك اليوم، وفيه جرح الدون فرناندي كاركام في ذراعه بضربة بندقية كما أصيب بضربة حجر في فمه. وجرح عدد آخرون من الجنود الشجعان ولقي آخرون حتفهم تحت ضربات المدافع والبنادق وقد ترك الأتراك أربعة وعشرين سلما على الجدار وفقدوا أكثر من ألف وخمسمائة من الرجال كان من بينهم ستمائة من الأتراك من النصارى الاسلاميين أو من الانكشارية؛ وعندما كان الأعداء ينسحبون وقعوا في طريقهم على عامل تلمسان، ولما علم الباشا أن العامل المذكور مجروح لا يقوى على الخروج من خندقه بعث إلى الدون مارتين يلتمس منه السماح بسحب تركي جرح بضربة مدفع ولم يذكر هويته. ولم يسمح للباشا بما
د، وأمر بسحب العامل مع اثنين من رجاله المجروحين على مقربة منه. ولما رأى
امل ما كان من لطف الدون مارتين جاهر بالدعاء له بالنصر، ولما جيء به أمام الباشا تلقاه بمجاملة كبيرة وعناية فائقة تقديرا لاستبساله في الحرب، لكن حمية الباشا لم تخف بتأثير تلك المجاملة بل إنه شدد الهجوم على الكيفية السابقة وبمزيد من العنف والشراسة. ولكن النصارى لم يفاجأوا بذلك القتال ولذلك لم يحقق نجاحا أكبر مما فعل من قبل، بل إنه اضطر الى الانسحاب بعد أن فقد ثلاثمائة من بين الأتراك والانكشارية في معركة جرح فيها عامل مستغانم وعامل أفراغه. ولم يرض الباشا بتحمل تلك المهانة فتقدم في ذلك اليوم نحو الثلمة المفتوحة في السور وألقى بعمامته من الغضب وتدحرجت الى غاية الخندق، وصرخ في المسلمين : يا للعار، أربعة من الأنذال يصمدون لكم في وسط خربة ! ولما رأى أن ذلك الصراخ

لا يجدي، قبل درقته وسل سيفه وصعد الى الترعة التي في السور مدعيا أنه يريد أن يموت وهو يقاتل بدل أن يشاركهم في ما لحق بهم من العار الذي لا يزول. ولكن الرؤساء الذين كانوا هنالك ردوه عن مراده وإذ ذاك عاد الأتراك الى القتال بحماس قليل. وما لبثوا أن انسحبوا مرة أخرى تاركين النصارى وهم معتزون بنصرهم. وغداة ذلك اليوم أعادوا الضرب بالمدافع. وجاء عامل وهران بفرسانه يعزز المحاصرين ويحثهم على الصمود. وفي نفس اليوم وصلت سفينتان تركيتان وبأثرهما فرقاطة من مالقة وثمان أخريات محملات بالمؤن والذخيرة من مدينة الجزائر. وأفاد العدو من ذلك إفادة عظمى لأن مؤنه وذخيرته كانت على وشك النفاذ. ولم ينقطع الضرب بالمدافع، وفي الخامس من شهر يونيه قام الأتراك بهجوم جديد على الترتيب السابق. وخرج عامل وهران بمن استطاع جمعهم من العساكر وتقدم الى الصخرة التي تحدثت عنها آنفا وذلك ليصرف العدو عن مركز القتال، وأدى ذلك الى فتور في الهجوم، ولكن السفن الصغيرة تقدمت الى هذه الجهة وضربت بمدافعها فاضطر عامل وهران الى الانسحاب، ووالى الأتراك هجومهم الى غروب الشمس، وأعلن الباشا بالانسحاب بعد أن تبين له أن جهوده لم تجد شيئا.

وبينما كانت تجري تلك الحوادث في افريقيا خرج أندري دوري على عجل من إيطاليا ومعه السفن التابعة له، والتحق في برشلونة بثمان وعشرين من سفن الملك، وكان بتلك المدينة عدد من قدماء جنود فلأندرة وكذا فيلق جيش نابولي يقوده الدون بيدرو دوباديا. وفي تلك المدة وصل الدون فرانسيسكو دو ميندوزا الى قرطاخنة ومعه مجموع السفن التي كان برأسها، وقد تلقى الأمر بأن ينجد المدينة. والدون بيدرو هذا هو الذي جعله ملك اسبانيا رئيسا على أسطوله بعد وفاة نبيل آخر يحمل نفس الاسم. وفي قرطاخنة وجد الدون بيدرو سفن الدون ألبارو الأربع وسفينة القس لوبيان وانضمت هذه السفن الثلاث والثلاثون الى سفن أندريا دوريا الاثنتي عشرة وتوجهت جميعها الى وهران ومعها عدد من نبلاء قشتالة وأرغون وبلنسية وكاطالونيا وعدد من كتائب نابولي وفلاندرا وقشتالة. وفي أثناء الرحلة وقعت المذاكرة في الكيفية التي يمكن التوصل بها الى منع جيش البحر التركي من الانسحاب، واختلفت الآراء في ذلك وذهبت الجهود سدى بسبب معاكسة الرياح. ومع ذلك فقد أصروا على إنجاد المدينة مهما كان الثمن، وأفرغوا جهدهم في التجذيف ولكنهم لم يصلوا الى خليج بيان الا بعد أن أصبح الصباح. وانكشفوا لسفينة تركية صغيرة كانت تقوم بالحراسة. فأرسلت طلقة مدفع إنذارا

للآخرين والتحقت بهم في رأس فالكون، ومن هنالك فرت جميعها في اتجاه مدينة الجزائر. ولما رأى قائد أسطول النصارى أن سفن الأتراك آخذة في الابتعاد وأن في مطاردتها مضيعة للوقت أرسل إشارة الى سفن المقدمة بقصد أن تلتحق بالتي خلفها، وعاد الكل الى وهران. وفي الطريق أسروا خمس سفن صغيرة تركها الأتراك، كما أسروا أربع سفن فرنسية كانت قد حملت المؤن الى مدينة الجزائر. واصل الأسطول طريقه الى المرسى الكبير، واستعملت الزوارق في انزال الجنود وليس بأيديهم سوى أسلحتهم. وكانت الظروف قد تغيرت. فقد أسرع الباشا الى فك حصاره للمدينة عندما رأى أن سفن النصارى وقد وصلت، واتجه الى مستغانم في نظام تام تحرس مؤخرته عساكر الأتراك والانكشارية، وأراد الدون بيدرو دي باديا أن يتعقبهم هو وبعض النبلاء، ولكنه تراجع بعد أن رأى أنهم قد ابتعدوا. وعاد بعساكره الى السفن وأقلع تاركا بعض الكتائب في المرسى الكبير. وتوجه من هنالك الى وهران حيث استقبل في جو من الفرحة والحبور. وبعد أن أنزلت السفن الأقوات والذخائر التي جاءت بها تابعت سيرها الى إسبانيا، بينما دخل الأتراك الى مدينة الجزائر وهم على حال شديدة من الارتباك.

الفصل العشرون

قسطيلية

عمارة قديمة وسط بساتين وأجنة على ثلاثة فراسخ شرقي وهران، قلعتها فوق صخرة. يقال أن بناتها هم أهل البلد الأصليون. كانت في الماضي مدينة غنية، يدعي بعضهم أنها مسقط رأس القديس أوغسطينوس. اعتاد سكانها على آداء الجزية للاسبان منذ أن تم لهؤلاء فتح وهران ولاسيما تحت حكم كونت الكاوديت(51). وعندما جاء محمد باي ومامي رايس لضرب وهران انحاش هؤلاء السكان الى جانب الأتراك. وكان ذلك الانحياش هو السبب في خروج الكونت اليهم ونهبهم بعد أن فك عنها الحصار. وقد استعبدهم جميعا، ولكنهم ادعوا أنهم أكرهوا على فعلهم، ولم يجدهم ذلك الادعاء، فلم يستعيدوا حريتهم. وتوجد في بساتين هذا الحي واجنته أشجار يتجر السكان في أخشابها الحمراء(52) وهي أهم تجارتهم، ويتوقف استمرارها على حفظ العلاقات الطيبة مع وهران.

51) مارتين القرطبي

52) أليبا

الفصل الواحد والعشرون

أرزيو(53)

تقع شرق فانسطل، فبعد تجاوز ما يسمى بإبرة وهران تبدو أطلال أرزيو القديمة، وهي من بناء الرومان، جعلها بطليموس عند ثلاث عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من خطوط العرض. كانت مدينة كبيرة جديدة كثيرة السكان، وكانت بها بنايات رائقة عديدة ولكنها تعرضت للخراب عندما دخل العرب بلاد إفريقيا ولم تعد اليها العمارة بعد ذلك. ولم يكن بها سوى مخزن لامراء تلمسا يخزنون فيه الملح المجلوب من ملاحات عل بعد سبعة فراسخ من هناك الى أن يأتي التجار من إسبانيا أو غيرها لحمله، وكا يساعد على ذلك وجود مرسى آمنة من رياح الشرق ورياح الشمال وكذا آبار جار المياه تقصدها سفن القراصنة بغرض الاستسقاء. وعلى مقربة من هذه الأطلال يوجد مصب نهر سيرت(54) وقبالة هذا المرسى توجد مرسى أخرى تدعى أرزيو الجديدة كان يرسو بها عدد من سفن النصارى محملة ببضائع أروبا على عهد بني زيان(55). وكان أمراء هذه الأسرة قد عزموا على أن يبنوا فيها مدينة، وبعد أن شرعوا في وضع أساس البناء صرفهم ما هو أعظم من المشاغل.

الفصل الثاني والعشرون

ـ مزغران من عمل تلمسان

مدينة صغيرة موغلة في القدم، تقع على بعد نصف فرسخ من البحر وعلى بعد ثلاثة عشر فرسخا شرقي وهران، يقال إن تأسيسها كان على يد سكان البلاد الأصليين. كان القدماء يسمون مرساها بمرسى الآلهة، وهو الذي جعله بطليموس عند ثلاث عشرة درجة وثلاثين دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وأربع وخمسين دقيقة من خطوط العرض. تحيط به أسوار عالية وبها قلعة غير محصنة بأبراج. كانت في الماضي عامرة بالتجارة والصناع المياسير ولكنهم كانوا خبثاء ماجنين.

53) كانت تسمى قديماً : أرسيناريا كولونا

54) أوسيرات

55) ملوك تلمسان

بدأ انحطاط هذه المدينة بعد سقوط مدينة وهران بيد النصارى وتوالي غارات العرب المجاورين عليها. ولذلك مال أهلها الى الوفاق مع النصارى حيث يقدمون بعض رموز العرفان للحاكم النصراني في صورة جزية. ومن عادتهم التوجه الى سوق وهران. وعندما تنقض الهدنة يكونون غير امنين، لكن حامية وهران تقوم بغارات تمتد الى أبواب مدينتهم، وكانوا في هذه الحالات يلجأون الى مستغانم التي لا تبعد عنهم سوى بمسافة فرسخ كبير. تصلح الأراضي المجاورة لها لزراعة الشعير ولكنها لا تصلح بتاتا للقمح. عندما قام كونت ألكاوديت بغارته الأخيرة على مستغانم لجأ اليها أهل مزغران بنسائهم وأطفالهم وجميع أموالهم وبقوا هنالك الى أن رفع الحصار الذي تعرضنا له عند وصف مدينة وهران.

الفصل الثالث والعشرون

• مستغانم

مدينة موغلة في القدم بناها سكان البلاد الأصليون على سفح جبل مطل على ساحل البحر. وفي الطرف الأعلى من المدينة، حيث توجد ربوة مشرفة، يقوم حصن جهة الجنوب. توجد مستغانم على أربعة عشر فرسخا شرقي وهران. لها مرسى(56) جيد لكنه بعيد قليلاً عن المدينة، يجعله بطليموس على أربع عشرة درجة وثلاثين دقيقة من خطوط الطول وعلى ثلاث وثلاين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض. بيوت هذه المدينة جيدة البناء لا يكاد بيت منها يخلو من ينبوع ماء. في الطرف الجنوبي للمدينة مسجد رائق البناء وفي شرقها نهر الشليف الذي وجد على ضفتيه عدد من الأرحاء وحدائق بها أشجار التين والكروم. أهلها أباة إن لم يكونوا في معظمهم سوى نساجين. عندما دخل النصارى الى وهران كان أهل مستغانم يخضعون للعرب وكانوا يسومون أهلها أشد العذاب، فغادرها بسبب ذلك كثير منهم الى أن استولى الأتراك على مدينة الجزائر ثم استولوا على مستغانم، وهي مفتاح هذه البلاد. وقد تفطن لهذه الحقيقة كونت ألكاوديت فحاول فتحها ثلاث مرات الى ان لقي حتفه في المرة الأخيرة. لا توجد في هذه الناحية مدن ذات أهمية غير تلك التي ذكرناها. أما مدينة تنس فهي مما وراء الشليف. ولنذكر الآن من هم في الجبال من السكان.

56) كانت تسمى : كاتينا

الفصل الرابع والعشرون

بنو زناتة

جبل عظيم يحمل اسم سكانه من بربر زناتة. يقع على بعد ثمانية عشر فرسخا شرقي تلمسان، يمتد طرفه الى صحراء كارت والطرف الآخر الى صحراء أنكاد. طوله عشرة فراسخ وعرضه خمسة فراسخ، تغطيه غابات أشجار الخروب. وهو جبل عال وعر شديد الانحدار. لا يطيب القمح في تربته، ولذلك فأكثر غذاء سكانها من الخروب ولحوم الأغنام التي يملكونها بأعداد كثيرة. يعيشون في قرى مفتوحة، وهم شجعان شرفاء. وفي أعلى الجبل مكان حصين بطبيعته وبما أقيم فيه من وسائل الدفاع، وفيه يسكن الحاكم. وله من المقاتلين عدد من الفرسان ومن حملة البنادق، وبإمكانه أن يجمع للحرب عشرين ألفا من أقوياء الرجال الذين تمرسوا بالحرب في ما خاضوه من القتال ضد ملوك اسبانيا وضد العرب. ولهم اليوم من القوة ما جعلهم في قتال مستمر ضد الأتراك وضد الشريف وضد عرب الصحراء، يعتزون على هؤلاء بمنعة جبلهم. ومن عادة هؤلاء البرابرة الدخول في خصومات ونزاعات حول السلطة مما سبب التقاتل الشديد بينهم عندما لا يتهددهم عدو من الخارج، وإذا طرق بابهم عدو من غير أهلهم اجتمع شملهم واتحدوا لمقاومته. يحملون العداء الشديد للأتراك، ولم يتوصل هؤلاء الى إخضاعهم في يوم من الأيام لا باللين ولا بالاكراه. وهذا الجبل وسائر جبال هذه الناحية فروع من الأطلس الكبير.

الفصل الخامس والعشرون

مطغرة

جبل طقسه بارد، عال شديد الانحدار، على فرسخين ونصف من ندرومة الجنوب. سكانه من بربر زناتة، ناس شجعان أشداء في الحرب، فقراء، لأن جبالهم لا تنبت سوى الشعير والخروب، ألا أنهم يكسبون قطعانا كثيرة من الماشية وغابات من أشجار الخروب يصنعون منها الفحم يبيعونه للمدن ولمناطق أخرى. لهم مودة مع أهل ندرومة الذين من جذمهم، فتجدهم يدا واحدة في الحرب ضد ملوك تلمسان وضد العرب.

الفصل السادس والعشرون

بنوورنيد

جبل ممتد الى قرابة تلمسان بفرسخ واحد، كثير القرى والمداشر. سكانه ناس بسطاء. وجبلهم طقسه بارد، به غابات من الأجنة ذات الأشجار التي تعطي ثمارا كثمار أوربا تحمل قصد البيع في المدينة. وزيادة على ذلك توجد في ذلك الجبل أشجار يصنع منها الفحم، ولهم حرث جيد في تربة يطيب فيها القمح والشعير وتكثر القطعان. وهذا الجبل من عمل تلمسان يصيبه ما يصيبها وسكانه اليوم من رعايا الأتراك.

الفصل السابع والعشرون

تـرارة(57)

جبل عال وعر قريب من مدينة هنين يسكنه البربر الغلاظ الأجلاف، وهم في صراع دائم مع سكان المدينة. وقد عاثوا فيها فسادا غير ما مرة قبل خرابها. وهم فقراء، قمحهم قليل ولهم بعض القطعان. أهم تجارتهم الفحم. وفي بلدهم كذلك بعض مناجم الحديد، ومنذ خراب مدينة هنين وهم يزرعون الأراضي التي من جهة البحر. ولهم حراسة دائمة في برج الحصن مخافة التعرض لهجومات النصارى الموجودين في تلك النواحي إذ اعتادوا المجيء اليهم على متن سفن ذات صاريين فينصبون لهم الكمائن ويأسرون منهم رجالا ويذرون الآخرين تحت وطأة الخوف.

الفصل الثامن والعشرون

أغبـال(58)

جبل في عمل وهران يسكنه بربر أنذال غلاظ يأتون بالحطب الى المدينة ويعملون بها طيلة اليوم عندما كانت بيد حكام من أهل البلد. بهذا الجبل محلات معمورة أكبرها اثنتان قرب وهران، في واحدة(59) منهما عين جارية وبساتين بها

57) أو ولهاصة

58) أو غيوبل

59) تسمى كريستيلا

أشجار الليمون الحلو والحامض والبرتقال، ويطيب بها القمح بكثرة. كانت بهذه الناحية محلة(60) يبلغ عدد سكانها اثنتي عشرة مائة كانون، كما كانت بها محلة تسمى قويدسة، وقد كانت تلك الفتن ومثيلاتها سببا في خلاء هذا الجبل من السكان، والباقون فيه فقراء يعيشون في رُغب دائم.

الفصل التاسع والعشرون
مغـراوة

جبل ممتد على طول أربعة عشرة فرسخا على الساحل. به مدينتان مبنيتان على السفح هما مزغران ومستغانم، نسبة الى سكانه من البربر. وفيهما رجال شجعان معظمهم أغنياء بزروعهم وقطعان ماشيتهم ولكنهم ينتجعون مثلما يفعل العرب ولا يستقرون في محلة معلومة. يتكلمون عربية فاسدة فيتوهم من لا علم له أنهم من العرب وما هم بعرب وإنما هم برابر من قبيل زناتة ينتسبون الى مغراوة منهم، لهم علائق بمستغانم. يمتد هذا الجبل الى نهر الشليف الذي يفصل هذه الجهة عن جهة تنس.

الفصل الثلاثون
عمل تنس من إمارة تلمسان

هذه هي العمالة الثانية من هذه الإمارة، بحسب الترتيب الذي اتبعناه. يحدها من جهة الغرب عمل تلمسان ومن جهة الشرق عمل مدينة الجزائر، ويحدها جنوبا الأطلس وشمالا البحر المتوسط بين مصب نهر الشليف أو مصب كارطينا ومصب نهر الزعفران(61). بلاد يكثر بها الزرع والماشية. بها خمس مدن منها عاصمتها التي تتسمى العمالة باسمها(62) وهي خاضعة على الدوام لأمراء تلمسان. عندما مات محمد بن زيان ترك ثلاثة أولاد تولى أكبرهم وهو أبو عبد اللي الإمارة وتآمر ضده الآخرون. وانكشفت المؤامرة فأودع أكبرهما وهو أبو زيان السجن مدة طويلة الى أن حرره بارباروس. ثم أمر بعد ذلك بشنقه كما سبق أن ذكرنا. أما الثالث وهو أبو يحيى فقد فر الى فاس وأعانه أحمد الوطاسي على الوصول الى

60) أغدس
61) كانت تسمى كيا لاف وهي اليوم واد الشلف
62) تنس

حكم المدينة التي نحن بصدد الكلام عنها، وقد بقي في حكمها سنين عديدة وتلقب بأمير تنس. وبعد وفاته خلفه في حكم المدينة ولده أبو عبد اللي. وقد اضطهده باربارِوس حتى اضطره الى الانتقال الى قشتالة ومعه عياله وأحد إخوته، طالبا نجدة شار لكانت. ولما طال انتظاره قبل ارضائه عاد الى وهران وفي اعتقاده أن نبيل قمارش يدافع عنه لدى الملك المسيحي. وفي تلك الأثناء ألهمه الله الى اعتناق الدين المسيحي، واتبعه أخوه في التنصر. وعادا الى قشتالة حيث تم تعميدهما ودخلت إمارتهما في حكم الأتراك الى يومنا هذا. فهي من الايالات التابعة لمدينة الجزائر ومن أكثرها جباية.

الفصل الواحد والثلاثون

تنس

مدينة عتيقة بناها سكان البلد الأصليون على سفح جبل، على نصف فرسخ من البحر، جعلها بطليموس عند إحدى عشرة درجة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة من خطوط العرض ويسميها لقونت. وهي في منتصف الطريق بين مدينة وهران ومدينة الجزائر. تبعد عن كل منهما بثلاثين فرسخا. وهي عاصمة هذه المنطقة منذ القديم. تحصنها أسوار وقلعة، كان بها قصر الامير، وبه يقيم اليوم حاكم مبعوث من مدينة الجزائر ومعه حامية مهمة، وذلك لان أعراب هذه الجهة مقاتلون أشاوس، لهم إباء وحمية، ولطالما أعانوا سكان المدينة على التخلص من الحكام الاتراك الطغاة الذين يرسلون للتولية عليهم. وسكان هذه المدينة يتميزون بالغلظة والفظاظة، مع أن لهم تجارة واسعة مع الاجانب الذين يجلبون من هذه الناحية القمح والشعير وغيرها من السلع الأخرى فيحملونها إلى الجزائر وإلى غيرها من الآفاق، ذلك لان هذه البلاد كثيرة الزروع والخصب والمرعى والعسل والشمع. وتوجد قبالة المدينة جزيرة صغيرة تحتمي عندها السفن إبان هبوب العواصف إذا تعذر عليها البقاء في المرسى. استولى باربارِوس الأصغر على هذه المدينة بعدما توفي أخوه الأكبر، وظلت منذئذ بيد الأتراك.

الفصل الثاني والثلاثون

بريشكار

تقع على بعد ثمانية فراسخ من المدينة السابقة من جهة الشرق على ساحل البحر المتوسط. وهي من بناء الرومان. جعلها بطليموس عند خمس عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وست دقائق من خطوط العرض ويسميها كامبي جيرماني. ويسميها بعض المؤلفين العرب بئر شاق. تحيط بها أسوار وفيها عدد من البنايات والآثار الرومانية. سكانها غلاظ الطباع يشتغل معظمهم بصناعة النسيج من النوع الخشن، وهم من سكان زواوة الذين ذكرناهم في الكتاب الأول، وقد تمكنوا بفضل نجدة أصدقائهم من برابر الجبال المجاورة(63) من أن يصمدوا أزيد من قرن في وجه حكام مدينة تنس إلى أن استطاع باربا روس الاستيلاء على مدينتهم. ولم تزل منذئذ تحت حكم الأتراك. وتجود في أرضهم الزروع من قمح وشعير وكتان كما تكثر عندهم الماشية. وعندهم أجود ثمار التين في افريقيا، وتحمل الى تنس والجزائر وقسنطينة، وإذا كانت يابسة فإنها تحمل الى جميع مدن بلاد البربر الى حدود تنس.

الفصل الثالث والثلاثون

شرشال

مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان يسميها بطليموس كانوشر ويجعلها عند ست عشرة درجة وعشر دقائق من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة من خطوط العرض. ويذهب بعضهم الى أنها كارشينا كولونيا التي تعرضنا لذكرها أعلاه. وهي بين مدينة تنس وبين مدينة الجزائر، تفصلها عن كل منهما مسافة خمسة عشر فرسخا في البحر، أما عن طريق البحر فلا تصل المسافة بينهما الى عشرة فراسخ، فهي على الساحل. وقد كانت تحيط بها في الماضي أسوار جيدة من الحجارة المنحوتة يبلغ محيطها أكثر من ثلاثة فراسخ، كما كانت بها قلعة رائقة،

63) زائمة

وما زال بها من بقايا ذلك العهد معبد كبير مشيد بالرخام والمرمر. استطاع القوط الذين مروا الى إسبانيا الاستيلاء على هذه المدينة أيام رخائها وأبقوها على التبعية لهم مدة طويلة، وبعد ذلك عادت الى العرب فأعادوا إليهاسالف ازدهارها. ولكن الخليفة الشيعي(64)الذي قام بالقيروان دمرها ولم يبق منها إلا الأطلال. وظلت على تلك الحال مدة من ثلاثة قرون الى أن جاز عدد من الاندلسيين إلى افريقيا بعد أن استعادها فرديناند فقام بعضهم يعيد بناء القلعة والدور التي رأوا فائدة في إصلاحها. وشيئا فشيئا قام العمران بهذا السهل على أيدي المدجنين وأهل تاكَارت ومسلمي الأندلس المتصفين بالشهامة والحذق، حتى صارت لهم الأراضي المزروعة الممتدة وأشجار كثيرة من الكروم والزيتون في عرصات تقع داحل الأسوار القديمة، كما قاموا بغرس عدد من أشجار التوت تقتات منها دودة القز، وصار الحرير أهم مواردهم لأن البلد طيب لمثل هذا النشاط حتى إنك تجد اليوم بهذه المدينة أكثر من خمسة آلاف دار تستطيع أن تعبىء وتجهز عند الحاجة أزيد من ألف مقاتل من حملة القذافات والبنادق، وما تزال تظهر في البحر عند هدوئه دور عديدة غمرتها المياه، وبعض هذه الدور ما يزال قائما برمته الا ما كان من سقوفها المنهارة. وليست هذه المدينة في وقتنا الحاضر محاطة بأسوار، وضمانة حمايتها في عدد سكانها وشجاعتهم. وعلى فرسخين منها على ساحل البحر من جهة الشرق يوجد جبل شرشال(65) وهو من العلو بحيث يستطيع الناظر من فوقه أن يرى سفينة في البحر علي بعد أكثر من عشرين فرسخا. سكان شرشال أذكياء، على وفاق مع الأتراك لأنهم احسنوا لقاء بارباروس عندما نزل بها وعرضوا عليه المرسى لاقامة رصيف حاجز يحمي سفنه من الرياح، ولكنه لم يبن ذلك الرصيف لأنه أقلع في اتجاه الجزائر. وعلى مقربة من المدينة، من جهة الشرق، يوجد نهر تدير مياهه عددا من أرجاء الزرع. وفي وسط المدينة فسقية جيء بها من بعيد. عندما كنا بهذه المدينة شاهدنا بها عددا من أعمدة المرمر ومن التماثيل الحجرية التي تحمل كتابات لاتينية وكذا عدد آخر من الأشياء القديمة، ويذكر سكان البلد أنهم عثروا عليها عند الحفر في رباعهم الموروثة، ولم يكن قد مضى في ذلك الحين إلا مدة قليلة على اكتشاف عمود ضخم من المرمر مزين من جميع جوانبه بالساعات مرفوع على

64) القائم

65) يسميها الاتراك قاربولا ويسميها أهل البلد جيرافلومار

أسدين في حجم ثورين كبيرين. كما شاهدنا بها تمثالين كبيرين يمثلان حوريتين من المرمر، ويظهر أنهما صنمان من أصنام الوثنيين، وحول رأس أحدهما هذه الحروف
D. D.
D. S. R. I. D. D.

أندريا دوريا يستولي على شرشال ويستولي على أسطول الترك

لما علم شارلكانت أن باربروس أخذ في جمع قراصنة الجزائر استعدادا للتوجه الى مضيق جبل طارق أعطى الأوامر لقائد إسطوله أندريا دوريا بالتوجه بسفنه الحربية وسفن نابولي وسفن صقلية الى بحار المشرق لمواجهة هذا القرصان. وهكذا قطع البحر في مواجهة سواحل بلاد البربر. ولما علم أن قطعا من أسطول باربروس توجد في شرشال قام بهجوم مباغث عليها، وذهل الأتراك لذلك. وفروا الى داخل المدينة والى القلعة، وتمكن أندري دوريا من إحراق سفن الأتراك وأنزل عساكره واقتحم المدينة وحرر ثمانمائة من السجناء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالأشغال الشاقة، وتوزع الجنود المهاجمون على دور المدينة ينهبونها. وعندئذ نزل اليهم الأتراك الذين لاذوا بالقلعة وأجهزوا عليهم صفا واحدا فقلتوا منهم أزيد من أربعمائة وأجبروا الآخرين على الفرار. ولما رأى أندريا ما أصاب جنوده من الاضطراب وأنهم قذ تقهقروا لائذين بالسفن قام بإبعادها من الشاطىء حتى يضطرهم الى الرجوع الى القتال. ويذهب بعضهم الى أنه فعل ذلك نكاية، وليس على ذلك الرأي دليل ظاهر، ذلك أن القائد ما لبث أن أمر بإلقاء رواسي سفنه ليصعد اليها الجنود بعد أن تبين له أن ذلك التدبير لا فائدة فيه. وهكذا أدى جشع الجنود الى قلب ذلك النصر هزيمة. ومع ذلك فإن جميع سفن الأتراك وأهل البلد قد دمرت وأحبط تخطيط باربروس.

الفصل الرابع والثلاثون

قيصرية

يسميها الأفارقة تَقِدِمْتْ أي المدينة القديمة. اشتهرت في تاريخ الرومان باسم قيصرية. تشاهد أطلالها شرقي مدينة شرشال، في خليج يتوغل فيه البحر بين المرسى المسمى مرسى الجبل وبين المرسى المسمى مرسى الأخصاص، بناها الأفارقة القدماء وزينها أباطرة الرومان. ويذكر ابن الرقيق أنها كانت من أعظم مدن افريقيا وأكثرها سكانا. وتمتد آثار أسوارها الدائرة على أكثر من ثلاثة فراسخ، وما تزال بادية بعض الشواهد على ما كان لها من مجد عندما كان العرب يجوبون بلاد إفريقيا فاتحين. كانت هذه المدينة عظيمة بثرواتها ومدارسها التي تخرج منها كبار الشعراء وحذاق الفلاسفة. دخلت قيصرية منذ ذلك العهد تحت حكم الأدارسة وكانت لهم أزيد من قرن ونصف الى أن دمرت مبانيها وأسوارها ومعابدها في حرب الخليفة الفاطمي بالقيروان وذلك سنة تسعمائة وخمسين الموافقة لسنة ثلاثمائة وستين للهجرة، وكان ذلك على يد عبد الله بن محيي الدين الذي أمر بتقتيل السكان المتشيعين للأدارسة. وقد تبقى من البنايات القديمة معبدان كانت تقدم فيهما القرابين للأصنام وتعلو أحدهما قبة جد مرتفعة يسميها أهل البلد من المسلمين بالقبة الرومية يزعمون أن بها مدفن الكنت يوليان. ويمكن لمن كان فوق تلك القبة أن يرى سفينة تبعد عشرين فرسخا عن الشاطىء، كما يستطيع أن يرى في جهة البر بوادي متيدجة على امتداد يزيد عن ستة عشر فرسخا. وهي مبنية بالصخور العظيمة، تامة الاغلاق من جميع الجهات. وقد أراد صالح رايس أن يخربها عام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين أملا في أن يعثر فيها على بعض الكنوز، ولما شرع الأسرى في اقتلاع الحجارة خرجت منها أنواع من الزنابير السامة السوداء لا تلسع أحدا إلا أردته قتيلا، وكان ذلك سببا في العدول عن ذلك القصد. وتوجد شرقي هذه المدينة غابة تدعى غابة الومس وفيها أشجار عظيمة مثل أشجار الأرز والصفصاف والفلين والرند ومنها تقطع الأخشاب التي تحمل الى مدينة الجزائر بقصد صنع السفن. وعلى مقربة من هذه الغابة جبل داخل البحر يسميه البحارون بادية تنس. ولا يجوز لأحد أن يقطع الأخشاب من هذا الجبل إذا لم يرخص له بذلك عامل الجزائر الذي جعل عليها حراسة دائمة. لم تتأت إعادة بناء هذه المدينة منذ أن خربها الخليفة(66) الذي سبق لنا ذكره، ثم إن العرب لا

66) القائم

يسعفون في ذلك لأنهم يستثمرون أراضي تلك الناحية فوق ربوة تمتد الى داخل البحر ولم تكن بهذه الجهة مدينة بحرية غيرها. ولم نجد ذكر الاسم قيصرية الأ عند ابن الرقيق.

الفصل الخامس والثلاثون

مـزونـة

مدينة عتيقة بين مستغانم وتنس، في داخل البلاد، جعلها بطليموس عند ست عشرة درجة من خطوط الطول وثلاث وعشرين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض واسمها عنده : مستعمرة الحصن الجديد، أسوارها عالية حصينة. بها قلعة فيها قصر رائق. منطقتها شاسعة، ترى بها أنقاض عدة مدن خربت منذ عهد الرومان، حيث تشاهد بها لحد الآن لوحات كبيرة من المرمر وتماثيل من الحجر وعليها كتابات لاتينية منقوشة. كانت بها منازل جيلة دمرتها الحروب ولاسيما تلك الحروب التي ذكرنا أنها كانت بين أقارب ملك تلمسان الذين عاثوا فسادا في عدد من مدن هذه الايالة، أما البنايات القائمة فهي حديثة ولا تساوي شيئا. ويستثنى من ذلك معبد رائع في المدينة يظهر أنه من بناء الرومان. كان سكانها في الماضي على درجة كبيرة من الغنى لأن بلادهم كثيرة القمح والماشية، ولكن العرب الذين يكنون لهم العداء أذاقوا الويل لأهلها منذ المرة الأخيرة التي تحطمت فيها المدينة، حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النساجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية، ومع هؤلاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض.

الفصل السادس والثلاثون

مـليـانـة(67)

مدينة كبيرة بناها الرومان فوق جبل مرتفع جدا على بعد أربعة عشر فرسخا من شرشال في داخل البلاد، وعلى بعد خمسة عشر فرسخا غربي مدينة الجزائر. جعل بطليموس موقعها عند خمس عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول وثمان وعشرين درجة وخمسين دقيقة من خطوط العرض. جبالها كثيرة الينابيع والجداول، وفي كل مكان منها أشجار جوز باسقة تثمر من الجوز كميات

67) مغنانة قديما

كبيرة لا يتوصل السكان الى قطفها كلية فيضيع جزء منها. تحيط بالمدينة أسوار قديمة عالية حصينة جيدة البناء تجاورها من إحدى الجهات صخرة عالية شديدة الانحدار يوجد في أسفلها واد عميق. وفي الجهة المقابلة تمتد المدينة على سفح الجبل. وبها قلعة كبيرة تشرف عليها. دورها معتبرة تتوفر على عدد من الينابيع. ولكن سكانها معروفون بغلظتهم، ومعظمهم من صناع الجوخ والسروج على طريقة المغاربة. ومن سكانها خراطون يصنعون أوعية خشبية للشراب يقبل الناس على اقتنائها. وتحيط بالمدينة بساتين شاسعة بها أحسن ما في بلاد البربر من أشجار الليمون. تنمو بها أيضا أشجار البرتقال التي تعطي ثمارا جيدة تحمل لبيعها في تنس وغيرها من المدن. وقد عرفت مليانة عندما ضعف حكم المرينيين عهدا من الحرية حيث استطاعت أن تدافع عن نفسها ضد هؤلاء الملوك من جهة وضد العرب من جهة أخرى ذلك لأن معظم سكانها من زواوة ولهم عدد من الملاجىء في الجبال. أما بعد سقوط تلمسان بيد الأتراك، فإن قائدهم باربروس قد استولى على مليانة وهي الى يومنا هذا بيد الأتراك. ولا توجد بهذه النواحي مدن أخرى تستحق الذكر، وإن كانت تشاهد بها أنقاض عدد من المدن لم تعد تعرف حتى أسماؤها، ولنذكر الآن سكان الجبال.

الفصل السابع والثلاثون
زاتمة

جبل يعرف اليوم عند الناس بجبل أبي سعيد من آسم سكانه. وهو على مقربة من تنس يسكنه البربر وزواوة الغلاظ الأفظاظ المعروفون مع ذلك بشجاعتهم وبسالتهم في القتال. يكثر عندهم الشعير والمعز والعسل والشمع. يحملون منتجاتهم هذه الى تنس حيث يبيعونها لتجار أروبا. ويعتبر هذا الجبل من عمل تنس وسكانه يدينون بالطاعة لأتراك الجزائر.

الفصل الثامن والثلاثون
ونشريس

جبل عال شديد الانحدار، سكانه أشداء في الحرب، وهم على قتال دائم لملوك تلمسان، حاربوهم ستين من الأعوام المتوالية منحاشين لملوك فاس. أما

أراضي أعلى الجبل فلا ينمو بها الا الرتم الذي تصنع منه السلال والحصر. وتوجد في السفح وفي الأماكن المستوية ينابيع عديدة ماؤها بارد، وكذا أراض صالحة للزراعة. سكان هذه الجبال معروفون بإقدامهم، قادرون على تجهيز خمسة آلاف من المقاتلين من بينهم ألفان وخمسمائة من الفرسان. كان سكانه موالين لمولاي يحيى عندما كان أميرا على تلمسان، ومنذ أن صارت هذه الامارة الى حكم غيره، تخلص أهل ونشريس من كل تبعية وبقوا أحرارا يجوبون البلاد طولا وعرضا كما يفعلون الى اليوم.

الفصل التاسع والثلاثون

من إيالة الجزائر الى مملكة تلمسان

ثالثة المناطق في مملكة تلمسان حسب الترتيب الذي اتبعناه. تحدها من الغرب منطقة تنس ومن الشرق منطقة بجاية ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير التي هي حدود بلاد النوميديين ويحدها من الشمال البحر المتوسط، من مصب نهر الزعفران(1) الى بلاد بجاية. أرض هذه المنطقة بأسرها كثيرة الزرع والماشية. يسكن سهولها عرب أشداء مياسير، ويسكن جبالها بربر من حملة البنادق وعدد من الفرسان. وهذه الجهات معدودة منذ القديم ضمن إمارة تلمسان، وقد جرت العادة بإقطاعها للابن الثاني للملك، ومنذ أن تم لملك(2) تونس غزو مملكة تلمسان أعطي عرش بجاية لأحد أبنائه(3). ولما رأى أهل الجزائر أن مجد أمرائهم في أفول تحيزوا لأمير بجاية، وصار أقوام كثيرون في تلك الجهات يدينون له بالتبعية، وبذلك بقوا طلقاء في أمرهم يؤدون للأمير قدرا من الجزية. ولما ضعفت هذه الامارة تحرر أهل مدينة الجزائر من طاعتها، وبمرور الزمن استطاع الأعيان ممن لبثوا فيها أن يغدوا سادتها بتأييد من العرب. ولما نزل بها بارباروس قتل الحاكم الذي كان بها واسمه سليم. وقد سبق أن تعرضنا لذكر هذا الأمر عند وصف تلمسان. ولا توجد في هذه الجهات الا مدن قليلة تستحق الذكر، إذ أن مدنها القديمة قد دارت في حروب العرب وحروب بعض الأمراء. وتشاهد بها أطلال تلك المدن في جهات مختلفة، ولا تعرف حتى أسماؤها.

1) أوكينالاف

2) أبو فارس

3) المسمى عبد العزيز

الفصل الأربعون
القل مدينة المهاجرين الأندلسيين

مدينة بناها حسان باشا من زمن قريب على بعد حوالي خمسة فراسخ من واد الزعفران(4) وعلى فرسخين في عمق البلاد. وعلى جانبي النهر في هذه الجهة غابات شاسعة من الأشجار المثمرة ومن أشجار التوت. وفي المدينة أكثر من ثلاثمائة من سكانها من المسلمين الذين هاجروا من قشتالة والأندلس ومن أهل الثغور من مملكة بلنسية، وتزداد هذه المستوطنة يوما بعد يوم لأن البلد خصب كثير القمح والماشية وبه جميع أنواع الفواكه كما في أوربا، منها أشجار الليمون وأشجار البرتقال الوافرة. ويضاف الى ما ذكر أن السكان يكسبون ثروات عظيمة من تربية دودة القز. وبين هذه المدينة ومدينة الجزائر توجد مرسى تدعى مرسى الاخصاص تأتي اليها السفن عندما تكون الفرضة غير مأمونة. وقد لجأ اليها بيرنار مينلوتشي بعمارة إسبانيا من سفن الحرب عندما ضلت جيوش شارلكانت في سواحل افريقيا. وكانت بهذه المرسى في الزمن القديم مدينة(5) ما تزال أطلالها ظاهرة في بعض الأماكن. وعلى بعد ثلاثة فراسخ الى جهة الشرق توجد مرسى(6) تقصد جهاتها سائمة أهل الجزائر قصد المرعى إذ لا يبعد عن هذه المدينة سوى بمسافة فرسخ ونصف وذلك نظرا لجودة الكلأ في تلك الأراضي.

الفصل الواحد والأربعون
الجزائر عاصمة الاقليم

يسمي المسلمون هذه المدينة جزائر بني مزغانة، وهي من بناء البربر المعروفين بهذا الاسم، حتى إنها عرفت عند قدماء المؤرخين بمزغانة، ويذهب البعض ــ الى القول بأن الرومان كانوا يسمونها يوليا قيصرية على شرف يوليوس قيصر، وحرف اسمها فصارت تدعى اليوم : الجزائر، جمع جزيرة بالعربية. وهي مدينة شهيرة منذ القدم، أبدع الرومان في تزيينها، وزادها الأتراك إغناء بفضل ما وقع في أيديهم من غنائم سلبوها من النصارى. ويؤكد بول دياكر أن أحد الطغاة

4) آوكينالاف
5) يهور
6) مرسى دوبن

قد استولى على حكمها في عهد الوندال، فخربها ولكنها ما لبثت أن استعادت نشاطها. وموقعها على سفح جبل عال : لها أسوار مرتفعة حصينة مبنية بالحجارة، ويحيط بها خندق عميق وحواجز من جميع الجهات. ولها أربعة أبواب رئيسية، أحدها من جهة الشمال حيث توجد المرسى، وكذا إحدى الجزر التي كانت بها قديما قلعة بنيون، والمرسى اليوم آمن وأكبر مما كان، وذلك بعد أن قام صلاح رايس بربط الجزيرة بالبر بواسطة رصيف حاجز استعمل في بنائه الحجارة المختلفة من بعض البنايات القديمة لمدينة تمانتفوست. وترتفع أسوارها شيئا فشيئا فوق التلال، ثم تتجه نحو الجنوب مكونة رأس مثلث مرتفع يظهر من بعيد، وفي قمته قلعة ترى من مسافة بعيدة في البحر، ومن هنالك يصعد على التل الى حصن(7) بناه الأتراك على بعد ربع فرسخ من القلعة، وقد جعلوا فيه أربعة مواقع محصنة وثكنة تتسع لألف من الجنود وخزانا كبيرا للمياه يُستعمل عند الضرورة، إذ العادة في الأيام العادية أن يكون الاستسقاء من بئر على بعد اثنتي عشرة أو خمس عشرة خطوة من باب الحصن. وتوجد فوق البستيونات الحصينة مدافع مصنوعة من البرونز. وفي المدينة حامية دائمة تتكون من الحاكم ومن ثلاثمائة من الجنود الأتراك. وبين القلعة والمدينة حصن آخر فيه حامية أخرى. وتبدأ بنايات المدينة من الأسفل عند شاطىء البحر، ثم ترتفع بشكل متدرج على سفح الجبل، وتتخذ بذلك منظرا جميلا لأنها جميعها ذات نوافذ وبماش، ولا تحجب بعضها بعضا، وهي على العموم جيدة البناء، ومن بينها عدة قصور مبنية على هيئة عصرية بذل في رونقها جهد كبير، شيدها رؤساء البحر من الأتراك ومن النصارى المرتدين الذين سكنوا مدينة الجزائر، وساحات المدينة وأزقتها مرتبة منظمة : لكل أصحاب حرفة حي خاص بهم. وعلى ساحل البحر مسجد شامخ رائق يوجد في واجهته رواق ينظر الى البحر. وجداره الموالي للبحر جزء ممتد على سور المدينة، وتتحطم على أسفله الأمواج. وعلى طول الأسوار تمتد بساتين فيحاء. وعلى بعد فرسخين منها الى جهة الشرق يجري نهر(8) ينبع من الأطلس الكبير ويخترق بوادي متيجة قبل أن يصب في البحر بين تلال تقع خلف مدينة الجزائر، وهنالك توجد الارحاء التي يطحن فيها السكان زروعهم. ويجعل بطليموس مصب(9) هذا النهر عند ثماني عشرة درجة وعشرين

7) بورش
8) واد الحراش أو غنسابة
9) سافو قديما

دقيقة من خطوط الطول وثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة من خطوط العرض. ويشرب أهل الجزائر من عين كبيرة تصل اليهم مياهها بقنوات ممدودة تتوزع على مختلف الجهات. وبالاضافة الى ما ذكر تتوفر داخل المدينة آبار وخزانات للمياه. والمدينة محصنة من جهة البر بصخور وعرة يوجد عند قدمها من جهة الجنوب سهول شاسعة كثيرة الخصب ينمو بها القمح ويكثر الكلأ، ولاسيما في بوادي متيجة الممتدة على ستة عشر فرسخا طولا وعلى عشرة فراسخ عرضا، والشاطىء بين مدينة الجزائر وتمانتفوست ضيق أجرد لأنه يرتفع شيئا فشيئا على شكل تلال إلى أن يتصل بجبال تمتد بعيدا وتجاور المدينة والشاطىء على هيئة مدرج نصف دائري. تعتبر هذه المدينة اليوم أغنى مدن افريقيا قاطبة، ومقدار الجباية على تجارتها يعادل مقدار مداخيل مجموع المملكة. استولى عليها بارباروس وزاد من شأنها أخوه حتى انها صارت تزداد كل يوم شهرة وذلك بما سلب من أموال من جنود البحر الاسبان الذين غرقت سفنهم بشواطئها أو من القتلى المسيحيين. وسنذكر في الفصل الذي بعد هذا خبر استيلاء بارباروس على صخرة الجزائر وخسارة الجيش الامبراطوري. وقد سبق أن تعرضنا لذكر الجيشين الآخرين عند وصف تلمسان.

باربارُوس يستولي على صخرة الجزائر

ثارت ثائرة الملك فيرناند بسبب ما كان يقوم به القراصنة من عمليات على سواحل إسبانيا وسواحل الجزر المجاورة(10)، ولذلك أمر ببناء حصن في جزيرة صغيرة قبالة المرسى المعروف باسم بينيون (صخرة الجزائر). ومن هنالك كانت توجه الضربات الى منازل المدينة حتى إن سالم بن التومي أمير الجزائر قد اضطر الى عقد هدنة مع ملك اسبانيا تدوم عشر سنوات، والى قبول أداء جزية له، ولكن بارباروس قتل هذا الأمير واستولى على الجزائر وأماكن أخرى من هذا الاقليم، ثم قام بهجوم على ذلك الحصن دون أن يتوصل الى الاستيلاء عليه لا هو ولا أخوه من بعد. غير ان الأقوات قد نفذت من أيدي من كانوا بالحصن من الجنود إذ لم تعد الازواد تصل اليهم كما كان الشأن في عهد سليم، وعندئذ قام مارتين فاركاس الذي كان الحاكم فيه والمدافع عنه ببسالة باعلام الملك بتلك الحال. وبينما كان ينتظر

10) ويقا ومايورقا ومينورقا

الانجاد من إسبانيا تمكن خائن من جنوده من الفرار والالتحاق بالمدينة سباحة فأخبر بارباروس بحال الاحتياج التي كان عليها المدافعون عن الحصن. فأسرع بارباروس بتوجيه طلب الى مارتين فاركاس بالاستسلام حيث إن يده فارغة من القوت، وحيث إن كل الممرات محجوزة ولا يرجى وصول نجدة اليه، ووعده خيرا إن هو بادر بالاستسلام. وكان جواب الحاكم الشجاع أن ليس من عادة ملك إسبانيا أن يتخلى عن موقع لقرضان، وأن ما بلغ بارباروس من الأخبار غير مطابق للحقيقة. وعندئذ قام بارباروس بمهاجمة الحصن بواسطة سفنه الحربية، وبعد جولات من القتال مات فيها عدد من الأتراك ومن مسلمي البلد، ضيق الحصار على الحصن، وكان الجنود بداخله قد فرغت أيديهم من القوت والعدة، وقد نال منهم الجوع والتعب كل منال، وفي ذلك اليوم دافع الحاكم وحيدا عن ثلمة في السور، بيمناه سيف وبيسراه سيف آخر، ولم يكف عن القتال الا بعد أن أصيب بعدد من الجروح، وصار من المتعذر عليه استعمال يده اليمنى. وعندئذ انقض عليه أربعة من الجنود وطعنوه لأن بارباروس أمر بعدم الاجهاز عليه، بل إنه أمر بإحضاره أمامه، وشجعه ثم ذكر له بأنه سيعامل بالحسنى إذا هو إصغى لما سيطلب منه. وعبر الحاكم عن شكره، ووعد الاذعان واشترط أن يشهد قبل كل شيء عقاب الجندي الذي خانه. وعند ذلك أراد بارباروس أن يسترضيه فأمر بإحضار ذلك الاسلامي وأمر بجلده بقساوة، ثم أمر بقطع رأسه بمحضر الحاكم. وبعد ذلك طلب منا جزاء على إرضائه أن يدخل الاسلام وأقسم له بأن سيجعله قائدا لحرسه إذا اعتنق الاسلام. وأجابه الحاكم أن ليس من المعقول أن يرتكب المروق من الدين بعد أن طلب إنزال العقاب بمارق من دينه وبأنه سيطيع في ماعدا ذلك من المطالب. واغتاظ بارباروس لما رأى من الحاكم وأمر بقتله بعد أن أنزل به أشد العذاب. وهكذا قضى ذلك الحاكم الشجاع وفيا لايمانه بربه وبملكه كما هو واجب على جميع الأخيار.

سوء خاتمة هجوم شارلكانت على مدينة الجزائر

بعد أن تم لشارلكانت الاستيلاء على مدينة تونس الشهيرة، وبعد أن طرد منها بارباروس ونصب فيها الأمير الشرعي، عزم على تطهير الساحل الافريقي كله من القراصنة الأتراك، ولاسيما أتراك مدينة الجزائر الذين كانوا يلحقون أعظم الأضرار بالمسيحية، تملكته كراهية مقدسة لأن يرى ذلك العدد الكبير من المسيحيين الذين كانوا في أسر أولئك الكفار، وأراد أن يحضر قتالهم بنفسه حتى لا

تفشل الحملة كما فشلت سابقاتها. ولهذا السبب حرص على تجهيز جيش بحري عظيم فيه السفن الحربية الضخمة والقاليرات السريعة، ملأها كلها بعدد وافر من الجنود المحنكين الاسبانيين والالمانيين والايطاليين وكذا بالذخيرة والمدافع وبجميع ما يلزم لمثل تلك الحملة الكبرى. وكان اللحاق بطائفة من ذلك الجيش البحري في مرسى إيبكا. ولما كان الدون بيرنادين دي مينلوسا قد تأخر على رأس جيش إسبانيا فإن الامبراطور قد خرج من تلك الجزيرة وأرسى سفنه بفرضة الجزائر يوم سادس وعشري اكتوبر من عام ألف وخمسمائة وواحد وأربعين، ثم وصل مينلوسا الى رأس الاخصاص أو رأس أبولون ومعه مائة وخمسون سفينة كبيرة وسفن أخر صغار. وشارك في الحملة أيضا دوق ألب، وكان كبير سادة البيت الامبراطوري، ويعتبر، بعد الامبراطور قائدا لجميع الجيوش، وقد تقدم في هذا القتال عددا من النبلاء والعظماء المرموقين، جاء كل منهم على نفقته للمشاركة في هذه الحملة.

وقبل وصولهم بيومين هبت زوبعة شديدة على الساحل، ولم يكن هيجان البحر قد سكن وإن كانت الرياح قد نقصت قوتها، وكان ذلك سببا في عدم التمكن من النزول الى البر على الفور، إذ لو وقع الشروع في النزول لوجب نزول الجيوش في الماء، يضاف الى ذلك أن الجيش البحري الاسباني لم يكن قد وصل بعد. وكان هذا التأخير، وإن بيومين، سببا في فشل هذا الهجوم الذي كان مضمون النجاح لولا ذلك الواقع، ذلك بأن الامبراطور قد أرسل رجلا(11) من صناديده الى حاكم الجزائر يحمل لواء أبيض علامة سلام، فاستقبل استقبالا حسنا من طرف هذا الحاكم الاسلامي الذي أصله مسيحي من جزيرة سردينيا. وقد أبلغه رسول الامبراطور أن أمة المسيح قد هبت بأجمعها تمحو العار الذي لحقها من القراصنة ومن سكان مدينة الجزائر وسيكون ذلك بارتكاب أعمال فظيعة إذا لم يبادر بمحض إرادته الى تسليم المدينة الى الامبراطور سيما وأن الامبراطور يعتبر أن باربروس قد استولى عليها غدرا وبغير حق، وبأن أخاه ما فتيء يزيد من تحصينها لتكون منطلق الغارات ضد المسيحيين، ثم وعده الامبراطر بأن يخلي سبيل الحامية وسائر سكان المدينة إذا اختار التي هي أحسن وسلم المدينة، وذكر الرسول لحاكم الجزائر بأنه ولد وفي رقبته تبعية للامبراطور وسيكون له ممنونا إذا استجاب لما عرض عليه، وما أجدره بذلك وقد ولد على دين المسيح، وها هي الفرصة قد سنحت لكي يقوم بواجبه وينتقم من ذلك القرصان الكافر الذي أوقعه في الأسر. وفي

11) حسان أغا

ذلك إرضاء لملك عظيم يعرف كيف يقدر ما يؤدى اليه من خدمات، ولا مصلحة له في انتظار الهجوم على المدينة لأنه سيكون شرسا عنيفا يسفر عن نصر محقق مثلما وقع في الهجوم على مدينة تونس. وزاد رسول الامبراطور في مخاطبته للحاكم بأن تقدم اليه بوعود اندهش لها، وقد أظهر الحاكم ما يدل على ميله الى إرضاء الامبراطور لولا أن منعه مرتد إسباني(12) من جنس يهود صارت اليه من ذلك الوقت إمارة تاجورة. فعندما رأى هذا المرتد أن الحاكم بدأ ينحرف، حضر اليه بمعية أتراك ومرتدين آخرين وقال له : انهم علموا باتصالاته بالامبراطور، وما عليه الا أن يتخلى عن فكرة تسليم المدينة لما في ذلك من خيانته لملكه ومن إلحاق وصمة عار خالدة بجبينه. وعندئذ التفت الحاكم(13) الى الرسول وقال له مبتسما : من الحمق أن يشرك المرء عدوا في تدبيره، وأقبح من ذلك أن يركن لما يقدم اليه العدو من نصائح، فباي حق يريد الامبراطور أن يأخذ هذه المدينة ؟ فأجاب الرسول قائلاً : بمشيئة هذا الجيش الذي لا يُهزم والذي تشهدون بأنه قد انتزع من سيدكم مدينتي تونس وحلق الوادي. وأجاب الحاكم مؤكداً بأنه سيدافع عن مدينته أحسن مما دافع الآخرون، ولا يستبعد أن يهلك جيش إسبانيا هذه المرة ما دام قد انهزم أمام الجزائر مرتين فيما مضى. وبعد ذلك أمر الرسول بالانصراف. وقد انتشرت بين أهل الجزائر إشاعة تقول إن ساحرة عجوزا تنبأت بهزيمة فيرا، وغرق مونكاد، وانهزام شنيع يلحق بأمير مسيحي ثالث، وصدق الناس هذه النبوءة لأن الحالتين الأوليين قد صحتا فعلا في الماضي. واستعملها الأتراك والمرتدون لتحريض المسلمين وتثبيط النصارى، وكان هؤلاء يرون أنفسهم قد أرسوا بسفنهم بفرضة غير مأمونة في بداية فصل الشتاء. كان بمدينة الجزائر ثمانمائة من الأتراك، معظمهم من الفرسان، وكان منهم عدد يزيدون عن ثلاثمائة قد انسحبوا منها مع قائد(14) سبق أن ذكرناه في معرض الكلام عن قصة الشريف. وقد أمر حاكم الجزائر بأن تعطى الذين بتلك الجهات هدايا تكثر بها جموعهم حتى ينكد بهم عساكر النصارى. وما أن صرف مبعوث الامبراطور حتى أطلق الإعلام بالمدينة بمنع مغادرتها على أي كان، ومن خالف فيعاقب بالاعدام. وأمر الجنود بملازمة ثكناتهم، ورتب ما يلزم من الاستعداد

12) القائد محمد

13) حسان أغا

14) القائد مرشان

للدفاع. أما الجيش المسيحي الذي كان في سفنه الراسية غربي المدينة فقد انتقل الى شرقيها بعد أن تم له التعرف على السواحل وتبين أن النزول الى البر أسهل في هذه الجهات. وجاءت القاليرات وأخذت تنقل الجنود من السفن الضخام وتوصلهم الى البر بواسطة القوارب، وليس بأيديهم سوى أسلحتهم. ولم يواجه الأعداء ذلك النزول الا بمقاومة ضعيفة. وبعد إنزال جيش الفرسان رتب في ثلاث فيالق في مقدمة كل منها ثلاث آليات حربية بقصد إبعاد العرب إذا جاءوا للمناوشة، وتقدم الجيش على ذلك الترتيب مقدار ربع فرسخ، وحل بين شعبين يشقهما جدولان، وهما في الحقيقة عميقان لا يتأتى اجتيازهما الا بنصب جسر فوقهما. وفي الصباح الباكر قام الأتراك ومسلمو البلد بغارة مفاجئة، وعندئذ أمرت كتيبتان يقودهما الدون البار دي ساندي ولويس بيريز دي فاركاس بإبعادهم، إذ كانوا يستطيعون مضايقة الجيش الذي كان عليه أن يتقدم راجلا عند المرور بممرات قدم الجبل في طريقه الى مدينة الجزائر. وصمد الأعداء حتى أعمل فيهم السيف فردّوا على أعقابهم، والجأوا الى أكمة في الجهة اليسرى، وتعقبهم الجيش المسيحي من هنالك الى جبل صغير مشرف على مدينة الجزائر به موقع(15) القلعة التي سبق ذكرها. وتابع الجيش سيره الى أن بلغ أسوار المدينة، ونزل الامبراطور في زاوية تدعى سيدي يعقوب، وجعل الجيش في ثلاث معسكرات على حسب الأمم الثلاث المشاركة فيه، فجعل الفرسان الاسبان في الموقع الأعلى قرب قلعة جبل القلعة، وجعل جيش الالمانيين قريبا منه فوق التلال، والايطاليين في السهل عند شاطىء البحر واصلا الى أبواب المدينة. وفي غده شن حاكم(16) الجزائر هجوما على محلة الايطاليين، ولم يلق سوى مقاومة ضعيفة لأن الجنود جمدت أوصالهم بتأثير البرد القارس، وكان بارود معظم بنادقهم قد تبلل بالماء، وفتائلهم قد انطفأت، وهكذا استطاع الأتراك التوغل الى وسط معسكر المسيحيين. وما لبث هؤلاء أن سووا صفوفهم وردوا الهاجمين على أعقابهم، ثم طردوهم الى أن بلغوا أبواب المدينة وقيل إنهم كانوا سيدخلونها متدافعين لولا أنها أغلقت دونهم، ولذلك انسحبوا في غير ترتيب هاربين من نيران الأسوار. وقد برز فرسان مالطا في تلك المناسبة، إذ استطاعوا أن يتقدموا بألويتهم الى أن وصلوا أبواب المدينة، بل إن أحدهم تمكن من غرس مديته في إحدى تلك الأبواب، وبعد ذلك رجعوا في

15) القائد بورش
16) حسان أغا

انتظام وتتابع، وبعد ان ظهروا بشجاعتهم وقمصانهم بلونها الأحمر القاني وصلبان بيض، ارتد عليهم الجنود الأتراك الذين كانوا متنحين على مسافة قليلة من المدينة فطاردوهم بشجاعة وقتلوا صاحب اللواء وعددا قليلا من الفرسان، وكانت همة الجنود المسيحيين في نقصان بسبب الإعصار الذي بدأ في منتصف الليل والعواصف الهوجاء التي كانت تقوى ساعة بعد ساعة، وقام الامبراطور بإرسال ثلاث فرق من جيش الالمانيين لكي تساعد الآخرين على الانسحاب، ولكن كثرة مياه الأمطار والأوحال أذهلت الجنود مما اضطر الامبراطور الى الذهاب اليهم بنفسه، فأجبر الأعداء على التراجع مرة ثانية. وبينما كانت تلك الحوادث جارية في السهل قريبا من البحر وأمام أبواب مدينة الجزائر كانت الأمواج القوية تهز السفن هزا فتقطع حبالهافيرتطم بعضها ببعض فتهوي الى قعر البحر غارقة على مرأى من الجيش بكامله. ولم ينج جيش إسبانيا هو أيضا من تلك الزوبعة، وحتى الذين تعلوا رأس أبولون فإن كل سفنهم جنحت واصطدمت بالشاطىء، فما لبثت جنباته أن امتلأت بسفن محطمة صارت جثثا هامدة. وما أن رأى العرب تلك الكارثة حتى تجاروا إلى الساحل وأخذوا يقتلون بلا شفقة كل من حاول الفرار من جنود النصارى. فقد تحطمت في ذلك اليوم مائة وأربعون سفينة شراعية أما القاليرات فقد بقيت طيلة الليل ثابتة في أنجارها، ولكنها في الصباح لم تعد قادرة على الصمود فجنحت إلى الشاطيء أملا في نجاة من كانوا على ظهرها، ولكن العرب لم يتركوا لهم فرصة لجمع أمرهم، بل فاجأوهم في حال من الذهول والفوضى لم تعرفها جيوش الامبراطور من قبل، فالأقوات التي وقع إنزالها إلى البر استهلكت في ثلاثة أيام، وفرغت من الزاد أيدي الجنود فصاروا يقاسون ويلات البرد والجوع في فضاء عار لم تكن فيه خيام ولا أخصاص يتقون بها. وقد أظهر الامبراطور في هذا الموقف الرهيب شجاعة لا تقهر، يتفقد الاحوال متنقلا من جهة إلى جهة ومعه دوق ألبة ودوق سيس وماركي دي لفالي واللدون فيرناندي كونزاك وغيرهم من السادة والصناديد وهو يستنهض همم الجنود ويقضي لهم الحاجات، وقد أمر بأن يسحب حطام السفن إلى جهة رأس إيمي نتفوست ويقتل الخيل، وكان هو أول من قتل فرسه. وفي اليوم الرابع، وكان يوم جمعة، نهض من محلته ومضى بجيشه في ثلاثة فيالق متوجها إلى رأس إيمي نتفوست. ووصلوا في نفس اليوم إلى نهر(17) يبعد عن الجزائر بفرسخين واقع جهة الشرق. وكانت مياه النهر مرتفعة يتعذر

17) واد الحراش أو غفساية

قطعها مخاضة أو مشيا أو ركوبا على فرس، فتعين والحال تلك النزول بالجيش في مكان واقع بين البحر والنهر على شكل مثلث كان الفرسان يحمون قمته من هجوم الاتراك والعرب وزواوة الذين لم ينفكوا يناوشون مؤخرة الجيش المسيحي. وتأتى لهم في النهاية إقامة جسر على النهر بواسطة حطام السفن، وجاز عليه الجنود الالمانيون والايطاليون، أما الاسبانيون فقد حاذوا النهر وساروا في عكس اتجاه جريانه حتى عثروا على مخاضة لا تتعدى مياهها الركبة فجازوا من هنالك. أما الامبراطور وبمعيته دوقات من ألبه ومن سيس وماركي دي لفالي والدون فيرناندي كونزك وآخرون من الشجعان المرموقين فقد جاز عند مصب النهر بين سدين تكونا باصطفاف عدد من الفرسان الملكيين الاسبان بلغت مياه النهر آباطهم. وبعد أن تم مرور الجنود إلى الضفة الأخرى تراجع عنهم الأعداء إلا ما كان من العرب الذين تعقبوهم وقتلوا بعض المرضى في مؤخرة الجيش. وفي غد ذلك اليوم، وكان يوم السبت، اجتازت الجيوش نهرا (18) آخر عميقا كثير الوحل حتى إن الجنود والخيل كانت تهلك فيه قبل أن يتمكن أحد من إنجادها، فترتب عن ذلك إقامة جسر من الزوارق والسواري جاز فوقه المشاة. وعلى تلك الحال وصلت الجيوش إلى إيمي نتفوست حيث كان في انتظارها أندريادوريا ومعه ما بقي من الأسطول، وسكنوا في خرائب تلك المدينة لعلهم يتقون ما يتوجسونه من غارات العرب. والتمس ماركي دي لفالي من الامبراطور أن يأذن له في أن يعود إلى الهجوم على الجزائر واثقا من أنه سيتمكن منها باستعمال الجيش وما بقي على ظهر السفن من الاقوات. ولكن مجلس المشاورين اعترض على ذلك الطلب لعدة أسباب، ثم رحل الامبراطور ومن معه بعد أن عقد العزم على العودة في العام المقبل، وكان جيش الايطاليين أول من ركب البحر، ثم تبعهم الالمانيون فالاسبانيون، واتجه الجميع دون توان إلى بجاية، وكانت في ذلك العهد متعلقة بالامبراطور. واستطاع مينلوزا في ذلك اليوم أن ينقذ جميع القاليرات ويرسو بها في مرسى الاخصاص لأن الزوبعة أدركته قبل أن يتجاوز الرأس المعروف بنفس الاسم، وكان في ذلك خير للجيش الذي تمكن من ركوبها. وعندما وصل الامبراطور إلى مايوركا أرسل أندريادوريا وفيرناندي كونزاك إلى إيطاليا وأمرهما باقامة الاستعداد للقيام بحملة في ربيع السنة المقبلة، وبعد ذلك واصل طريقه إلى قرطاجنة.

18) واد الحامز

الفصل الثاني والأربعون
ساسا [19]

مدينة ترى أنقاضها بين مدينة الجزائر وبين تمانتفوست على ساحل البحر المتوسط. كان عدد سكانها في القديم يزيد عن ثلاثة آلاف. تقع على ضفة أحد الأنهار [20] ويحكي بعضهم أن الافارقة القدماء أسسوها قبل تأسيس الجزائر. وبعد ذلك خربها قوم مزغان، وكان لون بشرتهم مائلا إلى السمرة، وكانت أحياؤهم العظمى بأرض ليبيا، وجاءوا منها إلى هذه الجهات فأدركوا مجدا وسيادة قبل مجيء الرومان، وهم بربر يتكلمون لغة مزغان وهي لغة مختلفة عن لغات الآخرين، والمدينة التي نتكلم عنها خالية اليوم، وقد ورد في الكتب تأكيد بأنها أقدم من مدينة الجزائر وأن الجزائر إنما بنيت بأنقاضها.

الفصل الثالث والأربعون
تمانتفوست

مدينة قديمة بناها الرومان على الساحل شرقي المدينة السابقة، لها مرسى جيلة ترسو بها سفن الجزائر لأن الساحل معرض للرياح الهوجاء وما فيه من الخلجان الكبيرة على درجة كبيرة من الخطورة. يسمى الأفارقة هذه المدينة تمانتفوس، وقد جعلها بطليموس عند ثماني عشرة درجة وثلاثين دقيقة طولا ثنتين وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة عرضا، وإسمها عنده روسطون. كانت مزدهرة في عهد الرومان فدمرها القوط، واتسعت مدينة الجزائر بما حمل منها من الانقاض. وفي هذه الجهة نهر(21) يصب في البحر من جهة الشرق، وعلى مقربة منه مدينة تدعى بني عبد الله نسبة إلى قوم يسكنونها، وكانت تسمى قديما باسم سيسلي، وبها ما يزيد عن خمسمائة من الدور، منها ما هو بناء متصل ومنها ما هو منقسم إلى أحياء، وكلها عديمة القيمة.

19) تيباسو قديما.
20) واد الحراش
21) واد يسر

الفصـــل الرابـع والأربعــون

تـدلــس (22)

آخر مدينة في إقليم الجزائر من جهة الشرق. بناها السكان الأصليون على ساحل البحر المتوسط على بعد عشرة فراسخ من مدينة الجزائر. جعلها بطليموس عند اثنتين وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وخمسين دقيقة عرضا. تحيط بها أسوار جيدة، ودورها رديئة، سكانها ما بين صباغ وصياد، ولكثير منهم ولع بالعزف على العود أو القيتارة. وبهذه الجهة أراض واسعة يجود بها القمح وتكثر الماشية. يلقي البحر إلى ساحلها أسماكا كثيرة، فيلتقط السكان منها كفايتهم، ثم يعيدون ما فاض عن حاجتهم إلى البحر إذا لم يتقدم أحد لشرائه. وفي المدينة ما يزيد عن ألف كانون وحصن يسكنه الحاكم المعين من قبل حاكم الجزائر التي تعد هذه المدينة من ولايتها.

الفصـــل الخامـــس والأربعــون

• المهديــة

مدينة عتيقة بناها الرومان في بسيط أفيح فوق جبل عال على بعد خمسة عشر فرسخا من مدينة الجزائر جهة الجنوب في عمق البلاد. كانت في القديمة مكتظة بالسكان، ثم خربها أحد الخلفاء المنشقين (الفاطميين)، ثم بنى بها قلعة سميت باسمه ومنها تسمية مدينة المهدية : أما إسمها القديم فهو ألفرا. وهي اليوم عامرة بما يزيد عن ألفين من السكان. وهي من أعظم القلاع التي بأيدي الأتراك في هذا الاقليم. ومن عادة صاحب الجزائر أن يعين بها حاكما على رأس حامية مكونة من ثمانمائة جندي من الأتراك يقومون بحماية تلك الجهات من عيث قبائل الأعراب، وتحيط بالمدينة أسوار قديمة جيدة وتحيط بها غابات من أشجار البلوط تمتد على مسافات بعيدة. ويوجد بجهاتها عدد من القرى سكانها من البربر ومن زواوة، وهم شجعان أقوياء الاجسام، تغلب عليهم الخشونة. يجمعون حصيلة وافرة من القمح والشعير وكثيرا من ثمار البلوط والتين، وبعد تجفيفها تحمل للبيع في عدد من الجهات. كانت هذه المدينة في القديم مستعمرة رومانية كما تشهد على ذلك

(22) أدبير قديما

كثير من الوجائد القديمة والنقوش التي يعثر عليها في تلك الأنقاض، وبها فسقية من المرمر نقشت عليها هذه الحروف:

D.D.L.S.V

الفصل السادس والأربعون
المدية

مدينة كبيرة عتيقة جدا بناها سكان البلدان الأصليون في سهل خصيب على حدود جيتوليا على بعد خمسين فرسخا من مدينة الجزائر وعلى ستين فرسخا شرقي تلمسان.

وكان ملوك تلمسان يحرصون على تبعيتها لهم وإن وقعت خارج ولايتهم لأنها ممرهم إلى نوميديا. أرضها كثيرة الحدائق والبساتين ومنابع المياه، غنية، يجود بها الزرع وتكثر الماشية. أهلها متميزون بلطف المعاملة، لهم دور أنيقة ومسجد رائق البناء. ولما ضعف ملوك تلمسان ذاقوا الأمرين من غارات الجيتوليين والعرب وأهل نوميديا، إذ كان يتعذر إنجادهم من تلمسان ما لم يتوفر الجيش العظيم نظرا لبعدهم عنها ومجاورتهم لأولئك الأعداء، وكان أمراء تلمسان في عهد عزهم يتخذون بهذه المدينة حامية تشن الغارات وتدافع عن المدينة، وبذلك ظل جيرانها مساكين، جانحين للطاعة. ولما قل إنجادهم مال أهل المدية إلى أمراء مدينة تنس الذين يستطيعون انجادهم عند الاقتضاء بسبب قربهم منهم، فعلى تلك الحال وجدها عروج وفتحها. ومنذ ذلك الفتح وهي تابعة لأتراك الجزائر، وحاميتهم لا تغادرها. ويحتلون إضافة إليها مدنا أخرى في هذه الجهات وفي نوميديا وجيتوليا، وسنعرض لذكرها عند وصف هذه الأقاليم.

الفصل السابع والأربعون
مدينة كوكو وجبلها

توجد عند حدود سهول الجزائر التي تسمى بسهول متيجة، من جهات الجنوب والشرق سلسلة جبال يسكنها أقوام من البربر وزواوة لا يفترون عن الحرب،

قلما دانوا بالطاعة لأمير أو أدوا مغرما لأحد، أغنياء بزروعهم ومواشيهم وبما يملكون من الخيل المعدة للقتال. يتقاتلون فيها بينهم على الدوام، ولهم أسواق حرة للتجارة يتبادلون فيها مبيعاتهم في أمان تام. ومن بين هذه الجبال المتصلة كلها بالأطلس الكبير جبل يدعى جبل كوكو نسبة إلى مدينة واقعة فيه، أما إسمه الخاص فهو أيوك لانداس، وهو جبال عال شديد الوعورة يبعد عن مدينة الجزائر بمسافة ثمانية عشر فرسخا، بين الشرق والجنوب، ويبعد عن بجاية بخمسة عشر فرسخا من جهة الشرق وبأربعة فراسخ عن جبل صاحب لا بث، ولا يفصل بينهما سوى واد بجاية. وبهذه المدينة أزيد من ست عشرة مائة من السكان. موقعها حصين يحيط به جبل وعر، ولها سور في الجهة التي فيها الجبل المذكور. وبها منابع ماء وأجنة تحتوي على مختلف الثمار، وتغل زيتا كثيرا. وفي السهول التي بأسفل الجبل يحصد قمح كثير، وفي الأرض التي بأعالي الجبال يأتي الشعير بوفرة، وفي هذه الجهات مختلف أنواع المواشي وكثير من أجباح النحل التي تعطي العسل. وأهل البلد أغنياء بكل ما ذكرنا، وهم بالاضافة إلى ذلك يصنعون أجود المنسوجات ببلاد البربر، وفي مختلف جهات الجبل دور عالية كبيرة يتعذر الوصول إليها بسبب وعورة الجبل، فالمسلك إليه وحيد غير متعدد، وقد يدفع عنه جيش كامل بمجرد رمية بالحجارة، وفي السفح الذي ينظر إلى الجنوب بلدة(23) يقدر سكانها بخمسمائة كانون، وهم عدة أحياء تقام عندهم سوق كبيرة كل يوم جمعة. وسكان هذه الاحياء فروع من نسب واحد، لكل بيت حيه ولكل حي رئيس مطاع، ومنذ وقت قريب سمى(24) أحدهم نفسه أميركوكو. وهو من بيت عريق من سلالة صاحب (25) الجزائر الذي قتله باربروس. ولذلك فهو يكن عداء للأتراك كما هو الشأن بالنسبة لغيره من سكان هذه الجبال الذين لم يكفوا عن قتالهم إلى أن تزوج باربروس من إحدى بنات هذا الامير كما سيذكر عند وصف جبل بني عباس. ثم إن صاحب كوكو يستطيع أن يتحرك إلى القتال بخمسة آلاف من المشاة حملة البنادق وألف وخمسمائة من الفرسان،دون، ذكر عدد آخر من المشاة يحملون مختلف الأسلحة المحلية، وكلهم من الشجعان المتمرسين بالحرب، وهم يلبسون ثيابا رثة إلا إذا خرجوا إلى الحرب فهم يلبسون ثيابا من الصوف والكتان ويتجهزون على قدر المستطاع. ويوجد من بين هؤلاء البربر عدد ممن يحسنون صناعة البارود حيث

23) جمعة الصهريج

24) ابن القاضي

25) سليم بن سومي

تتوفر جهاتهم على معادن ملح البارود. ويأتيهم التجار بالكبريت من فرنسا. كما تتوفر عندهم معادن الحديد، وفيهم صناع مهرة يجيدون صنع السيوف والخناجر والرماح، ولكنهم لا يتوفرون على الفولاذ حالهم في ذلك كحال غيرهم من سكان بلاد البربر، وإنما يستعيضون عنه بالحديد، يجعلونه على هيئة قضبان طوال يضعونها في قدور من طين أو غدران أو يسقونها بالغطس في الماء والرمال والاعشاب، ثم يعيدون إنضاجها فتكون لها صلابة الحديد، ومع ذلك فهو أقل جودة من الذي يجلب إليهم من أوربا، واليهود في هذا الجبل قلة، يعاملهم السكان معاملة سيئة ويكنون لهم العداء. وقد صار لصاحب كوكو نفوذ وقوة بعد أن عقد الصلح مع الأتراك، حتى إنه أعانهم في قتال صاحب جبل لابث سيما وأن جباله أعظم وأكثر سكانا وخصبا من جبال هذا الأخير. وقد اشتهرت مدينة كوكو في عهد هذا الأمير، وبها قصوره الكبرى. وفي هذا الجبل عدد من إناث القرود تعيش على ما تلتقطه في الغابة. وليست بهذه الجهة عمارة غير هذه تستحق الذكر.

الفصل الثامن والأربعون

إقليم بجاية من مملكة تلمسان

هذا آخر إقليم في موريطانيا القيصرية من جهة الشرق يحده من الغرب إقليم الجزائر حيث موقع مدينة تنس ومن الشرق إقليم إفريقيا جهة مدينة القل ويحده من الشمال البحر المتوسط وتحده من الجنوب نوميديا أو جيتوليا. جعل بعضهم هذا الاقليم معدودا في مملكة تونس، ولكنه عند حيرة الكتاب معدود في مملكة تلمسان وهي موريطانية القيصرية، وهم متبعون في هذا الرأي لبطليموس. والواقع أن هذا الاقليم كان تابعا مدة من الزمن لمملكة تونس عندما استطاع أحد(26) أمرائها فرض الاتاوة على تلمسان، وكان عند رجوعه قد ترك أحد (27) أبنائه أميرا على بجاية، وقد كان ترك ثلاثة (28) أبناء، تولى أكبرهم سنا إمارة تونس ودام عليها أربعين عاما. وترك لابنه الثاني إمارة الزاب في نوميديا أو جيتوليا، ولكنه انتفض ضد أخيه الاخير بعد وفاة أبيه وانتزع منه عدة مدن، وساعده على ذلك أهل نوميديا

26) أبو فارس

27) عبد العزيز

28) عثمان وعمر وعبد العزيز

والعرب، ولكنه انهزم آخر الأمر فوقع في أسر أخيه، وخيره بين الموت أو العمى، فاختار العمى، ونفذه في نفسه بدخول صهريج به نحاس حار، وعاش طويلا على تلك الحال. وبعد ذلك أعطى الأمير عثمان لأخيه الثالث وهو عبد العزيز مملكة بجاية. وملكتها بعده سلالته إلى أن استولى عليها الدون بيدري بابار. وهذا هو السبب في تسمية هذا الاقليم بـ «مملكة» ولذلك ألحقت بمملكة تونس. ليس في هذه الجهات سوى جبال وعرة تنبع منها الجداول والانهار، وفيها عديد من مساكن زواوة والبربر الاشداء الممتلئين عزة ونبلا، وهم أغنياء بمختلف أنواع الماشية، وفيهم عدد من المحاربين حملة البنادق، ومن الفرسان. وجبالهم موحشة صعبة المساكن. لذلك فمعظم سكانها قبائل طليقة لا تقيم وزنا لسطوة الملوك. وتسكن السهول جماعات من العرب ومن زواوة، عيشهم على نمط واحد هو نمط النجعة، وإذا رحلوا سكنوا في الخيام. وهم متصفون بالشجاعة، بأيديهم كثير من أسلحة النار، وإن كان جلهم من صناع الأقمشة والفرشات والزرابي على الطراز المغربي الاندلسي. يعيشون على دقيق الشعير واللحم والتين والجوز، وهم يجففون ما يحتاجونه من هذه المأكولات لسنة كاملة. وفي أرضهم عدد من مكامن الحديد الذي يصنعون منه في بعض محلاتهم قطعا صغيرة يستعملونها نقودا يتعاملون بها، وإن كانوا يستعملون أيضا نقودا من الذهب والفضة. وفي أرضهم كميات من الكتان والقنب يصنعون منها ثيابهم. نساؤهم حسناوات يغار عليهن الرجال غيرة شديدة. أما لرجال فهم أقوياء الاجسام نشيطون ولكنهم غير متعودين على النظام، لا يكفون عن التقاتل فيما بينهم، وهم يغلون كميات وافرة من القمح التي تنبتها سهولهم. وسنعرض لذكر صفات أخرى من صفات بلادهم عندما نفرد الجبال بوصف خاص، أما الآن فلنقتصر على ذكر المدن.

الفصل التاسع والأربعون

مدينة بجاية، عاصمة هذا الاقليم

مدينة عظيمة كانت في عهد إزدهارها تحتوي أكثر من عشرين ألفا من الدور العامرة. بناها الرومان على سفح جبل كبير ينظر إلى البحر، على بعد ثلاثين ميلا شرقي الجزائر وعلى بعد اثنى عشر فرسخا من جيجل في الجهة الاخرى على عرض دنسى أودنيي. وقد جعلها بطليموس عند اثنتين وعشرين درجة طولا وعند

اثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا. كانت محصنة بأسوار عالية عندما دخلها الخليفة الشيعي صاحب(29) القيروان وأخضعها ودمر بعضها. وقد عاد إليها العمران بعد ذلك دون أن تبلغ مقدار ازدهارها السابق. وهي مبنية على تلال تمتد فوقها إلى أن تبلغ أعلى الجبل حيث يوجد حصن حصين وقصور على النمط الموريسكي ليس لها من المنعة قدر مالها من الرونق والجمال. ويوجد في الجهة الموالية للبحر حصن آخر له ثلاثة بروج. ودور المدينة جيدة البناء. وبها عدد من المساجد وعدد من المدارس العتيقة تدرس بها العلوم. وتحيط بها البساتين ولا سيما من جهة الشرق، وتوجد على مسافة منها غابات متكاثفة الاشجار بها كثير من الاسود والقرود. ولا تأتي أرض هذه الجهات بقمح كثير، ومع ذلك فالسكان في سعة من عيشهم بفضل ما لهم من التجارة مع أوربا. كان عبد العزيز أمير بجاية لينا يلقي المودة إلى جميع الناس، ولذلك عاش أهلها في السلم المديد إلى أن دفعهم الطمع في الاثراء إلى تجهيز سفن حربية صغيرة للقيام بالقرصنة في سواحل البلاد المسيحية، فأدى ذلك إلى قيام الملك فيرديناند بالرد على ما يقومون به من الافساد، فأرسل الدون بيدري نافار فاستولى على مدينتهم وأخذها على نحو ما سنذكره.

خبر استيلاء الدون بيدري نابارو على بجاية

في عام ألف وخمسمائة وعشرة أبحر الكونت بيدري نابارو في اتجاه بجاية ومعه أربع عشرة سفينة كبيرة محملة بالجنود ولم يشعر به أحد ولا استعد له في مدينة بجاية. لذلك فوجيء أهلها بهجومه ففروا إلى الجبال، ولم يثبت سكانها، وعددهم ثمانية آلاف، للدفاع عنها. وكانوا يتصورون أن الدون بيدري لن يلبث أن ينسحب بعد نهب المدينة، إلا أنه لم يفعل، بل إنه قام ببناء حصن على الشاطىء في مكان به فرضة جيدة وجعل حامية بالحصن القديم الذي كان بشاطيء البحر. وقد جاء بيدري بخمسة عشر ألف مقاتل استعملهم في تحصين المدينة. وكان يفكر في استعمالهم في فتوح جديدة. وحدث أن اميرا مسلما من أهل البلد، وهو قريب من الأمير الذي خرج فارا من المدينة، قد جاء مسالما يريد مقابلة

29) القائم

الكونت، وصادف مجيئه يوم عيد الفصح، وقد سبق لهذا الأمير أن استولى على بجاية وتأمر عليها غصبا، وقصة ذلك أن الأمير القائم بالمدينة وهو من أقاربه تركه ذات مرة ينوب عنه وهو متغيب في جمع إتاوات بعض القرى المتمردة، فصار مؤيدا من سكان المدينة على حساب ذلك المتغيب، وعندما عاد تقبض عليه وأعماه على الطريقة التي وصفناها من قبل، وأودعه السجن وظل فيه إلى أن جاء الكونت النصراني. ولما فر جميع من في المدينة فك بعضهم قيد هذا السجين ففر في جملة أهلها، ولكنه عاد بعد أيام قليلة ومعه ثمانية أو عشرة من الفرسان ومثل ذلك العدد من الراجلين واستصحب معه صديقا له من أبناء الشيوخ عمره ثمان عشرة سنة. جاء هذا المستجير إلى المدينة حاملا لواء أبيض، ولقي من الكونت قبولا حسنا، ولما عرف قصته وأن عينه لم تسمل، وضعه بين أيدي الجراحين المختصين بالاسطول ففتحوا لحم جفنيه الملتصقين بفعل حرارة النار فاستعاد بصره، وعرفانا منه بهذا الجميل البين أخبر بمكان نسيبه الأمير الذي تخلى عن المدينة وخبر ذكر من فر معه من السكان ذاكرا أنهم يوجدون في مخابىء بين الجبال، ثم عرض على الكونت معونته ليكون دليلا للجيش اذا قر العزم على مباغتتهم. وبادر الكونت وهو في غاية الابتهاج، بارسال اثنين من رجاله ومعهما اثنان من المسلمين القادمين عليه قصد التعرف على المكان الذي يوجد فيه الفارون. وفعلوا ما أمروا، وأخبروا بأن مكانهم لا يبعد إلا بسبعة فراسخ والطريق إليهم مروج شاسعة بين الجبال وقفوا عليها وتيقنوا من إمكان السير فيها. وعلى إثر ذلك خرج الكونت ليلا بخمس عشرة مائة من الجنود، يصحبه الأمير المستجير ومن كان معه من الاتباع، وفي بداية الصباح وصل إلى تلك المروج دون أن يعترض طريقة أحد، وقد رأى العساكر الذين هم(30) في مقدمة الجيش أشجارا فحسبوها خيام العرب فأعطوا إشارة الانذار للمعسكر، لكن الكونت تبين خطأهم، فصرخ مبتهلا وجرى بكل قوة فرسه قاصدا مكان الخيام على بعد نصف فرسخ من ذلك المكان. وكان المسلمون قد رأوا الانذار وبدأوا في الفرار، وطاردهم المسيحيون داخل الجبال وتمكنوا من القبض على عدد منهم ومن قتل آخرين، وبعد أن جمع المسيحيون المواشي وغيرهما من الغنائم أشعلوا النار في تلك المخلة، وكان ما أخذوه تسعمائة من الجمال ومثلها من البقر وعددا من الخيل والبغال والغنم والمعز وقدرا كبيرا من الذهب والفضة ولباس الحرير ومجموع جهاز الملك وأحجاره الكريمة، وعاد الكونت بتلك الغنائم في

30) الكولونيل ديگو دي بيرا وسامانييگو

هيئة مرتبة حيث لم يلحق به ضرر من المسلمين مع أنهم لم يكفوا عن مناوشته من كل الجهات، بل إنه تمكن من قتل عدد منهم، ولم يفقد سوى جندي واحد وقع له أن خرج من صفه. ولما اقترب من المدينة وجد في استقباله القس الجديد مع جميع أعضاء هيئته ينشدون صلاة : أنت الرب. وأقيمت المسرات، ولم يحل دون ذلك ما نال الجنود من التعب لأنهم تجشموا مشقة اجتياز نهرين عميقين كانت مياه أحدهما (31) تبلغ ارتفاعا عظيما بسبب ذوبان الثلوج في ذلك الابان، كما أنهم ذاقوا الامرين من كثرة اشواك العوسج وغيرها في جنبات السهل الذي كانت به محلة المسلمين. وقد أقر من أسروا من المسلمين بأنهم كانوا يظنون أن تلك العوائق كافية لصد المسيحيين حتى لا يصلوا إليهم. ومنذ تلك الواقعة لم يفتأ المسلمون يناوشون النصارى حيث يصلون إلى بجاية وينصبون الكمائن، فسقط فيها قتلى وجرحى من الطرفين دون أن يحدث شيء يستحق الذكر. وفي تلك الاثناء ظهر الطاعون في المدينة واشتد وباله حتى كان يموت في بعض الايام مائة رجل. فما كان من الكونت الا أن أسرع بمغادرة المدينة قاصدا غزو طرابلس، وكان ذلك مطمحه الاكبر، وكان باربروس قد غزاها بعد الاستيلاء على بجاية وحاصرها بألف من الفرسان الاتراك وعشرين ألفا من أهل الجبال، وبعد اقتحام أحد الحصنين هاجم الحصن الآخر، وفي ذلك الهجوم أصابته ضربة مدفع بترت دراعه، واضطر إلى الانسحاب بعد أن هلك من جنوده مائة من صناديد الاتراك وأزيد من ألف من أهل البلد المسلمين. ومن ثمة توجه إلى جيجل، ثم سار إلى غزو مدينة الجزائر فاستولى عليها وقتل صاحبها سليما التركي.

كيف استولى الأتراك على بجاية

بقيت بجاية تحت حكم ملوك قشتالة مدة خمس وثلاثين سنة وكانت لهم بها حامية من خمسمائة جندي في ثلاث قلاع ينطلقون منها للقيام بغارات في الجهات المجاورة، ثم يعودون بأسرى يسترقونهم وبقطعان من الماشية، إلا أن هذه الغارات لم تكن ممكنة إلا في حالات نادرة لأن للقبائل التي تسكن تلك الجهات دربة على القتال لا يكف رجالها عن الطواف بتلك الجهات مسلحين بالبنادق. ولما كان عام ألف وخمسمائة وخمسة وخمسين جاء صالح رايس الذي كان حاكما على مدينة الجزائر يحاصر بجاية من جهة البر بأربعين ألفا من المقاتلين كان من

31) الواد الكبير

بينهم عشرة آلاف من الفرسان المسلحين بالبنادق والقذافات، ومن جهة البحر باثنتين وعشرين من السفن الحربية الصغيرة والقاليرات. وبعد أن اقتحم الحصن الامبراطوري الذي غادره الاسبانيون لتعذر الدفاع عنه، حاصر حصن البحر ولم يكن بداخله سوى أربعين من الجنود، وبعد أن رماه بالضربات المتوالية مدة خمسة أيام تمكن من أخذه عنوة. وبعد ذلك قام بحصار الحصن الاعظم وقد لاذبه اللدون ألفونس دي بيرالتي مع من بقي من الجنود، وبعد ضربه مدة اثنين وعشرين يوما تعذر الصمود على من بداخله فصالح عليه الحاكم المسيحي أملا في إنقاذ حياة النساء والاطفال واستسلم بعد أن اخذ العهد باخلاء سبيله هو وجميع من كانوا معه بداخل الحصن، وبتمكينه من سفن يجوز بها إلى اسبانيا. ولكن التركي لم يوف بوعده، بل إنه استرق جميع من كانوا بالحصن ما عدا اللدون الفونس وعشرين من الاشخاص وقع عليهم اختياره. ولما عاد اللدون الفونس إلى إسبانيا سجنه الامبراطور شارلكانت هو والذين نصحوه بالاستسلام، وقد صدر عليه الحكم وقطع رأسه أمام الملأ في ساحة مدينة بلد الوليد. ومنذ ذلك العهد ومدينة بجاية تحت حكم الاتراك، وقد جددوا تحصينها وجعلوا بها حاكما وحامية كافية. في شرقي هذه المدينة يمر(32) نهر صغير يرتفع مستوى مياهه بشكل غير عادي إبان ذوبان الثلوج، وموقعه عند اثنتين وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا واسمه نزاوا عند بطليموس ونابار عند بلين. وفيه كثير من الاسماك، وقلما يبالي بها الصيادون لكثرة الاسماك على الساحل. لما كانت المدينة تحت حكم المسيحيين لم تكن السفن تدخل إلى هذا الوادي بسبب الرمال المعترضة عند مدخله. ومنذ أن أخذها صالح رايس سقطت الامطار بمقادير كبيرة حتى إنها حملت تلك الرمال إلى البحر وصارت تدخل الوادي سفن كبيرة وقاليرات وقوادس وتتمكن بذلك من اتقاء العواصف الهوجاء ولا تنالها بداخل الوادي غير رياح الشمال، وهذا النهر يمر بين جبال كوكو في الشمال وجبال بني عباس من الجنوب.

الفصل الخمسون

مدينة جيجل

تقع على بعد اثني عشر فرسخا من بجاية. بناها الأفارقة الأقدمون على ساحل البحر المتوسط على مرتفع عند مدخل خليج نوميديا. كانت تسمى جلجيل ويسميها بعضهم جيجل، ويسميها آخرون جيرجي، ويجعلون موقعها عند

32) الواد الكبير أو سينكان

أربع وعشرين درجة من خطوط الطول وعند إحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض. ولها موقع ممتاز بيد أن كل تحصينها أسوار قديمة. أهلها طيبون. غالبيتهم من الصناع الذين يسكنون دورا رديئة البناء. والجهات المحيطة بمدينة جيجل شديدة الجفاف الا ما يسقى بالجداول. ويأتي بها الشعير والكتان والقنب، وما عدا ذلك فأرض خصيبة. وعلى جنبات السواقي وعيون المياه أجنة بها أشجار التين والجوز تجفف ثمارها وتحمل قصد البيع من أماكن على امتداد الساحل إلى غاية مدينة تنس. وبها ما يزيد عن ستمائة من السكان. لم يخضعوا لملوك تونس وبجاية،وهم الآن يقدمون خدمات جليلة لباربروس، ولذلك فإن أتراك الجزائر يعاملونهم بالحسنى. وفي هذا الخليج نهر يدعى سوس يمارق، مصبه في البحر شرقي جيجل ومنبعه من جبال متصلة بالأطلس الكبير، ومنها يتحدر الى سهول جافة وخصبة، ثم يمر بجهات قسنطينة وقريبا منها يصب فيه رافده نهر بومرزوك، ثم يجري متجها الى الشمال مخترقا بعض الجبال قبل أن يصب في البحر بين مدينة جيجل ومدينة القل، وهو الحد بين موريطانية القيصرية وبين افريقيا الصغرى. وإسم هذا النهر عند بطليموس أمساو ويجعل موقعه عند ست وعشرين درجة في خطوط الطول وعند إحدى وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة على خطوط العرض.

الفصل الواحد والخمسون

مسيلة

مدينة عتيقة في طرف نوميديا. تحيط بها أسوار جيدة عتيقة من بناء الرومان. كانت هذه المدينة في قديم عهدها غنية زاهرة، ولكن العرب خربوها عند بداية عهدهم وعمرها بعد ذلك سكان فقراء، لا يتخلصون من ذل أعراب تلك الجهات وعسفهم، يغصبون زروعهم ومواشيهم ويتركونهم على حال من البؤس الشديد. وهي اليوم تحت حكم الأتراك، بنى بها صالح رايس قلعة بها حامية مكونة من بعض الفرسان يحرسونها. وتحيط بها جبال بني عباس وتبعد عن مجانة بعشرة فراسخ. وقد سلمها حسان باشا الى صاحب بني عباس وسلم له معها ثلاثة مدافع كان صالح رايس قد تركها عندما جاء من يوم توكور. ومنذئذ أمر حسان بنقل هذه المدافع الى حصن مدينة القلعة حيث ما يزالون الى الآن، وبين هاتين المدينتين خمسة عشر فرسخا. فالقلعة تقع بين الجنوب والشرق وكانت تسمى في الماضي : ميري، وقد جعلها بطليموس عند ست وعشرين درجة وخمسين دقيقة طولا وإحدى وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضا.

الفصل الثاني والخمسون

مجانة

مدينة عتيقة على أربعة فراسخ من جبل بني عباس جهة الجنوب. يظهر أن بناءها كان على يد الرومان، فهي محاطة بأسوار قديمة وبها عدد من السقايات. ويحيط بها بسيط يكثر به القمح ولكنه معرض لغارات عرب أشداء يعرفون بأولاد سليمان يعيثون فيها فسادا ويضايقون أهلها مضايقة شديدة. عندما دخل أتباع محمد الى إفريقيا خربوا هذه المدينة لأنها قاومتهم بمن كان فيها من جنود الحامية الرومانية: وقد ساد عليها من حكم المسلمين في تلك الجهات. أما الذين عادوا لتعميرها فقد دخلوا تبعية هؤلاء الأسياد يؤدون الجزية لحكام تلك الجبال. ومنذ استيلاء الأتراك على مملكة تلمسان ومدينة مجانة تقاسي الأمرين سواء من غارات الأتراك وغارات العرب أو من عسف أهل جبل بني عياس. وفي الأخير، وبعد انهزام الاسبانيين في مزغران، أمر حسان باشا(33) بأن يسخدم السجناء في حصن ترك به عددا من الجنود لحراسة هذه المدينة وسكانها وحمايتهم من غارات صاحب جبل بني عباس الذي كان حينذاك على جانب من العتو والقوة. ومع ذلك فقد جاء هذا الأمير فهاجم المدينة ودورها ورجع بستة مدافع كان الترك قد غنموها من الإسبان. ويجعل بطليوس موقع هذه المدينة عند سبع عشرة درجة وثلاثين دقية طولا وعند ثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا، واسمها عنده لار.

الفصل الثالث والخمسون

تستاسة

مدينة عتيقة بناها الرومان في سهل خصيب بين جبل بني عباس وبجاية، وتبعد عن بجاية بعشرين فرسخا من جهة الجنوب وتحيط بها أسوار عالية من الحجر، وكانت في القديم على درجة كبيرة من الغنى والعمران بفضل التجارة، ولكنها انحطت كثيرا منذ استولى عليها أتباع محمد، فقد اعملوا فيها يد النهب

33) في عام 1559

والتدمير وسادوا على جهاتها الى حد الآن. وسكان هذه المدينة اليوم على حال مزرية من الفقر يعاملهم الأتراك بعنف وقساوة. وتستاسة واقعة على الطريق من مدينة فاس الى مدينة تونس. وتشهد بقايا جدرانها على ما عرفته من مجد سالف.

الفصل الرابع والخمسون

زمـورة

مدينة شهيرة بمجدها القديم، بناها الرمان قريبا من مجانة. عدد سكانها ألفان، متفرقون الى أحياء مختلفة. وتوجد على مقربة منها ساقية عظيمة تجري من جهة المشرق. وفي جهة الجنوب يوجد حصن بناه منذ عهد قريب حاكم(34) الجزائر، وهذه المدينة أكثر بلاد البربر حنطة وماشية، تقام بها سوق أسبوعية يوم الاثنين يقصدها العرب والبربر من سكان تلك الجهات لتصريف بضائعهم، وموقع هذه المدينة عند بطليموس سبع عشرة درجة في خطوط الطول وسبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة من خطوط العرض. ويسميها أزما.

الفصل الخامس والخمسون

نـقـاوس

مدينة عتيقة جدا تحيط بها أسوار عالية من الحجر، بناها الرومان على بعد عشرين فرسخا من تستاسة من جهة الجنوب، يمر على مقربة منها نهر تغطي جوانبه أجنة وبساتين كثيرة أشجار الثمار، منها أشجار الجوز والتين المعتبرة ثمارها بأحجامها وجمال منظرها. وثمار هذه الجهات أحسن ما في افريقيا، تجفف وتحمل قصد البيع الى قسنطينة التي تبعد عن هذه الجهة بما يزيد عن خمسين فرسخا بين جهة المشرق وجهة الشمال. ويحيط بالمدينة بسيط تجود فيه الحنطة، مما جعل أهل تلك الجهات أغنياء مياسير، يتوادون بحسب عوائدهم. وفي داخل المدينة مسجد متقن البناء يعمره عدد كبير من الفقهاء، وبجواره مدينة يتم فيها تعليم الشبان مختلف العلوم وديانة محمد، ومن بين طلبتها عدد ممن تجري عليهم منح من واردات المدرسة. ونساء هذه المدينة يتميزن بشدة بياض بشرتهن وسواد شعرهن. ورجالها معروفون بحسن المعشر ومجاملة الغرباء. وفي المدينة عدد من الحمامات والدور فيها رائقة، وإن كان عدد منها لا يتوفر على سقف إضافي، وتتزين دور كثيرة بسقايات

34) حسان باشا

وحدائق بها ياسمين وورد وقرنفل وآس ورند وغير ذلك من الأزهار، كما تنبت بها كروم معترشات وأشجار البرتقال والليمون وغيرها من أشجار هذا الصنف، وهذا يجعل منها واحدة من أجمل مدن بلاد البربر لولا أن الترك الذين يعتبرون طغاة مستبدين أكثر مما هم سادة مالكون قد أثقلوا كاهل سكانها بالضرائب وأخضعوهم لمعاملة الظلم والعدوان. وليس بهذه الجهة مدن أخرى تستحق أن نذكرها. فمدينة نقاوس آخر مدن المملكة من جهة المشرق. وقد كانت تسمى في القديم واجا، وقد جعل بطليموس موقعها عند ثماني عشرة درجة طولا واحدى وثلاثين درجة عرضا بزيادة أربعين دقيقة.

الفصل السادس والخمسون

جبل بني جبير

تمتد جبال اقليم بجاية على الساحل مسافة خمسين فرسخا ولا يزيد عرضها عن عشرة فراسخ أو اثنى عشر فرسخا في بعض الأحيان، وكلها متصلة بالأطلس الصغير. معمورة بقوم ميالين الى الحرب متمرسين بالقتال، وأعظم جبل في هذه السلسلة معروف بجبل بني جبير، ويبعد عن بجاية بثمانية فراسخ، عرضه عشرة فراسخ وطوله يزيد عن هذا القدر. وهو جبل عال وعر تنبع منه عدة أنهار تنبت في جنباتها أشجار الجوز والتين. وفي أعالي الجبال يأتي كثير من الشعير وترعى أعداد من قطعان الماشية. ويمر نهر بجاية من سفح هذا الجبل، وسكانه زواوة من الذين ينقشون وشم الصلبان في أيديهم، وهم قوم متميزون بالإقدام، ولكن تبلغ بهم الشراسة الى حد التقاتل لأتفه الأسباب. وجبالهم الوعرة مانعة لمن يريدهم بعسف أو ضرر، فلا تجدهم يدينون بالطاعة لغير رئيس يتفقون على تقديمه. وفي هؤلاء البربر كثير من الفرسان الذين يتقنون القتال ببنادق البارود، وهم لا يعلفون الا عددا قليلا من الخيل لأن أرضهم محجرة قليلة الخصب، وما عندهم منها أجود الخيل. وخصامهم كثير مع قبائل بني عباس وغيرهم من زواوة المنتجعين كالأعراب. ولهم قتال مع الأتراك، وتجدهم يستجيبون لذلك كله بما لهم من كتائب الحرب المدججة بالسلاح، معتزين بما في طريق جبلهم من صعوبة مانعة لمن يريدهم بسوء. حاولت حامية بجاية يوم كانت هذه المدينة بأيدي المسيحيين

أن تطرق ديارهم، ولكنها لم تكن تتعدى الساحل والبسيط المجاور حيث توجد بعض القرى المتيسر نهبها. وكانت الحامية تشن غاراتها بسرعة خاطفة وتعود قبل أن يبلغ الخبر الى أهل الجبال، وكان هؤلاء قادرين على تعبئة خمسة آلاف من المقاتلين في مدة لا تزيد عن أربع ساعات. وقد اضطر المسيحيون في بعض الأحيان الى التعجيل بالانسحاب لأن أهل الجبل أدركوهم بأسرع مما كانوا يحسبون. وخلال تلك الجبال توجد قرى كثيرة ينسب هذا الموطن الى أهلها.

الفصل السابع والخمسون

جبل بني عباس

جبل عال وعر شديد الانحدار متصل بالأطلس الكبير يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من بجاية من جهة الغرب والجنوب، ويبعد عن مدينة كوكو بأربعة فراسخ. ينتج قليلا من الحنطة ولا زيت به على الاطلاق، وأشجار الثمار قليلة لا توجد الا على السفح الذي ينظر الى نهر بجاية، وبه كثير من نبات الأسل ومنه الاسم الذي يعرف به هذا النهر. وفي المكان المنيع منه توجد قلعة يسكن بها رئيس هؤلاء القوم. وهم ينتسبون الى زواوة الشرسين، وهم بربر اعتادوا العيش الطليق، لم يؤدوا منذ زمن بعيد ضريبة لسلطان أو أمير. وكان رئيسهم عام ألف وخمسمائة وخمسين هو عبد العزيز من بني عباس، وكان من أعظم المقاتلين الشجعان في افريقيا. وكان بينه وبين صاحب(35) كوكو عداء بسبب نفرة استحكمت بين القبيلتين منذ عهد قديم. وقد عرف عبد العزيز أن الأتراك لا يحبون أهل كوكو منذ مات سليم في قتالهم ولذلك تقرب منهم وعقد المودة مع حسان باشا(36) حاكم الجزائر حتى إن الأتراك تمكنوا بمساعدة بني عباس من تحقيق أمور عظيمة ولاسيما في تلك المعركة التي توفي فيها مولاي عبد القادر ابن الشريف عندما استولى على تلمسان. فقد سار عبد العزيز وجنوده في جيش الأتراك الذي كان يقوده القرصان حسان، وكان محجما عن مناجزة الأشراف، واستنكف عبد العزيز من تردده فخاطبه غاضبا : أيها السيد حسان! أبهذا تشكر الأمير على ما يعطيه اليك من أجر جزيل لكونك قد ابتعدت عن الجزائر حيث اعتدت أن تختال في كسوة من

35) ابن القاضي

36) ابن خير الدين بربروس.

الديباج المحلى بالذهب ؟ ولما تبين له أن ذلك العتاب لا يؤثر فيه بتاتا حرض رجاله وهاجم الشريف وهزمه وقتل ولد الشريف بيده وحز رأسه وعاد به الى الجزائر حيث دفن تحت قبة عند باب[37] من أبواب المدينة : وبذلك تمكن الأتراك من امتلاك تلمسان الى يومنا هذا. ومع ذلك فقد نشأت عن هذا النصر حزازات بين حسان باشا وبين عبد العزيز. وبينما الأمر كذلك ذهب حسان باشا الى تركيا وجاء صالح رايس في مكانه وعرف ما لعبد العزيز من قيمة فوثق التحالف معه، وقد اشتركا معا في حرب توقرت ووارگلا وهما من مدن نوميديا الثائرة. فقد كان في معسكر صلاح رايس ثلاثة آلاف من الجنود المشاة المجهزين بالبنادق ما بين تركي ومسيحي مرتد، وألف من الفرسان وثمانية آلاف من العرب. وكان بنو عباس مائة وثمانين من المشاة الحاملين للبنادق وست عشرة مائة من الفرسان. وقد استصحبوا معهم ثلاثة من المدافع وكثيرا من المؤمن والذخائر المحمولة على الجمال. وعندما وصلوا الى توقرت وتيقنوا من امتناع أهلها عن الاستسلام ضربوها بالمدافع واقتحموها عنوة واستباحوها للنهب وقتلوا جميع من كان فيها. أما وارگلا فقد استسلمت. وعادالأتراك الى الجزائر محملين بالغنائم بعد ان تركوا حاميات في حصون هاتين المدينتين العتيقتين اللتين لا تستطيعان الدفاع بوسائلهما الخاصة. وقد رجع صالح رايس بخمسة عشر جملا محملا بالتبر وبأكثر من خمسة آلاف من العبيد السود ذكورا واناثا. أما سكان وارگلا فعددهم مقدر بستة آلاف. وقد دخلت هاتان المدينتان تحت حماية للأتراك دفعا لضرر الأعراب، وكانتا تدفعان للأتراك إتاوة سنوية برسم الولاء، ولكنهما انتفضتا بسبب المعاملة القاسية ظنا من السكان أن الأتراك لا يستطيعون التوغل في داخل البلاد بقصد غزوهم، والحق أنهم ما كانوا يجرؤون على القيام بتلك الحملة لولا معونة قبائل بني عباس. وقد جوزي هؤوء على خدماتهم بما يجازى به من يقدمون خدمات للحكام الطغاة. فقد عاد القرصان حسان الى مدينة الجزائر وكان معه بها في غياب صالح رايس بعض العرب من أتباع الترك، وقد كتب حسان باشا الى صلاح رايس يخبره بأن صاحب جبل بني عباس يضمر العصيان وإثارة البلاد وأنه تلقى الخبر بذلك من العرب الموالين للأتراك. وكان سيد بني عباس ذات يوم مع صالح رايس في محلته، وهنالك أسر اليه بعضهم أن التدبير جار للقبض عليه، فما كان الا ان فر على متن فرس متجها الى جبالة، وبدأ هنالك في اقامة الحواجز والتحصينات، ثم أعلن الحرب على

37) يدعى باب عزوز

الأتراك. وعندما علم بذلك صالح رايس أخذ في الاستعداد والاحتياط مخافة أن يؤودي انتفاض هؤلاء الافارقة المشهورين بقدراتهم القتالية الى ثورة عارمة في جميع اللاد. وفي بداية فصل الشتاء تحرك الى مكان يقع في سفح جبل بوني، وجرت بين الفريقين معارك مات فيها سيدي فضال أخو عبد العزيز، ولكن سقوط ثلوج كثيرة منع الأتراك من نصر أعظم من ذلك الذي تأتى لهم. وبعد انسحابهم فكر صاحب جبل بني عباس في تحصين الطرق وفي إعادة يناء قلعة بني عباس، وكان ينطلق منها باستمرار للاغارة على الموالين للأتراك. وعظمت بذلك شهرته، فخطبت وده بعض القبائل المجاورة لما أنست منه من قدرة على مقاومة الأتراك، فأرسل عليه صالح رايس جيشا قوامه ألف من المقاتلين بالبنادق من الأتراك وخمسمائة من الفرسان ومعهم ستة آلاف من فرسان العرب، وكان على رأس هذا الجيش ابنه محمد باي. وكان قصده مهاجمة قلعة بني عباس، ولذلك عسكر في بوني التي تبعد عنها بما يزيد قليلا عن فرسخ واحد. وأراد صاحب الجبل استدراجه حتى يتمكن من احتوائه، وعلم التركي بذلك الأمر المبيت فانسحب ليلا الى السهل، فخرج اليه صاحب الجبل والتحم الجيشان في قتال مات فيه عدد من جنود الطرفين. ولولا نجدة العرب لحاقت بالأتراك هزيمة منكرة، ولانسحبوا بعد ضياع سمعتهم وعدد من رجالهم. وبينما كانت تجري تلك الحوادث وصل الى الجزائر مولاي أبو حسون صاحب حجرة بادس وطلب من صالح رايس أن يعيده الى عرش فاس مقابل أداء أجر العساكر. فاستجيب لطلبه، وخرج معه من الجزائر أربعة آلاف من مشاة الأتراك. وترك جيشا آخر يستعد لمقاتلة صاحب جبل بني عباس قوامه أربعمائة من المشاة ومائة وخمسون من الفرسان وألفان وخمسمائة من العرب يقودهم سنان رايس وهو قرصان نصراني أسلم، من أصل كورسيكي ومعه قبطان من أصل إغريقي يدعي رابدون. وكان الأتراك قد علموا أن أقواما في تلك الجهات يؤدون ضرائب لصاحب جبل بني عباس، فخرجوا اليهم عن طريق مسيلة بقصد دفع الغارة عن هذه الامارة. وقام الافريقي من جهته بجمع عساكره، ولقي الأتراك عند ضفة أحد الأنهار(38) فهزمهم، ولم يعط أمانا لأحد، بل قتل الجميع ولم ينج سوى رئيسين فرا بأقصى ما يمكن من السرعة حتى وصلا الى مسيلة. أما العرب فقد أمسك الافريقي عن قتلهم بل اكتفى بتجريدهم من متاعهم. وفي تلك الاثناء رجع صالح رايس الى الجزائر بعد أن أرجع أبا حسون الى العرش، فبادر

38) حمان أو همان

الى تجهيز الحملة على بجاية. ولما رأى صاحب جبل بني عباس النصر الذي أحرزه التركي تخوف من قوته فجمع ما استطاع من الرجال وتحصن في جباله توقعا لطلب الأتراك، وحدث أن مات صالح رايس في تلك الاثناء، وتبددت مخاوف صاحب الجبل بعد أن تولى حسان باشا خلفا له وكانت بين الرجلين صداقة قديمة، لذلك بادر صاحب الجبل بأن بعث اليه هدايا ثمينة سعيا الى تجديد الصداقة التي كانت بينهما. ولكنه لم يجرؤ على القدوم الى الجزائر. ودام الوفاق بين الرجلين عاما كاملا رد فيه التركي جميل صاحب الجبل وأعطاه جباية مسيلة وثلاثة من المدافع كان صالح رايس قد خلفها في تلك المدينة. وما أن تملكها الجبلي حتى بادر الى جمع أكثر من ستة آلاف من عرب القبائل المجاورة يريد بهم استخلاص الجبايات من أماكن تابعة للأتراك، وغضب التركي لذلك الفعل وخرج لحرب الجبلي في ثلاثة آلاف من الأتراك ليس فيهم من الفرسان الا خمسمائة، وكان يتبعه عدد من العرب. وعسكر بمجانة(39) لبناء حصن بها لأن سكانها امتنعوا عن أداء الضريبة ما لم يترك فيهم حامية تدافع عنهم ضد صاحب قلعة بني عباس، وبنى لهم حصنا بالحجر والطوب، وقد تعجل الفراغ منه وترك به حامية من الأتراك قوامها مائتا رجل، ثم مضى الى بناء حصن أخر بزمور ومنه عاد الى الجزائر بعد أن فقد ثلاثمائة من الاتراك قتلهم سيد بني عباس في عدد من المناوشات. وترك مع العرب القرصان حسان وهو أخو الذي كان قتله غدرا الشريف محمد، وأمد بأربعمائة من الأتراك لحماية أراضي قبائل العرب. وما أن انصرف القائد التركي حتى نزل صاحب القلعة من الجبل وأباد في لقاء واحد أولئك الجنود الأتراك الأربعمائة بمن فيهم القائد الذي كان يتقدمهم، ودخل الباشا الى الجزائر مخبرا بهلاك رجاله. وفي نفس الوقت قام رجال الحامية الذين تركهم بمدينة مجانة بالتخلي عن التركي بعد أن بلغهم خبر تلك الهزيمة وانصرفوا الى مكان ما، وجاءها صاحب قلعة بني عباس وهدمها هدما وأخذ منها مدافع كان حسان باشا قد تركها هنالك في يوم هزيمة الكونت دا الكاوديت، واستمرت الحرب بين صاحب الجبل وبين الأتراك حتى توصلا الى هدنة بينهما، وخطب التركي ابنة صاحب الجبل يريد أن يصهر اليه بها وكانت ذات جمال فائق، ولم يوافقِ والدها على الزواج، وإثر ذلك تزوج التركي ابنة

*) أولاد مهدي وأولاد سليمان وأولاد سعدي

39) بمسيلة

40) ابن القاضي

صاحب كوكو(40) وهو العدو الألد لصاحب قلعة الجبل. وجمع هذان المتحالفان قواتهما وسارا بمحاذاة نهر بجاية في الاتجاه المعاكس لجريانه وأخذا يفسدان أراضي صاحب الجبل، وما لبث أن نزل اليهما وعسكر برجاله عند بداية السهل ومعه أربعة آلاف من المشاة المقاتلين بالقنابل وخمسة آلاف من الفرسان، وحل بموقع(41) من أرضه وأمر ببناء حصن وحفر خندق يقطع الطريق. وكان الباشا في جيش قوامه ثلاثة آلاف من مشاة الأتراك الحاملين للبنادق وخمسمائة من الفرسان ومعهم ثلاثة آلاف من الفرسان العرب، ووصلوا الى الحصن الذي بناه الجبلي ومعهم مدفعان، وبعد إحداث ثلمة في السور تصدر صاحب كوكو في حركة مقدامة وبيده اليسرى أعلام منشورة، فلما رأه الذين هم بداخل الحصن خشوا فل صفوفهم وانحاشوا لمحلة مجاورة يريدون الاعتصام بها، فما أمهلهم الأتراك لتحقيق مرادهم، بل ضيقوا عليهم الى أن أبعدوهم عن معسكرهم، ولما رأى صاحب الجبل ارتباك رجاله أمرهم أن يلتحقوا بالجبل حتى يستجمعوا قواتهم ويجمعوا صفوفهم، وآوى مع بعض رجاله الى أكمة صغيرة لاعتراض طريق أعدائه. وقاتل بنفسه قتالا شجاعا. وكان صاحب كوكو آنئذ بداخل الحصن، وظهر للباشا أن الأتراك قد توغلوا أكثر مما ينبغي لهم في داخل الجبل، وبعث من يحمل اليهم الأمر بالانطواء والرجوع لأن الكتائب الأخرى قد دخلت الى معسكرها ولا تستطيع إنجادهم ان اقتضى الحال. وما ان أناخوا بقصد الانسحاب حتى هجم زعيم بني عباس على مؤخرتهم وضيق عليهم حتى اضطر معظمهم الى التخلص من الأسلحة للهروب خفافا بأقصى ما يمكن من السرعة، وبعد أن قتل منهم ستين نفرا استطاع الرجوع الى حصنه ومحلته. وعندما أسدل الليل ستاره كان كل فريق قد انسحب الى جهته. وبعد ذلك توجه الباشا برجاله الى مكان من الجبل(42) به مدفن أولئك الشيوخ، وقاتل هنالك صاحب الجبل من الصباح الى وقت الزوال، واستطاع زعيم بني عباس أن ينتزع منهم أعلى الجبل، وقد ثبت الجبلي في القتال ولم يبق معه سوى كتيبتين وقليل من الفرسان، وصمد للاتراك وقدر على دفعهم غير ما مرة، وتقدم في النهاية يريد أن يثخن بحربته في صفوفهم فأصابوه وفرسه إصابات قاتلة ثم هجموا على رجاله قصد منعهم من أخذ جثمانه لكن الأتراك تمكنوا منه وحزوا

41) تسلي

42) ثلاثاء كوكو

رأسه. كان هذا الافريقي الشجاع متقلدا قوسين مصنوعين من المعدن أحدهما فوق الآخر وحربة وددعا ومدية، وكان يتمتع بكامل صحته، طافح الحبوية، قوي الجسم. وبعد مقتله تابع الأتراك تحقيق انتصارهم وصعدوا الجبل الى أن أرسل اليهم زواوة يعرضون عليهم أن يمكنوهم من مفاتيح قلعتهم بشروط، سعيا الى إيقافهم عن ذلك الزحف، وفي أثناء ذلك اتفق الجبليون على تقديم أخي الهالك زعيما(43) لهم، واستأنفوا القتال. ولما رأى الأتراك أنهم لم يحققوا شيئا بعد ثمانية أيام من المكوث في ذلك الجبل وأن قوتهم لا تجدي في درء الخطر عنهم حيث كانوا يفقدون كل يوم عددا من الجنود، أخذوا طريقهم في اتجاه الجزائر، وعادوا حاملين معهم رأس عدوهم المقتول. أما الشخص الذي تولى زعامة قبائل الجبل خلفا للهالك فهو الآن يجوب هذه الجهات طولا وعرضا يجبر الأعراب على الاذعان لسلطته ويجمع الاتاوات من قبائل هذا الجزء من الصحراء ولا يعبأ بالأتراك ولا بصاحب كوكو، بل إنه في حرب لا تنقطع مع هذا الأخير.

الفصل الأخير من هذا الكتاب

أوراس

جبل عال وعر على مسافة ثلاثين فرسخا من بجاية وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخا من قسنطينة في عمق البلاد. طوله ثلاثون فرسخا وهو غير متصل بالجبال الأخرى بالرغم من كونه جزءا من الأطلس الكبير. في جنوبه صحراء نوميديا وفي شماله إمارات مختلفة. سكانه متوحشون، لا يسعدهم غير قطع الطرق وقتل المارة. وفي أعلاه تجري مياه بعض الجداول وتنتهي الى سبخات تجففها الشمس ويترسب فيها الملح. والقوم الذين يسكنون هذا الجبل غيورون على حريتهم، لذلك تجدهم لا يطيقون أن يروا الأجانب في أرضهم حتى لا يعرف أحد ممراتهم وطرقهم، فهم لا يرضون بالخضوع لأحد، وهذا هو السبب في حروبهم المستمرة مع العرب الذين يسكنون الجهات المجاورة لهم. أما في هذا العهد، فقد عقدوا حلفا مع قبائل عربية يترأسها إسباني مرتد كان صاحب اللواء يوم ضاعت بجاية من المسيحيين. فقد انتزع إعجابهم بما أظهره من إستبسال في الدفاع ضد عدوهم، حتى كسب محبتهم وصاروا يعاملونه بمثابة أمير لهم. وقوام مقاتليهم ألفان من الفرسان وما يزيد عن ثلاثين ألفا من المشاة.

43) مقران

فهرس الموضوعات

الكتاب الثالث

مملكة مراكش

الكتاب الرابع

مملكة فاس

الكتاب الخامس

مملكة تلمسان

تمّ الطبع بمطابع المعارف الجديدة،

ثمن البيع 60،00 درهم

مطبعة المعارف الجديدة

الرباط 70-08 09 15 38 ☎